المفيد

خط البحيرة والعيد

تاليف

أباظة بن محمد إسماعيل

الجزء الثالث

كل المفصلات
المفيد
في خط الجماعة والعبد
٣
قائمة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الحديل، إبراهيم بن محمد
المفيد في خطبة الجمعة والعيد / الرياض، 1425 هـ.
582 ص؛ 17 x 24 سم، 4 مجلد
رقم : 6-4-4-967-9 (مجموعة)
9-6-4-4-967-9 (ج3)
1- خطبة الجمعة 2- الخطيب الدينية أ- العنوان.
دبو : 1425/9.7

إجمالي الحقوق المحفوظة
الطبعة الأولى
1426 هـ - 2005 م

للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية - الرياض
المكتبة - شارع الأحساء - غرب - حي條件 -javaw:4777899933 - 47785980 - فاكس: 47778730
المواضع والرقائق

105 - الرضى عن الله تعالى
106 - السبيل إلى الأمن
107 - السبيل إلى الأمن
108 - من فوائد الأمراض
109 - من فوائد الأمراض
110 - من فوائد الأمراض
111 - في مطلع العام
112 - القلب السليم
113 - شدة حزالدني من نارجتهم
114 - علو فروعه
الرضى عن الله تعالى (١)

1423/١٧/١١

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهدى الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

"يا أيها الذين آمنوا آتقو الله حق نفطائه ولا تموتون إلا وأنتم مسلمون" [آل عمران: ٢٠]، "يا أيها الناس آتقو الله الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجين وثبت منهما رجلا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به وال-Origin إن الله كان عليكم رقيبا" [النساء: ١]، "يا أيها الذين آمنوا آتقو الله وقولوا قولًا سيداً صلح لكم أعمالكم وغفر لكم ذنوبكم" و"الحبر: ٧٠، ٧١".

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدى هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بذرة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضالة في النار.

أيها الناس: خلق الله تعالى البشر، وفضل بعضهم على بعض في الرزق وفي العلم، وفي الرفعة والرئاسة، وفي الصحة والقوة، وفي غيرها، وفوات بينهم في المحن والابتلاعات، والمصائب والنكبات، والله فضل بعضكم على بعض في الرزق" [النحل: ٧١]، "وهُوَ الذي
الفريد في خطب الجمعة والعيد

جعلكم خلياف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليتلوكم في ما آتكم

[الانعام: 165].

والدنيا من جاه ومناصب وأموال وعافية. يعنيها الله تعالى بأن يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الذين إلا من أحب، كما جاء في الحديث (1)، وفي كتاب الله تعالى: كلاً تمد بهؤلاء وهؤلاء من غطاء ربك وما كان عطاء ربك ممّنوراً (2) انظر كيف فضلاً بعضهم عليهم بعض.

والأخيرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً [الإسراء: 20-21].

ولا أحد يحوز الدنيا بكل عافيته، ويحتاجها، على وجه لا يدخله كراك، فإن صفته له من وجه كدرتها ووجه أخرى. وهكذا؛ لأن الدنيا دار ابتلاء وليست دار نعيم، ولو كانت الدنيا تستقي لأحد من كل وجه لكان الأنياء والمسلمون أولى بها من غيرهم، ولو كانت كذلك لزاحت الأخيرة في نعيمها.

من أجل ذلك: كان الرضى عن الله تعالى فيما قسمه من أرزاق.

(1) جاء ذلك في حديث ابن مسعود رضي الله عنه عند أحمد (87/387)، والبيان (3562)، والبغوي (390/2)، والبيهقي في الشعب (524)، وضعف الشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند (372)، وأخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (477/247)، وإيبن إبديل في التمهيد (2/477)، وفي سنده الصباح بن محمد وهو ضعيف، وهو يرفع أحدى رواحته ورد هذا، والصحيح وقنه على ابن مسعود كما في العلل للدارقطني (271)، وأخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه موقوفاً على ابن مسعود (7/519) برقم (4340)، والطبراني في الكبير (899)، وجاء نحوه عن أسن بن مالك رضي الله عنه عند القضاعي في مسند الشهاب (8/18) بسنده ضعيف.
الرضى عن الله تعالى (١)

وما قدره من ابتداءات من النعم العظيمة التي يهبها من يشاء من عباده، فمن رضى بما قسم الله تعالى له من أرزاق وعافية، وما كتب عليه من ابتداءات ومحن كان سعيداً في الدنيا، وأجوراً في الآخرة إن كان من المؤمنين. ومن لم يرض لم يسعد في الدنيا ولو حاز مال قارون، وملك مالك ذي القرنين، وعوفي في نفسه وماله ولده، وكان في الآخرة من الهاكين؛ فمن رضى فله الرضى، ومن سخط فعليه السخط.


وبسبب سكون القلب لأحكام الله تعالى، ورضى صاحبه منزلته التي هو فيها: علمه بأن الخير يكون فيما يحب، وما لا يحب، وأن مصلحته لا يدلها عليه هو تلبسه، ومراضا نفسه بل قد تكون مصلحته فيما يكره، وهلاكه فيما يحب، فلخيرها خفية، والغيب لا يعلمه إلا الله تعالى، وآراء الأمور ليست بالضرورة على ما يبدو للفolk، وعسى

(٢) آخره ابن أبي الدنيا في الرضى (٢٢).
(٣) آخره أبو نعيم في الخليلة (١٠١/١٣١)، وابن أبي الدنيا في الرضى (٢٣).
(٤) نصرة النعيم (٦/٤١٠).
أن تكَّرَهُوهَا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرُ لَكُمْ وَغَيْرِيْ أَن تُحْبِبُوهَا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ
وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ [البقرة: ٢١٦].
وعلى هذا الأصل العظيم كانت نظرة سلوفنا الصالح لما يبلون به من الخير والشر، من السراء والضراء، من النعمة والنقمة. كما كانوا راضين عن الله تعالى في أرزاقهم ومنازلهم، قابلين لابتلائهم وامتحاناتهم، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "ما أبالي علي أي حال أصبحت، على ما أحب أو على ما أكره؛ لأنني لا أدري الخير فيما أحب أو فيما أكره".\(^{(5)}\)

كم من عبيد أراد أمرًا من الأمور، وتعلق قلبه بهذا الأمر، وسعى فيه سعيه، وأجهد فيه نفسه، وما ترك شيئاً يحققه له إلا عمله ولكن الله تعالى حجبه عنه، حتى ليس منه، وحزن عليه، ثم تبين له بعد أمّدٍ أن الشر كان فيما أراد، وأن الله تعالى قد أنعم عليه لما صرفه عنه. فالعبد بجهله قد يطلب ما يضره، فإذا بان له العاقبة اكتشف جهله، وفي هذا المعنى يقول ابن عمر رضي الله عنهما: "إن الرجل ليستخير الله تعالى، فيختار له، فيستخط على ربه، فلا يلبث أن ينظر في العاقبة فإذا هو قد خَيْرَ لَه".\(^{(6)}\)

وقد يريد العبد منزلةً من منازل الدنيا مالًا أو جاهًا أو ما سواه،

\(^{(5)}\) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٤٢٥)، وأبو نعيم في الحلية (٧/٢٧١)، وابن أبي الدنيا في الرضي (٣٠٠)، وفي الفرج بعد الشدة (١٣).\(^{(6)}\) أخرجه ابن المبارك في الزهد (١٢٨)، وابن أبي الدنيا في الرضى (٥٦).
ويسألُ الله تعالى تمكينه ما أراد، وهو لا يعلم أن مراده جسر يوصله إلى جهنة، فيرحمه الله عز وجل فيمنعه منه، ليصرف عنه العذاب في الآخرة، فلا يرضى عن اختيار ربه، وقد اختار له ما في نجاته، فما أكرم الله تعالى وما أحكمه على عباده جل في علائه، وما أجمل الإنسان!

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «إذا الرجل ليُشرف على الأمر في التجارة أو الإمارة حتى يرى أنه قد قدر عليه ذكره الله فوق سبع سماوات فقول للملك: اذهب فاصرف عن عبدي هذا، فإني إن أسره له أدخله جهنم، فيجيء الملك فيعوقه، فتصرف عنه، فيظل يتظاهر بجبرانه: إنه دهاني فلان، سبقني فلان، وما صرفه عنه إلا الله تعالى» رواه ابن المبارك.

إن العبد المؤمن إذا أدرك حقيقة الأقدار، وأيقن بأن السراء والضراء، والمحز والمحسن، والعطاء والمنع، كل ذلك من عند الله تعالى، وحسن ظنه بربه، فظن أنه لا يختار له إلا ما هو خير له؛ قاده ذلك إلى الشكر في السراء، والرضى في حال الضراء، والقبول بحالته التي هو عليها، ولم تطلع نفسها إلى أززاق الآخرين ومنازلهم ومناصبهم، فلا يحسدهم على ما أعطوا، وإذا استنصحوه نصح لهم، وإذا استشاروه أشار عليهم بما يراه خيرا لهم; لأن رضاه عن الله تعالى، وحسن ظنه به، وقبوله.

(7) أخرججه ابن المبارك في الزهد (129)، وأبو الندي في الرضى (211)، وجاء مرفوعًا من حديث ابن عباس رضي الله عنهما كما في الفتح لأبي نعيم (3/ 404-5)، ولا يصح مرفوعًا كما أفاد ذلك العراقي في تحرير الأحياى (504).
بما اختاره له؛ أورثه قليباً سليماً على إخوانه المسلمين.
وينبغي للرضا بالعبد مباغتاً يجعله يكره الله تعالى عند المصية،
وينظر إلى عظيم تدبيره وتقيده حال الابتلاء، فلا يشغله البلاء عن
معرفة الله تعالى، أو العلم بأمره وحكمته، وملاحظة حسن تدبيره في
خلقه، فيكره الله تعالى ويسحبه ويعظمه حال محنته وبلائه؛ كما فعل
أبو مسلم الخولاني رحمه الله تعالى حينما دخل على أبي الدرداء في
اليوم الذي قبض فيه - وكان عندهم في العز كأنفسهم - فجعل أبو
مسلم يكرر، فقال أبو الدرداء رضي الله عنه: «أجل فهكذا قولوا، فإن
الله تبارك وتعالى إذا قضى قضاءً أحب أن يُرضى به».
وقال أبو عمرو الكندي: «أغارت الروم على أهمميس بشير الطبري
نحواً من أربعمئة جاموس، قال: فاستركني، فركبت معه أنا وابن له،
قال: فلقينا عبده الذين كانوا مع الجواميس، قالوا: يا مولانا ذهب
الجواميس، فقال: وأنتن أيضاً فذوبوا معها، فأنتم أحرار لوجه الله
 تعالى، فقال له ابنه: يا أبتيه أفقرتنا! فقال: اسكت يا بني إن ربي عزً
وجل اختلفني فأحبت أن أزيده».
وليس من شرط الرضا أن لا يحسن العبد بألم المصائب والمكاره;
لأنا هذا على خلاف طبيعة البشر؛ بل يحصل الرضا بعدم اعتراضه

(8) أخرجه ابن أبي الدنيا في الرضي (6) وانظر: جامع العلوم والحكم (194/11).
(9) أخرجه أبو نعيم في الحلية (10/130)، وأبو الدنيا في الرضي (19/1),
وهو في صفة الصفوة (4/135).
الرضي عن الله تعالى (1)

على الحكم الإلهي أو تسخطه منه فيقبل باختيار الله تعالى له في الضراء كما قبل باختياره في السراء؛ حسن ظنه برره، وقيمته بأنه لا يختار له إلا ما هو خير له، وإن بدأ له في أول الأمر أنه أصيب بمصيبة، أو ابتلي ببلاء؛ ولهذا كانت ثروة الرضي: الفرح والسرور بالرب تبارك وتَعَالَى (1).

قال نافع: "اشتكى ابنُ عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، فاشتقت وجلست عليه حتى قال بعض القوم: لقد خشيتك على هذا الشيخ إن حدث بهذا الغلام حدث، فمات الغلام، فخرج ابن عمر في جنارته وما رجل أشد سرورًا منه، فقيل له في ذلك، فقال ابن عمر: إنما كان حزني رحمة له، فلمما وقع أمر الله رضيتي به" (1).

فمن نظر إلى علم الله تعالى، وزهق عن خلقه، ورحمته بهم، وإحسانه لهم؛ حسن ظنه برره؛ فظن أن الله تعالى لا يختار له إلا الخير، فرضي بما قسم الله تعالى له من رزق، بما أصابه من ابتلاء، فيكون مطمئن القلب، مستقر النفس، هنيئًا بعشت، فرحًا برره، مع ما ينال من عظيم الثواب على رضاه عن ربه تبارك وتعالى.

أوَّذَ بِاللهِ مِن الشِّيَاطِينِ الرِّجَيمِ: "مَا أَصَابَ مِنْ مَصِيبَةٍ إلَّاٰ بِأَذْنِ اللَّهِ وَمِنْ يَوْمِهِ يَهَدَى قَبْلَهُ إِلَّاٰ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٍ" (التوبة: 11)، فسَّرَ عَلَيْهِمُ}

(10) مدارج السالكين (2/ 174).
(11) أخرجه ابن أبي الدنيا في الرضي (77)، وهو في إحياء علوم الدين (4)
(12) 349
هذه الآية بالمصيبة تصيب الرجل فيعلم أنها من عند الله فيسلم لها ويرضى بها.

بارك الله لي وكم في القرآن العظيم،

الخطبة الثانية

الحمد لله حمدًا طيبًا كثيرًا مباركا فيه كما يحب ربي ورضي، أحمده وأشكره، وأتوب إليه واستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا مبعده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه، ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله وعسوا أن الله شديد العقاب، [البقرة: 196].

وأتقنوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب.

أيها المسلمون: ليس من لوازم الرضى أن يقدع العبد عن السعي فيما يصلحه، أو يعجز عن تحصيل مكاسبه، حتى يصبح عالًا على غيره؛ ولكن الرضى أن يسعى في منافعه، ويتقي الله تعالى فيما يأتي ويدر، فيما يأخذ ويترك، ويفرض أمره إلى الله تعالى، فإذا حصل مراده شكر الله تعالى، وإذا تخلف مراده رضي بما قسم الله تعالى له.

وليس من الرضى أن يتمنى العبد البلاء، أو يتعرض له، أو يسأل الله تعالى أن يبتله؛ إذ الأمر الشرعي يقضي بأن يسأل العبد ربه العافية.

(12) أخرجه الطبري في تفسيره (28/20)، وإين أبي الدنيا في الرضى (7)، وانظر: الدر المثير للسبيطي (6/227).
كما هي وصية النبي صلى الله عليه وسلم وفعله الذي داوم عليه

(13) وفي ذلك أحاديث كثيرة منها:
أ- حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يدعو هؤلاء الكلمات حين يصيح: «اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة، اللهم إني أسألك العفو والعافية في الدنيا ودنيا، وأهل وماري...»
الحديث: أخرجوه أبو داود في الأدب باب ما يقول إذا أصيح (504)، وابن ماجه في الدعاء باب ما يقول إذا أصيح وإذا أمسى (2871)، وصحبه ابن حبان (مرواردي 2356)، والحاكم ووقفه الذهبي (517/1 018).

ب- حديث أنس رضي الله عنه أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «يا رسول الله، أي الدعاء أفضل؟ قال: سل ربك العافية والعافية في الدنيا والآخرة...» الحديث: أخرجه الترمذي وحسنه في الدعوات باب (89) (1357)، وابن ماجه في الدعاء باب الفطر والغفران (2848).

ج- حديث أبي بكر رضي الله عنه أنما قام على المنبر ثم بكى، فقال: «قام رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر ثم بكى، فقال: سلوا الله العفو والعافية فإن أحداً لم يعط بعد اليقين خيراً من العافية» أخرجه الترمذي في الدعوات وحسنه (5053)، وابن ماجه في الدعاء (1321)، وصحبه ابن حبان.


وأنظر عليك الصلاة والسلام على ذلك الرجل الذي دعا على نفسه بتعجيل عقوبته في الدنيا قبل الآخرة فأصابته الأمارض فعده عليه الصلاة والسلام وقال: «أفعال قلت: اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ونقي عذاب النار» أخرجه مسلم في الذكر والدعاء باب كراهة الدعاء بتعجيل العقوبة في الدنيا (1688)، والترمذي في الدعوات (13).
لا يوجد نص يمكن قراءته بشكل طبيعي من الصورة المقدمة.
الرضى عن الله تعالى (17)

ومع تعظيم المصائب على المسلمين، واعتداء الكافرين والمنافقين على دينهم وتراثهم وأراضيهم ظهرت نابتة منافقة خبيثة تريد من المسلمين أن يسخروا على دينهم، وأن لا يرضوا عن ربه، بحجة أن البلاء الذي أصابهم كان بسبب دينهم، وزينوا للناس أن التحلي عن شريعة الإسلام، أو تبديلها بغيرها يستجب لرضى الغاضبين عليهم من أعداء الله تعالى، وهذا ابتلاء عظيم من الله تعالى، يحتاج فيه المسلمون إلى الرضى عن الله تعالى، والثبات على دينهم مهما مستهم البأساء والضراء وزلزلوا؛ حتى يأتيهم الفرح، وكتب لهم النصر. وإنهم سايروا الكافرين فيما أرادوا، وأطاعوا المناقفين فيما أشاروا؛ فقد أعلنوا عدم رضاهم عن الله تعالى وعن شريعته، واستبدلوه برضى الكافرين والمنافقين الذين لن يرضوا عليهم إلا بإسحاطهم لربهم؛ فتكون خسارتهم في الدنيا والآخرة، نسأل الله السلامة من ذلك.

فألفاتقوا الله ربيكم - أيها المسلمون - وارضوا عنه في حال الابتلاء، واشكروا على النعماء، وتمسكوا بشرعته التي قد رضيها لكم ديناً؛ فإن من رضي عن الله تعالى وعن دينه، وقبل أحكامه الكونية، والزمن أوامره الشرعية فهو المستحق لرضى الله تعالى، قال الله ﷺ: "فَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَتَى يَلْيَوْنَ الْأَصَادِقَيْنَ صُدُقَيْنَ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ حَالِدِينَ فِيهَا أَيْدَاهُمْ ضَرِيبُهَا َِّللهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" [المائدة: 119 - 120].

فأنا وصلوا وسلموا على نبيكم كما أمركم بذلك ربك،
السبيل إلى الأمن والرزق (١)

الجمعة ٦ /٧ /١٤٣٢ هـ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونوعذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهدى الله فلها مرضله، ومن يضل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله، ﴿يا أيها الذين آمنوا ان которوا الله حتى تقتاه ولا تموتون إلا والله سلمون﴾ [آل عمران : ٢٠] ﴿يا أيها الناس انفروا يا خليقكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ونت من همها رجالاً كثيراً ونساءً واتقووا الله الذي تساعلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقية﴾ [النساء : ١] ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقو الله وقولوا فولاً سنة ﴿يصلح لكم أعمالكم ويعفر لكم ذنوبكم ومن يطيع الله ورسوله فقد فاز فوراً غايماً﴾ [الإحزاب : ٦٧-٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الله هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعه، وكل بدعة ضلاله، وكل ضلاله في النار.

أيها الناس: بعث الله تعالى محمدًا صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق، وأنزل عليه القرآن هدي للناس وبينات من الهدى والفرقان، فما من شيء ينفع الناس، ويحقق مصالحهم إلا دلت عليه شريعة الله تعالى، وحذرتهم من كل ما يضرهم أو يسبب شقاءهم ﴿فأفرطنا في الكتاب من شيء﴾ [الأعلى : ٣٨]، ﴿ودنزل على الكتاب نبياناً لكل شيء﴾ ﴿وهدى ورحمة وبشرى للMuslimين﴾ [النحل : ٨٩].
السبيل إلى الأمن والرزق (1)

شريعة كاملة شاملة، اختارها رينا جل جلاله، ورضيها، وأمر الناس بالأخذ بها (يا أيها الناس أعبدوا ربكُم الذي خلقتموه والمدين من فِيلكم لَعَلَّكم تتقون) [البقرة: 21]، (إِنَّ الَّذينٍ عَدَدَ اللَّهُ الإِسْرَائِيلَ) [العمران: 19]، (وَمِن أَحَسِّن دَينًا فَنَّمَى أَسْلَمُ وجهه لله وهو محسن وأتبع ملة إبراهيم حنيفة واتخذ الله إبراهيم خليلا) [النساء: 125].

شريعة أنزلها وفرضها من يملك السموات والأرض، ويحي ويكيت، ويقدر الأرزاق والآجال والسعادة والشفقة وَّلله ما في السموات وما في الأرض وكان الله بكل شيء محيطا) [النساء: 126].

شريعة تحقق الأمن والطمأنينة في الدنيا والآخرة، فمن تسكن بها، ووقف عند حدودها؛ فله الأمن في الدنيا والآخرة، ولن يشقى أو يخف ولو اجتمع أهل الأرض كلهم على إخافته وشقاوته فلن يستطيعوا ذلك؛ لأن السعادة والشفقة، والأمن والخوف، محلها القلب، ومن يملك القلوب إلا الله تعالى (وَأَعْلَمَ وَأَنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنِ الصُّرْطِ وَقَلْبِه) [الأنفال: 24)، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحم يقلبها كيف يشاء")

وإذا أراد الله تعالى أمان شخص، وطمأنينة قلبه، وسكون نفسه، وراحة باله؛ فلن تستطيع أيّة قوة إخفائه أو زعزعته، ومهما كان أسيراً (1)

(1) جاء ذلك من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما عند مسلم في القدر باب تصريف الله تعالى القلوب. كيف شاء (2642)، وأحمد (2/168)، والحاكم حبان (2/49)، ومن حديث النواس بن سمعان عند أحمد (28/82) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (525/1).
النفع في خطب الجمعة والعيد

أو طريداً أو معدباً أو مشرداً فإنه يعيش في نعيم ما دام الله تعالى قد ربط على قلبه، وثبت نفسه، على حد قول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى لما سجن في القلعة: "ماذا يفعل بي أعدائي، إن جنتي في صدري أتي ذهبت فهي معي"؟.

وتأمل يا عبد الله عجيب تدبير الله عزّ وجلّ، وتأمّينه لعباده المؤمنين في مواطن الخوف وملاقاة العدو، كما في غزوة بدر، إذ يغشّيكم النعاس أمّة منّه [الأنفال: 11]، وفي غزوة أحد، ثم أنزل عليهكم من بعد الغمّ أمّة تعاوناً يغضّن طائفة منكم [آل عمران: 104]، كان أحدهم من شدة نعاسه يسقط سيفه من يده، ويّطأّر أصابعه على راحلته.

عجيب الله تدبير الله تعالى، إنه تدبير على خلاف حسابات البشر وظنينهم، فالمعارك تحتاج إلى البقعة والقوة. والنعاس عنوان الضعف والغفلة التي تسبب الفشل والهزيمة، ولكن الله تعالى بقدرته يجعل النعاس مصدر قوة؛ لأن فيه أمناً للقلب من الخوف، وراحة للإجساد من التعب، ولو كان ذلك النعاس على أرض المعركة، وفي أصعب الساعات، فسبحان الله العليم القدير.

في مقابل ذلك فإن الله تعالى إذا خذل عبداً، وسلب منه الأمن والطمأنينة، فلن يأمن ولو تخص بحصونه، وليس دروعه، وحرسه

(1) الوابل الصيب لابن القيم (٢٠).
(2) جاء ذلك في عدة أحاديث منها: حديث أبي طلحة رضي الله عنه قال: كنت فيمن تغشى النعاس يوم أحد حتى سقط سيفي من يدي مراً، يسقط وآخذ، ويسقط فأخذه أخرجه البخاري في المغازي (٢٨٤).
المنهج الكلي: كما لم يؤمن بثناء التضييق عندما حاصرهم النبي صلى الله عليه وسلم لم نقتضوا العهد مع المسلمين، وحاولوا قتل النبي صلى الله عليه وسلم، فتقصوا في حصونهم، وخرزوا مؤنثهم، وأغلقوا عليهم أبوابهم، وحرسوا قلعاهم، ولا خوف عليهم من جوع أو قلة أو نقص سلاح أو قوة عدو أو كثرته؛ مما يحتم عليهم عسكراً الثبات والقتال، ولا سيما أن من يحاصرهم هم أقل منهم سلاحاً وطعاماً، وقد لا يصدرون طويلاً في العراء والخشوع، ولكن الله تعالى سالط على يهود بني النضير رعباً اختاروا حصنهم من دون اقتحام، واستقر في قلوبهم بلا قتال؛ فنزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأجلاهم عن المدينة وهو الذي أخرج الذين كفروهم من أهل الكتاب من ديارهم لأجل الحشر ما ظننا أن يخرجوا وظننا أنهم ماتوهم حصنهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحضروا وقذف في قلوبهم الرغبة يخرجوهم بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولاً الأنصار 1 [الخمر: 2].

إن تحقيق الأمن على مستوى الأفراد والدول والأمم صار في هذا العصر هاجساً يفقه فيه البشر من الأموال أكثر مما يفقون على ماكتهم ومشاربهم ومراقبهم وعمرانهم وأي شيء آخر؛ إذ لا فائدة من أي شيء بلا أمن، ولا طعم لأي حلٍ في حالة الخوف.

ولن يتحقق الأمن للبشر إلا بالإيمان بالله تعالى، والالتزام الإسلام شريعة ومنهجاً، فمن حقق الإيمان فلن يخفف، ومن كفر بالله تعالى فلن يأمن، وكيف يأمن من أراد الله تعالى خوفه؟ وكيف يخفف من
أراد الله تعالى أمنه! وهذا ما قاله الخليل عليه السلام حينما أخفاه المشركون بأسنانهم وطرازيتهم قال: وإنكم أشتركون بالله ما لم ينزل به علنيكم سلطانًا فأي الفريقين أحق بالآمن إن كنتتم تعلمون الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أو أتَّكِ لهم الآمن وهم فهتدون (الأنعام: 81 - 82) ما كان آمنهم إلا لأن الله تعالى أراد أنهم بسبب إيمانهم وإخلاصهم.

وإذا تجمعت الحشود، وعظمت الخطوب، وتجبر الأقوياء، ودنت ساعة الخطر؛ لذا المؤمنون بحمي الله تعالى، فأمثِّلهم سبحانه وتعالى بإيامهم وحياتهم، وربط على قلوبهم، وثبت أقدامهم، وحفظهم من السوء والكروه الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاحشوا قرأوهُم إيمانًا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل (المائدة: 173) فأنقُلْوا بنعمة من الله وفضل لِم يمسِّهم سوء وأتبعوا رضوان الله وَاللَّهُ ذُو فضل غزْمِي (آل عمران: 172-174).

إن العالم المعاصر قد أسس بنيانه على ما يكون سبباً في الذعر والخوف، واستبعد ما يحقق الأمن والسلام؛ فهو عالم في أكثره أفرادًا ودولاً وأمياً - مؤسس على الإخاد والمادية، بعيد عن الإيمان بالله تعالى ومعرفة أوامره ونهويه، والتزام حدوده وحرماته، فأضحى أكثر أفراده يلهثون في الدنيا؛ لأنهم لا يرجون الآخرة، واستباحوا كل محرم من ربا وغش ونهب لتأمين هذه الدنيا التي لا يرجون غيرها، وصار عالمهم بين اثنين لا ثالث لهما؛ إما لص غني، يتاجر في المحرمات، وآكل
السحت والربا، ويلتهم بشركاته الفشاعلا صغار التجارة حتى يفقر الناس، ويسطر على الأسواق، وإنما فقيرو محتوق قد مص الأول دمه، وسحق عظمه، وشرد أسرته، ورمى به على قارة الطريق، بما حمله من أغلال الربا، وكيله باحتكار السلع، ثم يقوم هذا الطاغية المستكبر بشراء الدم بأمواله، وصباغة القوانين بجاهه وسلطانه، وتوجيه الإعلام للدعاية إلى أفكاره وآرائه؛ من أجل تنمية ماله، وجمع المزيد والمزيد حتى يضمن تربية على عرش المال والأعمال!! ثم ماذا بعد ذلك؟ وهل أممن من بلغ هذا العرش؟ كلاً، إنه لم يحقق الأمن، ولن يأمن ما دام يفقدُ الإيمان. أولئك يدفعون طالب الأموال للتأمين على حياته وعلى شركاته ومساكنه ومراكبه وكل شؤونه، فلو كان آمنًا ما احتاج إلى التأمين؛ ولكن الله عزّ وجلّ شاء أن يأتيه الخوف من مأمنه، فامتهن ما جمعه من أموال يضمن بها رفاهيته في الدنيا التي لا يرجم غيرها، ولكن هذه الأموال التي جمعها صارت مصدر رعب وخوف لا يعرف كيف يحافظ عليها من الضياع، ولو ضاع بعضها لربما ضاعت نفسه معها!!
ولأنه جمع ثرواته، وسن القوانين التي تخدمه بالطرق المحرمة؛ فإن ضحايا قوته وبطشه سيستقدمون منه، والمنافسون له سيطالعون إلى ما يملك، فاحتاج إلى أن يؤمن خوفه من الحاقدين عليه، والمنافسين له، ويؤمن على أمواله يدفع بعضها لضمان بقائها، فصار مصدر الأمن هو مصدر الخوف عند هؤلاء الملاحة المادي!! هكذا أصبح الحال عند أفرادهم وأمهم، والبلدان العربية ومن سار في فلكها المادي الإخادي.
لا تعدو ذلك.

أمام المؤمنون الصادقون فإنهم موظفون بأن الزواج هو الله تعالى، وأن رزقه ينال بطاعته وتقواه، وأن الحافظ هو الله تعالى فلا ي Федерации بسواه وَمَن يَتَّقِ الْلَّهُ يَجِلْ لَهُ مَخْرَجٌ َ وَيِزَارُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسبُ وَمِن يَتَوَكَّلُ عَلَى الْلَّهِ فَهُوَ الْحَسَبُ إِنَّ الْلَّهَ بَالْغُ أَمْرَهُ فَدَأْ جَعَلَ اللَّهُ لَكَلِّ شَيْءٍ قَدْرًا َ [الطلاق: 2-3]

فسأل الله تعالى أن يؤمن خوفنا، وأن يربط على قلوبنا، وأن يحسن خواصنا، وأن يهدينا صراطه المستقيم، وأقول قولي هذا وأستغفر الله لي وليكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركًا فيه كما يحب ربي ويرضى، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن اهتدي بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله ـ عباد الله ـ فمن حق التقوى أمن في الدنيا والآخرة َ وَيَنْجِي الْحَالَالِدِينَ أَنْ قَا بِمِفَارِقِهِمْ لَا يَمْسَهُمْ السُّوءُ وَلا هم مُحْزُونُونَ َ [الزمر: 61]

أيها المسلمون: لما كانت قيادة العالم بيد المسلمين كانت البشرية تنعم بالأمن والسلام، فلما تحولت القيادة إلى غيرهم انتشر الدعوة والحروف والظلم والبغي والعدوان؛ ذلك أن الإسلام من الاستسلام لله
 تعالى بالخلود والطاعة، والانقياد لشرعه وأمره، ومن استسلم لله تعالى سلمه الله من الخوف، وسلم الناس من ظلمه وغيشه؛ لأنه يعمل فيهم بحكم الإسلام الذي هو مصدر الأمن والسلام. والإيمان من الأمان، فأصبح عنه آمنون في الدنيا والآخرة، ويأمنهم غيرهم؛ ولذا صبح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده"(1). وفي الحديث الآخر: "المؤمن من أمة الناس على دمائهم وأموالهم"(2)، فمن دخل في الإسلام دخل في دائرة الأمن والأمان؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "من قال لا الله إلا الله وكرر بما يعبد من دون الله تعالى حرم دمه وماله وحسابه على الله"(1). ومن دخل من الكفار تحت حكم المسلمين بعد آمان أو ذمة نالتهم.

(4) آخراج البخاري في الإيمان باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده (100)، ومسلم في الإمام باب: بيان تفاضل الإسلام (40)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وجاء أيضاً من حديث جابر رضي الله عنه عند مسلم (40)، ومن حديث أبو موسى رضي الله عنه عند البخاري (11)، ومسلم (42)، ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند الترمذي (279)، والنسائي (8/4).

(5) آخراج من حديث أبي هريرة رضي الله عنه الترمذي في الإيمان باب (12) وقال: هذا حديث حسن صحيح (279)، والنسائي في الإيمان باب صفة المؤمن (8/4)، والحاكماً صحيحه وقال: على شرط مسلم، ووافقه الذهبي (1/10)، وصححه ابن حبان (180).

(6) آخراج مسلم في الإيمان باب الأمر بقتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله... (32)، وأحمد (6/395)، من حديث أبي مالك الأشجعي سعد بن طارق عن أبيه رضي الله عنه.
بركة الإسلام، فأيمن على نفسه وعرضه وماله وولده. وكل أمة أو طائفة تحقق الإسلام والإيمان فإن الأمن سيتحقق لها لا محالة؛ وذلك بموجب قول الله تعالى: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلكم وليكون لهم دينهم الذي أرضى لهم وليبدل أن لهم بعد خوفهم آمنًا يعبدونه لا يشركون وهم ضياء﴾ [النور: 55].

ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون. كما أن كل أمة أو طائفة تفقد الأمان، ولا تلتزم الإسلام شرعًا ومنهاجًا فلن تأمن أبداً مهما عملت من احترازات، ومهما ملكت من أسلحة وقوات؛ وذلك بموجب قول الله تعالى: ﴿وضرب الله مثلاً قرية كانت أمنة مطمئنة يأتيها رزقها رعدًا من كل مكان فكرفت بأنعم الله فأذاقتها الله ليأس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾ [النحل: 112].

فيا ليث شعري من يهدي جمهور البشرية التائب، الهائم على وجه يبحث عن الأمن والسلام، من يهديه إلى الإسلام؛ ليحظى بالأمن والسلا؟!

ماذا جرت سيادة المديين على العالم، وإلى أين ستوصله إنها جرّت البشرية إلى مكامن الخوف، ومواطن الرعب.

ظلت القوتان الشرقية والغربية رداً من الزمن، تتبنايان في ميادين التسلح، وتناولان في صنع الدمار؛ حتى صنعوا من أسلحة الدمار شامل ما يدمر الأرض عشرات المرات، ثم صار ما صنعوا وبالاً عليهم وعلى البشرية، ومصدر رعب وخوف في حفظه من أن يقع في يد من
السبيل إلى الأمن والرزق (١)

يستمده ولا يبال، وكما أنفقوا المليارات على صنعه باتوا ينفقون أضعافها على حفظ وحراسة ونزعه.

ثم ما ملكوا القوة ما سخرواها في خدمة البشرية، وبسط العدل فيما بينهم، والسعى في تحقيق الأمان والسلام لهم؛ بل عملوا على ابترزهم واستغلالهم، ومصادرة حقوقهم، وتكريس الظلم بإعانة الظالم على ظلمه؛ كما فعلوا ذلك في فلسطين وفي الشيشان وكشمير والبوسنة وكوسوفا وتيمور الشرقية وغيرها من بلدان مسلمة وغير مسلمة، ما رأت الأمن والسلام في ظل سيادتهم وحضارتهم؛ لأنهم يدورون مع المصالح حيث تدور، وكم من حرب أشعلوها من أجل مصلحتهم المادية أهلكت ألوفاً من البشر، وشردت ملايين! وكم من قرار صنعوه، وقانون وضعوه ليس فيه من العدل شيء إلا أنه يحقق مصالحهم، كيف يأمن البشر في ظل سيادتهم؟ وإذا لم يأمن غيرهم بسبب ظلمهم وعسفهم فلن يأمنوا، فيا ليتهم يعقلون.

أسأل الله تعالى أن يحفظ المسلمين بحفظه، وأن يؤمنهم بتأمته، وأن يربط على قلوبهم، ويثبت أقدامهم.

٧٤٩ رَبِّنَا لَا تَوَاعِدُنَا إِنْ تَسْتَيْنَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبِّنَا لَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمِلْتَ عَلَى الْكَافِرِينَ مِنَ الْأَخْيَارِ لَا تَحْمِلْنَا مَا لَأَطَأَتْهُ لَنَا وَلَا وَعَقَّ عَنَّا وَأَغْفِرْ لَنَا 

١٨٤٢ وَأَرْحَمْنَا أَنتَ مَوْلًا فَأَنْصَرْنَا عَلَى الْقُوَّمَ الْكَافِرِينَ [البقرة: ٢٨٦].

١٨٤١ سَبَحَانَ رَبِّكَ رَبُّ الْعَزَّةِ غَيْبًا يَصْفُونَ وَسَلَامًا عَلَى الْمُرْسَلِينَ 

١٨٢ [الصافات: ١٨٠ - ١٨٢].

١٨١ [الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ]
الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنتِنَا، ومن سيات أعمالنا، من يهدى الله فلا مضل لَهُ، ومن يضل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأنشأله، وأشهد أن محمد عبده ورسوله.

۱۴/۱/۱۴۲۴

يا أيتها الذين آمنوا أثَنْوا آثَنْوا الله حق نفقاته ولا تموتون إلا وأنتم مسلمون (العمران: ۲)، يا أيتها الناتِيُّاتِ أثَنْوا رَبَّكُمْ الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجاً وثنتهما رجلاً كثيراً ونساء واتّقوا الله الذي تساءل بني الأرْحَام إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُم رَبِّيْناً (النساء: ۱)، يا أيتها الذين آمنوا أثَنْوا الله وقولوا قولًا سديداً (صُلِّ لَكُمْ أَوْلَاءَ الْكَفَّارَةِ وَيَغْفِر لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ) وَمِنْ يُطِعَ اللَّهَ وَرُسُلَهُ فَيُقْدِرَ فَوْرًا غَفُورًا غَيْبًا (الازهار: ۷۰، ۷۱).

أما بعد: فإن خير الكلام كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها و وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلال، وكل ضلال في النار.

أيها الناس: بعد ما خلق الله آدم عليه السلام، وأسجده ملائكته، فسجدوُوا إلا إِبْلِيس لم يكن من الساقِدين (الأعراف: ۱۱) استكباراً على الله تعالى، واحتقارًا لم يخلق من طين أن يسجد له من خلق من نار؛ جرى التكليف على آدم وذريته، وسلط الشيطان وجنده على إغوائهم، وصدهم عن سبيل الله تعالى؛ فمن أطاع الله تعالى دخل
السبيل إلى الأمن والرِّزق (٢)

الجنة برحمته سبحانه، ومن سلك طريق إيليس وعصى الله تعالى
استحق النَّار (ولا يظلم زُكاك أحدًا) [الكهف: ٤٩].

لقد جعل الله تعالى الدنيا ميداناً لهذا الابتلاء، وجعل الآخرة
جزاءً عليه، فمن خاف الله تعالى فأطاعه، وعمل بشريعته كان له
الأمن الكامل، والرِّزق الدائم، والنعيم المقيم في الآخرة إن المتّقين
في جنات وعيون [الحجر: ٤٢-٤٦]، وفي الآية
الأخرى: يدعون فيها بكل فاكهة أمين [الدخان: ٥٥] آمنين من
فقدانها، وأمنين من الموت، وأمنين من كل ما يخاف منه، نسأل الله
تعالى أن يجعلنا منهم.

لقد جمع الله تعالى لهم بين الأمن والرِّزق، الأمن النام الشامل
والرِّزق المتتابع الذي لا ينقطع فيها ما تشتبه الأنفس وتلذ الأخُغِين وأئتم
فيها خالدون [الزخرف: ٧١].

إن قام حياة البشر، ومنتهى سعادتهم وفرحهم، وغاية مطلبهم
ومرادهم يرتكز على الأمن والرِّزق، وإن منتهى تعاستهم وشقاتهم يكمن
في انعدام الأمن وقيلة الرِّزق، ولذا جاءت الآيات القرآنية تكرس هذا
المفهوم في قلوب المكلفين، وتغرسه في أفهامهم، وتتعلمه على الطريق
التي يحصلون بها على الأمن والرِّزق الأبدى، الذي لا يعتبره خوف
ولا وجل ولا قللا ولا ذلة، وهي طريق الله تعالى التي بيتها الرسول،
وأنزلت بها الكِتَاب، وابتلي من أجلها المكلفون: توحيد الله تعالى
وعبادته، فمن حق ذلك من المكلفين توفتهم الملائكة طيبين يقولون

كما جاءت الآيات القرآنية تذكيرهم من سلوك طريق الخوف والجوع، وهي الطريق التي يدعونهم إليها الشيطان، وطيب لهم أن من سلكها فلن يأمنهم مهما عمل وسيخالد في الجحيم والخوف والحزن والعذاب وألذين كفروا وكذبا بآياتنا أو لاذ أصحاب النار خالدين فيها وبنس المصير [التغابن: 10] ونادوا يا مالك ليقفع علينا رتب قال إنكم ما كونو [الزخرف: 77].

وكما أن النعيم في الجنة يرتكز على الأمن والرزق، والعذاب في الآخرة يكون بالخوف والحزن والحرمان. فإن حياة البشر في الدنيا لا تستقيم إلا بتوافر الأمن والرزق، ويفقد أحدهما يفقد الآخر، ويفقدهما تستقل حياة الناس شقاء وعذابا نسأل الله العافية، ولذلك فإن ممن حكمة الله تعالى ورحمته بالبشر لما أهبط آدم عليه السلام إلى الأرض أن جعل فيها من مقومات الأمن والرزق ما يمكِّنه ذريته من العيش فيها قال أهبطوا بغضكم لغض عدو ولكنكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين [الأعاف: 24] والأرض لا تكون مستقرًا لبني آدم إلا بتوافر الأمن؛ لأن من نتائج الخوف: الاضطراب وعدم الاستقرار، والمتع ما يتمتع الناس به من رزق الله تعالى، ولو لم تكون الأرض آمنة إلا من
السبيل إلى الأمن والرزق (٢)

عذوان الناس بعضهم على بعض، وإخفاء بعضهم بضاً - لاستحال عيشهم فيها، ولو كانت خالية من الأرزاق لهلكوا.
ولاهمية هاتين النعمتين - الأمن والرزق - نبه النبي عليهم السلام أقوامهم عليها، وابنوا عظيم منة الله تعالى عليهم بها؛ فهذا صالح عليه السلام يقول لقومه: "أتركون في ما هاجتنا آمنين" في جنات عيًّن وزروع ونخل طلعة هضيم (الشعراء: ١٤٦-١٤٨).

ودعا إبراهيم عليه السلام ربه أن يؤمن بيه الحرام، ويجب إليه الأرزاق فقال عليه السلام: "رب أجعل هذا بلدًا آمنًا وازرق أهلها من النمرات من أمِّ منهم بالله واليوم الآخر" (القرآن: ١٢٦). وفي الآية الأخرى: "ربي إن أسكبت من ذرتي برد غير ذريٍّ زرع عند بيتك المحرَّم ربي لقضيوا الصلاة فاجعل أتقدت من الناس نهوي إليهم وازرقهم من النمرات لعلهم يشكون" [إبراهيم: ٣٧].

ويوم أن أللهم تعالى الخليل عليه السلام أن يدعو بهذه الدعوات المباركة لم تكن مكة آهلة بالسكان؛ بل كانت وادياً مهجوراً؛ فأراد الله تعالى بحكمته أن يعمر ويومر فيها بيه، وأن تصر مهيج الحضارات، ومهري أقدث الناس، وذلك لا يكون إلا بحلول الأمن فيها، وتدفق الرزق والخيرات عليها، فالبشر يستوطنون ويعمرون حيث يوجد الأمن والأرزاق.

فاستجابة الله تعالى دعوة الخليل عليه السلام، وجعل البيت مثابة للناس وأمناً، يثوب الناس إليه من كل مكان آمنين بما قدره سبحانه فيه
من أسباب الأمن والزكاة، وما توارثه سكانه من تعيين للبيت عين إبراهيم وإسماعيل عليه السلام (1).

وحتى بعد شركهم وانحرافهم عن الخنفية، بقي فيهم تعيين البيت على مر العصور، وتتابع الأجيال من عهد إبراهيم عليه السلام إلى بعثة محمد صلى الله عليه وسلم، فكانوا إذا دخلوا البيت وضعوا السلاح، وكفوا عن الثائر، حتى إن الرجل ليرى قاتل أبيه فلا يسمح به سوء تعييناً للبيت الحرام.

إن ما نعمت به مكة من أمن وآراز منذ دعوة إبراهيم عليه السلام إلى يوم هذا ما كان إلا بقدر من الله تعالى، واتباعاً لهذه البقعة المباركة التي ما كانت صالحة للعيش قبل ذلك، ثم جاءت شرائع الأنبياء عليهم السلام لتؤكد على أمنها، وتحث الناس على قصدها لعبادة الله تعالى فيها، فحصل الأمن والعمان، وتدفقت عليها الخيرات في وقت كان من حولهم لا يأمنون ولا يشعرون (أو لم يروا أن جعلنا حراً أمناً ويتحطَّف الناس من حولهم أفلا يؤمنون وينعمة الله يكفرون) [العنكبوت: 72].

ولما رفض المشركون دعوة النبي صلى الله عليه وسلم، وكان من تعليقاتهم في رفضها أنهم إن تركوا إزالة الآباء والأجداد اجتمعت العرب على حربهم، ففقدوا الأمن والزكاة (و قالوا إن تبلغ الهدى معلق نتخفَّف من أرضنا) كان جواب الله تعالى عليهم: (أو لم تمكن لهم حراماً أمماً)

(1) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (9/1).
السبيل إلى الأمن والرزق (٣)

يُجَبِّي إِلَيْهِ نُمَرَاتُ كُلٍّ شَيْءٍ زَرَفًا مِنْ لَدَنَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يُعْلَمُونَ {القصص: ٥٧}

قال ابن زيد: «كانت العرب يغيير بعضها على بعض، ويسب بعضها ببعضاً، فأمنت قريش من ذلك مكانة الحرم، وقرأ {أَوْ لَمْ نَمُكَنْ لَهُمْ حَرَّمَةً} ۡ آُمِّنُا يُجَبِّي إِلَيْهِ نُمَرَاتُ كُلٍّ شَيْءٍ {القصص: ٥٧} ١٣.

وقال ابن جزء: {وَكَانَ غَيْرُهُمْ مِنَ النَّاسِ تَؤْخَذُ أَموَالَهُمْ وَأَنْفَسَهُمْ} ١٣.

ولما فتحت مكة، ودانت بالإسلام؛ أمنت وأمَن أهلها بما شرع الله تعالى من الشرائع والحدود، والواجبات والحرمات فكانت بلداً آمناً مطمئناً تجبى إليها الأزرق من كل مكان، ما دام أهلها قائمين بأمر الله سبحانه وتعالى.

وكان هذه الشريعة المباركة التي أنزلت في البلد الأمين محققةً لما يحتاجه البشر من الأمن والرزق في الدنيا والآخرة; ولذا كانت دعوة النبي صلى الله عليه وسلم عامةً إلى الناس كلهم، منذ إرساله إلى قيام الساعة؛ ليعبدوا الله تعالى ولا يشركون به شيئاً، فإنهم حققوا هذه العبودية حق الله تعالى لهم الأمن والرزق في الدنيا والآخرة.

ويقدر انتقاصهم من عبودية ربهم، وتقلتهم من شريعته يحل عليهم ما يوازيه من الخوف والقلة، ويرفع عنهم من الرزق والأمن

١٣ (٢٠/٩) جامع البيان (١٣/٥)، والجامع لاحكام القرآن (٩/٢٠٢)، وفتح القدر

١٣ (٤٩٨/٥) للشوكاتي

١٣ (٤٣٣/٤) التسهيل لعلوم التنزل
الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً كثيراً طبباً مباركاً فيها كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره وأتوب إليه واستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه، ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.
أما بعد: فاتقوا الله تعالى وأطيعوه، واحذروا عذابه فلا تعصوه؛ فإنه سبانيه عزيز ذو انتقام، وانذكَّر أَنْ تَّنَبِّئُ إِذَا أَخَذَ الْقُرُونَ وَهَيْنَاءً مَّاِذَا أَخَذَهُ أَلِيمُ شَدِيدٌ [هود: 2].

أيها الناس: هاجس الأمن والرزق هاجس لازم البشر طوال تاريخهم؟ إذ لا يقوم لهم عيش إلا بأمان ينعمون به، ونعم يرتعون فيها، وفي عصرنا هذا نجد أن جُلَّ موارد الأرض، وأرزاق الناس إما تنفق لتحقيق هذين المطلوبين؛ فكثر خسائر الأمم، وميزانيات الدول تنفق على السلاح لاستخدامه في الحمامة، ورد العدوان، وردع الأعداء؛ ليحقق الأمن. وليس خافياً على أحد ما ينفق على الاقتصاد والصناعة والتجارة من أموال طائلة؛ حتى صاروا يستغلون النفقات ويصنعونها من جديد، وليس تفاوت البيوت والمصانع فحسب بل حتى نفقات الإنسان والحيوان؛ وذلك بقصد الاستفادة من كل شيء لتوفير الأرزاق، وتحقيق الرفاهية.

ووبالرغم ذلك كله فإن البشرية في مجملها تجد الخوف، وتهوس بالجوع، ومن كان عنده قدر من الرزق والأمن فهو يعاني خوفاً آخر وهو خوف فقدته مع كثرة الحروب والخلافات، وتقلبات الدول، واضطرابات الاقتصاد، فالخيوط من الأمن والرزق، أو الخوف من فقدانهما صار سمة من سمات هذا العصر المتقدم! وسبب ذلك أن البشرية باتت تتحكم على الصعيد العالمي بما يخالف منهج الله تعالى، وصار يقرر مصيرها من لا يقيم لشرعات الربانة أي وزن، وسيطر على عقول الناس
العيش للدنيا، والاستمتاع بها بلا ضوابط دينية، ولا قيود أخلاقية، إلا عند المؤمنين المتمسكون بدينهم، وهم يحاربون من أمم الأرض على تمسكهم هذا.

وكان كثيرًا من المسلمين وقعوا فيما وقع فيه غيرهم من حب الدنيا والتعلق بها، فإن هاجس الأمن والرزق صار مصدر رعب وقلق يقض مضاجعهم، فراح أكثرهم يستجبون الأمن والرزق بالطرق المحرمة، والكسب الحبط، والركن على الذين ظلما ليؤمنوا، في بعد تام عمن بيده ملكوت كل شيء، وهو من يهب الأمن والرزق جعل في علاه!!

إن الأمة التي تريد تحقيق الأمن، وسط الرزق، وكثرة الخيرات، وانعدام المشكلات عليها أن تتقى الله عز وجل، وأن تأخذ بأحكام شريعته في كل شيء؛ ليتحقق لها ذلك.

وإن من أعظم مما يسبب زوال الأمن، وقلة الرزق: كفر النعم، وكثرة العصيان، وقلة الاستغفار، وضعف النبوة والأوينة إلى الله تعالى، "وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْبَانَكَ كَأَنْ أَمَّةٌ مَّطْمَنُّتُهَا يَأْتِيهَا رَزْقُهَا رَغْدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَذَاعَتْهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجَوَابِ وَالْخَوْفُ بِمَا كَانُوا يُصْنَعُونَ" [النحل: 112].

لا حظوا قوله تعالى: "فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ" [النحل: 112]، الأنعم جمع قلة، أي: كفرت لأنعم قليلة فعذبها الله تعالى بسلب الأمن، ورفع الرزق، وحلول الخوف والجوع مكانهما، والمقصود: التبيه بالأدنى
السبيل إلى الأمن والرزق (٣)

على الأعلى، أي: أن كفران النعيم القليلة لما كان موجباً للعذاب فكفران
النعيم الكبيرة أولى بـإيجاب العذاب، (٤) وكم في المسلمين من كفران النعيم،
وعصيان للمنع في هذا العصر؟ نسأل الله العافية والسلامة، ونسأله
أن لا يؤخذنا بذنوبنا، ولا بما فعل السفهاء منا.
وعبر سبحانه عن عظيم ما أصابهم بالذوق واللباس (٥) فأذاقها الله
لباس الجوع والخوف) [النحل: ١١٢]، لإحاطة ما غشيهم من الجوع
والخوف، ولمازتلهم إياهم، أراد سبحانه إفادة أن ذلك متمكن منهم،
ومستقر في بلادهم استقرار الطعام في النبطن، إذ يذوق في اللسان والحلق،
ويحس في الجوهر والأمعاء، فاستشعر له لفظ الإذاقة تلميحًا، وجمعًا
بين الطعام واللباس، والمعنى: أن الجوع والخوف محيطان بأهل القرية
في سائر أحوالهم، ولمازمان لهم، وقد بلغا منهم مبلغًا أليماً (٦).
\[\text{هل} \text{فاتقوا الله} \text{ربكم، واشكروا على نعمه، فإن يحقق} \text{عبد الأمن}
الشامل الكامل الذي لا ينحصر خوف بوجه من الوجه في نفسه وأسرته
والله إلا بإقامة شريعة الله تعالى في نفسه وبيته وماله، ولن تحقق أمة
من الأمم الأمن الشامل بين رعاياها حتى تقوم فيهم بشريعة الله تعالى
في علاقاتهم مع أنفسهم ومع إخوانهم، ومع غيرهم من مسلمين وغير
مسلمين. وبغير ذلك ستكون المحن والفتن، والقلاقل والاضطرابات
التي ينتج عنها اختلاط الأمن، وانتشار الخوف، وقلة الأرزاق، وكثرة

(٤) انظر: التفسير الكبير للرازي (٢٠٠٣/٢).
(٥) انظر: التحرير والتنوير (٢٠٠٢/٧).
الجوع. نسأل الله أن يحفظنا وإخواننا المسلمين في كل مكان من ذلك
وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرْءَاءِ آمَنُوا وَأَطَأُوا لَفَتَحَنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتُ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ
وَلَكِن كَذَّبُوهُمْ فَآخَذَهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ أَفَأَمَّن أَهْلَ الْقُرْءَاءِ أَن يَتَّبَعُوهُ
بِأَسْبَارَ بَيَاتًا وَهُمْ نَامُونَ أَوْ أَمَن أَهْلَ الْقُرْءَاءِ أَن يَتَّبَعُوهُ بِأَسْبَاراً صَحِيّاً وَهُمْ
يَلَعَبُونَ أَفَأَمَّن أَمَّنَ الْلَّهُ فَلا يَأْمَن مَّكَرُ الْلَّهِ إِلَّا الْقُوَّمُ الْخَاصُرُونَ (الإعراف: 99-106).

أَلا وَصَلُوا وَسَلَموَ عَلَى خَيرٍ خَلَقَ الله كَمَا أَمَرَكَمْ بِذَلِكَ رَبَّكَ، ، ،
الجمعه 9/6/1418

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهديه فلا مضلل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه

ومن سار على نهجهم واهتدى بهداههم.

أما بعد: فيا أيها الناس: انظروا الله تعالى وأطيعوه، وراقبوه ولا تعصوه، وأعلموا أن الموعد قريب، والعرض عظيم، والحساب دقيق، كتاب الله لا يغذى صغيرة ولا كبيرة إلا أخصاه [الكهف: 94]؛ فالمؤمن من وفقة الله لمارضيه، والمحروم من انغمس في معاشه.

أيها الإخوة المؤمنون: لا يجعل الله الدنيا دار بقاء وقرار؛ وإنما جعلها دار انتقال وابتلاء واعتبار. يخرج فيها الولدان صغاراً لا يميزون، ثم يبلغون فكلدرون، ثم يشبون، ثم يهورون، ثم يموتون فيدفنون، ثم يبعثون فيحبسون. ومنهم من لا يدرك الهم ولا الشباب، وكل ذلك تقدر الحكم العلي.

وخلال هذا العمر الذي قضاه الإنسان في الدنيا عاش فيه تقلباتٍ وآهواءٍ، كم فرح وكم حزن؟ كم ضحك وكم بكى؟ داخلته المسرات، وحافت به الملل، وخالطته المحنات. مرت به فترات ضاقت عليه الدنيا بما رحبت؛ حتى تمنى يومها أنه لم يخلق أبداً، ثم اتسعت في
وجهه حتى ظن أنه أسعد السعداء.

وهكذا الدنيا في تقلباتها وأحوالها، والمؤمن يذكر الحكمة من ذلك; فيصبر في الضراء، ويشكر في السراء، ويعلم أن الكل من عند الله؛ فيثاب على شكره، ويوجز على صبره.

وأما من غم يعده، ولا هم يعده، ولا مرض يصيبه، ولا شيء ينال منه إلا كأن فيه مأجوراً، مهما كان يسيروا قد يحتقره العبد فإنه يوجب عليه؛ حتى الشوكه يشاكها.

أما الكافر فيلهو مع اللاهين، ويخوض مع الخائضين، ويكذب بيوم الدين. إن أصابته ضراء كفر وبحر، وإن أصابته ضراء جزع وتسخط وليس له من الأجر شيء. يغتم وبههم، ويتاليم وبحرون، وعاقبة أمره حسراء (ذرههم يأكلوا ويستعروا بسلهم الأمَّ فسوف يعلمون) [الحجر 17]. والذين كفروا يسوعون ويأكلون كما تأكل الأعظام والنواءات مثوى لهم (11). محمد (آم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يغفرون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلًا) [الفرقان 44].

هذه حياة الكافر وهذا مصيره، لم يسلم من أكادار الدنيا، وقد عليه العذاب في الآخرة (واعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون) [فصلت 25]. حسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسرين المبينين (11) [الحج].

أيها الإخوة: وفرق المؤمن عن الكافر أن المؤمن رضي بالله رباً؛ فرضي بقدرته، وسلم الأمر إليه، واعتمد عليه، مع الصبر والمصابة في الشدائد والتكبمات، والمصائب والمكالمات. فترى الكافر يصيبه
المرض فيجزع ويتسبب ويشكو للخلق، وإن صبر فصبره تجلد لا حسب فيه ولا إخلاص؛ لأن قلبه فساد بالكفر، ولا تصح النية من قلب فاسد. حتى يصححه بالإيمان. أما العبود المؤمن فحينما يصبه المرض يصبر على ألوانه وشدته. جسده يتألمل، ولسانه يردد الحمد والشكر لله رب العالمين على ما أولاه من آلائه ونعمه، يزيد بذلك الأجر والثواب.

جرح أحد السلف فنصب فقيل له في ذلك فقال: "إن حلاوة الأجر أنتستني مرارة الألم"، لذا كان المؤمن منتفعًا بالأمراض والندوات أبداً. انفعاض؛ إذ هي محطة الأوزار، وسلم الدرجات، ومخارج الحسنات، ومواطن المحاسبة والاستعتاب، وطريق الرجوع إلى الله تعالى، مع ما فيها من إصلاح القلوب، وتذكرالعبد نعم الله عليه، ولفت انتباهه إلى حال إخوانه العرضي والمسابين، ويكفي فيها أنها سبب للنجاة من النار، وبلغ المنازل العالية في الجنة.

فالامراض تحدث من شهوات العباد ولذائذها، والجنتين كما حفت بالشهوات، وكلما تقلل العدو منها كان إلى الجنة أقرب، وعن النار أبعد. والأمراض من جملة المكاره، والجنة إنما حفت بالمكاره. إلى غير ذلك من الفوائد والمنافع التي يجيها المؤمن حال مرضا ما دام محسناً.

ولم يكن ذلك الثواب مستغرقاً عند من يفهم شريعة الإسلام من رفع الدرجات وزيادة الحسنات، وتكبير الخطوات. فالعبد دائم العصيان، كبير النسيان، لا يكاد ينفك عن الذنوب والخطايا، فمن رحمة الله تعالى يباده أن جعل هذه الأمراض والمصائب مخففات على العباد.
ال `{المفيد في خطب الجمعة والعيد}`

مقتلات من ذنوبه، قال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله، كيف
الصلاح بعد هذه الآية: "ليس بأمانِيكَم ولا أمانِي أهل الكُتاب من يعَمَّل
سواء يُجزِيه" [النساء: 123]. وكل شيء عملنا جزينا به؟ فقال: "غفر
الله لك يا أبا بكر، أليست تمرض؟! أليست تحزن؟! أليست تصيبك
الألواء؟! قال: قلت: بل، قال: هو ما تجزون به." أخرجه أحمد (1).

وفي حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه سمع النبي صلى
الله عليه وسلم يقول: "ما يمرض مؤمن ولا مؤمنة، ولا مسلم ولا مسلمة
إلا حط الله بذلك خطايا، كما تخطى الورقة عن الشجر." أخرجه أحمد (2).

ويزداد هذا التكفير للخطايا بازياد الأمراض والمعصوب، حتى
لا يد عطية إلا محاها، فيموت المؤمن حين يموت وهو نقي من
الذنوب والأوزار، يقول النبي عليه الصلاة والسلام "لا يزال البلاء
بالمؤمن والمؤمنة في جسد وماله ونفسه حتى يبلقي الله وما عليه من
خطيئة". أخرجه الترمذي وصححه (3)، وفي حديث آخر قال: "... فإن

(1) أخرجه أحمد (1/11) وآبوبعلو (9) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (3/24).
(2) أخرجه البخاري (3/2673) وصححه ابن حبان (1910).
(3) أخرجه أحمد (2/446) وصححه ابن حبان (1917)، قال البخاري في الأخبار المفرد (5) والبزار (768) وصححه ابن حبان (1917). قال الذهبي في المجمع: ورجال أحمد رجال
الصحيح (2/7).
مرض المسلم يذهب الله به خطاياء كما تذهب النار خبث الذهب والفضة".

ينمض إلى تكفير الخطايا: زيادة الحسنات، ورفع الدرجات، روي مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ما من مسلم يشكو شوكة فما فوقها إلا كتب له بها درجة ومحيط عنه بها خطيئة". وفي الحديث الآخر عنها قال عليه الصلاة والسلام: "ما ضرب على مؤمن عرق قط إلا حط الله عنه بها خطيئة وكتب له حسنة ورفع له درجة" أخرجه الطبراني وحاكم وصححه ووافقه الذهبي.

وقد يظن أن هذا الأجر العظيم إنما يكون لمن أصيرا بأمراض خطيرة، أو لمن كانت آلامهم شديدة. وهذا ظن خطأ؛ إذ إن جميع ما يصيب المؤمن فهو مأجور عليه وإن كان يسنوا ما دام محتسباً. وما من شك أنه كلما عظم المرض واشتد الألم، كان الأجر أعظم، والثواب أكثر.

(4) أخرجه أبو داود في الجنائز باب عيادة النساء (92) وصححه الألباني في صحيح الجامع (375) وفي الصحيحه (714).
(5) أخرجه مسلم في البر والصلاة باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك حتى الشوكة يشاكها (277).
(6) أخرجه الطبراني في الأوسط (2410) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (1/472) وحسن الهيامي في مجمع الزوائد (2/403) ووجد إسناده الحافظ في الفتاح (10/91).

من فوائد الأمراض (1)

(1)

(7) أخرجه أحمد (2/10) وأبو يعلى (991) والطحاوي في شرح مشكل الآثار (2219) وصححه ابن حبان (975) قال: الهنائي في المجمع: ورجاء ثقات (2/1). واحتج أنه رضي الله عنه معارض بنصوص صحيحة منها ما رواه مسلم (2688) والترمذي (2483) من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عاد رجلاً من المسلمين قد خفته فصادر مثل الفراف. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هل كنت تدعو شيء أو تسألائه إياه؟" قال: نعم، كنت أقول: اللهم ما كنت معاقيبه في الآخرة فجعله لي في الدنيا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أصحاب الله لا تطيعه - أولاً تستطيعه - أفلا قلت: اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار؟" قال: فدعا الله له فشفاه. وكذلك ما رواه مسلم (3/1) وأبو داود واللفظ له (1526) من حديث جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تدعوا على أنفسكم ولا تدعوا على أولادكم، ولا تدعوا على خدمكم ولا تدعوا على أموالكم..." وهذا نهي صريح من النبي صلى الله عليه وسلم عن أن يدعو الإنسان على نفسه وهو عام لا مخصوص له، والنهي يقتضي التحريم. وما فعله أبي بن كعب رضي الله عنه فمحمول على أن النهي -
من فوائد الأمراض (1)

وهذا اجتهاد منه رضي الله عنه يريد زيادة الأجر والثواب، والعبد في الأصل مأموم أن يسأل الله العافية؛ فإذا أبتلي فهو مأموم بالصبر والاحتمال، ولا يجوز له أن يدعو على نفسه.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. وَنَبَلْوُكَ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرَ فَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (35) [الأنبياء] بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله، حمدًا يليق بجلاله وعظمته سلطانه، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فيا عباد الله: اتقوا الله تعالى حق التقوى، واشكروه في السراء، وأصبروا في الضراء؛ فالشكر والصبر جماع الدين كله، والسبيل إلى تحقيقهما تقوى الله تعالى في السر والعلن.

أيها المؤمنون: من نعمة الله تعالى على عباده المؤمنين أنه إذا ابتلاهم رزقهم الصبر والرضى حتى ينالوا الجزاء الأوّل. فالمؤمن إذا ابتلي واتجه بقلبه إلى الله فإن الله تعالى يصبره على ما يجد من آلام وأوجاع، لم يبلغه، أو أنه دعا على نفسه قبل ورود النهي، ثم إن عبد إذا دعا على نفسه بالمرض قد لا يوقف للصبر عليه، فيجزع، ومن ثم يكون آلامًا وقد أراد الأجر، فلأحصل الأجر، ولا سلم من الإثم، مع ما يعانيه من ألم المرض.
وقد نسب عنه النبي صلى الله عليه وسلم: "ومن يتبرّع بيبره الله".(8) وفي حديث آخر قال عليه الصلاة والسلام: "إن الله تعالى ينزل المعونة على قدر المؤمنة، وينزل الصبر على قدر البلاء"، وفي رواية: "ويلي الصبر على قدر المصيبة".(9)
فلله الحمد، ما أعظم فضله! وما أكثر عطاءه! وما أشد رحمته بعباده! يثبّتهم ليؤجروا وتكفر عنهم الخطئات، ثم لا يكلهم إلى أنفسهم; بل يرزقهم الصبر حتى يتم الأجر.
والواقع يزيد من إيمان عبد هذه النصوص الصحيحة; فكم من مريض به من العلل والأسقام العظيمة والخطيرة ما يدعو من رأه وزاره إلى رحمته والرافة به، وانكسار النفس من أجله، والحزن لما أصابه; لكن إذا حادثته وجالسته وجدته مرتاح البال، مطمئن القلب، قرير العين، راض بقضاء الله وقدره، لا يفتر لسانه عن حمد الله والثناء عليه; حتى إن بعض زواره يكونون أشدّ ألمًا منه. وما كان كذلك إلا لأن الله تعالى قد زرّقه الصبر لما ابتلاه، وأنزل عليه السكينة والطمأنينة.
ومع ذلك فقد يوجد شيء من الجزع والتسخط عند من قل إيمانهم,

(8) أخرجه البخاري في الرقاق باب الصبر عن محارم الله (١٤٧٠) ومسلم في الزكاة باب فضل التعرف والصبر (٥٣٠).
(9) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (٩٩٢) والجزر كما في الزوائد لابن حجر (١٥٦) وذكره الألباني في الصحيح (١٦٦٤) وعزاه في صحيح الجامع للبيهقي والحاكم ولم أثر عليه عندهما (١٩٥٢).
وضعت صلتهم برهم؛ فيجزعون من الأمراض، ولا يصبرون حال البلاء. وحؤلاء قد حرسوا أجر الصبر والاحتساب، ولم يسلموا من الألم والآواج؛ فخسروا هذا وذاك، نعوذ بالله من الخسارة.

والمصير على الألم والمصاب ليس مباحاً أو مستحباً؛ بل هو واجب.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «إنه الصبر على المصاب، واجب» (91) وقال ابن القيم رحمه الله تعالى: «وهو واجب بإجماع الأمة وهو نصف الإيمان؛ فإن الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر» ثم ذكر أن الصبر يتحقق بثلاثة أمور: حبس النفس عن الجزع والسخط، حبس اللسان عن الشكوى للخلق، وحبس الجوارح عن فعل ما ينافي الصبر. (11)

فاتقوا الله ربيكم واشتروه على فضله العظيم، وإنعامه العليم، وإذا أعطيتم فاشترووا، وإذا واجهتم فاصبروا (إِنَّمَا يَوْقُّ الصَّابِرُ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حُسَابٍ) [الزنم] ثم صلوا وسلموا على نبيكم محمد بن عبد الله كما أكرمو بذلك ربيكم.

* * *

(10) مجموع الفتوى (191).
(11) مدارج السالكين بين إياك نعبد وإياك نسمع (102/2) و(156/2) وعدة الصبرين وذخيرة الشاكرين (13).
الجمعة 8/4/1419 هـ
الحمد لله ﷺ يتلى بالسراة، ويتلى بالضراة، ويُعظم على أحباه البلاء؛ حتى يوافهم يوم القيامة بالجزاء. أحمده وأشكره وأتوب إليه وأستغفره؛ لا راد لقضائه، ولا مععب لحكمه، وهو سريع الحساب، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ لا رب لنا سواه، ولانعبد إلا إياه، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون. وأشهد أن نبينا محمدًا ﷺ عبده ورسوله، وصفيه وخيله، اصطفاه الله وابتلاه؛ اصطفاه فكان عبدًا شكورًا، وابتلاه فكان على البلاء صبورًا، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آل وأصحابه؛ أنجل في جبين التاريخ زاهرة، وأعلام على الحق ساهرة، الأنصار منهم والمهاجرة، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم القرعة.

أما بعد: فيا أبنّا الناس، اتقوا الله تعالى، فنعم الُزادة التقوى، يا أبنّا الذين آمنوا أن تقوا الله ونظروا نفسًا فقتلعت لغد وأنثقو الله إن الله خبير بما تعملون [18] [الحجر].

أيها المؤمنون: الأيام تحملُ في طياتها مسارات تحتاج شكرًا، وتحوي بلاء يحتاج صبراً. وما البلاء بالسراة بأهون خطرًا من البلاء بالضراء؛ إذ البلاء بالضراء مدعاة للمحاسبة والاستعتاب، وأما البلاء بالسراة فمدعاة للبطر والعلو والكبرياء؛ ولذلك قال عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه: "ابتلينا بالضراء فصبرنا، وابتلينا بالسراة فلم نصبر"
وقال بعض السلف: "الأبلاء يصبر عليه المؤمن والكافر، ولا يصبر على العافية إلا الصديقون" وقال ابن القيم: "إذا كان الصبر على السراء شديدًا، لأنه مقرون بالقدرة، والجائع عند غيبة الطعام أقدر منه على الصبر عند حضوره، وكذلك الشيق عند غيبة المرأة أصدر منه عند حضورها"(1).

ومن ابتلاءات الضراء: تلك الأمراض التي تصيب الإنسان، فيردى بها الفاجر، وينفعت بها المؤمن.

ولأن الأمراض من عظمى الابتلاءات؛ كان ما يترتب عليها من جزاء عظيمًا كبيرًا، متي كان المصاب بشيء منها مؤمناً ثابتاً، صابراً محتمساً، حابساً نفسه عن الجزع والسخط، ممسكاً لسانه عن الشكوى والضجر، موثقاً جوارحة عن كل ما يخل بالإيمان والصبر(2).

ذلك المؤمن الذي يجد عاقبة مرضه وصبره خيراً مدراً له أجري ما يكون إليه في الآخرة، نعم! إنه ذلك المريض الذي لا يلتم بطعم ولا شراب، ولا يغمض جفنه براحة ولا نوم، يخُل جسده فلم يبق منه إلا رقائق جلد تكسو عظماً هزيلًا، لقد ذهب المرض بنَضرة جسده، وأطفأ الألم نور وجهه.

كم استشهد طعاماً فمنع منه! وكيف رأى حوله نياهماً وهو يساهر آلامه!

وكم استشرف الناس المستقبل وهو مشتغل بمرضه! يلهو أقرانه مع

(1) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين (89) والآثار منه أيضاً (88).
(2) انظر: مدارج السالكين (156/2) وعِدة الصابرين (13).
فليس مفيد في خطب الجمعة والعيد
أهليهم وأولادهم، وشغله الشاغل أن يُخفِّف من بعده أيناماً ضعافاً;
فيقترن ألم قلبهم مع ألم جسده، وكما هو عسير على المرء أن يحمل
ألمين في آن واحد.
يعدون زواره فينأس بهم قليلاً من الوقت، ثم يذهبون فينأسه،
ويأسون بغيره، ويتامون ملء جفونهم، وهو يقضي ليله يعالج آلاماً
وهموماً.
فلله ما أعظم ما أصابه من خطب! استحق أن تكون الجزاء
عليه موفوراً: من تكفير الخطايا، ومحرو السيئات، ورفع الدرجات،
وعودة الحسنات.
وهذه الأمراض دليل على أن الله تعالى أراد بمن أصابه بها خيراً، بها
يبلغ العبد المنازل العالية، وهي سبب رجوع العبد إلى الله، تخفظ من
البطر والغروق، وتصلح ما فسد من القلوب، وتبه الغافلين إلى أحوال
إخوانهم المرضى، وتذكر الناسين نعم الله تعالى عليهم بالصحة والعافية.
ورغم ألم الأمراض وصدرتها، وخوف الناس منها، فإن فيها للمؤمنين
خيراً كثيراً، وهذا حال المؤمن انفاعه بالسراء والضراء.
ومع أن السلف الصالح رحمهم الله تعالى كانوا يسألون الله العافية!
فإنهم يفرحون بالأمراض، ويصرون عليها؛ لما في ذلك من الأجر
والثواب، يقول أبو الدرداء رضي الله عنه: "ما يسرني بليلة أمراضها حمر
النعم".
(3) آخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (2/442) برقم (1072).
 وما ذاك إلا لأنهم يعلمون أن ابتعاد الله تعالى للمؤمنين دليل على محبتهم له، وبركان خيرهم، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «من يرد الله به خيرًا يصب منه» أخرج البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه(4)، وفي حديث آخر قال عليه الصلاة والسلام: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضى ومن سخط فعله السخط» أخرجه الترمذي وحسن(5).

وأخير المؤمن أن يعاقب على عصيانه في الدنيا بالصائب والأمراذ، والبلاء والآفات من أن يُدُخِرَ له وزره في الآخرة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا أراد الله بعده الخير عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد بعده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يواجهه يوم القيامة»(1)، قال الطبيبي: «يؤتي لا يجازيه بذنبه حتى يجبي في الآخرة متوفر الذنوب

(4) أخرجه مالك (2/941) وأحمد (2/237) والبخاري في المرضى باب ما جاء في كفرة المرض (5/685) والبيهقي في شرح السنة (1420) وابن حبان (7/297).
(5) أخرجه الترمذي في الزهد باب ما جاء في الصبر على البلاء وقال: حسن غريب من هذا الوجه (2/396) وله الحديث شواهد يصحب بها، انظر: فيض القدر (1/258) ورياض الصالحين ص (41) رقم (44).
وافيه فيستوفي حقه من العاقب اهـ(7).

وهذا يفسر لنا كثرة نزول البلاء بالصالحين؛ إذ أراد الله بهم خيراً، بينما أهل الفساد والفجور ينعمون في العافية ورغم الغياب وحسابهم عسير.

وقد تكون الخيرية التي يريدها الله بعدها المؤمن المريض المتبل منزلاً عالياً في الجنة لا يرقى عمله إليها؛ فيلي الله تعالى بالمرض أو غيره حتى يرتقي إلى تلك المنزلة العالية. قال النبي عليه الصلاة والسلام: "إن الرجل ليكون له عند الله المنزلة فما يبلغه بعمله فما يزال الله يتيه فيما يكره حتى يبلغه" صححه الحاكم وابن حبان(8). وفي حديث آخر قال عليه الصلاة والسلام: "إن العبد إذا سبقته من الله منزلة لم يبلغها بعمله ابتلاه الله في جسده أو ماله أو في ولده ثم صبره على ذلك حتى يبلغ المنزلة التي سبقته له من الله تعالى" أخرجه أبو داود(9).

ومن منافع الأمراض: أنها تصلح القلوب، وتذهب الغرور،

(7) تحقیق الأخوی شرح جامع الترمذي (7/77).
(8) أخرجه الحاکم وصححه (1/34) وابن حبان (290/8) وزعه الهیشی فی المجمع لابی على وقال: ورجاله ثقات (2/292).
(9) أخرجه أبو داود في الجنائز باب الأمراض المكنورة للذئب (30/9) والبيهقي في الكبير (3/274) وزعه الحافظ في الفتح للإمام أحمد وقال: رجاله ثقات (10/114).
وتزيل حدة النفس، وتكسر الشهوة، وتقود إلى المحاسبة، يقول علي ابن الحسين رحمة الله تعالى: "إذا لم يمرض الجسد أشر، ولا خير في جسد ما يشر" (11). ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله تعالى: "مصيبة تقبل بها على الله خير لك من نعمة تنسيك ذكر الله" (11).

والواقع يشهد لهذا الأمر فكم من جبار عند أزال المرض جبروه وآلان عنده! وكم من غارق في المعاصي والشهوات كان المرض سبب محاسبته لنفسه ورجوعه إلى الله تعالى! وكم من ظالم أكّل لحقوق العباد قاده المرض إلى التخلص من مظالمه وإعطاء كل ذي حقه حقه! وكم من مضيع للفرائض، متهوان بالواجهات، مقبل على الدنيا، يكاد يعدها جعل المرض منه أواهاً منياماً، زاهداً قناعًا!

وما كان ذلك إلا لأن فترة المرض فترة محاسبة واستعاب، تنه العبادة من غفلته، وتوقفه من رقدته، وتزيل عنه سكرته، وتذكره من بعد نسيانه؛ لأن المرض مشعر بدنو الأجل، ومذكر له بالموت، أو ما يجده العبد من آلام المرض يجعله يهرب إلى الله تعالى أو ربما لأن المرض يكسر الشهوات.

ولا يتفت بتلك المحاسبة والاستعاب إلا المؤمن. قال سعيد بن وهب: انطلقت مع سلمان إلى صديق له يعوده من كندة فقال: "إن المؤمن يصبه الله بالبلاء ثم يعافيه فيكون كفارة لسنتائه، ويستعتب" (10).}

(10) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (826) برقم (101).
(11) تسليه أهل المصائب (226).
فيما بقي، وإن الفاجر يصيبه الله بالبلاء ثم يعافي فيه يكون كالبعير عقله.

ويلكن في المرض فائدة أنه يبين للعبد ضعفه، وثمز له مدى افتقاره وحاجته لرب العالمين؛ فتجد أنه في هجعة الليل والعيون نائمة في مصلاه، خال بري يدعو ويلح في دعائه ويتضرع بين يديه. والدعاء من أعظم العبادات، والله تعالى يحب من عبانة التضرع والإلجاع.

وقد أرسلنا إلى أمم من قلذا فأخذناهم بالأساس والضراء، والأمراض والأسقام والآلام، وفي آية أخرى يقول سبحانه: "وبَلْ رُوِّاهُم بأَحْسَنَاتٍ والسَّيِّاتِ لِلْقُوْمِ يُرْجِعُونَ" (الإسراء: 178) قال وبر بن منبه: "ينزل البلاء ليستخرج به الدعاء".

وما أجمل قول سفيان بن عبيدة: "ما يكره العبده خير له مما يحب؛ لأن ما يكره يهيجه للدعاء وما يحب يلهيه".

و هذا والله حقاً واقع، فكمن له من أتاس بعبادتهم! وكم أوجعت الأمراض عبدياً إلى ربيهم، فاهتدوا من بعد الضلال، وتابوا من العصيان، فسبقوا

(12) أخرجه ابن أبي شيبة (2/ 441) برقم (10813).
(13) تفسير ابن كثير - سورة الأنعام - (2/ 180).
(14) كتاب الشكر لابن أبي الدنيا (132).
(15) الفرج بعد الشدة لابن أبي الدنيا (22).
في الخيرات، ونافسوا في الباقيات الصالحات، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ما أصاب من فسق في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قُلْنَ أَن نَبَرَأَهَا إن ذلك على الله يسير ۲٢ لكَيْلا تَأْسَوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا أَتَكُمْ وَالله لا يُحبّ كِلّ مَخْتَالٍ فَخْوٍ ۲۷ [الحديد] بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عداوان إلا على الظالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولي الصالحين، وأشهد أن محمدًا عبد رسول الله النبي الأمين، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: في عباد الله اتقوا الله كما أمر، واجتنبا الفواحش ما بطن منها وما ظهر واعلموا أن الله مع المتقين ۱۹۴ [البقرة: ۱۹۴] وأنه يحب المتقين ۷۶ [آل عمران].

أيها الإخوة: من فضل الله تعالى على عباده أن أعمالهم الصالحة تكتب لهم، وتجري أجورها عليهم ولو لم يعملوها ما دامت الأمراض تحبسهم عن هذه الأعمال الصالحة، قال النبي عليه الصلاة والسلام:
"إذا مرض العبد أو سافر كتب له مثل ما كان يعمل مقيماً صحيحاً"(11)، قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: "وهو في حق من كان يعمل طاعة فمنع منها وكانت نيته لولا التالع أن يدوهم عليها"(17)، وفي حديث آخر قال النبي عليه الصلاة والسلام: «ليس من عمل يوم إلا وهو يختم عليه، فإذا مرض المؤمن قالت الملائكة: يا ربي! عبدك فلان قد حبسته فيقول الرحب: اختموا له مثل عمله حتى يرآء أو يموت» أخرجه أحمد والحاكم وصححه(18).

ويزداد فضل الله تعالى على عباده، ويتتابع إعلانه عليهم؛ فلا يكتب على المريض منهم الأعمال السيئة التي حبب العرض عن مزاولتها كما جاء في حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إذا أتيتك المسلم بلاء في جسده، قيل للملك: اكتب له صالح عمله الذي كان يعمل، فإن شفاه غسله وظهره، وإن قضبه غفر له ورحمته» أخرجه أحمد بسنده حسن(19). وفي حديث ابن عمرو رضي

(11) أخرجه أحمد (4/ 410) والبخاري في الجهاد باب يكتب للمسافر مثل ما كان يعمل في الإقامة (2996) وأبو داود في الجنائز باب إذا كان الرجل يعمل عملاً صالحًا فشغله عنه مرض أو سفر (91/ 11) والحاكم (1/41).

(16) فتح البراء حجر (6/ 136).

(17) أخرجه أحمد (4/ 146) والحاكم وصححه (4/ 30) وعزاز الدين البيشاني(1543) في صحيح الجامع (5432) والسلسلة الصحيحة (2119).

الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا أشتكي العبد المسلم قال الله تعالى للذين يكتبون: أكتبوا له أفضل ما كان يعمل إذا كان طلقاً حتى أطلقه» أخرجه أحمد وابن ماجد. 

فدلت هذه النصوص على أن العمل الصالح هو المكتوب حال المرض دون العمل السيء، وتلك نعمة ومنحة من الله على عباده؛ يحبسهم عن الأعمال الصالحة فيكتبها لهم، ويحبسهم عن الأعمال السبئة فلا يكتبها عليهم؛ فاجتمع لاهل الأمراض من أهل المعاصي نعمة: نعمة حبسهم عن العصيان واتشغالهم بأمراضهم عن الشهوات، وعنمة عدم كتابة ما كانوا يمارسونه من عصيان شغلهم عن ممارسته المرض.

فاتقوا الله ربيكم، واشكروه على نعمه التي لا تعد ولا تحصى، نعم العافية، ونعم الأجر على البلاء، واشكروه في حال الصحة وفي حال المرض.

فأنت تعالى ذو فضل عظيم على عباده، فله الحمد والشكر أبداً كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، ألا وصلوا وسلموا على نبيكم محمد بن عبدالله كما أمركم بذلك ربيكم. 

* * *

= لأبي بعلب وقال: ورجاله ثقات (2/ 430) وحسنه الألباني في المشكاة (1/ 492).
(2/ 50) أخرجه أحمد (2/ 50) وأبو يعلى في الجلالة (8/ 29) وأبو يعلى وأبو يعلى في الجلالة (8/ 29) وله روايات وطرق استوفى الكلام عليها العلاماة الألباني في السلسلة الصحيحة (13/ 2)
الحمد لله، نحمده ونسعنه ونستغفره، ونعود بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسول الله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن اهتدي بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله تعالى واعملوا صالحًا؛ فإن فضل الله عظيم، وثوابه جزيل، ورحمته وسعت كل شيء؛ لكنها تنازل بالأيمان والقوى والعمل الصالح. أما مجرد التمني بلا عمل فسوء ظن بالله تعالى، ورحمته وسعت كل شيء، فسأكتبها للذين يتقون ويبتون الزكاة وألذين هم بآياتنا يؤمنون [الأعراف: 156].

أيما المؤمنون: نعم الله تعالى عظيمة، وغناه واسع، وعطاؤه متعدد، نعم السراء والضرة، نعم الأخذ والعطاء، نعم المنحان ونعم المنح.

إن نعم السراء والمنحان والعطاء مفهومة معلومة؛ ولكن هل في المنح والأخذ والضرة نعم؟ نعم والله إن فيها رحمة بالعباد، وإنعما عليهم.

اليس الله تعالى يمنع المال عن بعض عباده لكيلا يبتروا، ويأخذ من بعضهم الصحة والعافية كما يعودوا إليه ويتوبوا، ويبتليهم بالضراء لتكرههم الخطايا ويجروا؟
وعما يدرك - أيها المؤمن - أنك مُنعَت ما تراه نعمة لثلا يصير عليك نقمة، أو أن الله تعالى إبتلاك بالمرض والسعقم ليكفر عنك ذنوباً تعلمها أو لا تعلمها لا تكفر إلا بابتلاك.

وكم أن الأعمال الصالحة من صلوات خمس وجمعية وصيام وحج مكفرات للخطايا، فكذلك الصبر على البلاء والأمراض مكفر للخطايا، رافع للدرجات، يمحو السيئات، ويزيّد الحسنات، وعلى مقدار البلاء وشدة الأوجاع مع الصبر والاحتساب، والقبول والرضى يكون الأجر والجزاء. وإذا حبس العبد عن الصالحات مرضٌ من الأمراض كتب له ما كان يعمل حال صحته ولو طال مرضه؛ حتى يشفى أو يموت، وذلك من فضل الله تعالى على عباده.

إن ألم المصيبة يخفف ألم الآخرة، وإن نار الحمي في الدنيا هي حظ المؤمن من نار جهنم، عاد النبي صلى الله عليه وسلم مريضاً ومعه أبو هريرة رضي الله عنه من وعك كان به، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أبشر فإن الله عز وجل يقول: هي ناري أسلطها على عبد المؤمن في الدنيا لتكون حظه من النار في الآخرة)، أخرجه الإمام أحمد وأبي إسحاق بن محمد بسنده صحيح، وفي صحيح عبد الله بن عبد المطلب بن عبد الله بن عبد المطلب يخرج من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على أم السائب أو أم الضيب فقال: ما لك يا أم السائب أو يا (1 أخرجه أحمد 4/40 وابن ماجه في الطب باب الحمي (347) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (1/345).

(1)
أم المستوي تزلفين، قالت: الحمى لا بارك الله فيها، فقال: لا تسبى الحمى فإنها تذهّب خطاءاً بني آدم كما يذهّب الكيرح خبث الحديد(1) وفي حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الحمى حظٌ كل مؤمن من النار»(2) فهنيئاً لمن كانت حماه لا تفارقه إلا قليلاً إذا كان صابراً محتسباً.

وكم أن الأمراض والحمى سبب للنجاة من نار جهنم فإنها كذلك سبب لدخول الجنة، أليست الأمراض من المكاره التي يكرهها بنو آدم! والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: «حجبت النار بالشهوات، وحجبت الجنة بالمكاره» متفق عليه(3).

وإذا فقد المؤمن بصبه فصبر واحتسب فله الجنة، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن الله تعالى قال: إذا استرقت عبدي بحببيعه فصبر عوضته منهما الجنة» يريد عينيه، أخرجه البخاري والترمذي(4).

(2) أخرجه مسلم في البر والصلة باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن.
(3) أخرجه البزار كما في كشف الأسئار (765) وحسنجه في الزوائد (2/176).
(4) أخرجه البخاري في الرفاق باب حجبت النار بالشهوات (274/1) ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها (1822).
(5) أخرجه البخاري في المرضى باب فضل من ذهب بصره (565/3) والترمذي في الزهد باب ما جاء في ذهب البصر وقال: حسن صحيح (24/1).
من فوائد الأمراض (٢)

ومن كان يُصرعُ ويصبر فترجى له الجنة، عن عطاء ابن أبي رباح:

إن الصحة - وإن كانت نوعًا من الله تعالى - ليست محمودةً على الإطلاق؛ بل هي محمودةً مثأ ما سخر العبد عافيته في طاعة الله تعالى ومرضاته وخدمة دينه. وإن البلاء والشر مثأ ما اجتمع عافية وعصيان، وصحة وكران.

ومع أن العبد مأمور أن يسأل الله تعالى العافية في كل أحيانه، إلا أن العافية المستديمة، والصحة التي لا يخرقها مرض قد تكون مذمومة لاسيما إذا كان العبد رديأً في الطاعة، منكباً على المعصية.

لذا رفض النبي صلى الله عليه وسلم الزواج من امرأة لم تشك مرضًا قط، عن أنس رضي الله عنه أن امرأة أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله: ابتعد لي كما وكدذا ذكرت من حسنها وجمالها - فأثرت بها، فقال: قد قبلتها، فلم تزل تمدها حتى ذكرت

(٦) أخرجه البخاري في المرضي باب فضل من يصرع من الريح (٥٦٥٢) وسلم في البر والصلة باب ثواب المؤمن فيما يصيبه (٥٧٦).
أنها لم تصدع ولم تشك شيئاً قط، قال: «لا حاجة لي في ابنتك»
أخرهج أحمد وأبو يعلى ورجاله ثقات(7).


(7) أخرهج أحمد (300) وأبو يعلى (4234) وإسناده حسن وقال الهمشمي:
رجاله ثقات (2294).

(8) أخرهج أحمد (327) والبخاري في الأدب المفرد (495) والبيزار كما في كشف الأسئلة (777) وصحبه ابن حبان (629) والحاكم وقال: على شروط مسلم ووافقه الذهبي (427) وحسن الهشمي (2194) وقال الألباني في صحيح الأدب المفرد: حسن صحيح.
مرتهن بما كسبت يداه، والغلال تتكرر بعضها عنه في هذه الدنيا لا أن من عوفي في هذه الدنيا يكون من أهل النار(9).


(9) انظر: صحيح ابن حبان ترتيب ابن بلبان (7/179).
(11) مصنف عبد الرزاق (11/198).
الخطبة الثانية

الحمد لله حمدًا طيبًا كثيرًا مباركًا فيه وكما يحب ربي ويرضي، أحمد
وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك
له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى
آله وأصحابه ومن اهتدي بهداهم إلى يوم الدين.
أما بعد: فاتقوا الله - أيها المسلمون - واعلموا أن العمرة بقوة
القلب لا بقوة الجسد. وقوة القلب تكون بقدر ما فيه من إيمان بالله
تعالي، ومحبة ورجاء له، وخوف منه، ورضي بقضائه وقدره.
وكمن صاحب جسد هزيل، لا تفازقه الأسقام والعلل يجتنبه الناس
خشية العدوى، له عند الله تعالى مقام عالٍ؛ لما في قلبه من صلاح
وتقوى.
وكمن من شخص قوي البنية، جميل الشكل، حسن الثياب، غطر
الرائحة، لا يشتكى أبداً، في قلبه من الفساد والشر ما لو كان لقلبه
رائحة لم يجالسه أحد.

عن سعيد بن مسروق عن منذر قال: جاء ناس من الدهاقين إلى
عبد الله بن مسعود فتعجب الناس من غلظ رقابهم وصحتهم قال: فقال
عبد الله: "إنكم ترون الكافر من أصح الناس جسماً، وأمرهم قلباً،
وتلقون المؤمن من أصح الناس قلباً وأمرضهم جسماً، وأيهم الله لو مرضت قلوبكم، وصحت أجسامكم؛ لكونتم أهون على الله من الجَعْلَانٍ.

إن للقلب انتفاذاً عظيمًا بتلك الأمراض التي نكرها ونضجر منها، فالآمراض سبب للمحاسبة والاستعتاب، والأوبئة والتوجه، وبها تستخرج الدعاء من العبء، ويقل لهده على الدنيا، ويتذكر الموت والدار الآخرة.

يرتبط ابن القيم رحمة الله تعالى: "انتفاح القلب والروح بالآلام والأمراض لا يحس به إلا من فيه حياة، فصحة القلوب والأرواح موقوفة على آلام البدن ومشاقها..." وقال أيضاً: "ولولا محن الدنيا ومصائبها لاصاب العبء من أدواء الكبر والعُجب والفرعنة وفسوقة القلب ما هو سبب هلاكه عاجلاً وآجلاً، فمن رحمة أرحم الراحمين أن يتفقه في الأحيان بأنواع من أدوية المصائب تكون حميزة من هذه الأدواء، وحفظاً لصحة عبوديته، واستفزاغاً للمواد الفاسدة الرذئة المهلكة منه. فسبحان من يرحم ببلائه، ويبتلي بنعمة، فلولا أنه سبحانه يداوي عباده بأدوية المحسن والابتلاء لطغوا ويعتوا، والله سبحانه إذا أراد عبده خيراً سبقاه من دواء الابتلاء والامتحان على قدر حاله; يستفرغ به من الأدواء.

(12) الحليه لأبي نعيم (135/1) والزهد لأحمد (920/2) ونحوه عند هناد في الزهد (247).

(13) شفاء العليل (524).
المهلكة؛ حتى إذا هدّبه ونقاه وصفّاه أهل الله لأشرف مراتب الدنيا وهي عبوديته، وأرفع ثواب الآخرة وهو رؤيته وقربه».

جعلني الله تعالى وإياكم من أهل عبوديته، ورقنا جنته وقربه ورؤيته في الآخرة إنه سبحانه مجيب، وصلوا وسلموا على محمد بن عباد الله كما أمركم بذلك ربيكم...
في مطلع العام: محاسبة ومقارنة

الجمعية 3/1/148/1418

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعود بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلما مضى له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، يا أيها الذين آمنوا انقولوا الله حق نطقه، ولا تموتون إلا وانتم مسلمون، [آل عمران 161] يا أيها الناس أتقووا رزقكم الذي خلقتم ونحن أحد وكل من زوجها وثمنهما، يجراه كلاً ونساء وأتقووا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقية [ النساء 29] يا أيها الذين آمنوا أتقووا الله وقولوا فولا سيدنا صل لكم أعيامكم وغفر لكم ذنبكم ومن يطعم الله ورسوله فقد فاز فوزًا عظيمًا [الأحزاب 27]

أما بعد: فيا أيها الإخوة المؤمنون: بعد توديع عام مضت أيامه ولياليه، وطويت صفحاته بما كان فيها من حسنات وسيئات، وفي مطلع هذا العام الجديد، هذه وقفة محاسبة وتذكير ومقارنة، محاسب فيها أفرادًا حتى تتحقق المحاسبة الجماعية، ونقارن بعض أفعالنا بأفعال سلفنا الصالح؛ لأننا نفت ننف من المحاسبة وننزها غيضاً وقدحاً في الذوات، وهذا سبب استمرارنا على الخطأ الذي كانت تتيجته التخلف لأمننا التي أصبحت عالة على الغير، بيد أبنائنا قبل أعدائنا، وقد كانت في موقع القيادة والصدارة على أيدي
أسلافنا، مع أن ظروفنا أحسن من ظروفهم من حيث الكثرة العدودية ومن حيث الموارد الطبيعية، لكن النظرية إلى الدنيا بيننا وبين أسلافنا كانت مختلفة، فحينما كانت الدنيا وسيلة عندهم، أصبحت عند الكثيرين منها غاية، ولو لم تكن غاية بالقول والادعاء - لأننا لا يمكن أن نعرف على أنفسنا - فهي غاية بالأفعال والأحوال.

إنه ولأسف يوجد انفصال بين قناعاتنا وبين أفاعنا، فقناعتنا هي بالدار الآخرة لكن أفاعنا في أكثرها لل الدنيا، ولم يكن عند أسلافنا هذا الانفصال، فقناعتهم كانت بالآخرة، وعملهم كان من أجلها، ويرى أن ذلك عين العقل والحكمة، حين يقول حكيم منهم: «لو كانت الدنيا ذهباً يفنى، والآخرة خزفاً يبقى، لوجب على العاقل أن يختار الخزف الباقى على الذهب الفاني، فكيف إذا كانت الدنيا هي الخزف الفاني والآخرة هي الذهب الباقى»(1). بهذه النظرية الصحيحة إلى الدنيا والآخرة صلح حال أسلافنا، فصلحت لهم الدنيا، وانقاذتهم لهم الأمور.


(1) انظر: الخصائص العامة للإسلام للدكتور يوسف القرضاوي (26).
لفوات سبقه; فكان تنافسهم في درجات الآخرة، واستباقهم إليها، كما قال تعالى: {وفي ذلك فلتنافسوا المنافسون} [الطفيلين: 26] ثم جاء من بعدهم فعكسوا الأمر فصار تنافسهم في الدنيا وحظوظها الفانية. (2)

لقد فتح سلفنا عن الله أمره، وتفكروا في حقيقت الدنيا ومصيرها إلى الآخرة; فاستوحشوا من فنتها، وتجافت جنوبهم عن مضاجعها، وتناءت قلوبهم عن مطامعها، وارتفتعت همتهم عن السفاف، فلا تراهم إلا صائمين قائمين، باكين والهين، ولقد حلت تراجمهم بأخبار زاخرة تشي بعلو همتهم في التوبة والاستسقاء، وقوة عزيمتهم في العبادة والأخلاق، وهاكم - أنها الإخوة - طرفًا من عبادتهم وعباراتهم (3) في مقارنة مع عبادتنا وأفعالنا: قال الحسن رحمه الله: "إذا رأيت الرجل ينافسك في الدنيا فنانسه في الآخرة"، وقال وهيب بن الورد: "إني استطعت ألا يسبقك إلى الله أحد فافعل"، وقال بعض السلف: "لو أن رجلاً سمع برجل آطور الله منه فانصدع قلبه فمات، لم يكن ذلك بعجب". (4)

كانوا رحمهم الله ورضي عنهم مجهدين في العبادة، متانين في الطاعة، قيل لنافع: "ما كان ابن عمر يصنع في منزله؟ قال: الوضوء (5)

(2) لطائف المعارف لابن رجب (131).
(3) علو الهمة لمحمد أحمد المقدم (9).
(4) انظر هذه الآثار في: لطائف المعارف (132).
لكل صلاة والمصحف فيما بينهما»(٥) ولم يكن أشد إزعاجًا عليهم من فريضة تفوت؛ لأنهم عظموا الله تعالى فعظموا فرائضه، قال وكيع بن الجراح: «كان الأعمش قريباً من سبعين سنة لم تفته التكبير الأولى، وانتقلت إليه أكثر من ستين سنة فما رأيته يقضي ركعة». (٦)
قارنا هذه المحافظة على الصلاة بحال الصلاة عند المسلمين اليوم!! وإذا أردتم أن تتم المقارنة فما عليناكم إلا أن ننظرنا إلى المساجد في صلاة الفجر!!
فإذا فاتت الواحد منهم صلاة الجماعة لعذر فما عساه أن يفعل؟! كان ابن عمر رضي الله عنهما إذا فاتته العشاء في جماعة أحياً بقية ليلته(٧).
كم تفوتنا الجماعة؟ وإذا فاتتنا فماذا نفعل؟ بل قد تفوتنا الصلاة في وقتها كسلاً وتهارناً بلا عذر، فما هو شعورنا تجاه ذلك؟ هل تحركت قلوبنا كما تحركت قلوب القوم؟ وما نهضت الأمة في وقتهم إلا لأن قلوبهم كانت يقظة مراقبة الله تعالى.
استشعروا مسؤولياتهم تجاه الله تعالى، وحافظوا على ما استرعامهم الله عليه من حقوق الناس وأعمالهم، فراقبوا الله في ذلك كله. يرى الواحد منهم أن الولاية والوظيفة مسؤولية وحماة؛ فيتجرد من شهوته

(٥) طبقات ابن سعد (٤/١٧٠) وسير أعلام النبلاء (٢/٣١٥).
(٦) تهذيب التهذيب (٢/٤٢٤) رقم الترجمة (٤٩٣).
(٧) حلية الأولياء (١/٣٢).
في مطلع العام: محاسبة ومقارنة

وينسى اللذئب للقيام بها خير قيام وإتقان عمله فيها.

أما نحن فإننا نجعلها سلماً يوصلنا إلى اللذئب والشهوات، ونظراً تشريفاً، ونتغافل عن كونها تكليفاً، وهذا سبب من أسباب التخلف والفوضى، عن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع أنه دخل على فاطمة بنت عبد الملك فقال: «ألا تخبرني عن عمر بن عبدالعزيز؟ قالت: ما أعلم أنه اغتسل من جناية ولا احتلام منذ استخفاف».

سبحان الله!! إنه رحمه الله ما تبذل ولا ترهب، كيف وهو الفقيه العالم!! ولكن هم المسؤولية أحمد شهواته. إنه تذكر أنه سيقف بين يدي الله تعالى لسأله: لماذا عمل في تلك الأمانة؟ فكان ذلك كافياً لأن يوجل قلبه، فتضيق عروقه عن شهواته. قارنو ذلك بحالنا، وانظروا كيف تتحرك شهواتنا بعد أدنى درجة ورفعة دينية نحصلها.

كانوا يعيون من جمل الدنيا أكبر همه، ويترون عليه ذلك، بينما ننظر إلى من فعل ذلك بإجلال وإكرار، نقول كيف أدار عقله تلك التجارب؟ كيف أحسن التصرف في فرص المال والجاه؟ وربما كان هذا الذي أثار إعجابنا وإكرارنا عن الآخرة من الغافلين؛ بل ربما أنه لا يراعي في كسبه حدود الله، ولا يتورع عما حرمه الله، ولا يؤدي حق الله فيه، وكثير منهم كذلك، ومع ذلك نعجب به، ونقدمه في المجالس والدعاء على قوم صالحين، من أجل الدنيا التي يملكها.

(8) الحليّة (٥٤٥/٥) والزهد لابن المبارك (١٤٥/٥) والسير (١٤٥/٥).
قال عامر بن قيس لقوم ذكروا الدنيا: «وإنكم والله لتهتمون؟ أما والله لست استطعت لاجعلهائهما واحداً، قال الحسن: ففعل ذلك حتى لحق بالله تعالى» (٤)

كانوا يعجبون من مؤمن بالجنة يطول نومه، ومؤمن بالنار يكثر لهوه، أما نحن فلا شيء من ذلك يثير الدهشة عندها، قال أحمد بن حرب رحمه الله تعالى: «يا عجبًا لمن يعرف أن الجنة تزين فوقه والنار تسحر تحته، كيف ينام بينهما» (١٠)

كان الخوف من الذنوب ملارماً لهم، أدى إلى شدة محاسبتهم لنفسهم ولومها على الحق قبل الجليل، والصغير قبل الكبير.

وضعوا النار نصف أعينهم مع رجائمهم في رحمة الله تعالى، لكنهم لم يتكلموا عليها وتركوا العمل كما يفعل كثير منا حينما يغرم ببطاعة أو ينهى عن مقصبة يبادر كقوله: "إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ" وينسي أو يتناسى "إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ العقاب".

كان منصور بن المعتمر إذا رأته قلت: "رجل أصيب بقصبة، منكسر الطرف، منخفض الصوت، رطب العينين، إن حركته جاءت عيناه بأربع، قالت له أمه: ما هذا الذي تصنع بنفسك تبكي الليل عامته، لا تسكت، لعلك يا بني أصبت نفسًا، لعلك قلت قتيلًا! فيقول: يا أمه، أنا أعلم بما صنعت نفسي" (١١)

(٣) الزهيد لابن المبارك (٥٨) (١٠) إحياء علوم الدين (٤٧/٤) (١١) صفوة الصفوة (٣/٢) ونحوه في الحلي (٥/٤١) وفي السير (٥/٧) (٤١/٣)
وف هذا الخوف الشديد أدى إلى ضبط أسلعتهم عن اللغو والثرثرة، فضلًا عن نطق الحرام، قال بعض أصحابه الربع من خيهم: «صحت الربع عشرين عاماً ما سمعت منه كلمة تعب».(12) قارنوا هذا مع رصيدنا الذي نودعه كل يوم في صحف الأعمال من الكلام الذي لا يفيد.

ومع هذا كله تجد عندهم تنوعاً في الأعمال الصالحة، ومسابقة في ميادينها، وإبداعاً في مجالاتها، مع كثرة هذا العمل الصالح بحيث يستوعب الوقت كله، قال عبدالرحمن بن مهدي: «لو قيل لحماد بن سلامة: إنك تموت غداً، ما قدر أن يزيد في العمل شيئاً»(13)، والحمد ابن سلامة تأثر بشيخه سليمان التيمي حيث قال عنه: «ما أتينا سليمان التيمي في ساعة يطاع الله عز وجل فيها إلا وجدناه إما متوسطاً أو عائداً أو مشيعاً لجنازة أو قاعداً في المسجد، قال: فكنا نرى أنه لا يحسن يعني الله عز وجل»(14).

لقد تعلقت قلوبهم بالله تعالى فكانهم الآخرة، يتسابقون عليها، ويتناضون فيما يقرب إليها.

ولما كان الصحابة قد شرفوا بالصحة لم يقعد التابعون عن مسابقتهم في الخير بحجة أنهم قد سُبقوا بالصحة؛ بل اجتهدوا في العمل لعلهم يدركون من سبقوهم، يفصِّل عن هذا المعنى التابعي الجليل أبو مسلم.

(12) طيات ابن سعد (6/185 والسير (4/259).
(13) السير (6/447 وتهذيب التهذيب (2/11).
(14) الحلية (3/297) وصفة الصفرة (3/297).
الخولاني رحمة الله تعالى حينما يقول: «أيظن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أن يستأثروا به دوننا؟ كلا، والله لنزاحمنه عليه زحاماً حتى يعلموا أنهم قد خلفوا وراءهم رجالاً»(15) فمن من ينظر تلك النظره، وينافس في الخير أولي الخير، ويرضى من الدنيا بما قسم له، ويفرغ قلبه للاخري؟! وصاحب الهمة العالية، والنفس الشريفة التوافقة، لا يرضي بالأشياء الدنيا الفانية، وإنما همه المساسبة إلى الدراجات الباقيه الزاكية التي لا تفنى، ولا يرجع عن مطلوبه ولو تلقت نفسه في طبه، ومن كان في الله تلفه كان على الله خلفه(16).

وبعد هذه المقارنة المختصرة هل أدركتم - أيها الأخوة - بم سبنا، وما سبب تخلفنا وضعفنا؟ إن سبب ذلك ركوننا إلى الدنيا، مع إعراض كثير عن الله والآخره، فوكلنا الله إلى أنفسنا، وما أضعفنا إذا وكلنا إلى أنفسنا. أما سر قوة أسلافنا فإنهم علقوا قلوبهم بالله تعالى والآخره فكفاه الله أمر الدنيا ورفعهم على أمم الأرض.

فهل ندرك ذلك في بداية عام جديد فنصلح أنفسنا حتى تصلح أمنتنا؟ نرجوا ذلك، ونسأل الله تعالى أن يصلح قلوبنا فإنه سميع مجيب. أعود لله من الشيطان الرجيم. واعبد ربك حتى تأتيك اليقين.

[الحجر: 99] بارك الله لي و لكم في القرآن العظيم.

(15) حلية الأولياء (2/127) والسيering (6/4) وعلو الهمة (211).
(16) لطائف المعارف (433).
الخطبة الثانية

الحمد لله حمدًا طيبًا كثيرًا مباركةً فيه كما يحب ربي ويرضى،
أحمده وأشكره وأتوب إليه واستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده
لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبد الله ورسول الله صلى الله وسلام وبارك
عليه وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجهم واتقنتما أثرهم إلى يوم
الدين.

أما بعد: فاتقوا الله أيها المؤمنون ومن يتق الله يجعله محترجًا
ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن ينكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ
أمره قد جعل الله ليكون شيء قدرًا (3) [الطلاق: 2, 3].

أيها الإخوة: في شهر محرم كتب الله النصر والغزارة لطائفة من
المؤمنين على جند من الكافرين؛ إذ أنجى الله موسى صلى الله عليه
 وسلم وقومه، وأطرق فرعون وجنده، وكان ذلك في يوم عاشوراء
فصامه النبي صلى الله عليه وسلم وأمر بصيامه حيث روى ابن عباس
رضي الله عنهما قال: «قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة
فرأى اليهود تصوم عاشوراء فقال: ما هذا؟ قالوا: هذا يوم صالح نجى
الله فيه موسى وبني إسرائيل من عدهم فصامه، فقال: أنا أحق بموسي
منكم؛ فصامه وأمر بصيامه» أخرجه الشيخان (17)، وأخبر في حديث
(17) أخرجه البخاري في الصوم باب صيام يوم عاشوراء (402) ومسلم في
الصيام باب صوم يوم عاشوراء (116).
أخير أنه يكفر السنة التي قبله (18) وأخبر صلى الله عليه وسلم بأنه إن بقي العام القادم سيصوم التاسع معه مخالفًا لليهود، فلم يأت العام القابل إلا وقد توفي صلى الله عليه وسلم (19).
فاحرصوا رحمكم الله على هذه السنة العظيمة؛ فصوموها وصوموا يومًا قبله أو يومًا بعده حتى تتحقق مخالفته اليهود.
وصلوا وسلموا على محمد بن عبد الله كما أمركم ربكم بذلك.

* * *

(18) كما في الحديث أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه عند مسلم في الصيام باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر وصوم يوم عرفة وعاشوراء والاثنين والخميس (1172) وأخرجه الترمذي مختصرًا مقتصرًا على ذكر يوم عاشوراء فقط في الصوم باب ما جاء في الحك على صوم يوم عاشوراء (750).
(19) كما في حديث ابن عباس عند مسلم في الصيام باب أي يوم الصيام في عاشوراء (1137) و(1134) وأبي داود في الصوم باب ما روي أن عاشوراء يوم التاسع (1445) و(1441).
القلب السليم: وصفه وأهله

الجمعة 16/5/1420

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا
ومن سئات أعمالنا، من يهدى الله فلما مضل له، ومن يضلل فلا هادي
له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً
عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى
بهدادهم إلى يوم الدين، أياً أياً الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتون
بلا ولن تؤمنون [الأنعام: 201] أياً أياً الناس اتقوا المشركين
الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجين وثبت منها رجالاً كثيرة ونساء
وأتقوا الله الذي خلق순 بنه والأرحام إن الله كان عليكم رقية [النساء: 1]
أياً أياً الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يصلي لكم أعمالكم ويعفر لكم
ذئبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً [الأحزاب: 20-71]

أما بعد: فيا أيها الإخوة المؤمنون: صلاح الجوارح في صلاح القلب،
وفسادها في فساده ألا وإن في الجسد مضغة إذا نصحت صلاح الجسد
كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وفي القلب قال ذلك رسول الله
صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه الشيخان

(1) جزء من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما الذي أخرجه البخاري في
الإيام باب فضل من استرأ لدنيه (five) وفي البيوع (1051) وسلم في
المساقية باب أخذ الخلاف وترك الشهادات (1099)، وأبو داود في البيوع باب
في اجتتناب الشهوات (323 و330-333)، والترمذي في البيوع باب ما جاء في
ولهذا يقال: القلب ملك الأعضاء، وبقية الأعضاء جنوده، وهم مع هذا جنوده طائعون له، منبعثون في طاعته، وتفيد أوامره، لا يخالفونه في شيء من ذلك؛ فإن كان المثل صالحًا كنّى هذه الجنود صالحة، وإن كان فاسداً كانت جنوده بهذه المثابة فاسدة، ولا ينفع عند الله إلا القلب السليم كما قال تعالى: "كل يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا أمانة لله للقلب سليم" {الشعراء: 88} سليم من الآفات والكرومات كلها(1). سليم من الشرك والبدعة، ومن الهوى والشهوة، ومن الحسد والدغل.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «والقلب السليم الذي ينحو من عذاب الله هو القلب الذي قد سلم من هذا وهذا، فهو القلب الذي قد سلم له، وسلم لأمره، ولم تبق فيه منازعة لأمره، ولا معارضة لخبره، فهو سليم لما سوى الله وأمره، لا يريد إلا الله، ولا يفعل إلا أمره، فإن الله، وحده غايته، وأمره وشرعه وسيلة وطريقته... ومتى كان القلب كذلك فهو سليم من الشرك، وسليم من البذع، وسليم من الغي، وسليم من الباطل، وكل الأقوال التي قيلت ففي تفسيره فذلك يتضمنها» إيه(2).

(1) جامع العلوم والحكم (140 - 141) شرح الحديث السادس.
(2) مفتاح دار السعادة (141).
(3) ترك الشبهات (120)، والنسائي في البيوع باب اجتثاث الشبهات (741).
(4) ابن ماجه في الفتى باب الوقف عند الشبهات (398).
إذا فهو قلب سلم من محبة غير الله تعالى، فأخلص عبوديته لله، إرادته ومحبة وتوكله وإذابة وإبهامه وخشية ورجاء. أخلص عمله لله، فإن أحب أحد في الله، وإن أغضب أبغض في الله، وإن أعطى أعطى الله، وإن منع منع الله. ولا يكفيه هذا حتى يسلم من الانقياد والتحكيم لكل من عدا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فالقلب يفسد بغير الله كفساد الكون لو كان فيه غير الله تعالى، فكما أن السماوات والأرض لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدت فذلك القلوب إذا كان فيها غير الله تعالى فسدت.

والله تعالى لا يريد من عباده غير توحيده وطاعته، وذلك لا يكون إلا بصلاح القلوب. وفي هذا المعنى قال الحسن رحمه الله تعالى لرجل: "دوا قلبي فإن حاجة الله إلى العباد صلاح قلوبهم.

أيها الإخوة: وكلما كان العباد أشد التزاماً بأمر الله تعالى كان ذلك دليلاً على سلامة قلبه وصلاحه واستقامةه، وأكثر الناس سلامة قلوب الأنباء عليهم الصلاة والسلام، فهذا خليط الرحمن إبراهيم عليه الصلاة والسلام يقول الله عنه: " وإن من شُعِّبَت إِبْرَاهِيمُ إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ \(84\) [الصافات: 33، 84]".

(4) إغاثة اللهم (11/1 -11/12).
(5) انظر التزكية بين أهل السنة والصوفية للدكتور أحمد فريد (15) عن: القلب في القرآن وأثره في سلوك الإنسان للدكتور سيد الشقيطي (16).
(6) جامع العلوم والحكم (141/1).
وخاتم النبيين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم شق صدره، وغسل قلبه ثلاث مرات:

مرةً وهو صغير يلعب مع الغلامان إذ أتاه جبريل فصرعه شق عن قلبه فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة فقال: «هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمرم، ثم لأمه، ثم أعاده في مكانته» أخرجه مسلم (٧) فصار قلبه سليماً من طفولته فنشأ على أكمل الأحوال من العصمة من الشيطان.

ثم شق صدره ثانية عند بعثته رسولًا إلى قومه زيادة في إكرامه؛ ليتلقى ما يوحي إليه بقلب قوي في أكمل الأحوال من التطهير (٨).

ثم شق صدره مرة ثالثة عند إرادة العروج به إلى السماء؛ ليتآهب لمناجاة الله تعالى. قال عليه الصلاة والسلام في حديث إسرائه ومعارةج: «فرج سقف بيتي وأنا بمكة فنزل جبريل صلى الله عليه وسلم ففرج صدري ثم غسله من ماء زمرم ثم جاء بطست من ذهب مطلى؛ حكمة وإيماناً فأثرها في صدري ثم أطبه، ثم أخذ بيدي فخرج بي»

(٧) أخرجه أحمد (١/٢١٦، وتسلم في الإيمان باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم (٢١١)، والدارمي في مقدمة سنة (١٨/٩)، والحاكم (٢/١١٦-١١٧)، والبيهقي في الدلائل (٢/٧) من حديث أنس رضي الله عنه وفي الباب حديث عنه بن عبد السلام عند أحمد (٤/١٨٤)، والدارمي (١/٨)، والحاكم (٢/١١٦).

(٨) انظر: فتح الباري لابن حجر (٧/٢٤٤).
القلب السليم: وصفه وأهله

إلى السماء...» أخرجه الشيخان واللفظ لمسلم 

فصار قلبه بما استخرج منه من علاقات الشيطان، وبهذه الغسلات الثلاث، وبحشوه إيماناً وحكمة؛ أصفى القلوب وآنها، وأكثرها سلامة وصلاحاً، وأصبح قلبه السليم بما فيه من أنوار الإيمان والحكمة مهيناً لاستقبال خير الكلام، فأنزل الله عليه القرآن: «نزل به الزوّر الأمين 

عليّ قلبي لتكون من المنذرين (194) بلسان عربى ضيفين» [الشعراء: 193-195]: «من كان عدوًا لجرحه فإنا نزله على قلبي إذن الله 

مصدقاً لما بين يديه وهدى وشرى للمؤمنين» [البقرة: 97].

وأختار الله تعالى لصاحبته صلى الله عليه وسلم ولنشر دينه في الأرض أبى الناس قلوباً، وأصدقهم لساناً، وأركبهم علماً وعملًا؛ فكانت قلوبهم أكثر القلوب في هذه الأمة صفاء ونقأء، وسلامة وإيمانًا، خاطبهم الله تعالى فقال لهم: «واعلموا أن فيكم رسل الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لمغتنم ولكن الله حب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان» [الحجرات: 47] وبيت صلاح قلوبهم واستقامتها وسلامتها فقال: «إنا الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للحوز لهم مغفرة وأجر عظيم»

(9) أخرج هذا اللفظ مسلم من حديث أنب أن أبا ذر كان يحدث فذكره (163)، وأخرجه البخاري من حديث أسى عن مالك بن صنعه فذكره في مناقب الأنصار باب المعراج (2887)، وسلم في الإمامية باب الإسراء (114)، أحمد (4/208)، والنسائي في الصلاة باب فرض الصلاة (1/217).
والذين تبعوا الصحابة بإحسان، وأخذوا عنهم، وترضوا عليهم سلمت قلوبهم من البذعة والتفاق، ومن الغش والتدخل، وذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا أعفر لنا وإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رعوف رحيم [الشعراء: 10].

والعلماء الراسخون في العلم يسألون رحمهم سلامة صدورهم، ويرجونه صلاح قلوبهم، والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكرون إلا أولو الألباب (٧) ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وحسب لنا من لذنك رحمة إنك أنت الوهاب [ال عمران: 78] واج لصلاح قلوبهم وسلامتها من الزين كانوا أشد الناس خشية الله تعالى: (إِنَّمَا يَخْشَى اللّهُ مِن عَبَّادِهِ [ناظر: ٢٨] وأكثرهم خشوعاً (٨) قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين آمنوا العلم من قبله إذا يُتَّلى عليهم يخرجون للأذقان سجداً (٩) ويقولون سبحان ربي إن كان وعد ربنا لمفعولاً (٨) ويخرجون للأذقان بكون وزيدهم خشوعاً [الإسراء: ١٠ - ١٠].

وهكذا المؤمنون الصادقون في إيمانهم تجد في قلوبهم من الصلاح والاستقامة على قدر إيمانهم ويقينهم، فكلما عظم إيمانهم وقينهم قلوبهم أكثر نقاء وسلامة، وصلاحاً واستقامة. ولهؤلاء المؤمنين الصادقين أوصاف معروفة، وميزان يستطيع كل مؤمن أن يزن قلبه بهذا الميزان ليعرف مدى سلامته وصلاحه واستقامته. إنه ميزان الطمانينة بذكر الله تعالى، والتأثر بكلامه، تألئ خشوع خالص لله تعالى، لا حظ لمخلوق
فيه، سالم من الرياء والتفاق والسمعة { الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم
بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب } [الرعد: 28]، قلوب صلحت
 وسلمت واستقامت، فأطمانو بذكر ربه { إنما المؤمنون الذين إذا ذكر
الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربيهم يتوكلون
 الذين يقيمون الصلاة وما رزقاهم ينفقون } أو تكلهم
حقاً [الأنفال: 4]، { لله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً متياني
تُقَرِّرُونَ جُلُودَ الْمُؤمِنِينَ رَبِّيَّمَ ثُمَّ تَلِئُنَ جَلُودَهُمْ وَقُلُوبَهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ
ذلك هدى الله يهدى به من يشاء } [الزمر: 23] فهذا هو الميزان، فليعرض
كل من قلبه على هذا الميزان الدقيق ليعلم قدر ما في قلبه من صلاح
وسلامة واستقامة.

وهناك قلوب سلمت؛ لكن نور الإيمان لم يخلط بنشأتها، فكان
فيها ما فيها من أدواء وملل، وفاسد وانحراف { قالت الأعراب أمَّا قل
لم تؤمنوا ولكن قُلوا أسلموا } ولم يدخل الإيمان في قلوبهم وإن تطيعوا الله
ورسوله لا ينكركم من أعمالكم شيء إن الله غفور رحيم } [الحجارات: 14].
وليس بعد هذه القلوب المذكورة إلا قلوب سلمت من كفر أو
نفاق أو بدع؛ لأنها ما سلمت الأمر لله تعالى، ولا انقتاذ لشرعه؛
فكان أصحابها من الهالكين.
أعزب بالله من الشيطان الرجيم { إن الذين هم من خشية ربيهم مشفقون
والذين هم بآيات ربيهم يؤمنون } والذين هم بربيهم لا يشركون
والذين يؤمنون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربيهم راجعون { أو تلك يسارعون

الخطية الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدي بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن جزاء أصحاب القلوب السليمة عظيم يوم القيامة، فكما أنهم سلموا أمرهم الله تعالى في الدنيا، وسلمو قلوبهم من علات الشهوات والشبهات؛ فإن الله تعالى سلم لهم الدار الآخرة، فجعلهم سالمين من أكادها وعذابها، متسلمين لذاتها ونعمها في جنت الخلد وأزلفت الجنة للمتغفين غير بعيد هذا ما توعذون لكل أوراب حفيظ من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب ذينيب أدخلوها بسلام ذلك يوم الخلود لهم ما يشاءون فيها ولدنيا مريد [ق: 31 - 35].

فمن أراد أن تسمل له الدار الآخرة فليحرص على سلامة قلبه.

ليخش الله تعالى، وليقبل عليه بقلب سليم خاضع له، خاشع عند آياته، ممتل أمره، مجتب نهيه من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب ذينيب أدخلوها بسلام سلم قلبه في الدنيا الله تعالى فاستحق أن يدخل الجنة بسلام.

ولاهمية هذا الأمر - أعني سلامة القلب - كان من دعاء النبي صلى
الله عليه وسلم: "أوَاسْأَلْكَ لسَنَا صَادِقًا وقَلْبًا سَليماً" أخرجه الترمذي (12).

ولما أزوجنا أيها الإخوة إلى أن نتعاهد قلوبنا فنسعى في سلامتها، وتأتي أسباب صلاحها، ونتحتب ما يرضيها ويهلكها. كم في قلوب العباد من شهوات الدنيا ومعها وحظوظها التي أضيعت من أجلها الفراض، وانتهكت الحرمات! تنافسوا فيها، واختلتفوا عليها؛ فتحاسدوا وتباغضوا، ثم تقاتعوا وتدابروا؛ فلا الأخ يرى أخاه، ولا القريب يعرف قريبه!

كم زاحم الإيمان حب المال فأضعفه أو أقصاه؛ حتى ضيعت الأمانات وارتكتبت الخيانات، وأكل السحت من ربا ورشوة وغصب حقوق الآخرين.

وعندما تقل القلوب السليمة في العباد، وتكثر القلوب المريضة، ويسوء ذلك في الناس؛ فإن العبد حينئذ يعرف بما يملك من جاه أو مال، ولا يعرف بقدر ما في قلبه من تقوى وإيمان.

وفي هذا الزمن باب الشهوة مفتوح على مصراعيه، إن سلم قلب العبد من شبهات في الدين، آتته شهوات الدنيا. فالمال شهوة، والجاه شهوة، وكرسي الوظيفة شهوة، والنسبة شهوة، والأهل والأولاد فتنة.

(10) أخرجه أحمد (135/4)، والترمذي في الدعوات (974)، والنسياني في thụهر باب نوع آخر من الدعاء (94/3)، والطبراني في الكبير (716)، وصححه ابن حبان (1974)، والحاكم وقال: على شرط مسلم وأقره الجهني (881/5) من حديث شداد بن أسود رضي الله عنه.
إن سلم العبد من واحد من هذه الشهوات وقع في أختها إلا من عصم الله قلبه، وجعل الآخرة همه، ورزقه القناعة في الدنيا. فذلك الذي يسعد في الدنيا والآخرة.

أسأل الله تعالى أن يجعلنا كذلك، اللهم إنا نسألك قلوبنا سليمة، اللهم أصلح فساد قلوبنا وأعمالنا، اللهم حب إلينا الإيمان ورزنه في قلوبنا وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان وجعلنا من الراشدين، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما بارك على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، والله رب العالمين.
شدة حر الدنيا من نار جهنم

الجمعة 20/4/1421 هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونوعذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله، فَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أُنفِقُوا لِلَّهِ مَا خَالَتْهُ قُلُوبُكُمْ وَأَحْيَاهُ وَأَخْرجُوا مِنْ دُونَ كُلِّ نَفْسٍ أُمَّةً يَهْدِينَهَا بِمَقْدِشٍ أَنْ تُسْلِمُونَ [آل عمران: 2:101]، فَيَا أَيُّهَا النَّاسُ آتِقُو اللهَ رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقْكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوجَهَا وَبَثَّ مِنْهَا رِجَالاً كَثيراً وَنساءً وَآتِقُو اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَهُ وَأَرْحَامَهُ اِلَّهَ كَانَ عَلِيْهِمْ رَقِيبًا [النساء: 1:4]، فَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آتِقُوا اللهَ وَقُولُوا قُولُوا سَدِيدًا [الصيّاح: 3:73] يُصِلِّح لَكُمْ أعُمالَكُمْ وَيَغْفِر لَكُمْ ذُنوبَكُمْ وَمَنْ يَطْعِع اللَّه وَرَسُولهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيمًا [الأنعام: 71 و70].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بذعة، وكل بدعة ضلال، وكل ضلاله في النار.

أيها المؤمنون: شدة الحر مؤذية، كما أن شدة البرد مؤذية أيضاً، وحرارة الشمس، ولئن يجعل الأحياء تبحث عن ظل يقي حرها، أو ماء بارد يخفف لهم؛ ولذا كان من كمال نعمة أهل الجنة أنهم لا يجدون الحر ولا يرون الشمس، كما لا يجدون شدة البرد. ظل دائم، واعدال في الهواء، لا حار يلفح، ولا بارد يلسع، ونذل لهم.
قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن في الجنة شجرة يسير الراكن في ظلها مئة عام لا يقطعها; أقورو إن شتم (وظل ممدوح) متفق عليه".

وهو كذلك دائم أبداً، لا يقطع في زمان من الأزمنة؛ كما في قوله تعالى: "أكلها دائم وظلها" (الرعد: 35). قال ابن سعود رضي الله عنه: "السجسج كما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس".

والسجسج في اللغة: الاعدال في الجو، يقال: يوم سجسج، إذا لم يكن فيه حر مؤذ، ولا برد شديد.

(1) آخرجه البخاري في التفسير، تفسير سورة الواقعة باب قوله: (وظل ممدوح)

(2) آخرجه ابن المبارك في الزيد (1545) وعبد الله ابن الإمام أحمد في زيادته على الزهد لابيه (213).

(3) نقل الخطابي عن ابن الأعرابي أن السجسج: أرق ما يكون من الهواء، ونقل..
شدة حر الدنيا من نار جهنم

وبضد ذلك جهنم - أعادنا الله والمسلمين منها - فإنها شديدة الحرارة، ظلها يحموم، وهبونها سموم وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال (41) في سموم وحميم (42) وظل من يحموم لا بارد ولا كريم [الواقعه: 1-44]، والسموم: الهواء الحار، والحميم: الماء الحار، والظل البحوم.

هو ظلم الدخان، وهو حار أيضاً، فاجتمع عليهم حرارة الهواء، وحرارة الماء، وحرارة الدخان أجارنا الله منها بعفوه ورحمة.

ومن المنين التي يعددها أهل الجنة لربهم عليهم: أن تعالى أبعد عنهم حرارة الهواء، يقولون: فمن الله عليًا ووقاً عذاب السموم (27) إنا كنتم من قبل ندعو إله هو البر الرحيم [الطور: 27, 28].

ومن شدة حرارة جهنم - أجارنا الله منها - أن بعضها يأكل بعضًا، ويحموم بعضها بعضًا، وأشده الحر نجد في الصيف ما هو إلا تنس من أنفسها، وأشد ما نجد من برد في الشتاء تنس من أنفسها؛ كما ثبت ذلك في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اشتكت النار إلى ربي فقالت: رب أكل بعضي بعضًا فأذن له بتنسٍ: نفس في الشتاء، نفس في الصيف.»

عن غيره أنه هواء لا حر فيه ولا برد، انظر: غريب الحديث (174/2) وقال ابن الأثير: أي معتدل لا حر ولا برد. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (423/2).

(4) انظر: تفسير ابن كثير (46/2).
النافذ في خطب الجمعة والميːد

فهو أشد ما تجدون من الحر، وأشد ما تجدون من الزمهرير؟ قال ابن عبد البر رحمه الله تعالى: «واحسن ما قيل في هذا المعنى ما فسره الحسن البصري رحمه الله تعالى قال: اشتكى النار إلى ربي فقالت: يا باب أعطيك بعضًا فخفف عنك، قال: فخفف عنها، وجعل لها كل عام تفسين، فما كان من برد يهلك شيئاً فهو من زمهريرها، وما كان من سموم يهلك شيئاً فهو من حراها»(1).

ثم قال ابن عبد البر: «ومعلوم أن الناس في الشتاء غير الشetà،

(1) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة باب الإبراد بالظهير في شدة الحر (536) وفي الدهل الخلق (365) ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة باب استحباب الإبراد بالظهير في شدة الحر لما يمضي إلى جماعة ويتالى الحر في طريقه (161) ومالك في الموطا (18-28) وشكواها المذكورة في الحديث حقيقة وليس محجورًا في أخطأ من حملها على المجار، وقد ذكر المحققون من أهل العلم أنها شكاوى حقيقية، قال ابن عبد البر: «يعضده عموم الخطاب، وظهر الكتاب، وهو أولى بالصواب»(2) وقالت حقيقة شكاواها الحافظ ابن حجر وابن المتنب، والسويطي والزرقاني وغيرهم من الشراح، انظر: الاستذكار (353) وفتح الباري (24/9) وشرح الزرقاني على الموطا (10/91) وهذا الحديث من الأدلة على أن الجنة والنار مخلوقتان، وهو مذهب أهل السنة من المحدثين والفقهاء خلافًا من أئمة من المبتدعون انظر: الاستذكار (34) وربّ عليه البخاري بقوله: باب ماجأ في صفقة الجنة وأعمالها مخلوقًا، وباب صفة النار وأعمالها مخلوقًا، وذكر الحديث كثيرًا تدل عليه. انظر: صحيح البخاري، كتاب باب الخلق، البابين: الثامن والعشرون.

(2) الاستذكار (353/1).
شدة حر الدنيا من نار جهنم وتَقَثَّبَا في الصيف غير الصيف لقوله: «نَقَصَ فِي الشَّتاء ونَقَصَ فِي الصِّفيف» اهـ.

فصار إذا أشد الحر في الصيف من نفسها، وأشد برد في الشتاء من نفسها، قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «النفس المذكور ينشأ عنه أشد الحر في الصيف» اهـ.

وخرج الطبراني عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «تطعُّم الشمس من جهنم في قرن شيطان وبين قرنين شيطان، فما ترتفع في السماء قضمة إلا فتح باب من أبواب النار، فإذا اشتد الحر فتحت أبوابها كلها» الوصية: «وهذا يدل على أن التنفس يقع من أبوابها، وعلى أن شدة الحر من فيح جهنم حقيقة» اهـ.

وكان الصحابة رضي الله عنهم يتأدون من شدة الحر في صلاة الظهر خاصة حرارة الأرض، وهم يسبدون عليها، حتى قال أنس رضي الله عنه: «كننا نصلي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في شدة الحر فإذا لم يستطيع أحدنا أن يمكِّن جبهته من الأرض بسط ثوبه فسجد عليه» رواه مسلم.

المصدر السابق (1053/3)
فتح الباري (2/42)
أخرجه الطبراني في الكبير (9/228-229) برقم (8988)، وحسن الهيثمي في مجمع الزواوي (1/63)، والزرقاوي في شرحه على الموطأ (1/46).
شرح الزرقاني على الموطأ (1/46).
أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة باب استحباب تقديم الظهر في أول الوقت في غير شدة الحر (1/62).
وفي لفظ لأبي عوانة: «كنا إذا صلنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سجدنا على ثيابنا مخافة الحر» (11)؛ ولذا أمرهم النبي صلى الله عليه وسلم بالإبراد في الظهر، أي: تأخير صلاة الظهر إلى آخر وقتها في شدة الحر، قال عليه الصلاة والسلام: «إذا اشتد الحر فأبدوا عن الصلاة فإن شدة الحر من فيح جهنم» رواه الشيخان (13)، قال الزرقاني رحمه الله تعالى: «أي من سعة انتشرها وتنفسها، ومنه مكان أفخ: أي متسع، وهذا كتابة عن شدة استعارها، وظاهرة أن مثار وهج الحر في الأرض من فيها حقيقة» (14).

أيها الأخوة: شدة الحر في الدنيا تذكرُ بحر الموقف العظيم يوم القيامة، كما تذكرُ بحر نار جهنم. وكلما اشتد الحرُ في الدنيا كان ذلك أدعى للتفكير والتذكير، وعدم نسيان حر القيامة، وحر نار جهنم. ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم قد ذكر لنا أن الشمس تكون قريبة من رؤوس العباد في عروض القيامة مما يجعل كرب العباد شديداً؛ فيطبطبون الخلاص بالفصل والقضاء ليذهب كلٌ واحد منهم إلى سبيله: إما إلى الجنة إما إلى النار، قال عليه الصلاة والسلام: "تدنو الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل، فيكون الناس

(12) مسند أبي عوانة (131).

(13) آخره البخاري في مواقيت الصلاة باب الإبراد بالظهر في شدة الحر (533).

(14) شرح الزرقاني على الموطا (57/1).
شدة حر الدنيا من نار جهنم

على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبه، ومنهم من يكون إلى ركبته، ومنهم من يكون إلى حقوقه، ومنهم من يلجه العرق إلقاءً، وأشار النبي صلى الله عليه وسلم بيده إلى فيه» أخرجه مسلم (15).

وإذا كان الناس يتاؤدون في الدنيا من شدة الحر ومن عرقهم؟ فإن من الناس من سيغرق في عرقه يوم القيامة - عذباً بالله من ذلك - قال النبي صلى الله الصلاة والسلام: «إن العرق يوم القيامة ليذهب في الأرض سبعين باعاً وإن لهبلغ إلى أفواه الناس وأذانهم» رواه مسلم (16)، وأشد من ذلك وأعظم: نار جهنم، من دخلها لا يقضي عليها فيموت، ولا يخفف عنه من عذابها، كلما نضجت جلودهم بئثتاء جلوداً غيرها لينذقوا العذاب.

إنه نار عظيمة، ليست نار الدنيا على شدة حرها واستعارها، وعظيم لهبها وشرهها إلا جزءًا يسيرًا منها؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "ناركم جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم، قول: يا رسول الله، إن كانت لكافية، قال: فضلنا عليها بسعة وستين جزءًا كلهن مثل حرها" متفق عليه (17)، قال القرطبي رحمه الله تعالى: "يعني

(15) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها باب صفة يوم القيامة (2864).
(16) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها باب صفة يوم القيامة (2863).
(17) أخرجه البخاري في باب الخلق باب صفة النار وأهلها مخلوقة (2765) ومسلم في صفة الجنة ونعيمها باب في شدة حر نار جهنم (2843) والترمذي في-
أنه لو جمع كل ما في الوجود من النار التي يودها بنو آدم لكان ذلك جزءاً من أجزاء جهنم المذكورة، وبيانه: أنه لو جمع حطب الدنيا فوقع كله حتى صار ناراً، لكان الجزء الواحد من أجزاء نار جهنم الذي هو من سبعين جزءاً أشد من حر الدنيا كما بينه آخر الحديث» اهـ (18).

أسأل الله تعالى أن يرحمنا برحمته، وأن يعفر عنا، وأن يجيرنا من حزى الدنيا وعذاب الآخرة، أعود بالله من الشيطان الرجيم:

وَقَالَ الْحَقَّ مِن رَّبِّكُمُ فَمِن شَاءَ فَلِيُؤْمِنُنَّ وَمِن شَاءَ فَلِيَكْفِرُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى الظَّالِمِينَ نَارًا

أُحَاطَ بِهِمْ سَرَادِقًا وَإِنْ يُسَفَّيْنَا يُغَافِرُنَا بِمَثْلِهِ مُحْيِي الْوَجْهِ بَنَسَى

الشراب وساءت مرتَّفقًا

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم،،،

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبي، ولا إله إلا علَى

الظلمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده رسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آل

وصحبه أجمعين.

أما بعد: فاتقوا الله - عباد الله - وخذوا من حر الدنيا تذكره لحر

الآخرة، وارجوا رحمة الله تعالى، وحافظوا عباده، ولا تأثِّموا مكره;

صفة جهنم باب ماجاء أن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم

(۲۵۹۴) ومالك في الموطأ (۷/۱۸۷)

(۱۸) المفهوم لم أشكل من تلخيص كتاب مسلم (۷/۱۸۷).
شدة حر الدنيا من نار جهنم

فإن من خاف الله في الدنيا أمن في الآخرة، ومن أمن في الدنيا فحري أن يخف في الآخرة، وكان من هدي سلفنا الصالح الحكّوم من عذاب النار.

يقول فاروق: هذه الأمة عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لو نادي من السماء: أيها الناس، إنكم داخلون الجنة كلكم إلا رجلاً واحدًا لحنفت أن آكون هو». (19)

وقال عثمان رضي الله عنه: «لو أتي بين الجنة والنار، ولا أدري إلى أيهما يؤمرُ بي؛ لاخترت أن آكون رمادًا قبّل أن أعلم إلى أيهما أصير». (20)

والخوف من النار يدفع المسلم إلى عمل الصلوات، واجتناب المحرمات، والأخذ بأسباب النجاة.

أما وإن من هذه الأمة أقوماً لا يحزنهم الفزع الأكبر فهم آمنون، ولا يحسون شمسًا موقف القريب من الرؤوس فهم محفوظون، ولا يجدون حراً وسمومًا فهم منعمون. كانت لهم في الدنيا أعمال صالحة أوصلتهم إلى ظل الرب تبارك وتعالى، قال النبي صلى الله عليه وسلم: سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشامب نشأ في عبادة ربه، ورجل قلب عليه، ورجل عمار، ورجل دورة، ورجل طلبه امرأة ذات منصب.

(19) أخرج أبو نعيم في الحلية (1/53).
(20) أخرج أحمد في الزهد (185) وأبو نعيم في الحلية (1/60).
وجمال فقال: إنني أخفى الله، ورجلٌ نصدى أخفي حتى لا تعلم شمالي ما تتفقُّ يمينه، ورجلٌ ذكر الله خالياً ففاضت عيناه) متفق عليه (٢١).
وقال عليه الصلاة وسلام: «من أنظر معسرًا أو وضع عنه أظلمه الله في ظله» أخرجه مسلم (٢٢).
وقال عليه الصلاة وسلام: «من أظل رأس غناً أظلمه الله يوم القيامة» أخرجه أحمد وصححه الحاكم وابن حبان (٢٣).
وأخبر عليه الصلاة وسلام أن: «كل أمري في ظل صدقته حتى يقضي بين الناس» أخرجه أحمد والحاكم (٢٤).
المتحابون في الله تعالى لهم نصيب من الظل يوم القيامة، قال النبي عليه الصلاة وسلام: «إن الله يقول يوم القيامة: أين المتحابون

(٢١) أخرجه البخاري في الأذان باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد (١٦٠) ومسلم في الركازة باب فضل إحراء الصدقة (١٣١).
(٢٢) أخرجه مسلم في الزهد والوقائع باب حديث جابر الطويل وقصة أبي اليسر (١٠٦) وأبان ماجه في الصدقات باب إنكار المعسر (٢٤١٩) والسدايمي (٢٥٨٨) وأحمد (٣/٢١١).
(٢٣) أخرجه أحمد (٢/٢٠) وأبو يعلى (٢٥٣) وأبان أبي شيبة (١٠٠) والبيهقي في الكبرى (١٧٥٩) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٨٩/٢) وصححه ابن حبان (٤٦٨).
(٢٤) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٤٤٥) وأحمد (٤٧٤) وأبو يعلى (١٧٦٦) وصححه ابن خزيمة (٢٤٣١) وأبان حبان (٣٣١) والحاكم وقال: على شرط مسلم ووافقه الذهبي (٤٦٦).
شدة حر الدنيا من نار جهنم

بجلاله، اليوم أظلهم في ظلٍّ يوم لا ظل إلا ظلٍّ» رواه مسلم (٢٥).

وكترا الدعاء من أسباب النجاة من عذاب الله تعالى، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يستعين في كل صلاة من عذاب جهنم (٢٦) ، وأمر بذلك، وقال أنس رضي الله عنه: «كان أكثر دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقمنا عذاب النار» رواه البخاري (٢٧) ، ومن دعاء المتقنين الأبرار: «ربنا إننا آمنًا فأغفر لنا ذنوبنا وقمنا عذاب النار» [آل عمران: ١٦].

فنسأل الله تعالى أن يظلنا في ظلٍّ يوم لا ظل إلا ظلٍّ، وأن يجيئنا من النار برحمةه، اللهم أجزنا من النار (٢٨) أصرف عنًا عذاب جهنم إن عذابها كان عزازًا (٢٩) إنها ساءت مسقراً ومقدامة» [الفرقان: ١٥ ت، ١٦].

فألوا وصلوا وسلموا على الرحمة المهدية، والنعمه المسادة، محمد ابن عبد الله كما أمركم بذلك ربك.

(٢٥) أخرجه مسلم في البر والصلاة والآداب باب فصل الحب في الله (١٥٦٦).

(٢٦) جاء ذلك في حديث عائشة عند البخاري في الفتح باب ذكر الدجال (١٢٩) وحدثه أبي هريرة عند مسلم في المساجد ومواقع الصلاة باب ما يستعاذه منه في الصلاة (١٥٨٥-٤٨) وحدثه ابن عباس أيضاً عند مسلم (٠) وغيرها من الأحاديث.

(٢٧) أخرجه البخاري في الدعوات باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: ربنا آتنا في الدنيا حسنة (٦٣٨٩).
الجمعة 5/1/1432 هـ

الحمد لله، نحذمه ونستعينه ونستغفره، ونوعذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهدى الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. ﴿وَأَيْثَّارّ اِحْيَانٌ إِنَّآ فَلَمْآ أَذْكُرَنَّكَ إِلَّآ أَنْتَمُ مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: 21)، ﴿وَأَيْثَّارُ اِحْيَانٌ إِنَّآ فَلَمْآ أَذْكُرَنَّكَ إِلَّآ أَنْتُمُ مُسْلِمُونَ﴾ (النساء: 1)، ﴿وَأَيْثَّارُ اِحْيَانٌ إِنَّآ فَلَمْ آذَكُرَنَّكَ إِلَّآ أَنْتُمُ مُسْلِمُونَ﴾ (الأنفال: 7). ﴿وَمِنْ يُطِعُ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (الأحزاب: 20, 71).

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، خير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعية، وكل بدعه ضلال، وكل ضلالة في النار.

أيها المسلمون: تاريخ البشرية تاريخ مليء بالأحداث والعبر، حفظ الكثير منه، وما ضاعت منه أكثر مما حفظ.

تمكنت ملوك وأمم من الإعمار والتشييد، وأوحيت أنواعاً من العلوم، حتى إذا ما تم بناؤهم، وأزهرت حضارتهم؛ عادت أنقاضاً كما كانت من قبل، وقام على أنقاضها حضارة أو حضارات أخرى.

والقرآن العظيم حكى لنا ما نحتاج إليه من تواريخ الأمم، وأعرض
عمت لا حاجة لنا به، فأخبرنا عن قوم نوح وما حل بهم، وعن عاد وثمود وما جرى لهم، وعن هامان وفارون وفرعون وقومهم وكيف عذبوا، وعن غيرهم من طواغيت وأمم، كذبوا المرسلين، وصدوا عن السبيل فأهلكوه، حتى نعتبر ونتعاظ، ونجلب الطريق التي سلكوها، قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبَّل كان أكثرهم مشركين [الروم: 42]. قل انظروا ماذا في السماوات والأرض وما تغذي الآيات وال텔ر عن قوم لا يؤمنون في كل ينتظره من أيام الذين خلوا من قبلهم، قل فانظروا إني معكم من المنظرين، ثم نحن رسلنا والذين آمنوا كذلك حقا علينا ننج المؤمنين [يوسف: 101-103].

آيات بيينات تدعونا إلى استدعاء التاريخ، والنذر في أحوال من كانوا قبلنا، ثم الاستفادة من هذا الاستدعاء والنظر؛ إذ هو المقصود الأعظم من عرض الأخبار والقصص، وأظهر رمز ذكره القرآن في الطغيان البشري، وأبدى فيه وأعاد، وفصل قصته واختصرها، وبيِّن عاقبته في سور عدة: فرعون الطاغية. ذلك العبد الضعيف الذي رزقه الله تعالى القوة والشباب، والسلطة والجلاء، والمال والقصور، والجيوش والعبيد، فلم يشكر نعم الله تعالى عليه؛ بل كفر بالله تبارك وتعالى، وأعلن جهوده له مع استيقيان قلبه به، وقال فرعون: يا أيها الملك ما علمت لك من إله غيري فأوقذ لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحًا، أطلق إلى إله موسى وإني لأطهَّر مثل الناس في الكاذبين [القصص: 38]، ثم ادعى أنه الررب من دون الله تعالى فحشر فداه.
فَقَالَ أَنَا رَبِّكُمُ الْأَعْلَىٰ [النَّازِعَاتِ: ۲۳، ۲۴].

وَمَا أُوْلِيَهُ إِلَّا ذَلِكَ إِلَّا الْعَلُوَّ وَالْإِسْتِكْبَارُ، تَلَقَّى الصِّفَةُ الَّتِي مَا دَخَّلَتْ قَلِبًا إِلَّا أَفْسَدَتْهُ. تَدْرَجَتْ بِهِ مِنْ دَرَكٍ إِلَى دَرَكٍ، حَتَّى بَلَغَ قَاعَ الكَفْرِ وَالجَحِّوْدِ.

إِنَّ الْعَلُوَّ هُوَ الْمَاءُ الَّذِي فَتَكَّبَلُ ثُمَّ بُلْبُلٍ فَرَعُونَ (۱)؛ حَتَّى مَا عَادَ يَنْظُرُ أَن لَّا حَدٌّ مِنَ الْخَلْقِ حَقّاً عَلَيْهِ؛ فَأَصَدَّرَ رَعْيَتِهِ، وَسَخَرَ هُمْ فِي خَدِمَةِ شَهْوَاتِهِ، وَأَوْقَعُ بِهِمْ أُلُوْانَ الظَّلَمِ وَالْأَذى.

رَأَى رَجُوُهُ فِي مَنَامِهِ، فَعَبْرَتْهَا كَهْتَهُ وَسَحَرَهُ بِأَذَاهِ مَلْكِهِ، وَسَيُقْونُ عَلَى يَدَ وَاحِدٍ يَخْرُجُ مِنْ بَني إِسْرَائِيلَ (۲). فَأَصَدَّرَ أَمْرَهُ الطَّاغُوتُ بِقُتْلِ أَبْنَاء بَني إِسْرَائِيلَ، وَاسْتِبِقاء بِنَاتِهِ لِشَهْوَاتِهِ وَشَهْوَاتِ جَنَّهُ.

قَالَ مَجاَهِدُ رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى: «لَقِدْ ذَكَرَ لَنَا أَنَّهُ كَانَ يَأْمُرُ بِالْقَصَّفَ فَيْشَقُ حَتَّى يَجِلَّ أمَاتَ الشَّفَارِ، ثُمَّ يُصِفُّ بَعْضَهُ إِلَى بَعْضٍ، وَيُؤْتِي بِبَحْبَالِ مِنْ بَني إِسْرَائِيلَ فَيَفْقَحُ عَلَيْهِ، فَيَجْزِيُ أَقْدَامَهُ حَتَّى إِنَّ الْمَرَأَةَ مِنْهُ لَتَضَعُ بُلُدَهَا، فَيَقُولُ بَيْنَ رِجْلِيَهَا، فَتَظَنُّ تَنْتَقِى بِهَدَةِ الْقَصَبِ عَن رِجْلِيَهَا لَمْ يَلْغَ مِنْ جِهَدِهَا. حَتَّى أَسْرَفَ فِي ذَلِكَ وَكَادْ يَفْنِيْهِمُ، فَقَالَ لِهِ: أَفْنِتْ النَّاسَ وَقَطَعْتِ النَّسْلَ، وَإِنَّهُمْ خَلَوْكَ وَعَمَالَكَ... فَأَمَّرَ أَنْ يَقْتِلَ الْغَلْمَانَ عَالَمَا وَيُسْتَبِقُونَ عَالَمَا» (۳).

---

(۱) انظر في عَلُو فَرَعُون وَعِمَانَةِ التَّحْرِيرِ وَالْتَنْوِيرِ لَابِن عَاشُورِ (۴۶/۶۶).
(۲) انظر: تُفْسِرُ الْطَّبِرِيِّ (۲۷/۲۷)، وَالْمَلْكُ وَالْعَلَّاِجُ لِلْسُوْطِيِّ (۲۲۳/۵).
(۳) الدَّرُّ الْمَلْكُ وَالْعَلَّاِجُ (۵/۲۷) وَعِزَاءُ لَابِن أَبِي حَاتِمِ.
ثم زاد علواً، فلم ير خالقه حقًا عليه، فجحده وانكره، واستكبر عن عبادته، واتعى ماله من حق. وهكذا أوصله علوا إلى هذا الحد؛ ولذلك فإن الله تعالى لما ذكر قصة موسى وفرعون بالنفيض في سورة القصص استهلّ القصة بذكر السبب الذي أورد فرعون هذا المورد المهلك وهو علوا على الناس فقال سبحانه: "إِنَّ فَرَعْوَنَ عَلَى الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهُ شَيْئًا يَسْتَضِفُّ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُدْبِحُ أَبْنَاهُمْ وَيَسْتَحْيَى نَسَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَا نَ مُفْسِدِينَ".[القصص: 4]

وعلوا فرعون كان سبباً في ظلمه وطغيانه، وفساده وإجرامه، والعلو يقود إلى هذه الكبائر، وربما وصل بالعبد إلى أخطر دركات الكفر وهو لا يشعر.

إن علوا فرعون أوصله إلى الظلم ففعل بريعته ما فعل، وذكر الله تعالى ظلمه فقال سبحانه: "وَإِذَا نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ آتِ الْقُوَّمِ الظَّالِمينَ قُوْمٌ فَرَعْوَنَ أَلا يُقْتُونَ".[الشعراء: 10، 11] وأوصله علوا إلى الطغيان والفساد كما أخبر الله بذلك "وَفَرَعْوَنَ ذَٰلِكَ الَّذِينَ طَغَوا فِي البَلَادِ فَأَكَثَّرُوا فِيهَا الفَسَادَ".[النجم: 10، 12]

وأوصله علوا إلى الإجرام "فَثُمَّ بَعْثَهُ مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فَرَعْوَنَ وَمَلَائِكَتِهِ بِآيَاتِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قُوَّةً مُّحَجَّرَةً".[يوسف: 75].

ولأن فرعون وجدته كانوا يريدون الاستمرار في هذا العلو على الناس خافوا دعوة موسى، لأنها سترفع من شأن بنى إسرائيل، وستوقفُ
علو فرعون وجنده، فاتهموا موسى وهارون عليهما السلام في دعوتهما
بأنهما إذا أرادا أن يسلبوا هذا العلو من فرعون وجنده، قالوا أجنُونا
لثلثين عما وجدنا عليهما آباءنا ونكون للكبرىاء في الأرض ما نحن لكون
مؤمنين» (يونس: 82) إن فرعون اتهم موسى وهارون عليهما السلام بما
هو واقع فيه، وهو الاستعلاء على الناس ونكون لكم الكبرياء في
الأرض».

والقرآن بيين لنا بصريح العبارة أن رفض فرعون وجنده لدعوة موسى
كان سببه علو فرعون على قوم موسى، واستعباده لهم فتم أرسلنَا
موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين (45) إلى فرعون وملكه فاستكبروا
وكانوا قومًا عالمين (46) فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهم لنا عابدون
المؤمنون: 45-47)

إن علو فرعون أوصله إلى حدٍّ جحود الله تعالى، وإن استيقن
قلببه، فجعل من نفسه طاغوتًا يعبد من دون الله تعالى، والطاغوت
هو ما عبد من دون الله تعالى، ولا يعبد الناس الطاغوت إلا إذا وجد
طاغية يدعوهم إلى ذلك؛ لأن الناس مفترون على التوحيد. وهذا
الطاغية لابد له من قوة حتى يُرغَم الناس على ذلك بالرغبة أو التهرب،
بالإرغاء أو التعذيب. ولا يخضع الناس لهذا الطاغيان إلا إذا كانوا ضعفاء
بالاستعباد أو بالترف أو بالجهل.
أما إن كانوا أقوياء علمًا وعملا وعبادة؛ فإن أي طاغية لن يستطيع
أن يخضعهم لطاغوته.
هذه الأمور اجتمعت لفرعون؛ فإنه كان طاغية قوياً، واستخدم
لإخصاع بني إسرائيل له أساليب الترهيب والتعذيب، وكان في بني
إسرائيل من الضعف والجهل والهومن ما جعلهم يخضعون لفرعون;
ولذلك ذفهم الله تعالى. أعود بالله من الشيخان الرجيم: ۳۷ وناءى
فرعون في قوله قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي
أقلنا تنصرون ۳۸ أم أنا حي من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين ۳۹ فلو
ألقي عليه سورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقاتلين ۴۰ فاستخف قومه
فأطاعوه أيهم كانوا قومًا فاسقين» [الزخرف: ۵۱ - ۵۴].
بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم ...

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمنتقين، ولا عدون إلا على
الظالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً
عبد ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه واتبعه
إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله - عباد الله - وإياكم والله فإنه سبب هلاك
الطغاة في تلك الدنيا الآخرة نجعلها للذين لا يرتدون علواً في الأرض ولا فسادًا
والعاقبة للمتَّقين» [القصص: ۸۳].

أيها المؤمنون: فص الله تعالى علينا نباً فرعون، وأوضح في أكثر
من آية علوه واستكباره عن الحق، وبيّن أن ذلك سبب هلاكه، فلماذا
هذا البيان والتوضيح؟!
إن القرآن مصدر هديان لنا، وعلاج لأمراض القلوب التي منها: العلوي. والنفس البشرية فيها من الضعف ما لا يخفى، فقد يغترعب العبد بنعمة أنعم الله بها عليه، فيرى أنه أعلى من غيره، ويترجح في ذلك، ولربما وصل إلى ما وصل إليه فرعون.

إن الناس من أصابته العلوي والاستكبار عن الحق بسبب جاه أو مال رزقه الله إياه فظلمه وأفسد في الأرض، ورأى أن له الحق في الظلم والفساد.

ومن الناس من يكون سببًا علوه ما أعطاه الله من الذكاء والعقل؟ فيرفض شريعة الله تعالى؟ لأنها لعموم الناس وهو أميز منهم عقلاً، وآlichen فكرًا حسب رؤيته، وهذا شأن كثير من الزنادقة والملحدين الذين جعلوا أول واجباتهم الشك في وجود الخالق سبحانه وتعالى، والذين يرفضون التصويع الشرعية، ويردونها بمحض عقولهم.

فيهم نوع من العلوي على التصويع، والاستكبار عن قبول الشريعة كلها. ومن الناس من قد لا يصلي مع خديمه عمله؛ لعلوه عليهم، أو لا يصلي مع عامة المسلمين في المساجد؛ علواً بنفسه، واعتاداً بها وصور العلوي عديدة، ونماذجه في الناس كثيرة. ومن الناس من يوصله علوه إلى الكفر والعياذ بالله، ومنهم من يوصله إلى كبائر الذنوب. والعبد مأخوذ أن يحاسب نفسه، ويقتات عن قلبه؛ فإن أنعم الله تعالى عليه بنعمة شكر الله عليها، ولم يجعلها سبباً لعلوه وفساده؟ ليكون من الناجين.
وعندما وقع في شيء من العلم عليه أن يendir بالتوتة قبل أن يصل إلى ما وصل إليه فرعون، فستكبر عن الله تعالى، ويرفض عبادته، فتكون مصيره مصير فرعون الذي قال الله تعالى فيه "فأخذناه وجعلناه في اليأس" كَفَّاكَنْ عَاقِبَةَ الظالمين (14) وجعلناهم أثناً يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون (15) وأتَعَنَّاهُمَّ في هذه الدنيا لغة ويوم القيامة هم من المقربين" (القصص: 40 - 42).

لقد أغرق الله فرعون، وجعل موقته آية لبني إسرائيل، لأن أكثرهم ما كان يصدق أن فرعون يموت (14)، بل إن بعضهم صدق أن فرعون إنه والعياذ بالله، فاغرقه الله تعالى أمام أعيينهم، ليريبهم عاقبة كفره، وحتى يعلموا أن طغيان فرعون وجنده وماله وقوصورة التي تجري من تحتها الأنهار لم تنفعه من عذاب الله تعالى شيئاً.

وحكي الله تعالى موسى عليه السلام، وشرع صوم اليوم الذي يوافق نجاته شكرًا لله تعالى على ذلك، وهو صوم يوم العاشور من شهر محرم، ولما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة وجد اليهود يصومونه.

(4) نقل المفسرون أن بني إسرائيل لم يصدقوا موته، قال قتادة: "لما أغرق الله فرعون لم تصدق طائفة من الناس ذلك، فأخرجه الله آية عظيمة". ونحوه عن ابن جريج وغيره، انظر: جامع البيان (165) ونقل ابن كثير عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: "إن بعض بني إسرائيل شكتوا في موت فرعون فامر الله تعالى البحر أن يلقيه بجسده سوياً بلا روح وعلى عزيز المعرفة على نجوة من الأرض وهو المكان المرتفع، ليتحققوا موته وهلاكه". اهـ تفسير ابن كثير (687).
المنيد في خطب الجمعة والعيد:

قال لهم: "ما هذا اليوم الذي تصومونه؟" فقالوا: هذا يوم عظيم أعجمي والله في موسى وقومه، وأغرق فرعون وقومه، فضاحه موسى شكرًا فنحن نصومه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فنحن أحق وأولى بموسى منكم فضاحه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر بصيامه". أخرجه الشيخان، وأخبر عليه الصلاة والسلام أنه يكفر السنة التي قبله كما في حديث أبي قتادة عند مسلم، وأمر بمخالفة اليهود، وذلك بصيام يوم قبله أو بعده وقال عليه الصلاة والسلام: "لتن بقيت إلى قابل لأصوصم التاسع".

فصوصون - أيها المسلمون - شكرًا لله تعالى على نجاة موسى، وغرق فرعون، وخالفوا اليهود فصوموا يومًا قبله أو يومًا بعده...
وصلوا وسلموا على نبيكم محمد كما أمركم بذلك ربك...

(٥) أخرج البخاري في الصوم باب صوم يوم عاشوراء (٤٠٢)، ومسلم في الصيام باب صوم يوم عاشوراء (١١٣). (٦) أخرج مسلم في الصيام باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر وصوم يوم عرفة وعاشوراء والإثنين والحمنس (١١٦). (٧) كما في حديث ابن عباس عند مسلم في الصيام باب أي يوم يصوم في عاشوراء (١١٤).
الثبات على الحق

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونوعذ بالله من شرور أفناني، ومن سيئات أعمالنا، من يهدى الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله. {يا أيها الذين آمنوا أنظروا الله حق ناقضته ولا تموتون إلا وأنتم مسلمون} [آل عمران: 102]. {يا أيها الناس أنظروا ربك الذي خلقكم من نسمة واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجلا كثيرا ونساء وانظروا الله الذي تساءل به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا} [النساء: 1]. {يا أيها الذين آمنوا أنظروا الله وقولوا قولا سديدا} {سورة الإحزاب: 57}.

ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيمًا} [الإحزاب: 70, 71].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدى محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعنة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالية في النار. {يا أيها الناس: الاهتداء إلى الصراط المستقيم، والالتزام الحق المبين نعمة لا تعدلها إلا نعمة الثبات عليه إلى الممات}.

وكهم من بشر زاغوا فأتزاع الله قلوبهم، وعموا عن الحق فأضلهم الله تعالى بحكمته وعدله {فرقين هذين وفرقين حق على هم الضلالة إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويهبون أنهم مهتدون} [الأعراف: 32].
وكم من آخرين عرفوا طريق الحق فسلكوه، وعرفوا الباطل فجانبوه؟ ولكنهم ما استمروا على ذلك، ولا تمسكوا بمنهجهم، ولا بقوا على هداهم.

قوم أصابتهم الفتنة فجمحت بهم عن الجادة، وباعدت بينهم وبين الحق؛ فضلوا من بعد الهداثة، وعموا من بعد البصرة، نعوذ بالله من الحور بعد الكور، ومن الضلال بعد الهدى.

والثبت على الحق إلى الممات أمره عسير المنال إلا على من وفقه الله تعالى وثبته. وإذا تتابعت الفتنة، وترادفت المحن، وعظمت الابتلاءات؛ كثر المتساقطون من جرائها، الذين يبدلون أمر الله تعالى؛ اتقاء للبلاء، أو طمعاً في الدنيا، ومن بدأ أمر الله تعالى، وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم فلن يرد حوض النبي صلى الله عليه وسلم حينما يرد عليه الذين ثبتوا على الحق، ولم يبدوا أو بغروا.

إن الثبات على الحق إلى الممات نعمةً من الله تعالى ينعم بها على من يشاء من عباده، فلا يصرفهم عن الحق صارف، مهما كانت قوته وأثره، ولا يمنعهم من الصدع به منع ولو كان فيه ذهاب أموالهم وأولادهم، أو كان فيه أذى أحسادهم، ولو عذبوها بالنار، أو قطعوا بالسنان، أو مضطروباً بأشواع الحديد، ما يردهم ذلك عن دينهم.

كما حكي الله تعالى عن سحرة فروا من رضوان الله عليهم حينما آمنوا هدهم فرعون بالعذاب الآليم، وقال: { فلأقطع أن يديكم وآزَّلكم من خلاف ولأصلِبْكم في جذوع النخل وتعلمن أني أشد عذابا وأبقى } [طه: 108]
109

الثبات على الحق

فكان جوابهم على وعيد فرعون وتهديدته أن قالوا: { لن نُؤثِّركُ على ما جاءنا من البينة والذّي فطرنا فافقض ما أنّ قاضيّ هذه الحياة الدنيا } (طه: 22)، إنه الثبات على الإيمان لما ذاقوا حلاوته، وخلالته بشاشته قلوبهم.

وقال خباب بن الأرت رضي الله عنه: { شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهو متوسّط بردة له في ظل الكعبة - قلنا له: ألا تستنصرُ لنا ألا تدعو الله لنا؟ قال: كان الرجل فيمن قبلكم يُحفر في الأرض يُجعل فيه فيجاء بالمشار فيوضع عليه رأسه فيشق باثنين، وما يصح ذلك عن دينه، ويمثّس بأشكال الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصح ذلك عن دينه، والله ليؤمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكم من صنعاء إلى حضرموت لا يخفق إلا الله أو الذئب على غنه، ولكنكم تستجعلون رواه البخاري(1).}

إنه الثبات على الحق مهما كلف الأمر، ومعهما كانت النبؤات؛ ففي سبيل الله تعالى تهون عظائم المصائب، وتصغر كبريات البلايا والمحن.

وهذا التثبت يحتاج إليه أهل الحق في مواجهة أهل الباطل، سواء كانت المواجهة مواجهة سلاح وقُتال أم مقارعة حجة وبيان، ويسألون

(1) أخرج البخاري في مناقب الأنصار باب ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من المشركين بِمكة (387)، وأبو داود في الجهاد باب في الأسير يكره على الكفر (260).
الله تعالى أن يرزقهم الثبات على الحق.
وإذا رأوا تجمع الكفر عليهم بملته المختلفة، وأديانه المتفرقة، ورمالهم العدو عن قوس واحدة، وهو يملك من العدة ما لا يملكون، وعندهم من الأسلحة ما لا يتصورون؛ فإنهم لا يخافونه، ولا يخشون تجمع الناس عليهم; لإيمانهم بأن الله تعالى أقوى، وأن جنده أكثر; فتعلن قلوبهم بالله العظيم، وتعلن لجوءهم إليه سبحانه وتعالى.
ومن الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فأحفظوه رأدهم إيمانًا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلوا بنعة من الله وفضل ولم يمسهم سوء وآثروا رضوان الله والله ذو فضل عظيم» [آل عمران: 173-174].

وهم مع هذا الإيمان واليقين، وعدم الخوف إلا من الله تعالى؛ يعلمون أن للنصر على العدو شرطاً لا بد أن يحققوه، وأن الثبات على الحق في مقابلة الباطل ومقارعته مرهون بتحقيق هذا الشرط الذي هو: إقامة دين الله تعالى ظاهراً وباطناً، في كل شؤونهم وأعمالهم؛ لأنهم يقرؤون قول الله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصرواكم ويتثبت أقدامكم» [محمد: 7].

كما يعلمون أن من أهم مواضع النصر على الأعداء: مقارنة الذنوب والمعاصي؛ فتراهم بجانبين طرقها، حذرين من أهلها، ومع هذا التوقي والحذر فإنهم لا يأمنون على أنفسهم، ولا يدعون عتمتها من كل الذنوب؛ ولا أجل ذلك فهم يكثرون من الاستغفار إذا حانت ساعة مقارعة الباطل، وغلت مراحل المعارك، فيقولون: «أَنَا أَعْفُ عِنْدَكُمْ ذَنُوبًا وَإِسْرَافًا».
في أمرنا وثبت أقدامنا وأنصرنا على القوم الكافرين [آل عمران: 147].
وإذا التفت الصفو، ورأوا كثرة الجموع، وهول الحشود؛ لم يكن في قلوبهم إلا الله تعالى، يكثرون من ذكره وتكبيره وثناء عليه بما هو أملهم، لأنه سبحانه وتعالى أمرهم بذلك {يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئةً فاتبؤوا وأذكروا الله كثيرًا لعلكم تفلحون} [الأنفال: 45].
وبلغهم على الله تعالى يسألونه الثبات قاتلين: {ربنا أفرغ علينا}. قبرًا وثبت أقدامنا وأنصرنا على القوم الكافرين [البقرة: 250].
إنهم وحالهم تلك قد أتوا بأسباب الثبات على الحق، وحققوا شروطهم، وأزالوا مواضعهم، فكان جزاؤهم تثبت الله تعالى لهم ثبت قلوبهم وربط عليها؛ فما هبت عدواً مما كانت قوته، وحيضاً بلغت كثرةها. وثبت أقدامهم فما تزجحت عن مقارها، ولا ولت على أعقابها؛ فواجهوا عدوهم الكثير بعدهم القليل، ورموه بسلاحهم الصغير ورماهم بالسلاح القوي؛ فخاب سلاح عدوهم، وأصاب رميهم ما روموا؛ لأن الله تعالى سددهم، وهو الذي رمى عنهم {وما رميتم إلا}. رميتم ولكن الله رمي {الأنفال: 17}. وأمدhem ببلاينكة تقاتل معهم، وثبتهم في مصابهم {إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعاب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بناح {[الأنفال: 12].}
وليس ميدان ممارسة الباطل بالحجة بأقل شأنًا من ممارسته بالسلاح، وليس مناظرة الكافرين في كفريهم، ومناقشة المنافقين في نفاقهم.
ووجادلة أهل الشهادات في شبهاتهم إلا من جهاد الكلمة الذي أمر الله تعالى به مع جهاد السلاح في قوله سبحانه: "لا أتيي الله ي-readable-text"
والمنافقين وأغلظ عليهم وما أواهم جهتهم وينص المصير" (الحجر: 9). وصحح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم" رواه أحمد وأبو داود وصححه ابن حبان والحاكم.  
وقال ابن عباس رضي الله عنهما: "أمره الله تعالى بجهاد الكفار بالسيف والمنافقين باللسان، وأذهب الرفق عنهم".

وهذا الجهاد يقتضي دحض الباطل بالحجج، وكره بالمجة، وهو يحتاج إلى ثبات في المناظرة وجادلة والناقشة، وهذا الثبات يطلب من الله تعالى; كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يفعل فيدعو قائلًا: "رب أعني ولا تعن علي، وإن صريني ولا تنصر علي، وأمكر لي ولا تمكن علي، وأهديني وسر هدائي إني، وإن صريني على من رغى علي،... رب تقبل نبتي وأغمست حبتي وأجب دوعي وثبت حجتي وأهد قلبي، وسدد لساني واسلسل سخيمة قلبي" رواه أبو داود بإسناد صحيح.

(2) أخرجه أحمد (124/3)، وأبو داود في الجهاد باب كراهية ترك الغزو (425)، والنسائي في الجهاد باب وجوب الجهاد (67/7)، وصححه ابن حبان (479/81).

(3) أخرجه الطبري في تفسيره (181/138)، والبيهقي في الكبري (9/11).

(4) أخرجه أحمد (272/1)، وأبو داود في الصلاة باب ما يقول الرجل إذا سلم (151/10) واللفظ له والترمذي في الدعوات باب في دعاة النبي صلى الله.
الثبات على الحق

وإلا فإن العبد إذا لم يُسدد في حجته، ويقوي قلبه؛ اضطراب في كلامه، وضاعت حجته، وضعف في مناظرته.

أسأل الله تعالى أن يثبت قلوبنا على الحق، ويسدّد ألستنا في النطق به، ويتوافنا غير مبدلين ولا مغيرين.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: "ليثبت الله الذين آمنوا بالقول النابئ في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويجعل الله الطالبين ويفعل الله ما يشاء" {إبراهيم: 27}.

بارك الله لي وكم في القرآن العظيم.

الخطابة الثانية

الحمد لله، حمداً طيباً كثيراً مباركًا فيه كما يحب ربي ورضي، أحمده وأشكره وأتوب إليه واستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين.

أما بعد: فأنبأوا الله تعالى حق التقوى؛ فإن العبد إذا حقق التقوى، وراقب الله سبحانه في السر والعلن رزقه الله الثبات على الحق إلى الممات، وثبته عند موته فلا يجد الشيطان إلى قلبه سبيلًا، وثبته في

عليه وسلم (1803)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (761)، وابن ماجه في الدعاء باب دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم (1833)، وصححه ابن حبان (947)، والحاكم، ووافقه الذهبي (1/519-520).
قبره فلا تضره فتنة القبر، وثبيته في موقع القيامة فلا يزعج مما يرى من أهوال.

ألا وإن من أسباب الشبات على الحق: قراءة القرآن باخشع وتدبر، فما فيه من أسماء الله تعالى وصفاته، وعظمته وجلاله، يجعل القلوب تتعلق به سبحانه دون من سواء. ومن أعظم أسباب الشبات: تعلق القلوب بالله تعالى.

وما في آياته من الوعد يجعل العبد راغبا فيما عند الله تعالى، طالباً لثوابه، فلا يترك الحق لشهور الدنيا وزخرفها مما عظمته. وما في آياته من وعيد شديد على من جانب الحق ورفضه يجعل قلب العبد يخاف الحساب ودته، والعرض وكرته، والعذاب وشدة، فلا يترحح عن الحق مما ناله من عذاب وأذي في الدنيا؛ لأنه يرى في آيات الله تعالى أن عذاب الدنيا الزائدة لا يساوي شيئاً أمام عذاب الآخرة الابقية.

ولعظيم ما للقرآن من أثر في تثبيت القلوب على الحق فإن آياته نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم مفرقة منذ بعثته إلى وفاته؛ تقوى لقلبه، وثبتت لإيمانه وقال الذين كفروا ولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لثبت به فؤادك ورئالنا ترتيلًا [القرآن: 22].

ومطالعة أخبار المؤمنين السابقين، وما نالهم من أذي في سبيل الله تعالى سبب مهم من أسباب الشبات على الحق. ومن أعظم مقاصد القرآن والسنة في قص القصص، وذكر أخبار المرسلين، وأحوال الغابرين:
ثبتت القلوب المؤمنة على الحق مهما كانت العواقق والصوارف، ومهمها ترتبت على هذا الثبات من الابتلاءات والمحن. وكلاً تنص عليه من أنباء الرسول ﷺ نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وهو موعظة وذكرى للمؤمنين [هود: 120].

ومن أعظم أسباب الثبات على الحق: الدعاء، وسؤال الله تعالى التثبت، كما أن الله تعالى على الراسخين في العلم، وامتدح قولهم: "رَنَانَا لَتْزَعُ قُلُوبُنا بَعْدَ إِذْ هَدِينَا وَهُمْ لَنَا مِنْ لِدْنَكَ رَحْمَةٌ إِلَّا كَأَنتَ الْوَهَابُ" [آل عمران: 8].

وكان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: "يا مثبت القلوب ثبت قلوبنا على دينك" وفي لفظ: "يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك". وكان يقول: "ما من قلب إلا بين أصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أقامه، وإن شاء أزاغه".¹⁰

وصح عنه على الصلاة والسلام أنه كان يدعو في صلاته فيقول: "الله إني أسألك الثبات في الأمر".¹¹

(5) أخرجه من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه أحمد (4/182)، والأخري في الشريعة (ص 317)، والبغوي في شرح السنة (89)، وابن ماجه في المقدمة باب فيما أنكرت الجهمية (191)، واللفظ له، وصححه البصري في الرواية (87/1)، وأخرجه من حديث أنس رضي الله عنه ابن أبي شيبة في مصنفه (1916)، ومن حديث هشام بن عروة عن أبيه عبد الرزاق في مصنفه (1946).

ولفظ: "يا مثبت القلوب..." لا ابن ماجه وعبد الرزاق وابن أبي شيبة.

(6) أخرجه من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه أحمد (4/125)، والنسائي.
وكان أكثر من الأدعية التي فيها الثبات مع أن الله تعالى عصمه من الزين والضلالة.

وكان من هديه عليه الصلاة وسلم الثبات على الأعمال الصالحة التي يعملها كما قالت عائشة رضي الله عنها: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا عمل عملاً أثبته"، وفي لفظ: "إذا صلى صلاة أحب أن يداوم عليها".

إذا كان هذا حال خير البشر وخاتم النبأين محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم، وهذا حرصه على الثبات على الحق - وهو المعصوم الذي قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر - فما هو حال المسلمين في الأزمان المتأخرة، وقد فتحت عليهم أبواب المحن، وتلاطم من حولهم الفتن؟! حتى رأينا رجالاً ذوي عقول وأفهام جرّتهم الفتن إلى أتونها، وصلتهم بنارها، فما عاد لهم ثباتٌ على الحق، ولا صبرٌ على البلاء، ولا قوة في مواجهة الباطل!!! وسبب ذلك: عدم أخذهم بأسباب الثبات والقوة في تحسين أنفسهم ضد الفتن والابتلاءات، والفتنة قد تكون فتنةً بالضراة من الترهيب والتعذيب والإقصاء، وقد

في السهوب باب نوع آخر من الدعاء (5/234)، والترمذي في الدعوات (7/234)، وصححه ابن حبان (935)، والحاكم وقال: على شرط مسلم، ووافقه الذهبي (5/2).

(87) أخرج محمد في حديث طويل يحكي أحوال النبي صلى الله عليه وسلم من حديث عائشة رضي الله عنها في صلاة المسافرين باب جامع صلاة الليل (146).
الثبات على الحق

تكون فتنة بالسراء من الترغيب والعطاء والإذناء.
ولا يسلم من ذلك إلا من سلمه الله تعالى وثبته، فلقي الله تعالى
غير مفتون في دينه، ثابت على الحق، لم يجد أهل الباطل عليه سبيلاً،
ولا سلك الشيطان إلى قلبه طريقاً. والعبد مأمور أبداً أن يسعى في
صلاح قلبه، وثبتت إيمانه، والثبات على الحق مهما كثر الزائغون
 عنه، أو ضعف صوت الداعين إليه؛ لأنه لا ينظر إلى كثرة الاتباع،
ومعاصدة الإخوان، بقدر ما يلاحظ رضوان الله تعالى، ويرغب في
جنته ورضاه؛ وذلك السعيد الذي لا يشقي أبداً.
فتعاهدوا قلوبكم - عباد الله - وقووا إيمانكم، وثبتوا على الحق
المبين، فإن الدين دار إبلا واعتبار، وإن الآخرة هي دار القرار.
أتصل الله تعالى أن يثبتنا على الحق. اللهم يا مقلب القلوب ثبت
قرونا على دينك، اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل
باطل وارزقنا اجتذابه، ولا تجعله ملتبساً علينا فنضل، اللهم أحبينا
مسلمين، وتوفنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، غير خزاباً ولا مفترون،
وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضاً إليك غير مفتونين ولا مغرين.
اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم
إنك حميد مجيد.
الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهدى الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، {يا أيها الذين آمنوا إتقوا الله حق تقاتك ولاتموتون إلا بأنتم مسلمون} [الأنعام: 101] {يا أيها الناس إتقوا ربككم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجين وثبت منهما رجلا كثيرا ونساء واقترا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم ربيبا} [النساء: 1] {يا أيها الذين آمنوا إتقوا الله وقولوا فؤلاء سيداء} {يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم} [الدفء: 37] {ذُنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظیما} [الأحزاب: 71].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعه، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الإخوة المؤمنون: من نتائج كثرة العرض الدنيوي في أيدي الناس، وتسابقهم في ميدان الدنيا، والتوسع في النفقات والشهوات، وطول الأمل: قوة قلوبهم، وتقصيرهم في حق الآخرى. لما كانت

* كانت هذه الخطة بمناسبة الرياح الشديدة وسقوط البرد الذي أضر بالناس في مدينة الرياض عصر السبت الموافق 4/11/1416 هـ نسأل الله العافية والنعم.

المفيد في خطب الجمعة والعيد

العدد 117- الاعتبار بالآيات والندير

1/10/1416 هـ
الاعتبار بالآيات والندى

طيبته أكثر البشر نسيان القيامة، والتغافل عن مواعظ الكتاب والسنة، والذهول عن الاعتبار بما حل بالعاصين والمكذبين في الأمم الغابرة من أنواع العقوبات، ورحمة من الله تعالى بعباده، وإيذارا إليهم، عندما تطبق الغفلة عليهم، وتفسوا النكترات فيهم؛ فإنه عز في علاه يذكرهم بعض آياته المحوسات، ويُظهر لهم شيئا من دلال قدرته، وعظيم سطوته، وأليم عقباه، وسرعة انتقامه، فمن خالف أمره، وأتى نهيه

وما ربك يلزم للعبيد {فصلت: 46}.

وكتاب الله تعالى مليء بهذا التذكير، ولكن إعراض أكثر الناس عن تدبره والعمل بما فيه، وتقصير كثير منهم في قراءته، يجعلهم لا يتبهون لآيات الوعيد والتهديد، ولا يلفتون لعاقبة العذابين من المكذبين. وإذا كان هذا حالنا أو حال أكثرنا مع آيات الوعيد والتذكير، وقصص الغابرين فلا غنابة حين ننسى ونغلف في ظل النعمة التي نعيشها، قال عمر بن عبدالعزيز رحمه الله تعالى: «وجدت النقاء مع الغفلة» (1) يعني قوله تعالى: {فَلَمَّا أَسْفَعْنَا انتقمنا منهم فأعرقنهم أجمعين} فجعلناهم سلفا ومتلا لآخرين {الزخرف: 56-57}.

أيها الإخوة: إننا بحاجة إلى النظر في أحوال المكذبين والعاصين، الذين قص الله تعالى علينا نبأهم في الكتاب العظيم؛ لعلنا نتعظ فنرجع قبل أن يصيبنا ما أصابهم {قل سيروا في الأرض فأنظرًا كيف كان عاقبة}.

(1) تفسير ابن كثير (131/4).
المُجرَمين» [النمل: 29] ۚ «أَلَمْ تُرْكُ فَعَلَ رَبُّك بَعَدَ إِوْمٍ ذَاتِ الْعِمَادَ؟ۖ وَثُمَّ مَنَى الْحَيَابَةِ فِي الْبَلَادِۚ وَثُمَّ اسْتَقْرَأْ بَيْنَ الْمَرْضَدِ وَفِي الْبَلَادِۚ فَأَخْرَجَهُمْۖ فَقَبَلَ عَلَيْهِمْ سُوءٌ عُذَابٌۖ إِنْ رَبُّك لِلْمُرْسَدِۚ [المنصور: 4] ۖ كَأَيْنَ مِن كَرَمَةٍ غَنَتْ عَن أَمْرِهِ وَرَسَلمَهَا فَحَاسِبَاهَا حسَابًا شَدِيدًاۖ وَغَدِيَّةً غَدًاۖ كَأَنْ تَكُرُّهَاۚ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرٍهَاۖ وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرٍهَا خَسَرًاۚ ۖ أَنْبَأَ الْلَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًاۖ فَأَفْتَقَ أَلَّوْهُ بَلَى أَوْلَى الْأَلَبَابِۚ [النور: 70] ۖ فَلِيُحِذَّرُ الْمَلَأِ الْكُفَّارِۚ فِي الْأُخْرَىۚ ۖ إِنْ بَطَشَ رَبُّك لِشَدِيدٍۚ إِنَّهُ هُوَ يَدِيٌّ وَيُبِيدُۚ [البقرة: 3] ۖ إِنَّ غَفُورَ الْعَذَابِۚ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدَۚ فَقَالَ لَمْ يُرِدْۚ [المروج: 14] ۖ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكۖ إِذَا أَخَذَ الْقُرُوحُۖ وَهِيَ عَلَىٰ أَلِيمٍۚ ۖ وَتَأْمَلُوا رَحْمَةَ اللَّهِ نَعَالَیۚ حَالٌ قَوْمٌ هُوَدۚ لَمْ يَسْتَكْبِرُوا فِي الْأَرْضِۚ وَقَالُوا مِن أَشْجَعُهُمْ قُوَّةًۚ أَلَمْ يَوْمَ نَفْسُهُمْ قُوَّةًۚ وَكَانُوا بِمَآ أَيَّتَاكُمْ يَجَّهِدُونَۚ [فصلت: 15] ۖ فَكَنَّا مَصِيرُهُمْ مَا قَصَّ اللَّهُ نَعَالَیۚ بِقُوَّةٍۚ فَأَوْسَأَلُوا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرِّصًاۚ فِي أَيَامٍ نُحُسَّنَ لَدَيْهِمْ عَذَابًاۚ [فصلت: 16] ۖ وَتَأْمَلُوا خَبِيرٌ قَوْمٌ صَالِحٌۚ لَا كَذِبُواۚ فَعَقَرُوا التَّأْفِيقَۚ وَعَتُّواۛ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمۚ وَقَالُواۛ بِأَصْلَ حُيْثًۚ أَنْ كَتَبَ أَمْرُهُمۚ فَأَخْذُتِهِمْ الرَّجْعَةُۚ
فأصبحوا في ذاتهم جانمين فوؤوى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتم رسلتكم
رني ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين [الأعراف: 77-79].

فأين قوم هود؟ وأين قوم صالح؟ وكيف هلكوا؟ وكيف هلك قوم لوط لما كذبوا فلما جاء أمرنا جعلنا عاليا سافلها وأطرنها عليها حجاجة من
سجيل منضود [82 مسومة عند زبك وما هي من المتلائمين بعده] [هود: 78-82].

ثم يأتي بعد هؤلاء الأنبياء عليهم وعلى نبينا الصلاة و السلام،
شعبهم عليه الصلاة و السلام فيندز قومه، ويذكرهم ما حل بالمكذبين قبلهم يقول لهم: "ويَا قُومٍ لا یَجُرُّونَ شُفَاقَةَ أَنْ يُصِيبُوا مِثْلًا مَّا أَصَابَ قُوْمَ نُوحَ أَوْ قُوْمَ هُوَدَ أَوْ قُوْمَ صَالِحٍ وَمَا قُوْمٌ لُوْطَ مِنْ نُكْمٍ بَعْدِهِ" [هود: 89-90].
لكنهما لم يعتذران، فقضي الله تعالى بإحلالهم فكردهما أخذهم عذاب
يَوْمُ الظُّلُمهُ إِنَّهُ كَانَ عَذَابًا يَوْمًا غَزِيمًا [الشعراء: 189].

ومن أجل هذا الأجرام الذي يقتره به نور آدم في كثير من الأعصار والأمصار، كتب الله تعالى العذاب والهلاك عليهم وإن من قوى إلا
نحنُ مَهْلُكُوهُم فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعْتَبِرِيْهِم عَذَابًا شَدِيدًا كان ذلك في الكتاب
مستطبورًا [85 وما معنا أن نرسل بالأيات إلا أن كتب بها الأولوين وآثيانا
تموحد الثاقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالأيات إلا تخفيفًا] [الإسراء: 85-89]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: "سأل أهل مكة النبي صلى الله
عليه وسلم أن يجعل لهم الصفا ذهباً، وأن ينحى الجبال عليهم فيذروا،
فقيل له: إن شئت أن تستائي بهم، وإن شئت أن تؤتيهم الذي سألوا,
فإن كفرتم أهلِيكوا كما أهلكت من قبلكم قال: لا بل أستاني بهم، فإنزل الله تعالى: وما منعب أن ترسل بالآيات إلا أن كتب بها الأولون وآتينا نموذ التجا منصبة فظلمن بها وما نرسل بالآيات إلا تخليفة [الإسراء: 59]. رواه أحمد والحاكم وصححه(1)، وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجت أهلكناهم فلا تصر لهم [محمد: 13].

لقد نعى الله تعالى العذاب على المكذبين، كما عذب الذين آمنوا ابتداء، ثم بدلا إيمانهم كفرأ وطاعتهم عصيانا: فأخذهم أخذًا وبيلاً فلنافهم عبرة، قبل أن تكون عبرة لغيرنا، نعوذ بالله من ذلك، ونساله العافية والسلامة.

أيها الإخوة: إذ تخلي الناس عن دينهم، وانتقادوا خلف الأشياطين واتبعوا غير سبيل المؤمنين فقد استوجبا نقمته الله تعالى وعذابه، ولنلزم أن يكون تخليهم عن الدين دفعة واحدة، وإنما يكون ذلك بالمصامي والفحور حتى ينسلوا من دينهم إنسلاً متتابعًا، كما يخلع الرجل ثوبه شيئاً شيئاً، فيكونون في عداد المكذبين، وهكذا كان حال بني إسرائيل كما سهل حذيفة بن اليمام رضي الله عنهما: هل تركت بتو إسرائيل دينهم؟ أي: حتى أخذوا بأنواع العذاب الأليم كمسخهم قردة وختائر وأمرهم بقتل أنفسهم؟ قال: لا، ولكنهم كانوا إذا أُمروا بشيء تركوه

(1) أخرج أحمد (258/1) والبزار كما في كشف الأستار (2265) والنسائي في الكبرى (1139/0) والطبري في تفسيره (10/78/1) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (263/2) وصححه الشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند (2333).
وإذا نهوا عن شيء ركوبه، حتى انسلخوا من دينهم كما ينسلخ الرجل من قميصه؟ اهد

فإذا قارف العباد المعاصي، وتمادوا في الطغيان؛ يرسل الله تعالى
لهم نذراً قبل أن يهلكهم، وهذه النذر تكون متنوعة متتابعة؛ رجاء أن
يفهم العباد معانئه، ويدركوا أنها نذر بين يدي عذاب شديد فيعودوا
إلى ربه، ويتوبوا إلى رشدهم، ويجددوا توبتهم، فقد يكون النذير
ريحاً عاتية، أو ماءً غزيراً مغرقاً، أو زلزالاً أو فضانًا، وربما كان وباءً
مهلكاً، أو عدواً مسلطاً، أو فتنة عمياء، يقتل الناسُ فيها بعضهم
بعضاً، (وَمَا نُرِسُلُ بِالآياتِ إِلَّا تَحْوِيفًا) (الإسراء: 69) قال قتادة رحمه
الله تعالى: «إن الله تعالى يخوف الناس بما شاء من آياته لعلهم يبتون
أو يذكرون أو يرجعون، ذكر لنا أن الكوورة رجفت على عهد ابن مسعود
رضي الله عنه فقال: «يا أيها الناس، إن ربك يستعتبكم فأعبوه»(4)،
وردد أن المدينة زلزلت في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال
عمر: «نحنكم والله، لن نعاد لآخرين من بين ظهريكم»(5).

(3) أخرجه أبو نعيم في الجلوة (1/729) والبيهقي في الشعب (123) ونظر:
الداء والدواء لأبن القيم (33).
(4) أخرجه الطبري في تفسيره (1/15/9) ونظر: تفسير ابن كثير (2/49) والدر
المتور (5/8/3). 
(5) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (2/230) برقم (833) والبيهقي (3/242)
وأبي عبدالبر في التمهيد (3/1).
فاتقوا الله تعالى - أيها المؤمنون - واحذروا سخط الله وعلائه،
واعتبروا بالآيات والنذر، قبل أن يأتي العذاب، فلا ينفع الاعتبار.
أعود بالله من الشيطان الرجيم، أرى أن يسيروا في الأرض ينظرون...
كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم فوة وما كان الله ليغزر من...
شيء في السماوات ولا في الأرض إلا إنه كان عليهما قدراً وله يؤخذ الله...
nاس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى.
فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً [فاطر: 44 - 45].
بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...

الخطبة الثانية

الحمد لله، واللهم قد أنت الذي صدتقوا من كيد العقاب ذي الطوق لا إلاه إلا هو إله المصير [غفر: 2]، أحده والآتيه واتباعه واستغفره،
واشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن سار...
على نهجهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين.
أما بعد: فاتقوا الله تعالى - عباد الله - فالقوى آمان من العذاب،
وطريق يصل إلى رضوان الله تعالى والجنة.

أيها الأخوة المؤمنون: لن كأن الطابعين وأصحاب النزاعات
الإيذائية يعزون الريح الشديدة، والأمطار الغزيرة المغرقة، والزلازل والبراكين والأوبئة، إلى ظواهر الطبيعة، ويجمعلون لها أسابقاً مادية بحثة؛ فإن أهل الإيمان يدركون أن الله تعالى خلقهم كما خلق الطبيعة...
المعهم، وأنه تعالى يدير الكون كيف يشاء، لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه، كما يدرك أهل الإيمان أن في هذه الظواهر الكونية، وتغير الأحوال والاجواء إنذاراً لهم على عصيانهم، وتذكيراً من الله تعالى لهم لما نسوا. 

أما الملاحة والماديون، ومن سار في ركابهم، وأمن بنظرياتهم، فلن يعتبروا أو يتزعموا ولو نزل بهم العذاب، وقد كفانا الله تعالى جدلهم بقوله عز وجل قرآن: "وَإِنَّ الَّذِينَ يَفْسَدُونَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْضِهِمْ وَبَعْضِهَا وَالنَّذَرُ عَنْ قُوْمٍ لَا يَؤْمِنُونَ" [يونس: 101].

أيها الإخوة: لا ينفع مع عذاب الله تعالى شيء، لا يقي منه حرص ولا احتياط، ومن لم يتوق بطاعة الله سبحانه فما له من واق.

إن الأمم قبلنا كانوا أشد منا قوة، وأكثر احتياطاً، فلما أراد الله تعالى عذابهم عليهم وأهلكهم، وإن عالم اليوم بطوره وتقنياته ومعداته لهو أحرق وأناصر من أن يخفف عذاب الله تعالى فضلاً عن أن يرده أو يوقفه "إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ حَتَّى لاَ هُمْ مِنْ دَافِعٍ" [الطور: 7-8]، "وَإِذَا أرَادَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ شَيْئًا فَلَا مُرَكَّبَ لَهُ وَلَا شَيْءٌ مِّنْ دُونِهِ مَنْ دَافِعٌ " [الرعد: 11].

فلا يرد عذاب الله تعالى إلا الإيمان الصحيح، لا يرد عذاب الله تعالى إلا تقوى وطاعته، ولا الأموال تفع، ولا الصناعات تجدي، ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهو أعظم الناس إيماناً - يدرك تلك الحقيقة، فكان عليه الصلاة والسلام يخف عذاب الله تعالى، ويجادم مكروه، رغم أنه صفوه الخلق عند الله تعالى، وقد عُفِّر له ما
تقدم من ذنه وما تأخر، وأول من تفتح له الجنة، قالت عائشة رضي الله عنها: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رأى غيماً أو ريحًا عرف في وجهه، قالت: يا رسول الله، إن الناس إذا رآوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر وأراك إذا رأيته عرفت في وجهك الكراهية، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: 'يا عائشة، ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب، قد عذب قوم بالربيع وقد رأى قوم العذاب فقالوا: هذا عارض ممطرنا'" رواه الشيخان(١)، وفي رواية لمسلم: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا عصفت الريح قال: 'للهم إني أسألك من خيرها وخير ما فيها وخير مما أرسلت به، وأعوذ بكم من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به' قالت: وإذا تخيلت السماء تغير لونه، وخرج ودخل وأقبل وأدبر، فإذا مطرت سرى عنها فعرفت ذلك في وجهه، قالت عائشة: فسألته فقال: 'لعله يا عائشة كما قال قوم عاد: 'فلما رأوه عارضًا ممطرًا فاضل أوديتهم' قالوا هذا عارض ممطرنا' [الأخلاق: ٢٤].(٢)

أيها الأخوة: يجب أن لا تأمر علينا الآيات والنذر من غير اتباع ولا اعتبار، يقودنا إلى التوبة والإنابة.


٢) هذه الرواية لمسلم (٨٩٩) وأخرجهما الترمذي (٤٤٤٩).
دقائق معدلات فإنه أُفزِع الناس، وكان تأثيره وضعته ظاهراً للعيان،
ترى كيف تكون الحال لو استمر أياماً، بل يوماً واحداً، بل ساعات محدودات؟! والله تعالى قادر على ذلك، بل قادر على أن يكون أشد
ما رأينا وأعتف، وهو على كل شيء قادر، وقد أرسل الريح على
عдавать  "سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرع عمي كأنهم أعزاز
نخل خاوية " [الحاقة: 7-8] [تدمر كل شيء
بأمر ربيّاً فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين]
[الأخلاق: 25]، ونحن - معشر المؤمنين - حقيقيون بالعقوبة إلا أن
يتغمدنا الله تعالى برحمته؛ فمعصية الله تعالى أصبحت ظاهرة بيننا،
وقليل منا من ينكرها، قد أصبح بين كثير من الناس وبينها ألفة ومودة،
وهي الموجهة لغضب الله تعالى، الجائبة لعذابه؛ فاعتبروا يا أولي الأبصار،
اعتبروا يا أهل الإسلام قبل أن تكونوا أثراً يذكر، وتاريخاً يتلبي، اعتبروا قبل أن تكونوا عبارة؛ اعتبروا قبل أن تنتهي مهلة الله تعالى لكم؛ فالله
شديد العقاب، "إن أخذه أليم شديد" [هود: 20] [وهو شديد المحال]
[الرعد: 13] "إنهٌ قوى شديد العقاب" [كافر: 22]
الآلا وصلوا وسلموا على نبيكم...
إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور ألسنا ومن سيئات أعمالنا، من يبهدنا الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. [يا أيها الذين آمنوا أثقو الله حق نفقاتكُم ولا تموتون إلا وأتتكم مسلمون] [آل عمران: 2]. [يا أيها الناس أثقو ربك الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها بيث منهما رجلاً كثيراً ونساء وأثقو الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقياً] [النساء: 1]. [يا أيها الذين آمنوا أثقو الله وقولوا قولًا سديدًا يصلى لكم أعمالكم وتفجر لكم ذُنوبكم ومن يطبع الله ورسوله فقد فاز فوزًا عظيمًا] [الحزاب: 71].

أما بعد: فإن أحسن الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدى هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محذرتها، وكل محدثة بدعه، وكل بدعة ضلاله، وكل ضلاله في النار.

أيها الناس: معرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته، وآياته الشرعية، ودلائله الكونية؛ سببٌ للإيمان به، والقيام بحقه، وعبادته وحده لا شريك له.

من نظر في الكون وما فيه من عجائب الخلق، ودقة الصنع، وحسن التدبير والتصريف، وله عقل لم تفسده الشياطين بالكفر والجحدود;
علم أن لكلون خالقاً مديراً، وأين بأنه لم يخلق سدى وعبشاً، فهو يرى سماءً رفعت، وجبالاً نصبت، وأرضًا سُطحت، ويشاهد شمساً تشرق وتغرب، وقرماً يكبر ويصغر، وبرماً يقبل ويدبر، ويبصر كل مخلوق مرزوق، وكل حي يموت، وسنوات تدور إلى أجل محتوم، لكل أجل كتاب، وكل بداية نهاية.

والفطر التي فتر الناس عليها تدلهم على خالقهم ورازقهم بما يرون من الآيات في أنفسهم وفي السماوات والأرض، فلا يحتاجون معه إلى أدلة المتفلسين، أو براهين المتمكنين، أو تكلافات المتكلمين، التي تزعج الشكوك والظنون الفاسدة أكثر من أن تحقيق التوحيد واليقين.

لقد كان الأعرابي الذي عاش في الصحراء بعداً عما يُسمى بينافذ العلم والمعرفة، والتجرية والخبرة يقدم على النبي صلى الله عليه وسلم فيحاوره قليلًا ثم يسلم، بل كان وجه النبي صلى الله عليه وسلم علامة واضحة تدل على صدقه؛ ولذلك لما رآه عبدالله بن سلام رضي الله عنه، وقد كان على اليهودية أسلم، يقول رضي الله عنه: "لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم استشرف الناس فقالوا: قدم رسول الله، قدم رسول الله، قال: فخرجت فيمن خرج فلم رأبت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب..." رواه أحمد والدارمي وصححه الترمذي والحاكم.


إن خلق الله عزّ وجلّ للسموات والأرض وما بث فيها من دابة، وما جعل فيها من عجائب المخلوقات من أكبر الدلالات على قدرته سبحانه؛ ولذلك كثر في القرآن الاستدلال بهما على قدرة الخالق، وأنه المستحق للعبادة دون ما سواء، وهل يوجد برره أعظم من برره يشاهد الناس بأعينهم، ويدركوه بعقلهم، وتدلهم عليه فطرهم؟! في الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهم يتزحل الأمور بئثهن لتعلموا أن الله على كل شيء قادر وآنان الله قد أحاط بكل شيء علماً» [الطلاق: ١٢].

وفي محاورة المشركين ومناظرهم، والاستدلال عليهم بكثير في

(٢) أخرج البخاري في العلم باب ما جاء في العلم (٦٣)، وسلم في الإمام باب السؤال عن أركان الإسلام (١٢).
القرآن ذكر السماوات والأرض، وما فيهما من عجائب الخلق، وتشتتهم من خلق السماوات والأرض، ليقولُن الله: [لقمان: 25] أَمَّن خَلَق السماوات والأرض وأنزل لكل من السماء ما قَانِبَتُهُ ظادَّةً ذُات بِهِجَةٍ ما كان لَكُمْ أن تَنْبَتَوْا شَجَرَةً أَيْلَهَا إِلَهٌ مِّنْ اللَّهِ بَل هُمْ فُوهُم يَغْلِدُونَ [النمل: 16] ومن آياته خلق السماوات والأرض وما بث فيها من ذاية وهو على جمعهم إذا يشاء قادر.

[الشورى: 29].

فصالموئيات يشاهدها الناس بأبصارهم قد رفعت بلا عمد، والأرض يدبون عليها، ويضون في مناكبها، وينعمون بخيراتها، وفي الأزرة آيات لموقتات [الزخرفة: 21] خلقها باري جل وعلا، واستخلف البشر فيها، وأرساه باجبال، وذلكها بالسبل والنهاد، واستودع فيها من الأرزاق الخيرات، والكنوز والبركات ما يكفي الأحياء، ويفيض عن حاجتهم، وجعل ذلك مناعاً لهم، وبلاغاً لهم في حياتهم، قل أنتكون لتكنرون بألذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداناً ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقرر فيها أفرادها في أربعة أيام سواء للذين ظالماً [فصلت: 9 - 1] هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإله التصور [الملك: 15].

وآمرًا (6) وجعلنا فيها رواسي شامخات وأسقيناكم ماءً فرأتكم (المرسلات: 25-27) ألم نجعل الأرض مهادًا (6) والجبال أونادًا (البقرة: 6-7)، والأعرابي لما سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن رسالته أقسم عليه بالذي خلق السماوات والأرض، ونصب هذه الجبال هل أرسله الله؟ وما ذاك إلا تعليم هذا الخلق، ودقة ذلك الصنع، وتمام تلك النعمة بخلق السماوات والأرض، وإرسائها بالجبال، فإن كان الذي خلق ذلك أرسله لتبعته، فلما أجابه بالإيجاب أسلم ودعا قومه إلى الإسلام.

إن كثيرًا من الناس قد لا يفهم معنى هذا الكلام، ولا يدركون حجم هذه النعمة، ولا يعرف دلالتها على القدرة، فهو يأكل ويشرب ويشي على الأرض، ولا يفكر في عجب خلقها، وتدبير المخلوقات عليها؛ ولكن حين تقع كارثة من الكوارث، أو تسبب نعمة من النعم؛ يكون الحال غير الحال، ويتفكك الناس فيما كانوا عنه من قبل غافلين، ويعفون نعمة الله تعالى التي أنكرها كثيرون.

إن قراءة الآيات القرآنية التي تبين أن الله تعالى خلق الأرض، وامتنع على العبادات بأن ذللك لهم، وجعلها بساطًا ومهادًا وكفافًا، وسلك لهم فيها السبل والفجاج، وأرساه بالجبال والأوناد، ولولا ذلك لمادته بهم، وتعدده فيها عشيهم، أقول: إن قراءة هذه الآيات القرآنية لا تحرك قلوب كثير من الناس، ولا يدركون معانيها إلا عندما تتحرك الأرض في بقعة من البقاع؛ فتططرب مدنًا كاملة، وتدمر عمراناً كثيرًا، وتتلهد خلقًا لا يعلم عائدهم إلا الله تعالى، حينها تنيف القلوب، وتفهم الآيات،
وثُعرف أقدار النعم عند من وفقه الله عز وجل، ومن عليه بحياة القلب، ونعمة الاستمرار والاستعتاب.

ولقد رأينا فيما وقع من زلزال قبل أيام قدرة القدير جلالة، وعرفنا نعمته العظيمة بإرساء الأرض بالجبال، ولولا ذلك لمأت بنا فكأن الهلاك والخراب. والبشر كلههم بما أوتوا من قوة، وما وصلوا إليه من علوم واكتشافات، يقفون عاجزين أمام حدث كهذا، فلا يملكون تخفيفه فضلاً عن دفعة ومنعه.

إن من البشر من قد غُرِتهم قوتهم، وأعجبوا بقدراتهم، واستعلوا على غيرهم بصناعاتهم ومدمراتهم، واشعلوا حروباً على مدى أشهر وسنوات، أمطروا بنيرانهم القرى والمدن، وأبادوا من أبادوا، وأفسدوا في الأرض ما أفسدوا، وظنوا أن قدرتهم فوق كل قدرة، وأن قوتهم لا تغلب، فإذا القوي القاهر القدير الجبار يريدهم يجري غيرهم من البشر - من خافوه من دون الله تعالى - شيئاً من قدرته، بهزيمة سريعة في جزء قليل من الأرض، وفي ثوان أو أقل من ذلك، فتحدث هذا الخراب الهائل، والتدمير العظيم الذي تندب له الدول، ويتقاء، له البشر من كل حدب وصوب; لتفخيف آثاره، وإنقاذ ما يمكن إنقاؤه.

(3) المقصود به الزلزال الذي وقع في مدينة (بام) الإيرانية يوم الجمعة الماضي 3/11/1424 هـ، وأحدث خسائر كبيرة ويتوقع أن يزيد عدد الضحايا على خمسين ألف قتيل سوى من جرحوا وشردوا، نسأل الله أن يعفو عنا، ولا يعذبنا بذلوبنا، ولا يفعل سفهمائنا.
ويفرون على المدن الخراب، والعماران المدمر عاجزين أمام قدرة الخالق القاهر جل في علاء.
إن حرباً مدمرة تمتد لسنوات، وتسخدم فيها الأسلحة التقليدية وغير التقليدية، لا تحدث مثل ما تحدث الزلازل المدمرة، والقدير جل
جلاله يأمر الأرض فتتضرب لحظة واحدة; فيحصل ما تشاءدون من
دمار هائل في مثل ما وقع من زلزال، فأين قوة البشر من قوة الله عز وجل؟ وأين قدرتهم من قدرته؟ وأين من يقرأ الآيات القرآنية، ويدبر
الدلائل الكونية؟ فيعرف الله تعالى حق المعرفة، ويقدره حق قدره،
ويشكره على نعمته، ويخف عذابه ونقمته؟
انظروا إلى البشر وقد تقطروا من كل دول العالم على موقع
الزلزال في بام بطارياتهم ومعداتهم ومستشفياتهم، فلم ينطقوا من تحت
الانقاض إلا عدداً قليلاً من الناس، وقد أيسوا من الكثرة الكائرة التي
تحت الركام، وعجزوا عن استيعاب الأحياء من تهمتهم دورهم، وربما
انتشرت الأمراض والأوبئة، بسبب تعفن الجثث، وفساد الهواء، حتى
قال بعض الأخبارين يصف الحال: إن للموت رائحة قوية في تلك
الديار.
فبلاط الله عليك لو حدثت زلازل في أماكن عدة فماذا يفعل البشر؟
ولو أنها كانت أشد تدميراً، وأكثر إهلاكاً، فكيف يواجهون ذلك?
(4) قال ذلك بعض المراسلين الأخباريين الغربيين بسبب تعفن الجثث تحت الانقراض،
وابلات روائحها في منطقة الزلازل مما يحدث بانتشار الأمراض والأوبئة المهلكة.
ولو أن الزلازل امتدت لدقائق عدة بدل الثواني وأجزاء الثواني فكيف سيكون تدميرها؟ ولو أنها امتدت على رقعة كبيرة من الأرض لتشمل مدنًا أو دولًا أو قارات فكيف سيكون حجم الدمار؟ ما أعصَف البشر! وما أهل حييتهم! وما أعزهم أمام الله تعالى وقدرته! وإن بطرت بهم نعمتهم، وغرتهم قوتهم؛ فإنهم أعز من أن يمنعوا عذابه، أو يعطوا أمره، فتبارك الله رب العالمين.

أعود بالله من الشيطان الرجيم  "خلق السُّمَّرَات بغير عمد ترونهما". واتقى في الأرض رواسى أن تُمید بكم ويث فيها من كلّ ذائبة وأنزلنا من السماء ماء فانثنا فيها من كلّ زوج كرم  (١) هذا خلق الله قارون مادا خلق الذين من دونه بل ظالمون في ضلال مبين  [القصص: 10-11]. بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ،،

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركًا فيه كما يحب ربات ويرضى، أحمد وشكره، وأتوجه إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وبارك عليه وعلى آله وأصحابه، ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله تعالى وأطيعوه، واحذروا غضبه فلا تعصوه، واعلموا أنه شديد العذاب، وأن أخذه الله شديد  (وكان ذلك أخذ زلك). إذا أخذ القوى وهي ظلمة إن أخذه الله شديد  [هود: ٢].  

أيها الناس: في النوبة والاستغفار نجاة من العذاب في الدنيا والآخرة،
والهلاك من الدنيا، والعذاب في الآخرة يستوجه العباد بإصرارهم على عصيانهم، وبعض الناس إذا رأوا الآيات والنذر تذكروا فتابوا، وآخرون لا يزيدهم الآيات إلا استكباراً في الأرض، وعлоها على الناس، وكفرأ بالله عز وجل، كما قال الله عز وجل عنهم: «وَتَخْفُفْهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طَغْيَانًا كَبِيرًا» [الإسراء: 69].

إن من الخطأ البين أن يرى المسلم الحوادث والكوارث، وأنواعاً من العذاب والمساندن، ثم لا يزيده ما يرى إلا غفلة إلى غفلته، وصدوداً إلى صدوده، والله تعالى على ما أهلك أمة من الأمم، وأرسل عليهم سلماً أفسد زروعهم، واجتاح ديارهم، وخرب مالكمهم، قال سبحانه في بيان السبب: «ذُلِّكَ جَزِئًا هُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهُمْ نَجَازُونَ إِلَّا الْكَفِّرُ» [سما: 17].

وإذا من أعظم الظلم، وأشنع الاستكبار أن يشرك مع الله تعالى في قدره وقوتره، ولا سيما في مثل هذه الكوارث، فتجلد من لا خلاق لهم في نقل أخبار هذا الزلزال أو الكتابة عنه ينسو إلى الطبيعة فيقول قائلهم: «غضبت الطبيعة» أو «زمرت الطبيعة» أو نحو ذلك من العبارات التي سمعناها وقرأناها، وهي من امتدادات مذاهب الملاحدة من الذهرين والطبائعين الذين ينكرون الخالق جل في علاء، وينسبون الأقدر لغيره سبحانه.

وبعض من يستعرض مثل هذه الحوادث ينسبها إلى أسباب في باطن الأرض من تصدعات وتشققات ونحو ذلك، وعندهم من تعظيم لما يسمى بعلم (الجيولوجيا) وعلمائه أكثر من تعظيم الله تعالى!! ولا
يجوز لمسلم أن يغفل أو يتبغله عن قَدْرِ الله تعالى وقَدْرُهُ؛ فهو سبحانه الذي خلق الأرض وما في بطنها، وهو القادر وحده على سكونها واضطرابها؛ فالأرض لا تخضع إلا لحكمه، ولا تأثر إلا بأمره، فهي خلق من خلقه.

ومن شنيع العبارات، وقيح الأوصاف: أن يوصف ضحايا الزلازل وغيرهم من الكوارث الكونية بالأبرياء، ولازم ذلك أنهم لا يحققون ما جرى عليهم، وأن من فعل ذلك بهم قد ظلمهم، وهذا من أعظم الاعتداء على جلال الله تعالى وقدسيته.

فَلا تدع الله تعالى منزه عن الظلم، فإن عفا عن عباده فبرحته وفضلته، وإن عذبهم فبعدله، ولو أهلك أهل الأرض جميعاً بمؤمنيهم وصالحهم، وكفارهم وفجارهم، وأطفالهم ونسائهم لما كان ذلك إلا عدلاً منه. وكل عذاب يقع على البشر فهو بسبب ذنوبهم، وما يتجاوز عنه الراب جلّ جلاله أكثر مما يأخذه به؛ فهو عفو كريم يعفو عن عباده ۶۰ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنّ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتُ آيَّتِيُّكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كُلٍّ [الشورى: ۳۰].

روي أن الأرض تحركت في عهد عمر رضي الله عنه فقال: «أيها الناس: ما كانت هذه الزلازل إلا على شيء أحدثموه، والذي نفسي بيده لن outcry لأساكنكم فيها أبداً»(۵).

(۵) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (۲/۲۲۱) بقلم: (۴۲۲) والبيهقي (۵/۸۳۵) بقلم: (۴۲۴۲)، ولا يصل للزلزال على الصحيح خلافاً لما نقل عن الشافعي رحمه الله تعالى، قال الحافظ ابن عبد البر: «لم يأت عن النبي صلى الله عليه وسلم من =
وقد قال كعب: "إِنَّمَا تَزَلَّلَ الْأَرْضُ إِذَا عَمِلَ فِيهَا الْمَعَاشِيُّ فَتُرَكَ فِرْقَةٌ مِّن الْرَّبِّ جَلَّ جِلَاثُهُ أَن يَلْعَبَ عَلَيْهَا".1

أَلا فَاتَقُوا اللَّهُ رَبِّكمَ، وَتَوَبُوا مِن ذَنْبِكُمْ، وَاعْتِبَارَ مَا حَلَّ بِكُمْ قَبْلَ أَن يَصِلْ إِلَيْكُمْ فَإِنِ السَّعِيدُ مِن اتَّبَعَ الْخَيْرَاءَ، وَإِنَّ الشَّقيَّ مِن كَانَ عَظِمَةً وَعَبْرَةً، وَعَذَابُ اللَّهِ تَعَالَى إِذَا وَقَعَ فِي يَدَهُ شَيْءٌ، وَإِنَّ اللَّهَ لَحَفِظُهُ مِن ذَاقَةٍ.2

حَرْصُ حَرْصِيَّةٍ "إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ [وَلَا مَّا لَهُ مِن ذَاقَةٍ]" [الطَّورِ: 7/

وُصَلُوا وَسَلَمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ كَمَا أَمَرَّكُم بِذَلِكَ رَبُّكمَ، ؛)

- وَجَهٌ صَحِيحٌ أَنَّ الْزَّلَزَلَةَ كَانَتْ فِي عَصِيرَةٍ، وَلَا صِحْبَةَ عَنْهَا سَنَةَ، وَقَدَ كَانَتِ أَوَّلُ مَا كَانَتْ فِى الْإِسْلَامِ عَلَى عَهْدٍ عَمَّرَ فَانْكَرَهَا، فَقَالَ: أَحْدَثُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ لَنْ نَعَدَّ لَأَخْرَجَنَّ مِن بَيْنَ أَظْهَرَكُمْ رِوَاهُ بَنُو عَيْيَةَ عِنْدَ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ عُمَرٍ عَنْ نَافِعٍ عُنْفَ مَعَهُ أَلْقَى سَلاَةً قَالَ: الْزَّلَزَلَةَ الْمُدَّنِيَّةُ عَلَى عَهْدٍ عَمَّرٍ حَتَّى أَصَطَّحَ السَّرَّرَ، فَقَامَ فُحْمَادُ اللَّهِ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: مَا أَسْرَعَ مَا أَحْدَثْتُهُ اللَّهُ لَنْ نَعَدَّ لَأَخْرَجَنَّ مِن بَيْنَ أَظْهَرَكُمْ.3

- (١٣٨١/٣١٨) اَلْدَاءِ وَالْدِّوَاءِ لَابِنِ الْقَيْمِ (١٣٨١).
فضيلة طول العمر مع حسن العمل

118- فضيلة طول العمر مع حسن العمل

۱۴۲۴ هـ 8/8/1399

الحمد لله الذي له ما في السماوات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير [سaying 1], وبارك الذي بعده الملك وهو على كل شيء قدير [الملك: ۱-۲], أحمد ربي وأشكره، وأتوب إليه واستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وفق من شاء من عباده ما يرضيه، فكان سعيهم مشكراً، وجزاؤهم موفراً، وضل كثير من خلقه عن الصراط المستقيم، فكان سعيهم مردداً، وعملهم هباءً مثيراً، فقل هل نبتلكم بالأحزان أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً [الكهف: ۱۰-۴-۱].

وأشهد أن محمد عبده ورسوله خيره ربه بين أن يكون عبداً نبياً، وبين أن يكون ملكاً نبياً فاختار عبداً نبياً، فأعرض عن الدنيا وزيتها، ونصب في عبادة ربه عز وجل، حتى توفاه الله تعالى، صلى الله وسلم

(1) جاء ذلك في حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند النسائي في السنن الكبرى (۱۷۴۳)، والبيهقي (۱۷/۴۹). وله شواهد مرسالة عن عطاء رحمه الله تعالى عند عبد الرزاق في مصنفه (۵۲۴۶). وعن قتادة رحمه الله تعالى عند الطبري في تفسيره (۱۴۵/۱۵) وابن عبد البر في التمديد (۱۹/۱۹). وعن الشافعي رحمه الله تعالى عند ابن أبي الدنيا في التواعد والحمول (۸۵).
وبارك عليه وعلى آلله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.
أما بعد فأوصيكم - أيها الناس - ونفسي بنقوى الله عزّ وجلّ، فإن الأيام تسارع، والحوادث تتتابع، والفنون تتعاظم، ولا منجا من غلواتها وشرها إلا يقوق الله عزّ وجلّ في الأقوال والأفعال، والاجتهاد في العبادة، وكثرة الذكر، والدعاء بالثبات على الحق إلى الممات، [واتّقوا الله وأعلموا أنتم مُلاقون ونَشَرَ المؤمنين] (البقرة: 223).
أيها الناس: من توفيق الله تعالى للعبد أن يملأ قلبه بالإيمان واليقين، ويهديه لما يرضيه، ويستعمله في طاعته، في قضى العبد حياته في طاعة الله عزّ وجلّ، ويدرس أوقاته فيما يرضيه سبحانه وتعالى. ومن كان كذلك فإن طول عمره يزيد في عمله، وعمله الصالح يزيد في حسناته، ويرفع درجاته، فهنيئاً لمن عَمِّر طويلاً وقضي حياته في طاعة الله تعالى.
وإن من الخذلان والخسارة أن يُمِّد للعبد في عمره، ويرزق عافية في جسده، فتمضى حياته في المصيبة والحبس.
كم رأينا من عباد الله صالحين، من أبلى وأمهات، وأجداد وجدات، وجيران وقربان، شهدت روؤسهم في الإسلم، ونصبت أركانهم في طاعة الله عزّ وجلّ، لا يفقرن أمؤمن صلواتهم إلا حاجاتهم، ولا تفتر ألسنتهم عن الذكر إلا إجابة لسأتل، أو لحديث لابد منه، يقومون الليل، ويصومون النفل، وييكروء إلى المساجد، ويلهبون بالذكر والدعاء، قد أعرضوا عن الدنيا، وتركونها لأهلها، وأوقفوا نفوسهم لله تعالى؛ منهم أبناء سبعين، ومنهم من جاور الثمانين، ومنهم من
فضيلة طول العمر مع حسن العمل
قارب المثلة، أعمار مديدة، وأيام كثيرة قضاها في طاعة الله عز وجل.
في الله ما أحسن سعيهم! وما أعظم فوزهم! جعلنا الله تعالى منهم،
وألحقنا بهم.
وكم رأينا وسمعنا عن شيب وجناة، شابت رؤوسهم في معصية
الله تعالى، ونصبت أجسادهم لأجل الدنيا ومتاعها، قد بلغوا السنين
والسبعين والثمانين وفيهم صوبة الشباب وغفلتهم!! ترى عجوزهم
متصابية في لباسها وأصابعها، وهينتها وأفعالها، تضيع مشيئها وقد
اضاعت بالأمس شبابها، أفلستها الجدة، وأبطرتها النعمه، فكأنها
خلقت للدنيا وفيها تعيمر، وهذا الصنف من الشيب والعجائز إذا دهمهم
الموت، أو طرحهم المرء، أو أثقلهم الكبر؛ عرفوا أن أعمارهم ضاعت
سدى، وأن أوقاتهم صرفت للدنيا، وها هم عن الدنيا التي عموها
يرحلون، وإلى الآخرة التي أهللوها يفدون، فما أشد ندمهم، وما
أفدح خسارتهم!!
إن طول العمر مع حسن العمل نعمة من الله تعالى يبهبها من شاء
من عباده، وإن العمر المديد إذا صاحبه سوء عمل كان نقمته على صاحبه;
لما جاء في حديث أبي بكر بن عبد الله عنه: «أن رجلاً قال: يا رسول
الله، أي الناس خير؟ قال: من طال عمره وحسن عمله، قال: فأيُّ
الناس شر؟ قال: من طال عمره وساء عمله» رواه أحمد والترمذي
وقال: حديث حسن.(2)
(2) أخرجه أحمد (5/43-44-47-48-49-50)، والطيالسي (486).


= وابن أبي شيبة في مصنفه (٧/٩) برقم: (٤٤٤/١) والترمذي في الزهد باب ما جاء في طول العمر وقال: حديث حسن صحيح (٢٣٣)، والدارمي (٢٧٤٢)، والبيهقي (٣/٢٢١)، والطبراني في الصغير (٨١٨)، والحاكم وصححه على شرط مسلم وواقله الدحبي (١/١٣٩).

(٣) أخرجه أحمد (٤/١٨٧ ـ ١٩٠)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٧/٩) برقم (٤٤٤٢)، وعبد بن حميد في المنتخب من مسنده (٥٠٩)، والترمذي في الزهد باب ما جاء في طول العمر، وقال: هذا حديث حسن غير من هذا الوجه (٢٣٢٩)، وأبو القاسم البغوي في مسند ابن الجعد (٣٤٣١)، وابن أبي عاصم في الآحاد والثنائي (١٥٨)، والطبراني في الأوسط (١٤٤١)، والرواية الثانية للبغوي وابن أبي عاصم.

(٤) أخرجه أحمد (٢٣/٣ ـ ٣٠٤)، والبزار (١٩٧١)، وصححه ابن حبان (٧/٢١١)، والشيخ أحمد شاكر في شرحه على المنسد.
فضيلة طول العمر مع حسن العمل

إن طول العمر مع حسن العمل قد يدرك العبد به درجة المجاهد الذي قتل في سبيل الله تعالى; بل قد يتجاوزه، فيكون له من الفضل ما ليس للشهيد الذي قاتل لتكون كلمة الله هي العليا؛ ذلك أن عمله الصالح المتتابع في عمره المديد الطويل فاق أجر الشهادة في سبيل الله تعالى.


(5) آخره أحمد (163/1)، وعبد بن حميد (1409)، ابن أبي شيبة في مصنفه (7/9) برقم: (34423) من حديث عبدالله بن شداد عن النبي صلى الله عليه وسلم، وهو مرسل; لأن عبد الله بن شداد لم يسمع من النبي صلى الله عليه وسلم، وقد نقل الحافظ في تهذيب التهذيب (3/115) أن الإمام أحمد رحمه الله تعالى سئل: «أسمع عبد الله بن شداد من النبي صلى
وفي المسند أيضاً من حديث طلحة رضي الله عنه: "أن رجلا قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان إسلامهما جميعاً، وكان أحدهما أشد اجتهاداً من صاحبه، فغزا المجتهد منهما فاستشهد، ثم مكث الآخر بعده سنتين، ثم توفي، قال طلحة: فرأيت فيما يرى الناس كأني عند باب الجنة إذا أنا بهما وقد خرج خارج من الجنة، فأذن للذي توفي الآخر منهما، ثم خرج فأذن للذي استشهد، فرجع إلي فقال لي: ارجع فإني لم يرانِ لك بعد، فأصبح طلحة يحدث به الناس، فعجبوا لذلك، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: من أي ذلك تعجبون؟ قالوا: يا رسول الله، هذا كان أشد اجتهاداً ثم استشهد في سبيل الله، ودخل هذا الخلقة قبله!! فقال: أليس قد مكث هذا بعده سنتين؟ قالوا: بلى. وأدرك رمضان فصامه؟ قالوا: بلى. وصلى كذا وكذا سجدة في السنة؟ قالوا: بلى. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فلما بينهما أبعد ما بين السماء والأرض، وفي رواية قال عليه الصلاة والسلام: "أولم يكن يصلي؟" فقالوا: بلى، وكان لا بأس به يا رسول الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما يدريكم ما

الله عليه وسلم شيء؟ قال: لا" وأخرج الحديث البخاري في البحر الزخار (654)، وأبو يعلى في مسنده (670)، وابن عبد البر في التميم (244، 276 - 275)، كلهم من حديث عبد الله بن شداد عن طلحة بن عبد الله رضي الله عنه متصلة، وصحح المرسل الشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند (1401).

ولعل تصححه له باعتبار الروايات الأخرى المتصلة.
فقديلة طول العمر مع حسن العمل

بلغت به صلاتهٔ 

(١)

(٢) أخرجه أحمد (١٦٣/٣٢٦ - ٣٢٧)، وابن ماجه في تعبير الرؤيا باب تعبير الرؤيا (٣٨٥)، والبيهقي (٣/٣٧١ - ٣٧١)، وابن عبد البر في التمهيد (٢/٢٢٦)، وصححه ابن حبان (٢٩٨٢/أ)، من حديث أبي سلمة بن عبد الرحمن عن طلحة بن عبد الله رضي الله عنه، وقال البصيري في مصلحة الزجاجة (٣/٢١٨ - ٢١٩): هذا إسناد رجاله ثقات وهو منقطع، قال علي بن المديني وابن معين: أبو سلمة لم يسمع من طلحة بن عبد الله شيئاً. وقال ابن عبد البر في التمهيد (٢/٢٣٣): هو عند أبي سلمة عن أبي هريرة عن طلحة وساق ابن عبد البر الحديث بسنه في ذلك (٢/٢٢٥).

وهله شاهد مسلم بعد حديث سعد بن أبي وقاص أخرجه مالك في الموطأ (١/١٧٤)، قال ابن عبد البر: «أما قصة الأخرين فليس تختص من حديث سعد ابن أبي وقاص إلا في مسلم مالك هذا، وقد أنكره أبو بكر البزار، وقطع بأنه لا يوجد من حديث سعد البيته، وما كان ينبغي له أن ينكره؟ لأن مرسائل مالك أصولها صحح كلها، وجائزة أن يروى ذلك الحديث سعد وغيره، وقد رواه ابن وهب من مخرجة بن بكر عن أبيه عن عامر بن سعد عن أبيه مثل حديث مالك سواء» (٢/٢٢٣ وأخرجه أحمد مسنداً (١/١٧٦) وصححه الشيخ أحمد شاكر (١٥٣٤) ورد قول من جزم بعدم سماع أبي سلمة بن عبد الرحمن من طلحة بن عبد الله رضي الله عنه فقال رحمه الله تعالى: «وأنا أرى أن الجزم بعدم سماعه من طلحة لا دليل عليه؛ فإن طلحة قتل يوم الجمل سنة ٣٦ هـ، وكان سن أبي سلمة إذ ذاك ١٤ سنة; لأنه مات سنة ٩٤ عن سنة على الصحيح الذي رجحه ابن سعد; بل لعله كان أكبر سنًا من ذلك ففي ابن سعد: أن سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أبي سفيان في المرة الأولى استقضى أبا سلمة بن عبد الرحمن بن عوف على المدينة، فلمأ عزل سعيد بن العاص وولى مروان المدينة المرة الثانية عزل أبا سلمة بن عبدالرحمن عن القضاء وولى القضاء وشرطه أخاه مصعب.»
المفيد في خطب الجمعة والعيد

ابن عبد الرحمن بن عوف وولاية سعيد بن العاص الأولى على المدينة كانت في شهر ربيع الآخر سنة 49 هـ وعزله وولاية مروان الثانية كانت سنة 54 هـ كما في تاريخ الطبري (6/170 - 15/124) وقد نص الطبري أيضاً على استضافة سعيد أبا سلمة في سنة 49 هـ. فكانت سن أبي سلمة حين مقتل طلحة سنة 36 هـ أربعة عشر عاماً أو أكثر، وكانا مقيمين بالمدينة، فأتى لاحق أن يدعي أنه لم يسمع منه؟! اه من شرح الشيخ أحمد شاكر على المسند (2/369).

وقال ابن عبد البر في التمهيد (240/22): "تفخض قصة الأخوين من حدث طلحة بن عبيد الله، ومن حدث أبي هريرة، ومن حدث عبد بن خالد، ومن حدث سعد هذا من رواية مالك هذه، ومرسل حدث مالك هذا أقوى من مسنود بعض حدث هؤلاء".

وحدث عبد بن خالد الذي ذكره ابن عبد البر أخرجه أبو داوود في الجهاد باب في النور يرى عند قبر الشهيد (254) يفتح: "آخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بين رجلي، فقتل أحدهما، ومات الآخر بعده بجمعه أو نجوا، فصلينا عليه فقال رسول الله: ما قلت؟ فقالنا: دعونا له، وقالنا: اللهم اغفر له ولحقه بصاحبه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فأين صلاته بعد صلاته، وصومه بعد صومه، شك شعبه في صومه وعمله بعد عمله؟! إن بينهما كما بين السماء والأرض"، وأخرجه أحمد (1/300)، والنسائي في الجナイذ باب في الجزارة (74/2112)، وفي السنن الكبرى (2112).

فإن كانت القصة في هذه الأحاديث واحدة كما يفهم من كلام ابن عبد البر في متنها اضطراب من وجهين:

الأول: اختلاف المدة التي بين استشهاد الأول ووفاة الثاني، ففي حديث سعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه أنهم كانت أربعين ليلة، وفي حديث طلحة أنها كانت سنة، وفي حديث عبيد بن خالد أنها كانت جمعة، وهذا اختلاف كبير.
فضيلة طول العمر مع حسن العمل

لم أجد من أجاب عنه، ولا مخرج منه إلا باحتمال تعدد القصة، أو توهيم بعض الرواة.

الثاني: أن حديث طلحة جاء عند الإمام أحمد بروايات ثلاث:
1 - عن أبي سلمة بن عبد الرحمن مرسلاً وذكر قصة رجليين مثل حديث عبيد بن خالد السلمي وحديث سعد بن أبي وقاص.
2 - عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن طلحة بن عبد الله و فيه قصة رجليين أيضاً.
3 - عن عبد الله بن شداد مرسلاً، وذكر ابن عبد البر: عن عبد الله بن شداد عن طلحة رضي الله عنه، وفيه ذكر قصة ثلاثة من بني عذرة.

فإما أن يكون الوهم من عبد الله بن شداد أو من أبي سلمة بن عبد الرحمن، ويبعد أن تعدد القصة في حديث طلحة إن كان عبد الله بن شداد قد رواها عن طلحة، كما ذكر ابن عبد البر؛ لأن موردها واحد، والله أعلم.

إشكال وجوابه:

قد يفهم من هذه الأحاديث الثلاثة في قصة الرجليين أن الجهاد ليس أفضل الأعمال بدليل تقديم من مات على فراشة على من استشهد؛ لأنه فضل عليه بأعمال صالحة أداها في أسبوع أو أربعين يوماً أو سنة؛ كما جاء منوعاً في الأحاديث، مع أن الأدلة متظاهرة على فضيلة الجهاد وأنه أفضل الأعمال، كما هو ظاهر حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: دلني على عمل يعدل الجهاد، قال: لا أجد، قال: هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تنظر، وتصوم ولا تنظر، قال: ومن يستطيع ذلك؟ أخرجه البخاري في الجهاد والسير باب فضل الجهاد والسير (2785).

قال ابن حجر رحمه الله تعالى: «وهذه فضيلة ظاهرة للمجاهد في سبيل الله تقتضي أن لا يعدل الجهاد شيء من الأعمال» (7/6) من الفتح، ويجب عن هذا الإشكال من وجهين:
المفید في خطب الجمعة والعيد

الوجه الأول: أنه لا يوجد في الأحاديث - التي عرضت لقصة الرجليين أو الثلاثة - ما يدل على نفي الجهاد عن مات على فراشه، وغاية ما تدل عليه أن صاحبه استشهد وهو مات على فراشه، فتكونان مشتركين في الجهاد، وخصوص أحادهما بالشهادة، وفُضِّل الثاني عليه بأعمال صلاته سببه بها؛ لأن مكث عقبه مدة يعبد الله عز وجل.

وأما نقل من أحوال الصحابة رضي الله عنتهم يدل لذلك؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم إذا نادى بالنفير خرجوا إلا أهل الأعراد وأهل النفاق، فالأصل أن الذي مات على فراشه كان ممهاذا يخرج للغزو، ولا دليل على خلاف ذلك، والشهيد له منزلته العالية، وما اختصه الله تعالى به من الفضل والكرامة، لكن صاحبه سبقه بأداء صلوات وصيام وأعمال صلاته أخرى انقطع عنها الشهيد منهما؛ وذلك فضل يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

الوجه الثاني: لو فلّث أن من مات على فراشه منهما لم يكن بغزو - وهو بعيد - ف ihمل سبقة لصاحب المجاهد الشهيد على ما ورد في فضل الذكر، وأنه كان ذاكراً لله تعالى أكثر من صاحبه الشهيد، وقد جاء في السنة ما يدل على أن الذكر أفضل الأعمال؛ كما روى أبو الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "آنا أن مهمكم بخير أعمالكم، وأزكى عند مليكم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعوانهم ويرضووا أعناكم"، قالوا: بل علاني، قال: ذكر الله تعالى أخرجه مالك في الموطا (111/1195/5)، وأحمد (137/172)، والرمذي في الدعوات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم باب ما جاء في فضل الذكر (377/279)، وابن ماجه في الأدب باب فضل الذكر (176/172).

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى في الجواب عن الأحاديث المتعارضة في أفضل الجهاد أو أفضل الذكر: "وطرق الجمع - والله أعلم - أن المراد يذكر الله في حديث أبي الدرداء الذكر الكامل وهو ما يجعل فيه ذكر اللسان والقلب..."
فضلة طول العمر مع حسن العمل

سأل الله تعالى أن يستعملنا في طاعته، وأن يبلغنا رمضان، وأن يعيننا على أداء حقه فيه، وأن يتقبل منا صالح الأعمال إنه سبحانه
قريب. بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب رباً ورضي، أحمده وأشكره، وأنتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله ربككم، وتزودوا من ذ尼كم لأخراكم، ومن صحتكم لمرضكم، ومن حياتكم لموتكم، فإن السعيد من عمر وقته بطاعة الله عزّ وجلّ، وإن الشقي من ضاع عمره في الله والغفلة.

أيها الناس: الأيام والليالي هي مستودع الأعمال، فمن كان يعمل صلاحاً فإن طول عمره لا يزيد إلا خيراً، قال الطبيبي رحمه الله تعالى:

إن الأوقات والساعات كرآس المال للناجر، ف ينبغي أن يتجر فيما يبرح

= بالتفكر في المعنى، واستحضار عظمة الله تعالى، وأن الذي يحصل له ذلك يكون أفضل من يقاتل الكفار مشاه من غير استحضار لذلك، وأن فضيلة الجهاد إنها هي بالنسبة إلى ذكر اللسان المجرد، فمن اتفق له أنه جمع ذلك كمن يذكر الله بلسانه وقلبه واستحضاره، وكل ذلك حال صلاته أو في صيامه أو تصدقه أو قاله للكفار مشاه، فهو الذي بلغ الغاية القصوى حل من الفتح

١١/١٦٣
فيه، وكلما كان رأس ماله كثيرًا كان الربح أكثر، فمن انفع من عمره بأن حسن عمله فقد فاز وأفلح، ومن أضاع رأس ماله لم يربح وخسر خسراً مبيناً! هـ(7).

ولا أهمية العمر بالنسبة للمسلم، وانتفاعه بطوله؛ جاء النهي عن تنمي الموت؛ لأنه يقطع وقت العمل، روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لا يتمنى أحدهم الموت ولا ينفع به من قبل أن يأتيه، إنه إذا مات أحدهم انتفع عمله، وإنه لا يزيد المؤمن عمره إلا خيراً» رواه الشيخان واللفظ لمسلم(8).

وفي رواية للبخاري: «إما محسنًا فلعله أن يزداد خيراً، وإما مسيئًا فلعله أن يستعتب»(9).

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: «وفي إشارة إلى أن المعنى في النهي عن تنمي الموت، والدعاء به هو انقطاع العمل بالموت؛ فإن الحياة يتسبب منها العمل، والعمل يحصلُ زيادة الثواب، ولو لم يكن إلا استمرار التوحيد فهو أفضل الأعمال. . .»(10) هـ.

وروى الإمام أحمد من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما

(7) تحقية الأحوذي (6/122).
(8) أخرج البخاري في المرضى باب تنمي المريض الموت (567)، ومسلم في الذكر والدعاء والثنية والاستغفار باب كراهة تنمي الموت لضر نزل به (2682)، وأحمد (3/16).
(9) هذه الرواية للبخاري (5673).
(10) فتح الباري (1/136).
قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تنتموا الموت فإن هول المطلع شديد، وإن من السعادة أن يطول عمر العبء ويرقص الله الإنباء»(11)
 قال الساعاتي رحمه الله تعالى: «المطلع: ما يطلع عليه العبء من أحوال البرزخ، ثم من أحوال القيام بعد الموت، فليس في تمنى الموت إلا تمنى الهدائد، فالأجر في طول العمر، والرجوع إلى طاعة الله تعالى، لا في تمنى الموت الذي يَضيع هذا الخير الذي هو سبب لرفع الهدائد فيما بعد الموت»(12).

أيها الإخوة: وها هو ذا رمضان قد أقبل، وكم فيه من خير عظيم، وأجر كثير، فمن أدركه فليحمد الله تعالى على ذلك، وليعمر وقته بطاعة الله عز وجل؛ فكم في القبور من أناس ضيعوا رمضانات كثيرة، وقضوا أعمارهم في المعاصي، قد ندموا أشد الندم على تفرطهم، ويتمنون الرجعة إلى الدنيا للنزود من الخير، ولكن هيهات أن يعودوا إن كثيراً من الناس قد اعتادوا في رمضان على اتباع الشيطان وأعوانه وجنده فيما يأمره به من المعصية، ولاسيما في هذا الزمن الذي

(11) أخرجه أحمد (3/372)، والبيهقي في كشف الأستار (324)، وعبد ابن حميد (1155)، والبيهقي في الشعب (1089)، والحاكم صححه ووافقه الذهبي (4/240)، وحسنه المندزي في الترغيب والترهيب (1/431)، والبيهقي في الرواية (1/253)، والساعاتي في الفتح الرباني (7/47)، وقد ذكر الألباني في السلسلة الضعيفة أنه مضطرب ويبين أوجه الاضطراب في إسناده وضعفه (4979).
(12) الفتح الرباني (7/47).
كثرت فيه الملهمات من المحرمات والموقيات، ووصل إلهاء الناس في رمضان عن عبادة ربهم، وإفساد قلوبهم بالمنكرات حداً عجيباً، تتناقص الفضائات وغيرها في ذلك أشد التنافس، والمشاهد المسلم المسلمين يصومون نهاره عن الطعام والشراب والنكاح، ويفضي ليله على مشاهدة ما حرم الله عليه في رمضان وفي غير رمضان، وهذا والله من قضاء العمر في سوء العمل، نسأل الله العافية والهداية.

ألا فاتقوا الله ربككم، واعمروا أوقاتكم بذكر الله تعالى، واقضوا أعماركم في التزود من الباقيات الصالحات؛ فإن خيار الناس من طالت أعمارهم وحسمت أعمالهم، وإن شرار الناس من طالت أعمارهم وساءت أعمالهم.

وصلوا وسلموا على محمد بن عبد الله كما أمر بذلك ربككم،
الاستقامة على دين الله تعالى

119 - الاستقامة على دين الله تعالى

4/10/1424 هـ

الحمد لله، نحمده ونتعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. (أي: أنك الذين أمنوا أن تقولوا الله حقاً نطقته ولا تزورون إلا وأنت تمستلمن) [الإعراب: 2:5]، (أي: الناس ألقوا رُيْكِم الذي خلفكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث مثلاً جالياً كثيراً ونساء وألقوا الله الذي تساعلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً) [النساء: 1]، (أي: أنك الذين أمنوا أن تقولوا الله وقولوا قولاً سديداً يُصِلْح كُلّ أَعْمَالَكُم ويعفّر كُلّ ذِنوبِكُم ومن يطبع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً) [المحزاب: 71, 7].

أما بعد: فإن أحسن الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدى هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعه، وكل بدعه ضيالة، وكل ضيالة في النار.

أيها الناس: من توقيف الله تعالى للعبد أن يلهнем رشدة، ويكتيه شر نفسه، ويبدله على ما يرضيه، ويرزقه الثبات على الدين.

وجماع ذلك: الإيمان بالله تعالى، والعلم بدينه، والاستقامة عليه إلى الممات؛ فمن حق ذلك كان له الأمن الدائم، والنعيم المقيم الذي
لا يحول ولا يزول، ونال رضوان الرحمن، والخالد في الجنان، {إن الذين قلوا ربنا الله ثم استقمنا فلا خوف عليهم ولا هم يحزونون} أئذان (1)
أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون [الاحتفاظ: 13-14].
ولأهمية الاستقامة وشرفها أوصى النبي صلى الله عليه وسلم بها;
فعن سفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه قال: {قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قوله لا أسأل عنه أبداً، قال: قل آمنت بالله فاستقم} رواه مسلم (1).
وقال ابن مسعود رضي الله عنه: {خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطًا ثم قال: هذا سبيل الله، ثم خطًا خطوطًا عن يمينه وعن شماله ثم قال: هذه سبيل متفرقة على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه، ثم قرأ: {وأنا هذا صراطي مستقيمًا فاتبعه ولا تتبعوا السبل قتفرق يبكُم عن سبيله} [الانعام: 113] رواه أحمد وصحابه ابن حبان والحاكم (2).
إنه طريق واحد، من استقام عليه نجا، ومن حاد عنه هلك، وكل

(1) أخرجه أحمد (3/431/23)، وسلم في الإمام باب جامع أوصاف الإسلام (29)، والترمذي في الزهد باب ما جاء في حفظ اللسان (241)، والنسائي في الكبرى (26)، ابن ماجه في الفتن باب كيف اللسان في الفتنة (272)، والدارمي (271)، وهذا اللحظ لمسلم، وجاء في الروايات الأخرى: {قل آمنت بالله ثم استقم} وفي بعضها: {اتق الله ثم استقم}، وفي أخرى: {قل ربى الله ثم استقم}.
(2) أخرجه أحمد (1/435/244)، والطيالسي (202)، والدارمي (202)، والبزار (2441)، وصحابه ابن حبان (7)، والحاكم ووافقه الذهبي (318/2).
ما جاء في الشريعة إما هو لأجل هذا الطريق الأوحد الذي يرضي الله تعالى، ويسلكه تكون نجاة العباد. قال إني أنا بشر مكلم يوجذي إلي آنما إلهكم إله واحد فاستمروا إليه واستغفروه وويضل للمشركيين فصلت: 6

وتجاوز حدود الله تعالى هو الطنيان الذي نهي الله تعالى عنه لما أمر بالاستقامة فقال سبحانه: فاستمتم كما أمرت ومن تاب متعلق ولا تطغوا إني بما تعملون بصیر [هود: 112]، والطنيان هو مجاوزة الحد.

والاستقامة على أمر الله تعالى فيها مخالفة لرغبات النفس، وأهواء الناس، ولا يقدر على ذلك إلا من أعانه الله تعالى على نفسه الآمنة بالسوء، وعلى غيره مثنى لين لاب يخالف الاستقامة أو ينقصها، فلا يساوم على استقامتها، ولا يتخلل عن دينه، مهما كانت المغريات والتبعات; كما أمر الله تعالى نبيه بذلك فقال سبحانه: فلذا تلك فاذج واستمتم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم [البشري: 15]

وإذا كانت الاستقامة لا تكمل إلا بمخالفة الأهواء والشهوات، فهي حينئذ درجة بها كمال الأمور وتمامها، وبوحدها حصول الخيرات وانتظامها؛ ولذلك قال من قال من العلماء: الاستقامة لا يطيقها إلا الأكابر؛ لأنها الخروج عن المعهودات، ومفارقة الرسوم والعادات، والقيام بين يدي الله على حقيقة الصدق).

وقال الواسطي رحمه الله تعالى: ففاخلصة التي بها كملت المحاسن،

(3) النبي ج على مسلم (56/1)، وشرح النووي (9/2).
ويفقدها قبحة المحاسن: الاستقامة١٤).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: "غاية الكرامة: لزوم الاستقامة"١٥).

ولأن تحقيقها كاملة عزيز المنال، لا يقدر عليه إلا الكُل من الناس;
قال ابن عبد البر: "قوله في هذا الحديث: "سددوا وقاربو" يفسر

المصدر السابق.

١٤. مجمع الفتاوى (١١/٢٩٨).

١٥. أخرجه أحمد (١٢٥/٥٧)، والبيخاري في الرقاق باب القصد والمداومة على العمل (١٤٧، ١٤٠، ٢٧٦).

١٦. أخرج مالك في الموطأ (١٣٣)، وأحمد (٢٧٦/٥)، والداحلي (١٥٥)، والحاكم وصححه، وقال: "هذا الحديث صحيح على شرط الشيخين.
ولم يخرجه ولم أعرف له علة يعلل بمعنى مثل هذا الحديث إلا وهم من أبي بلال الأشعري وهم فيه على أبي معاوية وقال الذهبي في التلخيص: "على شرطهما، ولا علة له سوى وهم أبي بلال الأشعري (١/١٣٠)
وصححه الألباني في صحيح الجامع (٩٥٢).
الاستقامة على دين الله تعالى

قوله: "استقمو ولى تقصوا"، يقول: سددوا وقاروا فلن تبلغوا حقيقة
البر، ولن تطمئنوا الإحاطة في الأعمال، ولكن قاروا؛ فإنكم إن قارتم
ورفقتم كأن أجزر أن تدوموا على عملكم".

و قال ابن القيم رحمه الله تعالى: "فجمع في هذا الحديث مقامات
الدين كلها، فأمر بالاستقامة وهي السداد، والإصابة في النيات والأقوال،
وأخبر في حديث ثوبان رضي الله عنه أنهم لا يطبقونها فنقلهم إلى
المقاربة، وهي أن يقربوا من الاستقامة بحسب طاقتهم، كالذي يرمي
إلى الغرض، وإن لم يصبه يقاربها، ومع هذا فقد أخبرهم أن الاستقامة
والمقاربة لا تنجي يوم القيامة، فلا يركن أحدا إلى عمله، ولا يرى أن
نجاته به، بل إنما نجاته برحمته الله وغفرانه وفضله، فالاستقامة كلمة جامعة
أخذةً بمجامع الدين، وهي القيام بين يدي الله تعالى على حقيقة
الصدق، والوفاء بالعهد، والاستقامة تتعلق بالأقوال والأفعال والأحوال
والنيات، فالاستقامة فيها وقوتها الله وبالله وعلى أمر الله". ٩)

أيها الإخوة: لا تستقمن جوارح العبد حتى يستقيم قلبه، وتغمان
ذلك اللسان، فمن صان لسانه عمدا حرماً حرم الله تعالى من الفحش والغيبة
والممتعة وغيرها من المحرمات فحري أن يستقيم قلبه وجوارحه؛ كما
جاء في حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم: "لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه

(8) التمهيد (٢/٤٤ - ٣٢٠).
(9) مدارج السالكين (٢/١٠).
حتى يستقيم لسانه» رواه الإمام أحمد (110).

وجاء في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً: «إذا أصبَح ابن آدم فإن أعضاءه تكَّفِّرُ اللسان - أي تذَّلُّ له وتتخضع لأمره - تقول: أتِق الله فِينا، فإنك إن استقمنا، وإن أعوججت أعوججنا».

رواه أحمد والترمذي (111).

(110) أخرجه أحمد (3/198) والقاضي في مسنده الشهاب (897)، وابن أبي الدنيا في الصمتم (9) والطبراني في الأوسط (559)، والصغير (964)، وأخرجه الطبراني في الكبير بنحوه من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه (10/280) برقم: (6053). (111) أخرجه أحمد (3/95)، وعبد بن حميد (979)، والطيالسي (922)، وأبو يعلى (1185)، والترمذي في الزهد باب ما جاء في حفظ اللسان (740)، وابن أبي الدنيا في الورع (91).

وافختلف في رفعه ووقفه، وقد ساقه الترمذي مرفوعاً من حديث محمد بن موسى البصري، حدثنا حماد بن أبي زيد عن أبي الصهباء عن سعيد بن جبير عن أبي سعيد رفعه، فذكره وقال عقب ذلك: «حدثنا هناد، حديثنا أبو أبامة عن حماد بن زيد نوحه ولم يرفعه، وهذا أصح من حديث محمد بن موسى». ثم قال الترمذي: «هذا حديث لا نعرفه إلا من حديث حماد بن زيد، وقد رواه غير واحد عن حماد بن زيد ولم يرفعه» إهل من جامعه (524/4). وفي المنتخب من مسنده عبد بن حميد (979) أورده مرفوعاً من حديث سليمان ابن حرب، حدثنا حماد بن زيد عن أبي الصهباء عن سعيد بن جبير عن أبي سعيد به.

وفي مسنده أحمد (3/95) أورده مرفوعاً من حديث عفان، حدثنا حماد بن زيد... إلخ.
قال الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى: "فمتى استقام القلب على معرفة الله وعلى خشیته وإجلاله، وماهته ومحبته، وإرادته، ورجاهه، ودعائه والتوكل عليه، والإعراض عنما سواه، استقامت الجوارح كلها على طاعته، فإن القلب هو ملك الأعضاء وهي جنوده، فإذا استقام الملك استقامت جنوده ورعاياه - إلى أن قال - وأعظم ما و في مسن أبي يعلى (185) أورد مرفوعاً أيضاً من حديث زهير حديثنا

محمد بن الفضل حديثنا حماد بن زيد ... إلخ.
والطيالي كذلك أورد مرفوعاً من حديث حماد بن زيد به.
وأخرجه ابن عبد البر في التمهيد مرفوعاً من حديث عبد الرحمن بن مهدي، حديثنا حماد بن زيد به، ثم أورد قول ابن مهدي: "رأيت سفيان الثوري جالساً عند حماد بن زيد يكتب هذا الحديث" (21/4).
وأخرجه ابن عبد البر في التمهيد مرفوعاً (21/41) من رواية إسحاق بن إسرائيل حديثنا حماد بن زيد به.
وقوله في الحديث: "تكرَّرُ اللسان" جاء في بعض الروايات: "تكرُّرُ اللسان".
قال ابن الأثير: "التكرير هو أن ينحني الإنسان ويطاطس رأسه قريباً من الركوع، كما يفعل من يريد تعظيم صاحبه". 
وقال الخاطبي: "تكرير: أي تواضع وتدلل، وأصله أن يومئ الرجل برأسه وينحني إذا أراد تعظيم صاحبه". 
وقال في اللسان (5/16): "تكرير للسُّنَّة: أي تذل وتقر بالطاعة له، وتخضع لأمره".
قلت: الظاهر من معنى الحديث: أن الأعضاء تخضع للسُّنَّة وتناشده وترجوه أن يتقى الله فيها؛ وقد جاء في بعض روايات الحديث أن الأعضاء تقول للسُّنَّة: "أشدك الله فنا".
يراعي استقامته بعد القلب من الجوارح: اللسان فإنه ترجمان القلب والمعبر عنه» (١٢).

ولعظيم شأن الاستقامة، وأهميتها في حياة المسلم، وكونها سبب سعادته وفلاحه; فإن النبي صلى الله عليه وسلم علَم علياً رضي الله عنه سُوَّلها من رب العالمين، فعن علي رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قل: اللهم اهدني وصديقي، وذكر باللهي هديتك الطريق، والسادس سداد السهم» رواه مسلم (١٣).


قال النووي رحمه الله تعالى: «ومعنى: «اذكر باللهي هديتك الطريق، والسادس سداد السهم» أي: تذكر ذلك في حالت دعائكم بهذين اللذين، لأن هادي الطريق لا يزغ عنه، ومسلئ السهم يحرص على تقويمه، ولا يستقيم رDMI حتى يقومه، وكذا الداعي ينبغي أن يحرص على تسديد علمه وتقويمه ولزومه السنة» (١٤).

(١٢) جامع العلوم والحكم (١٣٨٩/١). (١٣) أخرجه أحمد (١٥٤/١)، ومسلم في الذكر والدعاء والاستغفار باب التعود من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل (٢٧٢)، وأبو داود في الخاتم باب ما جاء في خاتم الحديث (٤٢٥)، والنسائي في الزينة باب النهي عن الخاتم في السبابة (٩٧٨)، وأبو يعلى (٤٨). (١٤) شرح النووي على مسلم (١٧/١١٧).
الاستقامة على دين الله تعالى

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: "إن الذين قلوا رَبِّنَا اللَّهُ نَعْمَحُونَ هُمُ الْمَكْنَكُونَ ۡلَا يَحْرُونَهُمْ أَيُّهَ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا يَحْرُونَهُمْ إِلَّا أَنْ تَحْزَنُوا وَأَبْشَرُوا بِالجَنَّةِ الَّتِي كَنُمْ نُعِيدُنَّهَا ۡلَكُمْ ذَٰلِكَ عَمَّا كُرِئَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَنْتَعِجُونَ (۴۳) نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ" [فصلت: ۲۲-۳۲].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ،

الخطبة الثانية

الحمد لله حمدًا طيبًا كثيرًا مباركاً فيه كما يحب ربي ورضي، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله - عباد الله - وأطيعوه، واستقموا على دينه إلى أن تلقؤوه، ففي ذلك الفوز العظيم (واعبِرُ رُزْقًا حَتَّى يَاتَيْكَ الْيَقِينُ) [الحجر: ۹۹].

أيها المسلمون: في رمضان استقام كثيرٌ من الناس على أمر الله تعالى، وجانبوا نهيه، وسعوا في إصلاح قلوبهم، وتركية أعمالهم، ومحاسبة أنفسهم على أوقاتهم وألفاظهم؛ فتراهم لا يسعون إلا في طاعة، ولا تلهجُ آلستهم إلا بذكر الله تعالى واستغفاره وشكره.

كان لهم وردٌّ من القرآن، ونصبٌ من نواقل الصدقات، وتطوعٌ بالصلوات، مع محافظته على اللفاتض، وتبكير إلى المساجد، والإتيان بالسنن الروابط، والمداومة على أذكار الصباح والمساء، وأداب الصلاو
المفيد في خطب الجمعة والعيد

واجتهاد في التذمر والخشوع أثناء الصلاة، وقراءة القرآن وسائر الذكر، فوجدوا في العبادة لذا لا يعدل لها لذا، وسعادة بطاعة الله تعالى لم يجدوها لا في تحصيل الأموال، ولا في الأنس مع الأهل والأولاد، ومنهم من عاهد الله تعالى - وهو يجد لذا هذه الطاعات - ليدومن عليها بعد رمضان، وليكون له نصيبه من الصلاة والذكر والقرآن، وقد انتهى رمضان فهل استمروا على عملهم، ووفقوا بعدهم!؟ أم تراهم نسوا لذا ذلك كله، وأقبلوا على الدنيا وملذاتها وشهواتها!!

إن الإنسان سمي إنسانًا لأنه ينسى، وأدم عليه السلام نسي فنسبت ذريته، وأخطأ فأخطأت ذريته كما جاء في الحديث (15)، ومن رحمة الله تعالى بعباده أن جعل هذه المواسم المباركة تذكره لعباده، تبههم من غفلتهم، وتوقفهم من رقدتهم، وتنبئهم من رعبهم، وتثبيت لهم بالمارسة العملية، والتجربة الفعلية أن بإمكانهم السعي في الدنيا مع المحافظة على عمل الآخرة، على وفق قول الله تعالى: {آتآك الله الدار الآخرة ولا تنس تنصيبك من الدنيا} [القصص: 77].

لقد جمع كثير من المسلمين في رمضان بين هذين العملين، فحافظوا على أعمالهم الدنيوية، وفرغوا جزءًا كبيرًا من وقتهم للآخرة، يتمثل

(15) هو حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند الترمذي في تفسير القرآن باب ومن سورة المؤذين، وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه (1368)، وابن أبي عاصم في السنة (202)، وابن سعد في الطبقات (27/1)، والطبري في تفسيره (91/1)، والحاكم وصححه (1/43)، وصححه ابن حبان (611/7).
الاستقامة على دين الله تعالى

في صلاة الظهر، وقدر من صلاة الليل في أوله أو آخره، وقراءة القرآن، وسائر أنواع الذكر، فما إذا عليهم لَو حافظوا على ذلك بعد رمضان، ولم يقطعوا الأعمال الصالحة إلى رمضان القابل ففعلهم لا يدركونه.

إن استعمال العبد نفسه في طاعة الله عز وجل نعمة يمن الله تعالى بها على من شاء من عباده؛ فتراه يعيش مع الناس، ويواكِلهم ويشاربهم، بل وينافسفهم في دنياهم، ويعمل بأعمالهم، ولكن له أعمال أخرى تبني حياته الأخرى قد حافظ عليها، والتزم بها في بيته ومسجدته؛ فلا فاته الدنيا، وقد ظفر بالآخرة إن قبَله الله تعالى.

ألَا فاتقوا الله رَجْمُ، وإياكم وتعظ الأعمال الصالحة بعد رمضان، واحذرو التفريط في نوافل العبادات، فما أحوج العبد إليها يوم القيامة!

وأتبعوا رمضان سناً من شوال؛ ليكون لكم كصيام الدهر، كما روى أبو أيوب الانصاري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من صام رمضان ثم أتبعه سناً من شوال كصيام الدهر» رواه مسلم(1).

وصلوا وسلموا على محمد بن عبد الله كما أمركم ربك بذلك...

(11) أخرج مسلم في الصوم باب استحباب صوم ستة أيام من شوال (114)، وأبو داود في الصيام باب في صوم ستة أيام من شوال (2432)، والترمذي في الصوم باب ما جاء في صيام ستة أيام من شوال (759)، وابن ماجه في الصوم باب صيام ستة أيام من شوال (1716).
الجمعة 1419/5/20

الحمد لله، نحمنه ونستعينه ونستغفره، ونوعذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجهم، واهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فأوصيكم - أيها الناس - ونسيت بقوي الله عزوجل، والتمسك بالدين، والثبات عليه إلى الممات، فتلك وصية الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ورضي بها إبراهيم بنه وعقوم بنا بن ينإن الله اصطفى لكم الذين فلا تموتون إلا وأنتم مسلمون [البقرة: 132].

أيها الإخوة المؤمنون: الموت ثم الحساب فالجزاء غاية كل حي، والموت يعرف الناس كلههم، ويعرفونه ويعرفون منه، ثم هو ملاقينه قلن إن الموت الذي تفرو منه فإنه ملاقينك ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون [الجمعة: 8].

وحرص أن الموت مصيبه كما سماه الله تعالى بذلك فأصابكم مصيبه الموت [المائدة: 101] إلا أن المصيبة العظمى والأمر الأدهي من الموت هو الحال التي يموت عليها العبض، من حسن الخاتمة أو سوئها، ومن محبة لقاء الله أو كراهيته، ومن حسن الظن بالله أو عدمه.
ومن حكمة الله البالغة: أن أخفى أمر الحكمة، فلا يعلم أحد أي ختم للعبد بالخير أو الشر؟ حتى يجهد العبد في تحصيل أسباب حسن الحكمة، ويُلعج على الله تعالى في نيلها، ويكثر التعود بالله من سوئها، قال ابن بطال رحمه الله تعالى: "في تغييب خاتمة العمل عن العبد حكمة بالغة، وتدير لطيف، لأنه لو علم وكان ناجياً أعجب وكسر، وإن كان هالكاً ازداد عتنا، فحُجب عنه ذلك ليكون بين الخوف والرجة".  

أيها الإخوة: وحسن الحكمة علامات يرجى لم تتصف بها مع إيمانه خيراً كثيراً، ولا يلزم من توافر هذه العلامات أو بعضها في عبد أن يُقطع له بالرحمة أو الجنة ولو كان مؤمناً، إذ القلوب لا يعلم حالها صلاحاً وفساداً إلا خالقة ومقبلاً، تبارك وتعالى. ومن تلك العلامات: النطق بالشهدة عند الموت؛ كما روى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة"، كذلك من علامات حسن الحكمة الموت برضح الجبين. حديث بريدة رضي الله عنه: أنك كان بخراصان فعاد أخاه له وهو مريض، فوجدته بالموت وإذا هو يعرق جبينه، فقال: الله أكبر، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: يموت المؤمن...

(1) فتح الباري للحاكم ابن حجر (338/11).
(2) آخره أحمد (333/247) وأبو داود في الجنائز باب في الLEC (116).
(3) الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (351) وعزال آلاباني في الأروء لابن منده في التوحيد وحسنه (687).
بعرق الجبين» أخرجه أحمد والترمذي (3).

والموت ليلة الجمعة أو نهارها يقي فتنة القبر; كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "ما من مسلم يموت يوم الجمعة أو ليلة الجمعة إلا وقاه الله فتنة القبر" أخرجه أحمد والترمذي (4).

والموت غازيا في سبيل الله تعالى، أو مرابطًا على ثغر من الثغور دليل على حسن الخاتمة؛ إذ ينال صاحب فضل الشهادة؛ كما أخرج أبو داود من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من فصل في سبيل الله فمات أو قتل فهو شهيد، أو وقصه فرسوه أو بعيره، أو لدغته هامة، أو مات على فراشه بأي حتف (3) أخرجه أحمد (5/35) وأبو نعيم في الحلية (9/233) والترمذي في الجائز.

باب ماجأ في أن المؤمن يموت بعرق الجبين وحسته (262) والناس في الجائح باب علامة المؤمن (4/5) وابن ماجأ في الجائح باب ماجأ في المؤمن يؤجر في الزنُّع (1452) وصححه ابن حبان (300) والحاكم وواهله الذهب (1/261).

(4) أخرجه أحمد (169) والترمذي في الجائز باب ماجأ فيمن مات يوم الجمعة (74) قال الترمذي: وهذا حديث ليس إسناده متصل، ربيعة بن سيف إما يروي عن أبي عبد الرحمن الخليلي عن عبدالله بن عمرو، ولعرف لربيعه بن سيف سماعاً من عبدالله بن عمرو، وقد أعلم بهذا الانقطاع الشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند (1586) قال السخاوي: "وقد وصله الطباني وأبو يعلى من حديث ربيعه عن عياض بن عقبة الفهري عن عبدالله بن عمرو، وله طريق أخرى أخرجها أحمد وإسحاق والطبراني من رواية بقية... " إنظر: المقتضى الحسنة (1186) وحاشية الأرناؤوط على جامع الأصول (9/272) وقد حسن الآلباني في صحيح الجامع (5773).
حسن الحاتمة: العلامات والأسباب

شاء الله فإنه شهيد وإن له الجنة«(5)، وروى فضيلة بن عبيد رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "كل ميت يجتمع على عمله إلا الذي مات مرابطاً في سبيل الله فإنه ينمي له عمله إلى يوم القيامة، ويأمن فتنة القبر" أخرجه الترمذي وصححه.

وأعظم من ذلك أن يقتل شهيداً في سبيل الله تعالى "لا تحسن الذين قتلا في سبيل الله أمواتاً بل أحياهم عند رحمة نوركم (169). فرحين بما آتاه الله من فضله ومستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم إلا خروف عليهم ولا لهم يحزرون (170) مستبشرون بعمة من الله وفضله وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين" (آل عمران: 169-171)، وقال النبي عليه الصلاة والسلام: للشهيد عند الله ست خصال: يُغفر له في أول دفعة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويُجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه ناج الوقار الباقوة منه خير من الدنيا وما فيها، ويزوج تنين وسبعين زوجة من الحور العين، ويشفع في سبعين من أقاربه« أخرجه أحمد والترمذي وصححه.

(5) أخرجه أبوودوع في الجهاد باب ماجأ في من مات غازيا (2499) والبيهقي (9/166) والحاكم وصححه وقال: على شرط مسلم (2/78) وحسن الناباني في أحكام الجنائز (37) وصحيح الجامع (573).
(7) أخرجه أحمد (4/131) والترمذي في فضائل الجهاد باب ثواب الشهيد وقال: حسن صحيح غريب (1663) وابن ماجأ في الجهاد باب فضل الشهادة في سبيل الله (2799).
ويلحق به في حسن الخاتمة بقية الشهداء من مات بالطاعون أو بالدهم أو الغرق، أو داء البطن أو الحرق، أو ذات الجرب أو الستل، أو المرأة تموت في نفسها، كل أولئك جاءت النصوص بأنهم شهداء، والشهادة من أحسن الخواتم. روى جابر بن عتيق مرفوعاً: "الشهداء سبعة سوى القتل في سبيل الله: المطعون شهيد، والغرق شهيد، وصاحب ذات الجرب شهيد، والمبطن شهيد، والحرق شهيد، والذي يموت تحت الدهم شهيد، والمرأة تموت بجمع شهيدة." أخرجه مالك وأبو داود والحاكم وصححه، وفي حديث آخر قال عليه السلام: "القتل في سبيل الله شهادة، والطاعون شهادة، والغرق شهادة، والبطن شهادة، والحرق شهادة، والسول والنفسا بجرها ولدها بسرها إلى الجنة." كذا قال عليه السلام: "من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون دينه وماله فهو شهيد."


(9) أخرجه أحمد (4/201) والطليسي (5/582) والدارمي (2/285) وصححه الألباني في صحيح الجامع (4/139).
فهمه شهيد أخرجه أبو داود والنسائي (111)، وفي حديث آخر "من قتل دون مظلمته فهو شهيد" (111).

والموم على عمل صالح يختم للعبد به يدل على حسن الخاتمة.

كما في حديث حذيفة رضي الله عنه قال: أسندت النبي صلى الله عليه وسلم إلى صديق فقال: "من قال لا إله إلا الله إنا الإباغاء وجه الله ختم له بالجنة، ومن صام يوماً إنا الإباغاء وجه الله ختم له بها دخل الجنة، ومن تصدق بصديقة الإباغاء وجه الله ختم له بها دخل الجنة" أخرجه أحمد (111)، وروى أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا أراد الله برده خيراً استعمله قيل: كيف يستعمله يا رسول الله؟ قال: يوفقه لعمل صالح قبل الموت ثم يقبض عليه" أخرجه أحمد والترمذي (111).

(1) أخرجه الترمذي في الديات باب ماجة فين قتل دون ماله فهو شهيد وقال: حسن صحيح (1418) وأبو داود في السنة باب في تهذيل اللصول (272) والنسائي في تخريج الدم باب من قاتل دون ماله (7/115) وابن ماجه في الحدود باب من قتل دون ماله فهو شهيد (258).

(11) أخرجه النسائي في تخريج الدم باب من قاتل دون مظلمته من حديث سويد بن مقرن (7/117) والطبراني في الكبير (7/102) برقم (1454) وله شاهد عند أحمد من حديث ابن عباس رضي الله عنهم (2/105) وصححه الشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند (278).

(12) أخرجه أحمد (5/391) قال الهيثمي: وروجاه رجل الصحيح غير عثمان بن مسلم البني وهو ثقة، انظر: مجمع الزوائد (215) وصححه الآلباني في أحكام الجنائز (43).

(13) أخرجه أحمد (3/120-121) والترمذي في القدر باب ما جاء أن الله كتب كتاباً لأهل الجنة وأهل النار (142) والبغوي في شرح السنة (98-99).
وثناء المؤمنين على العبد مؤذن له بالخير، فقد روى أنس رضي الله عنه قال: «مر بجنازة فأنثى عليها خيراً، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: وجبت وجبت وجبت». ومر بجنازة فأنثى عليها شراً، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: وجبت وجبت، قال عمر: فديك أبي وأمي، مرت بجنازة فأنثى عليها خيراً، فقلت: وجبت وجبت وجبت. ومرت بجنازة فأنثى عليها شراً، فقلت: وجبت وجبت، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من أنتمتم عليه خيراً وجبت له الجنة، ومن أنتمتم عليه شراً وجبت له النار، أنتم شهداء الله في الأرض، أنتم شهداء الله في الأرض» أخرجه الشيخان (14).

وعن أبي الأسود الديلي قال: أتيت المدينة وقد وقع بها مرض، وهما موتوا معاً، فجلست إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فكرت جنازة، فأنثى خيراً فقال عمر: وجبت، ثم مرت بآخرة فأنثى عليها خيراً، فقال: وجبت، ثم مرت بالثالثة فأنثى عليها شراً، فقال: وجبت، فقلت: وما وجبت يأمر المؤمنين؟ قال: قلت كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أيا مسلم شهد له أربعة بخير أدخله الله الجنة، قلنا:»

والحاكم وصححه وقال على شرط الشيخين ووافقه الذهبي (4/ 240) وصححه ابن حيان (14/ 341).

(14) أخرجه البخاري في الجنازة باب ثناء الناس على المت (1677) ومسلم في الجنازة باب فيمن بليش عليه خير أو شر من الموتى واللفظ له (949) وبالغوي في شرح السنة (108/ 15).
حسن الخاتمة: العلامات والأسباب

وثلاثة؟ قال: وثلاثة، فننا واثنان، قال: واثنان، ثم لم نسأله في الواحد
أخرجه البخاري (١٥).

وكثيرة المصلين على جنابة المؤمن، والمشيعين لها دليل على الخيرية،
وبسبب إلى كثيرة الشفعاء، قال النبي عليه الصلاة والسلام: "ما من
رجل يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلاً لا يشكون بالله شيئاً إلا
شفاعتهم الله فيه" رواه مسلم (١٦).

أيها الإخوة: هذه بعض من دلائل البشرى، وأنواع من الميتات
الحسنة، أسأل الله تعالى أن يجعل خير أعمارنا آخرها، وخير أعمالنا
خواصها، وخير أيامنا يوم لقائه، وأن يتوفنا وهو راض عننا، إنه سميع
مجيب، وأقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله حمدًا طيبًا كثيرًا مباركًا فيه كما يحب ربه ورضي
أحمده وأشكره، وأتوب إليه واستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده
لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك
عليه وعلى آل وإصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.
أما بعد: فإن الخاتم الحسن يناله من صبح ظاهره وباطنه، وأخلص

(١٥) أخرج البخاري في الجنائز باب ثناء الناس على الميت (١٣٦٨) وفي الشهادات
(١٦) وأخرج مسلم في الجنائز باب من صلى عليه أربعون شفعوا فيه (٩٤٨)
(٢٤٣) والبغوي في شرح السنة (١٥٠).
(١٦) وأبو داود في الجنائز باب فضل الصلاة على الجنائز وتشيعها (٣١٧).
الله في قوله وعمله، ثابت على الإيمان والثقة، ولم يكن للعجب أو الرياء إلى قلبه سبيل، مع الاجتهاد في الدعاء، والإلحاح على الله تعالى.

أيها الأخوة: من رام حسن الحفظ لزمه الثبات على الإيمان، ثابتاً لا تزعزعه الشهبات، ولا يتغير بالشهوات، حتى يلقى الله تعالى بإيمانه

يرى أَيْنَّا الذين آمَنُوا أَنْ قَوْا اللَّهُ حَقَّ نُقَاتِهِ وَلَا تَمْوَنُ إِلَّا وَأَنَّم مُسْلِمُونَ (12)

[آل عمران].

المتعلق بالدنيا يخشى عليه أن يموت يوم يموت وهو في غفلة عن الله والدار الآخرة، وإقبال على الدنيا وزخرفها، وإن أكثر الناس في هذا الزمن إما يخشى عليهم من فتنة الدنيا، التي من أجلها قسروا في الأمورات، وارتكبوا المحظورات، وغفلوا عن ذكر الله تعالى، والفكر في خلقه ونعمه، وصار همُّ الكثيرون: كم يملكون؟ وكيف يستبدين؟ وماذا يشتهون؟

والأمن من مكر الله تعالى مذود في سوء الخاتمة، وشؤم العاقبة، يرى العبد أعماله الصالحة، وأعمال غيره السيئة، فلا يحمد الله تعالى ويسأل الله الثبات، بل يغترب عمله، يعجب بصلاحيه، ويأمن من مكر الله، ولربما ختم له بالسوء، قال حفص بن حمید: «قلت لابن المبارك: رأيت رجلاً قتلى رجلاً ظلماً، فقلت في نفسي: أنا أفضل من هذا، فقال: أمنك على نفسك أشد من ذنبه» قال الطبري: «لا أنه لا يدري ما يؤول
حسن الخاتمة: العلامات والأسباب

إله الأمر لعل القاتل يتبث فتقبل توبته، ولعل الذي أنكر عليه يختتم له بخاتمة السوء.

ومن أعظم ما يتعلق بتحصيل الخاتمة الحسنة: حسن الظن بالله تعالى، يقول الله تعالى في الحديث القدسي: "أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا دعاني". أخرجه مسلم (18) وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "لا يموت أحد منكم إلا وهو يحسن الظن بالله تعالى". أخرجه مسلم (19).

كذلك من أسباب الخاتمة الحسنة كثرة الدعاء بالثواب على الدين، وسؤال الله تعالى المبتكرة الحسنة، وروي عنه صلى الله عليه وسلم السلام أنه قال: "الدعاء يفع ما نزل وما لم ينزل فعليكم عباد الله بالدعاء". أخرجه الترمذي (20)، وكان من دعا النبي صلى الله عليه وسلم: "واجعل..." (17) فتح الباري لابن حجر (1/1238).

18) أخرجه البخاري في التوحيد باب قوله تعالى "يريدون أن يبدؤوا كلام الله" (الفتح: 15: 2675) ومسلم في الذكر والدعاء باب فضل الذكر والدعاء والقرب إلى الله تعالى (3489) والترمذي في الزيت باب ماجأء في حسن الظن بالله جمله "وأنا معه إذا دعاني" لمسلم والترمذي دون البخاري.

19) أخرجه مسلم في صفة الجنة باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت (2777) وأبو داود في الجنائز باب ما ينصح من الظن بالله تعالى عند الموت (131).

20) أخرجه من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما الترمذي في الدعوات باب في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر القرشي، وهو ضيفي في الحديث ضعفي بعض أهل العلم من قبل حفظه (344) والحاكم وضعفه الذهبي بعدنار حميم ابن أبي بكر (1/493) وله شاهد من حديث عائشة رضي الله عنها عند الطبراني.
الموت راحة لي من كل شر" (21)، وكان صلى الله عليه وسلم يسأل ربه الوفاة إذا كانت الوفاة خيراً له (22)، وكان عليه الصلاة والسلام يتعوذ بالله من أن يتخبطه الشيطان عند الموت (23)، وفي كل صلاة كان يتعوذ بالله من فتنة المحيما والممات (24)، وروى النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ما من قلب إلا بين أصبعين من أصبع الرحمان إن شاء أقامه وإن شاء أزاغه" قال:

في الأوسط (2519) وفي الدعاء (23) والبزار كما في كشف الأستار (2165)
وشاهد آخر من حديث معاذ رضي الله عنه عند أحمد (5/234) والطبراني في الكبير (2/103) وروى (202) وشاهد ثالث عن أبي هريرة رضي الله عنه عند البزار كما في كشف الأستار (2114) وكلما شوهد ضعيفة وقد حسبه الألباني في صحيح الجامع (340).

(21) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند مسلم في الذكر والدعاء باب التعوذ من شر ماعمل (272).

(22) أخرجه النسائي في السهو باب نوع آخر من الدعاء (3/54) والحاكم وصحبه ووافقه الذهبي (524/1) وصحبه الألباني في صحيح الجامع (1/130) من حديث عمر بن ياسر رضي الله عنهما.

(23) كما في حديث أبي اليسر رضي الله عنه عند أبي داود في الصلاة باب الاستعازة (1/155) والنسائي في الاستعازة باب الاستعازة من التردي والهرم (8/282) والحاكم وصحبه (1/531) وصحبه الألباني في صحيح الجامع (1/1282).

(24) كما في حديث عائشة رضي الله عنها عند البخاري في صفة الصلاة باب الدعاء قبل السلام (832) ومسلم في المسجد باب ما يستعاذ منه في الصلاة (589) وأبي داود في الصلاة باب الدعاء في الصلاة (800) والنسائي في السهو باب نوع آخر من التعود في الصلاة (56).
وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك" (٣٢).

"ِّّنَا لَّنَّ تَزْهَق قَلْبُنَا بَعْدَ إِذْ هَدِيتُنَا وَهَبْنَا لَنَا مِنَ الْدُّنْيَا رَحْمَةٍ إِنَّكَ أَنتَ الْوَلَهَابُ" [آل عمران: ٨]. "ِّّنَا إِنَّا سُمعْنا مُنَادِيًا يَنْدِلُي لِلإِيَّامَ أنَّ آمَنَّا بِرَبِّكَ فَأَمَامًا رَبِّنَا فَاعْفَرْنَا لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ وَتَوَفَّيْنَا مِنَ الْأَبْرَارِ (١٦٣) رَبِّنَا وَأَنَا مَا عَلَى رَسْلِكَ وَلَا تَخْرُجْنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُحَلَّفُ بمِثْقَالٍ مِنَ الْأَثْرَاءِ" [آل عمران: ١٣٤-١٩٤]. اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد.

(٢٥) أُخِرْجَهُ احمدٌ (٤/١٨٢) والآجري في الشرعية (٣١٧) وابن ماجه في المقدمة (١٩٩) والبغوي في شرح السنة (٨٩) وصححه ابن حبان (٩٤٣) والحاكم (١٦/٨٧) ووافقه الذهبي (٥٢٥) وصححه البصبري في الزوائد (٧٩٨٨) والألباني في صحيح الجامع (٧٩٨٨).
الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهدإله فلأرضه، ومن يضل فلها هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً علية ورسوله. [ن آيَّة الدَّيْنِ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ نَقْهَاتِهِ وَلَا تَمُوتُّنَّ إِلَّآ وَأَنتُمْ مُتَّلَكُمُونَ] [ال عمران: 102]. [ن آيَّة النَّاسِ آتَقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقْكُم مِّن نَّفْسٍ واحِدَةٍ وَخَلَقْنَاهَا زوجَهَا وَبَثْنَاهَا بَيْنَهَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنَسَاءَ وَأَتْقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيَّاً] [النساء: 1]. [ن آيَّة الدَّيْنِ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قُولًا سَبِيلًا] [النساء: 77]. [ن يَصِلَّحُ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيُغَفِّر لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمِنْ بَعْدِ الله وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازُ فَوْزاً عَظِيمًا] [الأحزاب: 20، 71].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدى هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعنة، وكل بدعة ضالة، وكل ضالةة في النار.

أيها الناس: من نعمة الله تعالى على عبده أن يهديه صراطه المستقيم، ويسعمه فيما يرضيه، حتى يأتيه اليقين. ومن خسارة العبد أن يصرف قلبه عن الآخرة، ويتعمق بالدنيا، فيشقي بجمعها وحفظها، ثم يرحل ويتركها لوارثه، فعله غرمها، ولغيره عُنُمها. ولا يدري أيا كره من جمع الدنيا له، ويدعون له، أم ينشغلون عنه بما خلفه لهم!!
حسن الغاتمة: أخبار صالحين حسنات خاتمتهم

ولا فيي للواعد من الناس: إنك مموت غداً أو بعد شهر أو بعد سنة، لانقطع في مسجده لعبادة ربه، وترك الدنيا وراء ظهرها. وهو يعلم أنه قد يموت في الغد، بل ربما فاجأته المنية قبل غده.

وكيما ما يذكّر الناس بذلك، ولكنهم ينسون، فالدنيا بخافرها تنسيهم، فإذا ما مات أحدهم تذكروا قليلاً ثم نسوا. وهكذا حتى يرد كل واحد منهم مورد غيره.

ومن حكمة الله تعالى أن غيّب خاتمة العمل عن الإنسان، فقد يُختتم له بخير ما كان يعمل، ثم يُبعث على ذلك، ويكون من الناجين.

وقد يختتم له بأسوا عمله فيحق عليه العذاب؛ حتى يكون العبد على حذر وترقب، يُحسن عمله، ويخافُ ذنوبه، ويتقلب بين الخوف والرجاء.

قال ابن بطال رحمه الله تعالى: «في تغييب خاتمة العمل عن العبد
حكمة بالغة، وتدبير لطيف؛ لأنه لو علم وكان ناجياً أعجب وكسل، وإن كان هالكًا ازداد عتوًا، فسجح عنه ذلك، ليكون بين الخوف والرجاء»(1).

وقد نقلت إلينا كتب التاريخ، وتراجم الرجال أخبار أقوم أحسنا
عملهم، فأحسن الله تعالى خواتهم، وآخرين أساؤوا فساداً خوااتهم،
وفي ذلك أبلغ عظة، وأعظم عبرة.
منهم من مات متشحطاً في دمه، مخلصاً لربه، مقابلًا غير مدي:

(1) فتح الباري لابن حجر (11/338).
قد فاز بالشهادة، يبعث يوم القيامة وجرحه يدمى: الملون لون الدم، والريح ريح المسك.

ومنهم من مات محراً يبعث يوم القيامة يلبي بالتوحيد الله تعالى.

ومنهم من مات وهو يصلي، ومنهم من مات وآخر عهده كان بطاعة الله عزّ وجلّ.

هذا عبد الله بن سعد بن أبي سرح رضي الله عنه، كان من كتاب النبي صلى الله عليه وسلم فأزله الشيطان، فلحق بالكافر، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتله، فاستجار له عثمان رضي الله عنه، ثم تاب وصدق في نوبته، وجماعه في سبيل الله تعالى، واعتزل الفتنة، ومات على أحسن حال. قال زيد بن أبي حبيب: "لم احترس ابن سرح وهو بالرملة، وكان خرج إليها فارزاً من الفتنة، فجعل يقول من الليل: أصبحت، فقولون: لا. فلما كان عند الصبح قال: يا هشام، إنني لاجد برد الصبح فانظر، ثم قال: اللهم اجعل خاتمة عملي الصبح، فنوضاً ثم صلى، فقرأ في الأولى بأم القرآن والعاديات، وفي الأخرى بأم القرآن وسورة، وسلم عن يمينه، وذهب وسلم عن يساره فقبض رضي الله عنه.

ومن العلماء أبو بكر الإسماعيلي الشافعي رحمه الله تعالى،

(2) آخرجه أبو داود في الجاحظ باب الحكم فيمن ارتدًا (438)، والسني في تخريض الدم باب الحكم في المرتب (7/170).

(3) سير أعلام النبلاء (320).
حسن الخاتمة: أخبار صالحين حسنات خاتمتهم

مات في صلاة المغرب وهو يقرأ: { إياك نعند وإياك نستعين } [الفاتحة: 5]
قال لها، ثم فاست روحه رحمه الله تعالى.


ومن عجيب ما يروي في حسن الخاتمة: ما نقل عن أبي حامد وأبي زرعة الرازيين رحمهما الله تعالى، فقد كانا من أئمة الحديث، ورجاله الكبار الذين يذون عن سنة النبي صلى الله عليه وسلم، وكانا صديقين حميمين، اجتمعا على العلم، وشرفا بحفظ السنة وتعليمها، وأمضيا عمرهما في ذلك. ثم ماتا وهمذا عابرون العلم، فخطب لهما بذلك، وكان أولهم ماوتا أبا زرعة رحمه الله تعالى; إذ حضرته الوفاة، فأرادوا الخاضرون تلقيه الشهادة، فتهيأوا أن يلقنا علنًا من أعلام الحديث، فاحتالوا على ذلك.

قال محمد بن علي وراق: أبا زرعة: حضرنا أبا زرعة وهو في السرورة وعنده أبو حامد وابن وارد والمذر بن شاذان وغيرهم، فذكروا

(4) تاريخ جرجان (148/1147)، والبداية والنهاية (136/1126)، وشهادات الذهب.
(5) مسير أعلام النبلاء (19/142).
حديث التلقين: «لقنا موتاكم: لا إله إلا الله»(1)، واستحيوا من أبي زرعة أن يلقنوه، فقالوا: تعالى نذكر الحديث. فقال ابن وارة: حدثنا أبو عاصم، حدثنا عبدُ الحميد بن جعفر، عن صالح، وجعل يقول: ابن أبي، ولم يجاوزه. وقال أبو حاتم: حدثنا بُنداَر، حدثنا أبو عاصم، عن عبد الحميد بن جعفر، عن صالح، ولم يجاوز، والباقون سكتوا، فقال أبو زرعة وهو في السَّوق: حدثنا بُنداَر، حدثنا أبو عاصم، حدثنا عبد الحميد، عن صالح بن أبي عريب، عن كثير بن مَرّة، عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة»(2)، فكانت آخر كلمة قالها ثم توفى رحمه الله تعالى.

وأما أبو حاتم فقال ابنه عبدالرحمن: حضرت أبي وكان في النزَّع، وأنا لا أعلم، فسأله عن عقبة بن عبد العاف بن يروي عن النبي صلى الله عليه وسلم.

(1) أخرجه مسلم في الجائنات باب تلقين الموتى: لا إله إلا الله (916)، وأبو داود في الجائنات باب في التلقين (1316)، والترمذي في الجائنات باب ما جاء في تلقين المريض عند الموت والدعاء له (976) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وأخرجه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه (917).

(2) أخرجه أحمد (233/5/0916)، وأبو داود في الجائنات باب في التلقين (1316)، والحاكم وصحيحه ووافقه الذهبي (3/0915)، وله شاهد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أخرجه البزار (1/0919)، وصححه ابن حبان (719).

وأخرجه البزار موقوفًا على أبي هريرة (45/0) قال البزار: ورفعه أصح. أخرجه الجرح والتعديل لأبي حاتم (1/0945) والباجي ببغداد (1/0945/0920)، وسرير أعلام النبلاء (1/0977).

(3) أخرجه أحمد (10/0917) والبزار (719/0920)، وصححه ابن حبان (719).
حسن الخاتمة: أخبار صالحين حسنت خاتمتهم

عليه وسلم: له صحبة; فقال برأسه: لا; فلم أقنع منه، فقالت: فهمت
عني: له صحبة؟ قال: هو تابعي، ثم مات عقب ذلك.
قال ابنه عبد الرحمن: "فكان سيد عمله معرفة الحديث، ونافلة
الأثار، فكان في عمره يقتبس منه ذلك، فأراد الله أن يظهر عند وفاته
ما كان عليه في حياته".

والأخبار في ذلك كثيرة جداً، ويطون الكتب بها مليئة، وما من
أحد من الناس إلا وقد حضر أو علم أحوال أقوام ختم لهم بصالح
أعمالهم، وأقوام ختم لهم بسيئ أعمالهم.

والعبد مأمور أن يجتهد في عبادة ربه، مع رجائه له، وخروجه منه،
وحسن ظنه به، وسأل الله الخاتمة الحسنة. وعليه أن يحذر من الغرور
بعمله; فإن الغرور معصية، إن ختم له بها فقد ختم له بسوء عمله.
روى الطبري عن حفص بن حميد قال: قلت لابن المبارك: رأيت
رجلاً قتل رجلاً ظلماً فقلت في نفسي: أنا أفضل من هذا، فقال:
أمتك على نفسك أشد من ذنبي. قال الطبري: "لا يدري ما
يؤول إليه الأمر، لعل القاتل يتوب فتقبل توبته، وله الذي أنكر عليه
يختم له بخاتمة السوء".

أسال الله تعالى أن يصلح قلوبنا وأعمالنا، وأن يتوفانا على الإسلام
والسنة، وأن يجعل خير أعمالنا أواخرها، وخير أعمالنا خوافمها، وخير

(9) الجرح والتعديل (1/1 328/3).
(11) فتح الباري لابن حجر (11 338/1).
أيامنا يوم نلقاه إنه سميع مجيب... وأقول ما تسمعون واستغفر الله لي ولكم فاستغفروه...

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على ورسوله، وآله وصحبه، وسلم عليهم إحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله، إنه آيا الناس، وخذوا من دنياكم لأخراكم، ومن حياتكم موتكم، فإن العمل جليس العبد في القبر، وسببة اعتقاد أو إيقافه يوم النشر، كل نفس بما كسبت زهيدةً [المدثر: 28].

أيها المؤمنون: كما حظيت سير من حسن حال مجاهمة، وختم لهم بخير أعمالهم، بما هو من مقدمات البشارة؛ فإن أقواماً ساءت أعمالهم، وساءت خوايتهم، فختم لهم بما عملوا. رغم أن ظاهرهم كان صلاحاً، وأعمالهم كانت جليلة، إلا أنها لم تكن خالصة لله تعالى.

روى سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم الثقفي هو والمشاركون فاقتثوا، فلمَّا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عسكره، ومال الآخرون إلى عسكرهم، وفي أصحاب رسول الله رجل لا يدع شاذة إلا اتبعها يضربها بسيفه، فقالوا: ما أجزأ منا اليوم أحد كما أجزأ فلان، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"أما إنه من أهل النار، فقال رجل من القوم: أنا صاحبه أبداً، قال:..."
حسن الخاتمة: أخبار صالحين حسنات خاتهمهم

فخرج معه، كلما وقف وقف معه، وإذا أسرع أسرع معه. قال: فخرج الرجل جرحًا شديداً، فاستعجل الموت، فوضع نصل سيفه بالأرض، وذبابة بين ثدييه، ثم تحامل على سيفه فقتل نفسه، فخرج الرجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أشهد أنك رسول الله، قال: وما ذلك؟ قال: الرجل الذي ذكرت آنفاً أنه من أهل النار فأتعم الناس ذلك، فقلت: أنا لكم به، فخرجت في طبلة حتى جرح جراحًا شديداً فاستعجل الموت، فوضع نصل سيفه بالأرض وذبابة بين ثدييه، ثم تحامل عليه قتل نفسه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك: "إن الرجل ليعمل عمل أهل الدنيا فيما يبدو للناس وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة، وإنما الأعمال بالخوفاتم". رواه الشيخان(١١).

تأملوا حال هذا الرجل، عاش بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام، وشرف برؤيتهم وصحابتهم، وقاتل قتالًا شديداً؛ حتى احتقر الصحابة قتالهم بالنسبة لما عمل؛ لكن فساد نيته أحمض عمله، وأدي به إلى خاتمة السوء.

إذا كان مثل هذا حصل في الصدر الأول من الإسلام، وفي خير القرون، فما ظنكم بالقرور المتأخرة؟! إن العاقل ليجتهد في العمل، ويخف سوء العاقبة، ولا يأمن مكر

(١١) آخره البخاري في الجهاد باب لا يقول فلان شهيد (٢٨٩٨) ومسلم في الإمام باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه (١١٢).
الله؟ بل هو في خوف دائم، ودعاء مستمر يسأل الله أن يختتم له بخير، وأن يجعل عمله متقبلاً. ومن أمن في الدنيا خاف يوم القيامة، ومن خاف في الدنيا أمن يوم القيامة...
وصلوا وسلموا على نبينا محمد كما أمركم بذلك ربككم.
الحمد لله؛ يقلب الليل والنهار، ويجري الدهور والأعوام، كل يوم هُو في شأن الرحمٰن، أحمده وشكره، وتوب إليه واستغفره؛ يعز ويذل، ويرفع ويخفض، ويسهل ويصعب، ويعطي ويمنع، وكل شيء عنده بمقدار.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، عزّ وجل في العالمين

سلطانه، وعمّ المخلوقات إفضاله وإنعه، ووسع كل شيء عفوه وعفوانه.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ كان له عبداً شكوراً، وفي الدنيا زاهداً صبوراً. بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمه، وجاهد في الله حق جهاده حتى آتاه اليقين، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه؛ شكبروا في السراء، وصبروا في الضراء، وجاهدوا الأعداء، ونسروادين الله فما وَهَنَا لَمَّا أُصِيبَهُمْ في سَبِيلِ الله وَمَا ضَعْفَا وَمَا أَسْتَكْنَاؤُونَا [آل عمران: 146] والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فيا أيها الناس! أنتوا الله تعالى في كل الأحوال والأزمان؛ فإن في النصوّى خيرًا من الضيق، ويسراً من بعد العسر، ورهقاً من حيث لا يحسب العبيد ومن يتق الله يجعل له مخرجًا وبرزقه من حيث لا يحسب [الطلاق: 20].

أيها المؤمنون: الأيام نُطَوَّرَى، والأهله تتابع، والأكفاء تنسج.
والأعمال تدون، والموعد يقترب. أجيال تندى إلى الدنيا كل يوم،
وجيال ترحل عنها. ولا تزال الغفلة تستحكم على كثير من القلوب؛
حتى غدا أكثر بني آدم ينون دنياهم ويهدمون أخراهم.
فها هي جموع المسلمين لا تشعر وجوههم إذا انتهكت محارم الله
 تعالى؛ لكنهم يغضبون إذا انقضى شيء من دنياهم، إلا من رحم الله
 وقليل ما هم.
التاجر منهم ينظر إلى الريح ولا ينظر إلى طريقة التحصيل أحرامٌ
هي أم حال؟! والموظف يستيقظ فزعًا لعمل الدنيا؛ لكنه ينام عن
عمل الآخرة!! والمرأة تخلت عن كثير من حجابها، وارتكتبت كثيراً
مما يخطط ربيها. والأسرة المسلمة همها أن لا ينقضشيء من وسائل
عيشها الكريمة، ولا أن تمس رفاهيتها بسوء. أما هم الإسلام وهم
الآخرة فليس في الحسبان، وكثر من أعمال الخير ما كانت لأجل الله
 تعالى والدار الآخرة؛ وإنما هي لأجل الدنيا. ومن الشرك إرادة الإنسان
بعمله الدنيا، وقليل ثم قليل أولئك المخلصون الصادقون.
أيها الإخوة: ينقضى هذا العام وكأن أياماً لم تكن شيئاً مذكراً،
اثنتا عشر شهراً، بدأ هلال الواحد منها ضعيفاً، ثم أخذ يكبر حتى صار
بدراً، ثم أخذ في الضعف حتى تلاشي، ثم تبعته الشهور الأخرى
حتى ثم ميقاتها، وانقضى أجلها، وتمت السنة، وهذه آخر جمعة.
الله أكبر، ما أسرع الأيام! وما أكثر العصيان! وما أقل الاعتبار!
والإنسان يمضي في هذه الدنيا كما مضت تلك الشهر. لو سألت
الشيخ الكبير عن شبابه وطفلته لحدثك عنها، وأخبرك أنها مرت سريعاً، ونجد أن أمله لا يزال طويلة. والشاب نسي طفولته وأ мн في مزيد من العيش، وإن طال به العمر ليبيع شبابه. وهكذا الدنيا.

ولكن أين العقلاء والمعتبرون؟

إن العبيرة ليست بطول العمر؛ وإنما هي بحسن العمل، هل صحب الجادة أهل الجاه إلى قبورهم؟ وهل كان المال مع أهل السكال في لحودهم؟ يا لفوز من صلح ظاهر وباطن؛ فختم له بحسن عمله، وبالخسائر من فسد باطنه فختم له بالسوء. ذلك أن من مات على شيء بعث عليه كما روى جابر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "يبعث كل مات على ما مات عليه" أخرجه مسلم (1).

وفي قصة الرجل الذي سقط عن راحته في عرفة أخبر النبي عليه الصلاة والسلام أنه يبعث يوم القيامة مليباً (2)، وأخبر أن الشهيد يبعث يوم القيامة وجرحه يدمى اللون لون الدم، والريح ريح المسك (3)، وما كان موت الفجأة مدمراً إلا لأنه يفجأ صاحبه قبل الموت من المعاصي.

(1) أخرجه مسلم في الجنة باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت (2878).
(2) كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند البخاري في الجنة باب كيف يكفن المحرم (1268-1269) ومسلم في الحج باب مايفعل بالمحرم إذا مات (120).
(3) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند البخاري في الجهاد باب من يجرح في سبيل الله عزوجل (2876) ومسلم في الإمارة باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله (1876).
لقد كان خوف السلف من سوء الخاتمة عظيماً، بكي سفيان الثوري
ليلة إلى الصباح فقيل له: أبكاؤك هذا على الذنب؟ فأخذ تبنة من
الأرض وقال: "الذنوب أهون من هذه، إنما أبكي خوف الخاتمة".
قال عطاء الخفاف: "ما لقيت سفيان إلا باكياً فقلت: ما شائكم؟ قال:
أنتخوفي أن أكون في أم الكتاب شقياً"، وقال سهل النسيم: "خوف
الصديقين من سوء الخاتمة عند كل خطرة وعند كل حركة وهم الذين
وصفنهم الله إذ قال: "وقَلْوُهم وَجَلةٌ" [المؤمنون: 10]
وأعظم سبب لسوء الخاتمة: فساد القلب بفساد الاعتقاد حتى ولو
صلح الظاهر، وأقيق ذلك: التلبس بالشرك أو شيء منه، أو الاستمرار
على البذعة. والشرك منع عم النبي صلى الله عليه وسلم أبا طالب أن
يشهد شهادة الحق حال احضاره، وكم من مبتدع ختم له بالسوء.
ومقارفة الكبائر، والإصرار على الذنوب مفسد للقلب، مؤذنًا
بشوم العاقبة، وسوء الخاتمة. والمحترض يردد حال احضاره ماكان
أكثر من قول وعمل، خيراً كان أم شراً، وواقع المحتضرين يدل على
ذلك. فأهل الصلاح يختم لهم في الغالب بصالح أعمالهم، وأهل
الفساد يختم لهم بفسادهم. وكم من عاص مات وهو يغني أو وهو
يشرب الخمر أو انعقد لسانه عن شهادة الحق فلم يستطع نطقها.

(1) العاقبة في ذكر الموت والأخرى للحافظ عبد الحكيم الإشبيلي (175).
(2) سير أعلام النبلاء للذهبي (7/266).
(3) إحياء علوم الدين (4/172).
قال مjahid رحمه الله تعالى: "ما من ميت يموت إلا مَّلَّ له جلساؤه الذين كان يجالسهم" اهـ.  

وقد ذكر العلماء أن سوء الخاتمة على رتبتين إحداهما أعظم من الأخرى. فأما الرتبة العظيمة الهائلة: فهي أن يُغلِب على القلب عند سكرات الموتِ، وظهور أهواله إما الشك وإما الجحود؛ فتقبض الروح على تلك الحالة فتكون حجابًا بينه وبين الله تعالى أبداً، وذلك يقتضي البعد الدائم، والعذاب المخلد. والثانية وهي دونها: أن يغلب على القلب عند الموت حب أمر من أمور الدنيا أو شهوة من شهواتها، فيتمثل ذلك في قلبه، ويستغرقه حتى لا يبقى في تلك الحالة متسع لغيره، فهما اتفق قبض الروح في حالة غلبة حب الدنيا فأمر مخطر؛ لأن المرء يموت على ما عاش عليه وعند ذلك تعظم الحسرة. اهـ.  

فيارى: كم مقدار الدنيا في قلوبناً! وماذا قدمنا لآخرتناً! إن عمل كثير منا ولهائهما خلف المتع والمال ليدل على أن الدنيا استمكت من قلوبهم، أو على الأقل غلب عليها فأفسدتها وصدتها عن الآخرة؛ حتى أصبحوا لا يجدون لذة العبادة. بل لذتهم وسعادتهم في منصب يبلغونه، أو مال يكسبونه، أو مجد يحققونه، ولو كان بعيداً عن ذكر الله تعالى وشكره وحسن عبادته.  

الأعمال بالخواكيم لسعد بن سعيد الحجري (32) ونسبه للكياثر (100)  

بتصرف من إحياء علوم الدين للغزالي (162) وانظر: القياس الصغرى للدكتور عمر الأشقر (25) ويفظة أولي الاعتبار لصديق خان (216).
ومن أعظم الشؤون وأسوأ العاقبة: أن يعمل العبود في الصالحات
وقد كتب في أم الكتاب من الأشياء. يراه الناس فيغبطونه على صالح
عمله؛ لكن لا يعلمون فساد نيته، وخبث طيته، ومراءته في عمله،
وأما اطلعوا على أسراره وخفاه: فلا يعلم ذلك إلا الله تعالى.
عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه
 وسلم التقى هو والمشاركون فاقتنعوا، فلما مال رسول الله صلى الله
 عليه وسلم إلى عسكره، فوالآخرون إلى عسكرهم، وفي أصحاب
رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل لايدع شاذة إلا اتبعتها يضربها
سيفه، فقالوا: ما أجزأ منا اليوم أحد كا أجزأ فلا، فقال رسول الله
 صلى الله عليه وسلم (أما إنه من أهل النار) فقال رجل من القوم: أنا
صاحبها أبدا، قال فخرج معه، كلما وقف وقف معه، وإذا أسرع
أسرع معه، فقال: فخرج الرجل جرحًا شديدا، فاستعجل الموت
فوضع تسصل سيفه بالأرض وذبابة بين ثدييه ثم تحامل على سيفه فقتل
نفسه، فخرج الرجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أشهد
أنك رسول الله قال: (وما ذاك؟) قال: الرجل الذي ذكرت آنفا أنه من
أهل النار. فأعظم الناس ذلك، فقتل: أنا لكم به، فخرجت في
طبله حتى جرح جرحًا شديدا، فاستعجل الموت، فوضع تسصل سيفه
بالأرض وذبابة بين ثدييه ثم تحامل عليه فقتل نفسه. فقال رسول الله
صلى الله عليه وسلم عند ذلك: «إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة
فما يبدو للناس وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار
فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة، وإنما الأعمال بالخواتيم» أخرجه الشيخان.

أسلوب الله تعالى أن يصلح قلوبنا وأعمالنا، وأن يحسن خاناما ومالنا، ونوعده تعالى أن يتخبطنا الشيطان حال احتضارنا، وأقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله حمدًا طيبًا كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا إبراهيم، أحمدًا وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن بعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله أبداً المؤمنون؛ فمن لازم التقوى حياته كلها نطق عند الموت بالشهادة؛ فحسنت له الخاتمة، وسعد في النور الآخرة ومن يطع الله ورسوله ويحيض الله ويتحمكهم أولاً وآخراً هم الفائزون.

[النور]

أيها الإخوة: مكانُ الدفن، وساعةُ الموت، وكثرةُ المشيعين، ليست تزيد في الحسنات أو تنقص السياط. وقد يكون منها ماهو علامةُ خير، ودليلٌ فوز؛ كشهادة الصحابين للعبد بالخير، فهم شهداء

(9) أخرجه البخاري في الجهاد باب لا يقال فلان شهيد (1898) وسلم في الإمام باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه... (112).
الله في أرضه. بيد أن العبارة صلاح القلوب، وقبول الأعمال. والناس يحكمون بمقتضى الظاهر، وأما القلوب فلا يعلم مكنونها إلا الله تعالى، وقد مر بعض الصالحين يهودي ميت قد أوصى أن يدفن ببيت المقدس، فقال: «أيكربر هؤلاء الأقدار؟ أما علموا أنهم لو دفنتوا في الفردوس الأعلى لجأت لؤلؤ بأنكالها حتى تأخذها إليها وتطلق بمعها»ً(1).

وقال آخر: «من حكم له بالسعادة لا يشقى أبداً، وإن أنجب غابوه، وكثر معاديه، وأحيا به من جميع نواحيه. ومن حكم له بالشفاوة لا يسعد أبداً، وإن عدير ناديه، وأخصب واديه، وحسن أواخر ومباديه. كم من عابد ظهرت عليه أنوار العبادة، وآثار الإرادة، وبدت منه مخايل السعادة، وارتفع صيته، وانتشر في الآفاق ذكره، وعظم في الناس شأنه جمحت به الأقدار جمحة ردهة على عقبه فختم له بالسوء»ً(1).

ومن المعلوم أن سوء الخاتمة لا يكون لمن استقام ظاهره، وصلح باطنه. وإنما يكون ذلك لمن كان له فساد في القلب، وإصرار على الكبائر؛ فربما غلب ذلك عليه حتى ينزل به الموت قبل التوبة، ويثب عليه قبل الإنباء. وربما غلب على الإنسان ضرب من الخطية، ونوع من المعصية، وجانب من الإعراض، ونصيب من الافتراء؛ فملك قلبه، وسبي عقله، فلم تنفع فيه تذكرة، ولا نجعت فيه موعظة، فيطغى الشرطان عند موته، ويسلبه إيمانهً(11).

(10) العاقبة في ذكر الموت والآخرة (178).
(11) بتصرف من المصدر السابق (178).
(12) المصدر السابق (180).
والعبد المؤمن مأمور بأن يجتهد في إصلاح قلبه، ويسارع في مرضاه ربه، وأن يسأل الله الثبات إلى الممات، فإن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء.

وبعد - أيها الإخوة - ففي ختام هذا العام، هل نعتبر بما مضى من الأيام؟ هل نخفف من سوء الختام؟ هل يبادر العاصي منا إلى ربه فيتوب من معصيته، ويسارع إلى طاعته؟ ففعل الله يقبل توبته ويكتب له بها سعادة لا يشقي بعدها أبداً. فاتقوا الله ربيكم، وأحسنوا ختام عامكم، واعتقروا قبل أن تكونوا معتبراً، وتزودوا فإن خير الزاد التقوى، ثم صلى وسلموا على نبيكم كما أمركم بذلك ربيكم.

* * *
المغازي والتاريخ

123- قصة المولد والبعث
124- الإسراء والمعراج
125- الابتلاء والفضتنة
126- غزوة بـدر (1)
127- غزوة أحمد (1)
128- غزوة أحمد (2)
129- سرية بئر معونة
130- غزوة بني المصطلق
131- حادثة الإفتك
132- إجلا بني النضر
133- غزوة خيبر
134- رمضان ومواجهات من الفتح
135- غزوة تبوك (1)
136- غزوة تبوك (2)
137- غزوة تبوك (3)
138- غزوة تبوك (4)

139- أحداث توبة صادقة
140- غزوة مـؤتـة
141- فضائل بيت المقدس
142- الفتح الأول لبيت المقدس
143- فتح الأندلس
144- بداية الحملات الصليبية
145- سلاب الأقصى واسترداده
146- مذابح الصليبيين في
القـطـاد
147- معركة حطين
148- معركة الزلاقة
149- اجتياح الغول لبغداد
150- قهر التتار في رمضان
151- فتح القسطنطينية
152- تحول العداء اليهودي
153- النصراني إلى وفاق
154- سقوط بغداد
الحمد لله، من على المؤمنين. إنه بعث فيهم رسلًا من أنفسهم ينذرو عليهم آياته ويزكينهم ويعلمونهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال قبيح. [آل عمران: 114], أحمده وشكره وأتوب إليه وأستغفره; أرسل الرسل ببشيرين ومذرين لبلا يكون الناس على الله حكمة بعد الرسل. [النساء: 165].

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، بلغ الرسالة، وأدي الأمانة، ونسحل الأمية، وجاهد في الله تعالى حق جهاده حتى قضى على الشرك والوثنية، وأقام الملة الخيرية، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه، اختارهم الله تعالى لصحبة نبيه، ونصرة دينه، فكانوا خير صحب وأنصار، المهاجرين منهم والأنصار، والتابعين لهم بإحسان.

أما بعد: فآوصيكم - أيها الناس - ونفسي بنشوة الله عز وجل؛ فهي العصمة من الضلال، والنجاة من التخبط في الظلام. [بأيها الذين أثروا الله وأثروا برسوله يؤثرون كفلاً من رحمته ويجعل لكم نورًا تشعون به ويغفر لكم والله غفور رحيم. [الحديد: 28].

وأيها الإخوة المؤمنون: الإنسان من غير وحي يهديه، ولا عقل يتفع به أشبه ما يكون بالحيوان، بل الحيوان أحسن حالًا منه؛ لأنه لم يؤت
عُقاً فعطله، ولم يكلف بشرع يلتزمه ويدعو إليه فأهمله؛ ولذا كان من لم يهدت بوجهي الله تعالى، يلتزم شريعته، أصل عقلاً من البهيمة السائمة، ثم تحس أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إنهم إلا كالأنصار بل هم أعلمُ سبيلاً [القرآن: 44].

ولم تكن فترات البشرية التي كانت قبل مبعث النبيين إلا تاريخاً من الجاهلية، وضرورةً من المعيشة البهيمة. ومكنّة كانت كذلك قبل البعثة، ومظاهر الجهل، ومصادرة العقل، تعز على العد والecer، أوثران تعبد وتسأل، وشيوخ تركو وتسجد، لأصنام لا تضر ولا تغفر، والعقل إذا تاه عن الوحي أتى بالعجائب من الضلال، حتى يتخذ أحدهم صنناً من ثمر إذا جاع أكله، وحتى كان صنم قبيلة مصنوعاً من طعام عدوه دهراً طولاً، فأصابتهم مجاعة فأكلوه، فجاء من يعبرهم بأكل آلهتهم!!(1).

وقوم بلغ ضلالهم في العبادة هذا المبلغ فحدث ولا حرج عن ضلالهم الاجتماعي والأخلاقي، حيث النعرات العشائرية، والثارات القبلية، تدوم الحرب سنين عدداً، تفتك بهم فنك الوباء المهلك، وتطحنهم طحن الرحمة للحب، وما كانت حروبهم إلا في سبيل فرس سُبت، أو ناقة عقرت، أو وشية سرت، أو إشاعة انتشرت. والانحطاط الاجتماعي بلغ خبيضه من الانغماس في الحموم، ولعب الميسر، والتزويج بلا

(1) انظر: المعارف لابن قتيبة (121) والسيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (71).
عدد، وقتل الأولاد من أجل الفقر، وواد البنات خشية العار، إلى أنواع الأنكحة الفاسدة، وتتشكي الظلم والطبيعة.

ومن الخطايا التي أخطأت فيها من الدنيا إلا الضرورات التي تمسك عليها الرمق، موحشة، لا تخس من الدنيا إلا الضرورات التي تمسك عليها الرمق، كلا، إنها شعبت حتى بطرت، وتناثرت الكبرى حتى تطاحنت عليها، وبلغ فيها غور الفرد مداه، ووجد فيها من يسباق فروع في عته وطفواه.

في هذه الحقبة الزمنية حيث بلغ الضلال متناهه، وساد الظلم أرجاء المعمورة، أذن الله تعالى بصبح قريب، ببعثة النبي كريم، ينقذ البشرية من ضلالها، يبنيها من غفلتها، ويوقظها من رقدتها، وكان أهل الكتاب يتحدثون عن قرب زمنه، وكل حبر من أحباه يرجو أن يكون هو النبي المنتظر، وكان أمم حدث في ذلك الزمن غزو أبرهة للعبة يريد هدمها حتى يحج الناس إلى كعبه، فأخزاه الله تعالى وهزم جيشه

فجعلهم كغصص ما كُولْ (الفيل: 5).

ولد اليتيم الهاشمي كما ولد غيره من بني البشر، ولدتهم أمهاتهم آنذاك من مختلف الأجناس وشتي البقايع، منهم من ولدوا في قصور مصر والشام وفارس والروم، ومنهم من ولدوا في مغامات القفر، ونجح البوادي، وأدغال الغابات، وكهوف الجبال. تباعدت بهم الأصول والأنساب، وتفاوتت الألوان والأجنسات، وتنافت الطبقات والأعراق.

(2) انظر: فقه السيرة للغزالي (٣٢).
وجموعهم بنوتهم للبشر، وتمايلت فيهم آية الخلق، وتشابهت مخاطر الحمل، وآلام المخاض (3)، وكل أم منهم تأمل مجدداً عظيماً، ومستقبلًا مشرقًا لوليدها. وما علم أحد من البشر أن عصر الظلام بدأ بالزوال، وأن إشراق الأرض بنور السماء آخذ في الاقترب، بعد انقطاع دام طويلًا، وأن مجدداً سيكون لأهل مكة بل للعرب جمعاً لم يزالوه منذ خلقوا. كل ذلك وغيره كثير ما علم أحد أنه سيكون على يد ذلك اليمين الهاشمي الذي كان مثار الشفقة والرحمة بيتهم الأبوة، ثم يتم الأمومة، ثم يتم الجدودة، حتى كان في كفالة عمه العائل الفقير.

كابد لأواء الحياة، وعاني شظف العيش، يشبع يوماً ويروع أياماً، ويأكل من عمل بيده، بل عاونه عمه برعي الغنم. الزمن يطوي أيامه وذلك الغلام يكبر شيئاً شيئاً، والحديث عن ظهور نبي منتظر ينتشر بين الناس، حتى بلغ الأربعين سنة، وعندها فقط آن لليل الجاهلية أن ينشق بفجر الإسلام.

لقد حبب إليه عليه الصلاة وسلم السلام الخلو بنفسه، واعتزال الجاهلية وأهلها، والتعبد لربه، على غير عادة أترابه وأقرانه آنذاك، وما هو إلا أن خلا يتحدث لربه في الغار، ومع نور الفجر من الليلة الغراء كان نزول الوحي برسالة يحملها جبريل الأمين، نزل بها من السماء بأمر رب العالمين، (7) لأقرأ باسم زكك الذي خلق 8 خلق الإنسان من علقة 9 (226).

(3) مع المصطفى عليه الصلاة وسلم للدكتورة عائشة بنت عبدالرحمن (226).
اقرأ وَرْبَكُ الأَكْرَمُ ٣٠٠١
الذي عَلِمَ بِالْقَلمٍ ٢٤٤
عَلِمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يُعْلَمَ ٤٨١
[العلق:
١-٥] فكانت نبوءته بالإقامة.
عاد إلى بيته خائفاً مذعوراً، وحكى لزوجته خديجة ما رأى؛ فقالت قولتها المشهورة: "كَلاَ وَاللَّهِ، مَا يَخْرِيجُ اللَّهُ أَبَاكُهُ، إِنَّكَ لَتَصَلُّ الْرَّحْمَانَ
وَتَحْمِلَ الْكَلِّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الْضِفْعَ، وَتَعِينُ عَلَى نَوَائِب
الْحَقَّ". ثم ذهبت به إلى ابن عمه ورقة بن نوفل وكان قارئاً يكتب
الإنجليزية العربية، فأخبره بما رأى؛ فقال له ورقة: هذا الناموس الذي
أنزل على موسى، يا ليتي فيها جذعاً، ليتي أكون حياً إذ يخرجه
قومك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أُوَّل مُخْرِجٍ هُمْ؟" قال:
نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك
أنصرك نصراً مؤزاً. ثم لم ينشب ورقة أن توفى وفتن الوحي" متفق
عليه(١).
فتير الوحي فترته، وحزن النبي صلى الله عليه وسلم لذلك أشد
الحزن(٢)، ثم عاد الوحي مرة أخرى يخبر بالتكليف، بالبلاغ والندارة،
وتحمل أعمال الرسالة فَإِيَّاً أَيُّهَا الْمُدَّثُرُ ١٠٠٠١ فَقُلُوهَا ١٠٠٠٢ وَزُبْ عُكْبَر١٠٠٣
وُقُبِّبْكِ فَطَهَّرْ ١٠٠٤ وَالْجُفَّ رَفْعَٰجُ (٢) [المدثر: ١-٥] تم تتابع الوحي(٣)، وأمر
(٤) آخرجه البخاري في بدء الوحي وفي التفسير باب تفسير رأباً باسم ربك(٤٩٥٣)
ومسلم في الإمام باب بدء الوحي (١٦٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٥) كما في رواية الإمام أحمد في المسند (٢٣٣/٢).
(٦) انظر: صحيح البخاري كتاب بدء الوحي مع الفتح (٢٧/١) وصحح مسلم
كتاب الإيمان باب بدء الوحي (١٦١).
بالجهر بالدعوة في قوله تعالى: {وَأَنْذَرْ عُشْرِيْنَ الأَّقْرَانِ} [الشعراء: 214]. فبلغ وأذن، ورغب ورهب، دعاهم فرادى ومجتمعين؛ فأمن من آمن، وكفر من كفر.

داخل الوعي قليلاً ما عرفت الرحمة، فالآلهة القرآن، واستضاءت به عقول كان يُظَن جمودها على جاهليتها، إلا أن فريقاً من أهل الجاهلية بقوا على جاهليتهم، وحسوا أن ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم هو من قبل التفاخر في المعالي، والتنافس على الشرف؛ كما قال أبو جهل معللاً كفره بالرسالة المحمدية: "تنازعنا نحن وعبدُمانف الشرف، أطبعنا فأطعنا، وحملنا فحملنا، وأعطوا فأعطيناه حتى إذا تجاشينا على الركب، وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوعي من السماء! فمتي ندرك مثل هذه! والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه".

و قال الوليد بن المغيرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم: "لو كانت النبوة حقًا لبنت أولى بها منك؛ لأنى أكبر منك سنًا وأكثر منك مالاً".

(7) كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند البخاري في التفسير باب {وَأَنْذَرْ عُشْرِيْنَ الأَّقْرَانِ} (774) ومسلم في الإيمان باب في قوله تعالى: {وَأَنْذَرْ عُشْرِيْنَ الأَّقْرَانِ} (828).

(8) أخرج ابن إسحاق كما في السيرة لابن هشام (242/1) وابن أبي شيبة في المصنف (14/91) والبهقي في الدلالات (202/2) وصحح إسناده الصالحي في سبب الهدى والرشاد (352/2) وهو من مساهل سعيد بن المسبح رحمه الله تعالى.

(9) فقه السيرة للغزالي (232).
هكذا فكرت عقول أهل الضلال والجاهلية، وظنت أن النبوة تشتري
بالمال، وأن الاصطفاء يكون بالقوة. فلما لم يوافق ذلك هواهم عادوا
رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأذوا أتباعه؛ ولكن الله تعالى نصر
عده، وأعز جنده، وهزهم أهل الشرك والأوثان، ومكّن لديه في الأرض،
وكتب بقاءه إلى قيام الساعة.

هذا ملخص قصة النور الذي نزل من السماء، ومقتضب خبر مولد
ومبحث حامل هذا النور صلى الله عليه وسلم، وفي ذلك آيات للمعتبرين،
وبهة وفضل من الله تعالى على عباده المؤمنين، وهو الذي بعث في الأمة
رسولاً منهم يث 조회 عليهم آياته ويركيهم ويعملهم الكتاب والحكم، وإن كانوا
من قبل لفي ضلال مبين [الجمعة: 2].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...

الخطبة الثانية

الحمد لله حمدًا يليد بجلال وجهه وعظمة سلطانه، أحمده وأشكره،
وأنتوب إليه واستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له،
وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى
الله وأصحابه ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله - عباد الله - في شؤونكم كلها، وراقبوا الأحيان
كلها، ثم أعلموا أن محبة الرسول صلى الله عليه وسلم هي في طاعته،
وأتباع سنته، وعلى قدر القرب من سنته، تلزم المحبة له، التي بها تنال
محبة الله تعالى فقل إن كنت تحبون الله فاحبوني يحبكم الله وغفر لكم.
ذُنْوِيْكُمْ [آل عمران: 31]. ولن تكون الاحتفالات بمولده أو بعثته، أو
إسرائه أو هجرته دليلاً على المحبة، بل هي عين المخالفات؛ إذ لم يفعلها
رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا فعلها أهل الصدر الأول من
الإسلام مع بلوغهم المنتهى في المحبة والتقدير والتعزير.
إن من الناس من ظنوا أن الإسلام تجرد من معانيه السامية، وأهدافه
العالية، في إصلاح البشرية، فاختزلوه في الاحتفالات بدعية، وطقوس
متنوعة، يقودهم فيها مشايخ الضلال، من زعامة الطرق الخرافية،
يأكلون فيها أموال العامة والرعاة بالباطل، ويوردنهم موارد الشبهات
والشهوات، بأذكار وأوراد شريرة وبدية، تتمعن بها شفاههم، وحداء
وغناء ترتفع به أصوات مُجَّنَّهم وفِسَاتِهم، وبيحون به مناسباتهم،
تحمُّلهم فيها شاطئ الجن قبل شياطين الإنسان.
ولا تعجب - أيها المسلم - حينما تشاهد فضائط بل فضائيات
كانت تغزو القلوب بالشبهات، وتتاعم الغرائز بالشهوات، وما عرف
عنها إلا أنها حرب على قيم الإسلام وشريعته! لا تعجب حينما تشاهدها
تغطي تلك الاحتفالات البدوية بالصوت والصورة الحية.
كذلك لا تعجب حينما تشاهد علمائنا غالباً في علمائنا لا يهتم
لأمر الدين من قريب ولا بعيد يلقى كلمة ضافية في مناسبة المولد، أو
حينما تقرأ قصيدة لحداثي موغل في حداثته يبدع فيها المصطفى صلى
الله عليه وسلم، أو حينما يدير الآثير على إذاعة تعلم أنها تنصرية؟
فإذا هي تباقى في مناسبة المولد، وتحتفل مع المحتفلين، أو حينما تطلع
مقالة أدبية معبرة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، كتبها كاتب كان لقدمه رسوخًا في حرب الإسلام، وتشويه صورته الناصعة. لاتعجب من ذلك كله؛ لأن هؤلاء القوم وإن كانوا يحاربون الإسلام وشعائره وأهله فإنهم لا يمانعون من اختصار الإسلام في تلك الشعائر البدعية، والطقوس المحدثة، ويرون أن في ذلك اقترابًا من أهل الخضارة والتقدم حيث احتفالات الغرب بأعياد ميلاد المسيح على السلام. ويعجبهم جداً أن يختصر الإسلام في تلك الاحتفالات البدعية، وأن يحجر عليه في المساجد والزوايا، ولكن أن يعمّ بالإسلام، وتكون شرعته حاكمة على الجميع، فذلك ما لا يريدون.

إن أعداء الإسلام لا يخشون هؤلاء السذج والرعاع من المبتدعين؛ لأن احتفالاتهم لن تبنى مجدًا، ولن تحقق حقًا، ولن ترد عدوًا غاشمًا، وإما هم يخشون من يدعو إلى الإسلام بنقائه وصفائه، ويريد العودة بالناس إلى الكتاب والسنة، فبفهم سلف الأمة؛ ذلك الذي يخشى، وذلك الذي يوصى بالأصولية والطبرف. ولكن لا يحق إلا الحق، ولا يبقى إلا الصحيح، وبيشكي صاحب الباطل أن يتدحر باطله، فاتقوا الله ربك، واستمسوا بالسنة، واحذروا البدعة، ولا تغترووا بجهل الجاهلين، وزخرف المبتدعين، ثم صلوا وسلموا على نبيكم محمد بن عبدالله كما أمركتم بذلك ربك...
الحمد لله ﴿بُلْحَقَّ مَا يَشَاءُ وَبِبَغْتَارْ مَا كَانَ لَهُمُ الْخَيرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى﴾ {القصص: 86}، أحمده وأشكره، وأتوب إليه واستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين.

أما بعد: فأوصيكم - أيها الناس - بنفسى بقوى الله عز وجل، فإنها نعم العدة يوم تخصص فيه الأيقار، وتوجل القلوب نُسًا أيها الذين آمنوا أئذوا الله ولتَنْظِرُ نُسًا ما قدَّمَتْ لَغدَ وأئذوا الله إن الله خبير بما تَعْمَلُونَ {الحجر: 18}.

أيها المسلمون: من فضل الله تعالى على هذه الأمة المباركة أن جعلها آخر الأمم وأفضلها، واختار لها خاتم النبيين وأفضل المرسلين، سيد ولد آدم محمدًا صلى الله عليه وسلم الذي قال عن أمته: «أَنْتُمْ تَمْنَونَ سَبْعِينَ أَنْتُمْ خَيرًا وَأَكْرَمَهُمَا عَلَى اللَّهِ» أُخْرِجَهُ أَحْمَدُ وَالْتَرْمِذِي وَحَسَنَهُ.(1)

(1) أُخْرِجَهُ أَحْمَدُ (5/5) وَالْتَرْمِذِي فِي تَفْسِيرِ الْقُرآنِ بَابِ وَمِن سُوَاءِ آلِ عِمْرَانِ وَحَسَنَهُ (12) وَابْنِ ماجِهِ فِي الزَّهْدِ بَابِ صَفَةٌ أَمَّةٌ مُحَمَّدٌ صَلِى اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (34/88) وَالْحَاكِمُ وَصَحِحَهُ وَوَافِقَهُ الْذِّهَبِيِّ (4/42).
لقد اصطفاها الله تعالى من البشر، واصطفى أمته من بين الأمم، وأكرمها بالآيات، وأيده بالمعجزات، وحفظه من عداوة المشركين، وكبد المنافقين، ومكر اليهود.
وأعظم مقام ناله النبي صلى الله عليه وسلم في الدنيا أن أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم عُرج به إلى السماء، حتى بلغ سدنة المنتهى، ورأى من آيات ربه الكبرى، وكلمه الحب تبارك وتعالي من غير واسطة.
وأسري به صلى الله عليه وسلم في وقت اشتاد فيه أذى المشركين، وعظم ظلمهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم.
مات عمه أبو طالب وقد كان يحمي عنه، وتوافت زوجته خديجة رضي الله عنها. وقد كانت تواسيه، فذهب المحامي والمؤاذي، وقل النصير، وضعفت الحيلة، وضاقت الصدر، وانقطع الرجاء إلا من الله تعالى، الذي جعل مع العصر يسراً، وبعد الوضي فرجاً؛ فبعد أن عاد النبي صلى الله عليه وسلم من الطائف وقد دعا أهله إلى الإسلام فأغدوا به سفهاءهم وصبيانهم، فقدقوه بالحجارة، وأدموه صلى الله عليه وسلم؛ شرف الله تعالى - عقب ذلك - بهذه الراحة المباركة ليطمئن قلبه، ويزداد إيمانه.
وأسري به ليرى جزءاً من ملك الله تعالى فيحتقر الدنيا وما فيها، فيتعلق قلبه بما عند الله تعالى، وما عنه خير وأبقى من الدنيا وزخرفها.
المفيد في خطب الجمعة والعيد

أسرى به ليرى طرفاً مما يدل على عظمته الله تعالى وقدرته وكبرياته، فتجد في الدعوة، ويصير على أذي المشركين؛ تبعداً لصاحب هذه العظمة والكبرياء.

أسرى به من مكة إلى الشام، ثم عرج به إلى ما فوق السماء السابقة في ليلة واحدة؛ ليزداد إيماناً إلى إيمانه بقدرة الله تعالى الذي هو على كل شيء قادر، فيطمئن قلبه بهذه القدرة والقوة التي لا تساوي معها قوة المشركين شيئاً ولو اجتمعوا وتأمروا على كبت الدعوة، وقتل صاحبها، وأذة أتباعه، ولو اجتمع معهم الشيطان، ومكر لهم، ودلمهم على السوء، فإن قوتهم ومكرهم لا يكون إلا بتقدير من الله تعالى لحكمة يريدها، وليس ما يملكون من قوة شيئاً مذكوراً أمام قدرة الله تعالى الذي هو على كل شيء قادر.

فلمما أذن الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم بهذه الكرامة بعد شدة شديدة، وعسر عظيم، وأذى من المشركين؛ هباه لذلك، فاجهه ملك فشط صدره من ثغرة نحره إلى أسفل بطنه، قال عليه السلام والسلام يخبر عن ذلك: «فاستخرج قلبي ثم أتيت بطست من ذهب مملوءة إيماناً، فَغَسَلَ قلبي ثم حشَى ثم أعيد» أخرجه الشيخان(1). قال ابن أبي جمرة رحمه الله تعالى: «الحكمة في شق قلبه مع القدرة على أن يمليء قلبه إيماناً وحكمة بغير شق – الزيادة في قوة

(2) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار باب المعراج (1387) ومسلم في الإمام باب حديث الإسراء (164) من حديث أنس رضي الله عنه.
البقيان، لأنها أعطيت برواية شق بطنها وعدم تأثره بذلك ما أتينا معه من جميع المخاوف العادلة، فلذلك كان أشجع الناس وأعلاهم حالاً.

ومقالاً (3).

فلما عَسُل قلبه بماء زمرم، وخشى إيماناً وحكمة، أمر الله تعالى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم عرج به إلى السماء بروحه وجسدته صلى الله عليه وسلم، في حال البقطة، كما دل على ذلك القرآن الكريم، وتوارثت به السنة النبوية، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى: «والحق أنه أسرى به بقطة لمناماً من مكة إلى بيت المقدس راكباً البراق - وهو دابة بين البغل والحمار ينتهي خطوها عند انتهائها بصرها - فلما انتهى إلى باب المسجد، ربط الدابة عند الباب ودخلته، وصلى في قبته تجينة المسجد ركعتين، ثم أتي بالمعراج وهو كالسلم ذو درج يرقي فيها، فصعد فيه إلى السماء الدنيا، ثم بقي السموات السبع، فتلقاه من كل سماء مقربوها، وسلم على الأنبياء الذين في السموات بحسب منازلهم ودرجاتهم، حتى مر بموسى الكليم في السادسة، وإبراهيم الخليل في السابعة، ثم جاوز منزلتهما صلى الله عليه وسلم وعليهما وعلى سائر الأنبياء، حتى انتهى إلى مستوى يسمع فيه صرف الأقلاط - أي أقلاط القدر بما هو كائن - ورأى سدرة المنتهى، وغشيها من أمر الله تعالى عظيمة عظيمة من فراش من ذهب، وألوان متعددة، وغشيتها الملائكة، ورأى همالة

(3) فتح الباري للحافظ ابن حجر (7/245).
جبريل على صورته وله ستمة جنّا، قد ملأوا بين السماء والأرض، ورأى رفقة أخضر قد سد الأفق، ورأى البيت المعمور، وإبراهيم الخليل باني الكعبة الأرضية ممسحاً ظهره إليه؛ لأنه الكعبة السماوية، يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة يتعبدون فيه ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة، ورأى الجنة والنار، وفرض الله تعالى عليه هانالك الصلاوات خمسين، ثم خففها إلى خمس رحمة منه ولطفاً بعباده، وفي هذا اعتناء عظيم بشرف الصلاة وعظمتها، ثم هبط إلى بيت المقدس، وهبط معه الأنبياء، فصلى بهم فيما حانت الصلاة، ويحمل أنها صلاة الصحي من يومئذ. ثم خرج من بيت المقدس، فركب البراق، وعاد إلى مكة بغلسٍ (4) آه.

ولم ير الله تعالى بعينه في هذه الرحلة السماوية بل حجبه النور؛ لأن الله تعالى قد قضى أنه لا يرى بالعين في الدنيا، وإنما يرى في الآخرة، كرامة لاهل الجنة، وزيادة في النعيم، ولذلك لما سأل موسى عليه السلام ربه أن يكشف له الحجب ليراه، قال الله تعالى: ﴿هَلْ نُبِئْكُمْ إِلَّا اسْتَفْتَرَ مَعَكَ مُخَيَّرًا فَسَوُفْ تُرَآى فَتْلِمَّا تَجَلَّى رَبُّ اللَّهِ لِجَلْلِ جَعَلَهُ دَاكًا وَخَرَّ مُوسَى صَعْقًا فَلَمَّا أَفْقَقَ فَالْسَّبَاحُانَ بَلَّى إِلَّيْكَ وَأَنَا أُولُو الْمُؤْمِنِينَ﴾ ([الأعراف: 143]).

(4) تفسير ابن كثير (3/38-39) وعون الشنقيطي في أضواء البيان (3/358-359) أول سورة الإسراء.
قال أبو ذر رضي الله عنه: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل رأيت ربك؟ فقال: "نور أني أراه" وفي رواية "رأيت نورا"... أخرجه مسلم.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. بسم الله الرحمن الرحيم. سبحان الذي أسرى بعده لألا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنبره من آياتنا إنه هو السميع البصير. [الإسراء: 1]. بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...

الخطبة الثانية

الحمد لله حمدًا طيبًا كثيرًا مباركاً فيه، يليق بجلال ربه وعظم سلطانه، أحمده وأشكره، وأتوب إليه واستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدي بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المؤمنون: لقد انطوت حادثة الإسراء على معان عظيمة، وحصل فيها مواصفات كثيرة تدل على شرف محمد صلى الله عليه وسلم، ومكانة أمته من بين سائر الأمم، فهو صلى الله عليه وسلم إمام الأنبياء،...

(5) أخرجه أحمد (5/176-175) ومسلم في الإيمان باب قوله عليه السلام: "نور أني أراه" (178).
الوقف في خطب الجمعة والعيد

وئله السابع الذي غازه تحقيق العبودية لله رب العالمين وحده لا شريك له، وهو عليه الصلاة والسلام رسول الله تعالى إلى الناس أجمعين، عرباً وعجماً، سوداً وبيضاً وحمراً، في كل الأرض وإلى آخر الزمان.

لقد كان بالإمكان أن يُخرج به من المسجد الحرام إلى السماء مباشرة دون الذهاب إلى بيت المقدس، ولا سيما أن المسجد الحرام أعظم شرفًا من المسجد الأقصى، ولكن كانت هذه الرحلة الأرضية مقصودة، وفيها إيماء إلى أن الله تعالى جعل هذا الإسراء دليلاً على أن الإسلام جمع ما جاء به شرائع التوحيد والحنوية من عهد إبراهيم عليه السلام، الصادر من المسجد الحرام، إلى ما تفرع منه الشرائع التي كان مقرها بيت المقدس، ثم إلى خاتمها التي ظهرت من مكة أيضاً، فقد صدرت الحنوية من المسجد الحرام، وتفرعت في المسجد الأقصى؛ ثم عادت إلى المسجد الحرام كما عاد الإسراء إلى مكة لأن كل سرئ يعفيه تأويب(1).

وسالمه على الأنباء في السماء فيه تصديق النبوات بعضها لبعض، وأن دين الأنباء عليهم السلام واحد، ثم هبوط الأنباء إلى البيت، وإمامته لهم في الصلاة تسليم به عليه الصلاة والسلام إمام الأنباء والمرسلين عليهم السلام أجمعين، وأنه واجب على كل نبي لو أدرك بعثته محمد ﷺ أن يتبعه، ويلتزم شريعته؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِثْلَ الْإِنْبِيَّاتِ لَمْ أَنْتَكُمْ مِنْ كَتَابٍ وَحَكِيمٍ ثُمَّ جَاءَكُمُ رَسُولُ مُسْلِمٍ﴾ (التحرير والتنوير لابن عاشور (5/15).
لما مَعَكُمْ لَتَؤُمُّنَ بِهِ وَتَنْصَرُونَهُ قَالَ أَقْرَرْتُمْ وَأَخْذُتُمُ عَلَى ذِلَّكَ إِصْرَى قَالَوْا أَقْرَرْنَا قَالَ فَأُسْهِدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ» [آل عمران: 81] وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «والذي نفسي بيده لو كان موسى حياً ما سعه إلا أن يتبني»(7) ولذلك لا يقبل الله تعالى من أحد ديناً بعد بعثة النبي صلى الله عليه وسلم إلا دين الإسلام، كما قال سبحانه: «وَمِن يَتَّبِعُونَ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دُنْيَا قَلِيلٌ يُقِيلُونَ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ» [آل عمران: 85]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار رواه مسلم.(8)

وبهذا نخلص إلى نتيجة شرعية مهمة في هذا العصر كثر فيها الجدل والكلام، واختصمت فيها الطوائف والأمم، كل يدعي أن الحق له فيها دون غيره، ومقتضاها: أن أمة الإسلام أولى ببيت المقدس من اليهود وإن زعموا أن لهم فيه هيكلاً، ومن النصارى وإن ادعوا أنها مولد عيسى ومهدئ وموضع قتله، بل المسلمين أولى بالأرض كلها من كل الأمم؛ لأن دينهم هو دين الأنبياء، وأما دين غيرهم فإما مختصر

(7) أخرجته من حديث جابر رضي الله عنه ابن أبي شيبة في مصنفه (26421)
(8) وأحمد (3/38) وأبو عبيدة (1335) وفي سنده مجال بن سعد وهو ضعيف.
(8) أخرجته من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مسلم في الإيمان باب وجوب الإيمان برسلالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى جميع الناس ونسخ الملل بقم (153).
وإما محترف، فإن كان اليهود يريدون بناء هيكل سليمان، وإعادة ملكة داود عليه السلام، والنصارى يرون أحقتهم بيت المقدس؛ لأنها بلد عيسى عليه السلام؛ فإن المسلمين أولى بداود وسليمان وموسى وعيسى عليه السلام من اليهود والنصارى؛ لإمامة النبي صلى الله عليه وسلم بالأئمة عليهم السلام، وتسليم الأئمة له بالإمامة.

فيجب أن يرفع المسلمون عن مجادلة أهل الكتاب على بيت المقدس من الحجج الواهية كزعمهم حق كنعان واليonsoين إلى الحجة الشرعية الدامغة؛ ولكن مع الأسف أن الممسكين لزمزم المجادلة عليه قوم علمانيون لا يعترفون إلا التراب والوطن، ولا يعترفون الأرض المقدسة بمسجدها الأقصى الذي بارقه الله تعالى، وبارك حوله بصلاة الأئمة في عليه السلام، يؤمهم فيه محمد صلى الله عليه وسلم، ولن يكون غريباً لو باعها الوطنية والقوميون بثم بخس، وهم سيفعلون ذلك لولا ردة فعل الشعوب الغاضبة التي تنظر إلى تلك الأرض المباركة نظرية عقائدية.

ولن يكون تحرير بيت المقدس من عصابات اليهود المدعومة من قبل النصارى بالشعارات الوطنية الجوفاء، أو المضامين القومية المهتمة، أو المشاريع العلمانية الفاشلة، كذلك لن تحرر بالابتداع في دين الله تعالى بالاحتفال بليلة الإسراء، وإنشاد القصائد والمدائح، وكل ذلك لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا صحابه الكرام رضي الله عنهم، ولا سلف هذه الأمة الصالح، بل هو محدث في دين الله...
 تعالى، وإنما يُحرَّرُ بيت المقدس بالإيمان بالله تعالى، واتباع سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، والحذر من العصيان والبدع، وإحياء شعيرة الجهاد في سبيل الله تعالى الذي هو ذروة سنام الإسلام وَفَهُوَ النصر إلَّا من عند الله إن الله غزير حكيم [الأنفال: 10].

آلا وصلوا وسلموا على نبيكم كما أمركم بذلك ربكم...
الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعود بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أفعالنا، من هذه الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه و التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فأوصيكم - أيها الناس - ونفسي بنقور الله عز وجل، فإنها وصية الله للأولين والآخرين و لقد وصيناه الذين أتوى الكتاب من قبلكم وإناكم أن تقولوا اللهم وإن تكفروا فإن الله ما في السماوات وما في الأرض وكان اللهم غنياً حميداً (۱۳) [النساء].

أيها الأخوة المؤمنون: جعل الله هذه الدار ابتلاء لعباده، ومقراً لامتحان أولياته، يبتليهم بالخير وبالشر، بالسراة والضراة، حتى يميز الحجي من الطيب، ويتميز المؤمن من المنافق، وبين الصادق من الكاذب و أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمناً وهم لا يغفرون (۲) ولقد فتى الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا ول يعلمن الكاذبين (۳) [العنكبوت]. ونثبتكم بالخير والخير فتنة وإليا ترجعون (۴) [الאנبياء].

و طريق الإبتلاء هي طريق الأنيابية وأتباعهم من السابقين والحاضرين واللاحقين إلى قيام الساعة في آم حسبهم أن تدخلوا الجنة ولما يأنتم بهم الذين خلوا من قبلكم مستهين البأساء والضراة وزنعوا حتى يقول الرسول وألذين
الإبتلاء والفتنة سبب الهجرة

آمنوا معهُ منّي نصر الله إلا أنّ نصر الله قريبُ (215) البقرة.
والإبتلاء بالخير والسراء أعظم فنّة، وأشدّ بالله على المكلف من الإبتلاء بالضراء. فأسبابه بالضراء يزيد العبد قوة وصلابة، ويقربه من ربه، ويضعه هواه. وأما الإبتلاء بالسراء فكثيراً ما يضعهُ إياه العبد، ويزيده من تعلقه بالدنيا وأمله فيها، حتى يضع له فيما يهوى الأذار والمسوغات، مما يجعله عرضة للذوبيان في سياسات التميع والاحتواء، فيتنازل عن المبادئ والقيم التي كان يهتف بها، ويدعو إليها، بحجة المصلحة والحكمة، والنظر الأبعد.

والله تعالى سمي فتح النعم على عبده إبتلاءً كما قال سبحانه:
فأَمَّا الإنسانِ إذا ما ابتلاهُ رَبُّهُ أَكْرَمَهُ وَنَعَمَهُ فَيُقْولُ زِيَّنِي أَكْرَمْنَى (5) الفجر.
وجعل ما في الأرض من خيرات اختياراً لعباده فقال تعالى: "إِنَّا جَعَلْنَا مَن فِي الْأَرْضِ رَزْيَةً لِّهُ لَيُبْلُوُّهُمْ أَيُّهُمْ أُحْسَنَ عَمَلًا (7) الكهف.
وفي هذا المعنى قال بعض السلف: "البلاء يصير عليه المؤمن والكافر، ولا يصير على العافية إلا الصديقون"(1).

وقال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: "إبتلينا بالضراء فصبرنا".
وإبتلينا بالسراء فلم نصرنا"(2).
والدليل المحسوس على أن الإبتلاء بالضراء أهون من الإبتلاء بالسراء أن المرضى أقرب إلى الله من الصحاح، والقرأة أكثر تعبداً من الأغنياء.

(1) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن القيم (88).
(2) المصدر السابق (88).
في الجملة، وإذا شبعت البطون تحركت الفروج، وازدت الشهوات، فيوشك المبتلى بالسراء مواقعة الحرام، قال ابن القيم رحمه الله تعالى:

"إذا كان الصبر على السراء شديداً لأنه مقرر بالقدرة، والجائع عند غيبة الطعام أقدر منه على الصبر عند حضوره، وكذلك الشبق عند غيبة المرأة أصغر منه عند حضورها" [3]. ولذا فإن أكثر ابتلاء الأنبياء وأتباعهم كان بالضراء، من الجوع والخوف واضطهاد الكبراء والمشركين، والتضحية بالأهل والأولاد والأموال، ومفارقة البلدان والأوطان، والفرار بالدينية.

هجرة إلى الله تعالى.

هذه سيرة خاتم النبيين، وإمام المرسلين، صلى الله عليه وسلم، تزخر بالابتلاء، مسته الباء والضراء، فما نال شرف الإمامة، ولا بعث بالنبيوة والرسالة، إلا بعد أن تقاشفته الأيدي في الولاية.

عاش يتيماً فقيراً، فقد ولد يتيم الأب، ولا يعرف اليم إلا من شرب كأسه، وذاق مرارته. حضنته أمه بعد أن فقد رعاية الأبوة، وتولت عنه المرايع ليتمه وفقر أهله، حتى أخذته من لج ويداً، فكان بركة عليها وعلى أهل بيتها، ثم عاد إلى حضانة أمه، فما كاد قلبه يتعلق بها حتى فاضت روحها أمامه، وهو أحور ما يكون إلى حنانها وعطفها؛ إذ كان عمره ست سنوات فقط، فزاد يتهيم يتمس فأصبح فاقد الأبوين، كسير الجناحين، ولكن الله تعالى يحوطه برعايته وعنايته، ويتولاه وينصره في فتح الموالي والنصر [الحج] [30].

المصدر السابق (89).
لا يزال عليه الصلاة والسلام متذكراً أمه، لم ينسها قلبه؛ حتى بعد كبره ودعوته، وتحمله أعيان دعوته؛ فقد مرّ على قبرها، بعد زيارته رضي الله عنه، قال أبو هريرة رضي الله عنه: "]!=أيما أستاذنت ربي في أن استغفر لها فلم أذن لي، واستذنته في أن أزور قبرها فأذن لي، فزوروا القبور فإنها تذكر الموت" أخرجه مسلم.

ثم بعد موت أمه كان في رعاية جده عبد المطلب فلم يلتقي سنتين حتى مات، ثم انتقل إلى ولاية عمه أبي طالب العائل الفقير، فرعى صلى الله عليه وسلم الغنم لأهل مكة على قراريط حتى يعين عمه على النفقات ثم مات عمه أبو طالب، وزوجه وسنه خديجة رضي الله عنها في عام واحد قبل الهجرة بثلاث سنوات، في وقت اشتداد أذى المشركين.

إنها بداية حياة شاقة، مليئة بالأحزان والضراة، تلك هي بداية حياة خاتم النبيين، وأفضل الخلق أجمعين عليه الصلاة والسلام، ثم لما بعث بالنبوة، وأمر بتبليغ الرسالة، ونشر الدعوة؛ كان ما أصابه في طفولته

(4) أخرجه مسلم في الجنائز باب استذان النبي صلى الله عليه وسلم ربه عزوجل في زيارة قبر أمه (976) وأبو داود في الجنائز باب في زيارة القيوم (2734) والنسائي في السنن الكبرى كتاب الجنائز وتمنى الموت باب زيارة قبر المشركين (1711) وأبي ماجه في السنن الكبرى باب زيارة المشركين (1572) والبغوي في شرح السنة (5/436) والبيهقي في الكبرى (7/4).
وصباه من شدة وبأس لا يكاد يذكر مع ما أصابه من آذى المشركين وتسلطهم وبغيهم. ناصبوه العداء، وأعلنوا عليه الحرب الشعواء. اتهموه بالسحر والكهناء، والكذب والجنون، ووصفوا ما جاء به بالأساطير والضلال وقالوا «إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بِشَرٍّ» [النحل: 3 10] استهزؤوا به وبا جاء به، وشتموا القرآن ومن أنزله ومن جاء به.

وكلما لم يثنو ذلك عن دعوته سأوموه وقالوا: اعبد آلهتنا يومًا ونعبد إلهك يومًا، فأنزل الله سورة (الكافرون)، وحسم هذه المساومة الهزيلة، ثم رغبوا لفرضوا عليه زوجاً ومالاً وملكًا، وهل هو يريد الدنيا بدعوه حتى يقبل عرضهم؟ كلا، إنما أراد أن يستنذهم من النار لو كانوا يعقلون. وهل يعقلون وقد عشعش في عقولهم، وران على قلوبهم جيوش من الأصنام؛ أصنام العادات والتقاليد ومجد الآباء والأجداد، وشرف الحروب والثارات، مع أصنام حجارتهم التي لها يركعون ويسجدون، ويخضعون ويعبدون، والتي أعمتهم عن الحق وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون؛ حتى آذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في دعوته وفي نفسه وفي أتباعه، وفي أهله وعشيرته.

ولقد سجلت سيرته صورةً من صبره على الصلاة والسلام وتحمله.

(5) روي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما كما أخرجه الطبراني وابن أبي حاتم.
وعن وهب كما أخرجه عبدالرزاق. وعن سعيد بن ميناء، كما أخرجه ابن أبي حاتم. وانظر: لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي (218) والدر المثير (192).
وحلمه على قومه يقف القارئ أمامها مشدوهاً يتملكه العجب والإعجاب من تحمله وصبره على أذى قومه ثم رحمته وحلمه وعفوه.

أخير الشيخان من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: "بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي عند البيت، وأبو جهل وأصحابه له جلوس وقد نحرت جزور بالأمس فقال أبو جهل: أيكم يقوم إلى سلا جزور بني فلان فيأخذه فيضعه في كتفي محمد إذا سجد؟ فانبعث أشقي القوم فأخذوه، فلما سجد النبي صلى الله عليه وسلم وضعه بين كتفيه، قال: فاستضحكوا وجعل بعضهم يقبل على بعض وأنا قائم أنظر، لو كان لي منها طرحته عن ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم، والنبي صلى الله عليه وسلم ساجد بما يرفع رأسه؛ حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة، فجاءت وهي جويرة فطرحته عنه، ثم أقبلت عليهم تشتمه م، فلما قضى النبي صلى الله عليه وسلم صلاته رفع صوته ثم دعا عليهم - وكان إذا دعا دعا ثلاثة، وإذا سأل سأل ثلاثة - ثم قال: اللهم عليك بقريش ثلاث مرات فلما سمعوا صوته ذهب عليهم الضحك وخافوا دعوته. . . - وسماهم واحداً واحداً - قال عبد الله: فوالذي بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالحق لقد رأيت الذين سمي صرعى يوم بدر ثم سحبوا إلى القليب قلبي بدر".

(6) أخرجه البخاري في الصلاة باب المرأة تطرح عن المصلين شيئاً من الأذى (52) وكذلك في مناقب الأنصار باب ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من أذى المشركين (3854) و المسلم في الجهاد والسير باب ما لقيه.
وأخرج البخاري عن عروة قال: «سألت عبدالله بن عمرو عن أشهد ما صنع المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: رأيت عقبة ابن أبي معيت جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلي، فوضع رداءه في عقته فخنقه شديداً، فجاء أبو بكر حتى دفعت عنه صلى الله عليه وسلم، فقال: أنطلقون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم».

وعند أبي يعلى والبزار بن سند صحيح عن أنس قال: «الله ضربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة حتى غشي عليه».

وما كان الله تعالى ليضيع نبي صلى الله عليه وسلم بل كان يدفع عنه ويحوظه بعناية ورعايته، وما أصاب نبيه من الضراء هو اقتساء حكمته في ابتداء أحبائه، ولو شاء لاحصل أعدائه لو إن شاء الله لانتصر منهم ولكن ليثبت بغضكم بعضه» [مجهول: 4].

النبي صلى الله عليه وسلم من أذي المشركين والمنافقين (1794) واللغز
له، وأحمد كما في الفتح الرباني للساعاتي (218/2) وما بين المتورضين
هكذا - من كلامي وليس من الحديث.

(7) أخرجه البخاري في فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: لو كنت متخذا خليلاً (13/176) وانظر: سيرة ابن هشام.

(8) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (218/1) وأبو يعلى في مسند (11391) والحاكم
وصحح وقال: على شرط مسلم ووافقه الجهني وجعفر الهشمي في مجمع الزوائد
لبازر وقال: ورجال رجال الصحيح (17/17) وذكره الحافظ في المطالب العالية

وجاء في حديث آخر عن أن رسول الله عليه السلام جاء ذات يوم إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو جالس حزيناً قد خضع بالدماء، ضربه بعض أهل مكة فقال له: مالك؟ قال: فجعل بي هؤلاء وفعلاً - فجعل جبريل يسليه - أخرجه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

(9) أخرجه أحمد (2/677) ومسلم في صفات المنافقين باب قوله تعالى: "كلُّ إن الإنسان ليطغى" (الأنعام: 16) (2797/1) والبيهقي في الدلائل (438/1).

(10) أخرجه أحمد (3/112) وأبو يعلى (4885) وابن أبي شيبة (32/317) وابن ماجه في الفنان باب الصبر على البلاء (80/4) والضياء المقدسي في المختارة (2276) والدارمي (272) قال الساعاتي في الفتح الرباني: لم أفق عليه لغير الإمام أحمد ورجاله من رجال الصحيحين (20/22) وما بين المعترين هكذا: - من كلامي وليس من الحديث. وتمام الحديث: قال: فقال له جبريل: أتحب أن أربك آية؟ قال: نعم، فقال: فنظر إلى شجرة من وراء الوادي، فقال: أدع بتلك الشجرة، فدعاها، فجاءت تمشي حتى...
ومع كل هذا الاذى الذي ناله منهم فإنه صلى الله عليه وسلم كان رؤفاً رحیماً، عفواً كريماً، ليس في قلبه مكان للحقد والانتقام، وما عرف عنه صلى الله عليه وسلم انتصار لنفسه.

ولا أدل على ذلك من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال:

ما أعظم هذا الحلم وتلك الرحمة منه صلى الله عليه وسلم لقومه!

وقد جاء الفرج من السماء بعذابهم ولكن يعفر ويصفح ويرجع توبيهم وعودتهم إلى الحق؛ حتى يفتحوا أنفسهم من عذاب الله تعالى، فهل قامت بين يديه، قال: مهرب فلترجع، فأمرها فرجعت إلى مكانها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: حسبِي.

(11) أخرجه أحمد (258/1) والحاكم وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي (2362) ووجد إسناده ابن كثير في البداية (3/52) وفي السيرة (1/483) وذكره الشافعي رواه أحمد وقال: ورجال الروايين رجال الصحيح...

5 وصححه الشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند (6263).
عرفت البشرية أخلاقاً مثل هذه الأخلاق، وحلاً مثل هذا الحلم من غير محمد صلى الله عليه وسلم وإخوانه المرسلين؟!

وأما أثابه عليه هاجر إلى المدينة وأقام دولة التوحيد، ونشر دين الله في الأرض، ثم لما فتح مكة واستمك من رقابهم عفا عنهم، وهكذا كانت الهجرة سبباً في إقامة الدولة، كما كانت الحديثية سبباً في فتح مكة. وما كان الفتح إلا بعد الهجرة، وما كانت الهجرة إلا بسبب الابتلاء والمحنة. فالتمكين لأولياء الله لا يكون إلا بعد التمحيص والابتلاع، ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعًا فيجعله في جهنم أولئك هم الحاويرون [الأنفال] بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظلمين، وأشهد أن لا إله إلا الله ولي الصالحين، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله النبي الأمين صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آل وأصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أيها الأخوة المؤمنون: كانت الهجرة حدثاً مهماً في تاريخ الإسلام؛ إذ بها قامت دولة الإسلام، وأصبح للمسلمين مستضعفين ملذاً آمن يعبادون ربهم دون أذى، كما كان مهاجره مركزاً لانطلاق الجيش الجرارة للجهاد في سبيل الله تعالى حتى تم نشر الدين في جهات الأرض كلها.

ورغم ضخامة حدث الهجرة وأهميته في تاريخ المسلمين، فإن
كثيرًا من المسلمين لا يعرفون من معاني الهجرة إلا إحياء ذكرىها والاحتفال بها مبدعين في دين الله تعالى، مخالفين أمر رسولهم صلى الله عليه وسلم.

إِن الهجرة ما كانت إلا فرارًا من الفتنة في الدين، وهي باقية إلى قيام الساعة، والمسلم المعاصر يواجه إعصاها من البلايا والفتنة، فتنسراء والضراء، فتن الاحتواء والاضطهاد.

فالمجاوئ فتنة والمال فتنة والإعلام العالمي بفضائله ملء الفتن، فتن الشبهات والشهوات، وسهولة الاتصال بالعالم، والاكتشاف على سائر الثقافات، مكن لفتنة أخرى تسرب إلى قلوب بعض المسلمين فتفسدها؛ حيث تلاقح الأفكار، وتباذل الثقافات، وكثرة المخاطبة والمشاهدة تكسر حاجز الخوف، وتهدم سد الحصانة، وتقويد إلى التبتية والتقليد، تحت تأثير المحبة والإعجاب، ثم قل السلام على ركن الولاء والبراء، وذلك والله من أعظم الفتن. هذه بعض من فتن السراء.

وأما فتن الضراء فإن المسلم المستمسك بهديه يواجه مكة كبار، ويلاء ماحقاً من أعداء الإسلام، اليهود والنصارى والملاحة والمنافقين وغيرهم، فمن أخذوا على عواقبهم حرب الإسلام وأهله فلا هوادة، فالإسلام في النظر العالمي متهم حتى آخر قطرة من دمه بالتطرف والإرهاب والأصولية، والإعلام العالمي يحاول إقناع العالم أن شعائر الإسلام الظاهرة من إكرام اللهي، وتقصير الشيا، وارتقاء المساجد، وإقامة الدين، ما هي إلا دلال على التطرف والإرهاب!!
ومن جراء هذه الفتنة نكس أقوام من المسلمين على أعقابهم مدرين؛
فانحرروا بعد الاستقامة، وضلوا بعد الهدية، ودخل كثيرًا من القلوب
الشک في وعد الله ونصره، بل أصبح الشک عند البعض في الدين
كله ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم.

فكم نحتاج - ونحن نذكر الهجرة، ونطعّل على موجات البلاء
التي مر بها خير البشر صلى الله عليه وسلم - إلى الهجرة!! كم نحتاج
إلى الهجرة إلى الله تعالى، الهجرة بقلوبنا عن علاقات الدنيا وفتنها
وسرائها وضرائرها إلى الخلق سبحانه، وإلى القدر الآخرة!!

كم نحتاج إلى تحقيق الهجرة بهجر العصا، والإقبال على الطاعات؛
فقد قال النبي عليه الصلاة والسلام «المهاجر بن هجر ما نهاه الله عنه»
آخرجه البخاري (١١)، وفي لفظ النسائي «والماهجر من هجر ما حرم الله
عليه» (١٣)، وفي حديث آخر قال: «والماهجر من هجر الخطايا
والذنوب» أخرجه أحمد (١٤).

فهل نهاجر إلى الله تعالى بفعل الطاعات واجتناب المحرمات،
والابتعاد عن مواطن الفتنة، وكثرة الدعاء بحسن الاختيار في البلاء،
والثبات على الدين إلى الممات.

(١١) آخرجه البخاري في الإمام باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده
(١٠) وأبو داود في الجهاد باب في الهجرة (١٤٨١).
(١٣) آخرجه النسائي في الإمام باب صفة المسلم (٨/٥٠٠).
(١٤) آخرجه أحمد (٦/٢١).
فالهجرة طريق المرسلين: هاجر محمد صلى الله عليه وسلم وقبله
هاجر موسى بن عمران صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين،
هاجروا من بطش فرعون وجيروته; حتى أنتفاهم الله تعالى وأغرق
فرعون وجنده. وبعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وجد
يهود يصومون عاشوراء شكرًا لله تعالى على نجاة موسى والمؤمنين وغرق
فرعون والكافرين، فقال: "نحن أحق بموسى منكم" فصددهم وأمر بصيامه
وصوم يوم قبله أو يوم بعده مخالفًا لهم، فاحرصوا على صيامه،
وصوم يوم قبله أو يوم بعده اقتداء بسنة نبيكم محمد صلى الله عليه
 وسلم.

سيحان رب العزة إما يصفون، وسلام على المرسلين، وأحمد
الله رب العالمين، صلى الله عليه نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

* * *
الحمد لله من أعباده المؤمنين بالنصر المبين ودحر الكافرين والمنافقين، أحمده وأشكره، وأنبوب إليه واستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له من استنكر به نصره، ومن اعتصم به عصمته، ومن استعان به أعانه، ومن تولى عليه كفاه ومن يَنَّقَلُ عَلَى الله فَهُوَ حَمِيدٌ [الطلاق: 2].

وأشهد أن نبنا محمدًا عبدا ورسولاً أيده الله تعالى بنصره، وأمده بجندته، فقاتل مه المقاتلة في بدر، وحرسوه من المشركين في أحد، يقودهم جبرئيل وميكائيل؛ حتى أظهره الله تعالى، وأعز دينه، وأعلى كلمته، فما مات عليه الصلاة والسلام إلا وقد دانت جزيرة العرب بالإسلام، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ﷺ أمّنا وعُرَزَوا ونصرونا واتبعوا النور الذي أنزل معاً أولاً كُل هم المفهُّلون [الأعراف: 157]، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فأوصيكم أيها الناس - ونفسى يتقوى الله عز وجل، فإن الأيام تمضي، والأعمار تنقضي، والناس في غفلة وسكرة، وبالأمس كان رمضان يأتي، واليوم يتنصف، وغداً ينتهي، والسعيد من عمر أيامه ولياليه بطاعة الله تعالى، والمغفور من غرته النعم فرع فيها كما ترجع الأعماق، ثم كفرها بالعصيان، ومن لم يحقق التقوى في رمضان
فمتى يتحقت؟! (لَا أَيُّهَا الَّذين آمَنوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَما كُتِبَ عَلَى الْذِّينَ مِن قَبْلَكُمْ لِعَلَّمُهُمْ تَكُونُ) [البقرة: 183].

أيها المؤمنون: في مثل هذا اليوم الآخر، يوم الجمعة السابع عشر من رمضان(1)، وقبل ألف وأربعمائة وثنتين وعشرين سنة(2)، أذن الله تعالى بأول نصر في تاريخ هذه الأمة المباركة، وأمد المؤمنين بجندها، وربط على قلوبهم، وثبت أقدامهم، وأذهب عنهم رجل الشيطان؛ فركبوا المشركين يقتلون فيهم ويسرون، حتى قتلوا منهم سبعين، فيهم الكبار والصانديق، وأسروا سبعين، وفر الباقيون.

إنه انتصار عظيم في أول منازلة بين الحق والباطل في تاريخ هذه الأمّة الخاتمة، وكان لهذا النصر المبين عوامله وأسبابه التي أخذت بها الطائفة المؤمنة؛ فلم يضرهم قتلهم وكثرة المشركين. كما كان لهزيمة المشركين أسبابها، ولم تتفعم فيها كثرتهم البالغة ضعفي عدد المسلمين.

(1) قال الحافظ ابن حجر في التلخيص الخيري (4/89): "وأما غزوة بدر في الثانية فتفق على بين أهل السير: ابن إسحاق ومروسي بن عقبة وبني الأسود وغيرهم، واتفقوا على أنها كانت في رمضان، قال ابن عساكر: والمحفوظ أنها كانت في يوم الجمعة، وروي أنها كانت في يوم الاثنين وهو شاذ، ثم الجمهور على أنها كانت سابع عشرة، وقيل: ثانى عشرة، وجمع بينهما بأن الثاني إبتداء الخروج والسابع عشر يوم الواقعة"، ونظر: مصنف ابن أبي شيبة باب غزوة بدر، ومثله كانت، وأمرها (7/326) وتفهية الأميد (8/373).

(*) على الخطيب أن يبتته لفقر السنوات؛ لأنها هنا وضعت بما يوافق هذه السنة (1423 هـ) ويبتته أيضاً لليوم السابع عشر.
وننظر ففاحصة خلاف الفريقين يتبين لنا كيف انتصر المؤمنون، وأنهزم الكافرون.

أما المؤمنون فقد صدقو مع الله تعالى، وبرهنوا على صحة إيمانهم، وأثبتوا أنهم أشتروا رضى الله تعالى بأنفسهم وأموالهم؛ إبقاءً على دينهم، وهجرة إلى الله تعالى وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم، والأنصار تآخوا في الإسلام، وألقوا شعارات الجاهلية وثاراتهم عنها؛ طاعة الله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم، ثم آسوا إخوانهم المهاجرين، وقسمواهم أملاكهم وأموالهم، ومزارعهم ودورهم حتى هموا أن يقاسموهم أزواجهم؛ بل وأثروهم على أنفسهم!

إنه تضحيات كبيرة قدمتها الطائفة المؤمنة من مهاجرين وأنصار، ما كانت إلا لغاية واحدة هي: ابتعاد رضوان الله تعالى. والنصر لا يكون إلا من عند الله عز وجل، وهم قد قدموا ثمنه فاستحققوه، وإن كانوا أقل عددًا وعتادًا من عدوهم.

وأما المشركون فقد كذبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وآوهم، وعذبوا أصحابه، وصدوا عن سبيل الله تعالى، وعادوا أولايه، حتى أضطروهم إلى الهجرة عن ديارهم وأموالهم فراراً بدينهم، فكانوا طالبين معتدين، محاربين الله تعالى، مستسلمين لغضببه وسخطه، وما استفادوا من الآيات، ولا اعتبروا بالنذر التي جاءتهم قبل هلكهم، بل زادتهم الآيات والنذر عتوا ونفوراً وسخرية بالنبي صلى الله عليه وسلم. فقبل غزوة بدر بأيام رأته عائكة بنت عبد المطلب رؤيا أفزعتها،
كان مفاده: أن أشراف قريش وسادتها يَقَتَّلون، فتحدثت بها، فسمع بذلك فروع هذه الآمة أبو جهل بن هشام فقال للعباس ابن عبد الملك ساخرًا: «يا بني عبد الملك، متي حدثت فيكم هذه النبأة.. ثم قال: أما رضيتم أن يتبنا رجالكم حتى تنبأ نساكم!!»(1)

فما لبثوا إلا ثلاثة أيام حتى جاءهم الصريحَ بأن المسلمين يعترضون أبا سفيان في قافلة لقريش; فجمعوا جموعهم، وخرجوا لإ налогов القافلة التي سلمت، ولكن الله تعالى أراد أن لا يسلم المشركون، فقادهم غروهم إلى الإصرار على معارضة أولياء الله تعالى؛ كما قال الله تعالى في وصفهم: "خرجوا من ديارهم بطرأ ورقاء الناس وصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيطه" [الأنفال: 47].

وفي مقابل هذا الغرو، والاستكبار عن الحق، والإصرار على القضاء عليه من قبل المشركين؛ كانت الثقة بالله تعالى تملأ قلوب الطائفة المؤمنة حتى كان النبي صلى الله عليه وسلم من ثقته بره يحدد مصارع

(2) قصة رؤيا عاتكة في سيرة ابن هشام بإسناد مرسل (١٧/٦٧) وأخرجها الحاكم (١٩/١٩)، والطبراني في الكبير (٢٤/٣٤٤-٣٤٥) رقم (٨٥٩)، وفي الأحاديث الطوال رقم (٣٧)، والبيهقي في الدلائل (٣/١٠١)، وأسانيدها مرسلة، والموصول منها ضعيف، ويرى أحمد باوزير في جمعه لروايات غزوة بدر ودراسها أن مجموع الأسانيذ الموصولة الضعيفة تنوى بالمراسيل حتى ترفع درجة القصة إلى الخس لغيره، انظر: مرويات غزوة بدر (١٨٨) وانظر أيضاً: تاريخ الطبري (٢/٢٤)، والخصوص الكبري للسيوطي (٢/٣٦٧)، والسيرة الحلبية (٢/٤٣٦).
المشركين، ويقول لأصحابه: "هذا مصروب فلان غداً إن شاء الله، قال عمر رضي الله عنه: "فوالذي بعثه بالحق ما أخطؤوا الحدود التي حدّ رسول الله صلى الله عليه وسلم" رواه مسلم (3).

لقد كان المؤمنون متوكلين على الله تعالى، مستعينين به وحده دون من سواء، ورغم أن عدد المشركين يفوقهم بالضعفين بالإضافة إلى التفوق في العتاد والسلاح والمراكب فإن النبي صلى الله عليه وسلم رفض الاستعانة بالمشركين على المشركين مع مسبب حاجته لأي معين؛ ولكنه ما كان ليعصي الله تعالى وهو يطلب عونه، قالت عائشة رضي الله عنها: "خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بدء، فلما كان نحر الوترة أدرك رجل قد كان يذكر منه خراجة ونجدة، ففرح أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رأوه، فلما أدركه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: "جئت لتتبعك وأصب مكع، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "تؤمن بالله ورسوله؟" قال: لا، قال: "فارجع فلن أستعين بشركك" قالت: ثم مضى حتى إذا كنت بالشجرة أدركه الرجل، فقال له كما قال أول مرة، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم كما قال أول مرة، قال: "فارجع فلن أستعين بشركك"، قالت: ثم رجع فأدركه بالبيداء، قال له كما قال أول مرة: "تؤمن بالله ورسوله"، قال: نعم،

(3) أخرجه من حديث أنس رضي الله عنه أحمد (3/219)، ومسلم في الجهاد والسير باب غزوة بدر (1779)، وأبو داود في الجهاد باب في الأسر ينال ويدرب ويقرر (3281)، والنسائي في الجنائز باب أرواح المؤمنين (8/10-9).
المني في خطبة الجمعة والعيد

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فانطلق» رواه مسلم (4).

و حينما كان الشيطان يؤز المشركين على المؤمنين، ويزين لهم أعمالهم، ويقودهم إلى مصارعهم، ويقول لهم: إني جار لكم، كان النبي صلى الله عليه وسلم يستشير أصحابه في الخروج، ويكرر فيهم: «أشروا عليَّ أيها الناس» (5)، حتى أشاروا عليهم بالخروج، فسر بذلك وبشرهم بنصر الله تعالى لهم.

لقد خرج المشركون يفخرون بخيلهم، وركابهم، وأعدادهم وسلاحهم، يرموه زرع المهاة في قلوب غيرهم منهم؛ كما قال أبو جهل لما سلمت القافلة، وهموا بالرجع إلى مكة، قال: «والله لا نرجع حتى نرد بدراً، فنقيب بها ثلاثاً، فتنحر الجزر، ونطمئن الطعام، ونسقي الخمر، وتعزم لنا القبان، وتسعمنا العرب وبسيرا وجمعنا.

(4) أخرجه مسلم في الجهاد باب كراهة الاستعانة في الغزو بكافر إلا حاجة أو كونه حسن الرأي في المسلمين (1817)، والترمذي في السير باب ما جاء في أهل الدّمة يغوزن المسلمين هل يسهم لهم (1588)، والنسائي في السنكبرى (1116).

(5) روى حديث مشاورته صلى الله عليه وسلم لأصحابه رضي الله عنهم أحمد (136/3)، ومسلم في الإمارة باب ثبوت الجنة للشهيد (1901) من حديث أنس رضي الله عنه، وأخرجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما الطبري كما ذكر ذلك الهيثمي في الزوارد وحسن (73/6)، والبيهقي في الدلائل (232/62)، وابن هشام في السيرة (614/1).
 فلا يزالون يهابونا أبداً، فامضوا".(1)

بينما خرج المسلمون في غاية الذل لله تعالى، والتواضع والتآخي واقتسام المراكب القليلة، قال ابن مسعود رضي الله عنه: «كنا يوم بدر كل ثلاثة على بعير، كان أبو لبابة وعلي بن أبي طالب زميلي رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: وكانت عقبة رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: فقال: نحن نمشي عنك، فقال على الصلاة والسلام: ما أنتما بأقوى مني، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكم». رواه الإمام أحمد وصحابه.(7)

ولما تقابل الجيشان، والتقى الجمعان؛ جاءت النذارة الأخيرة للمشركين على يد رجل من أشرافهم وساداتهم وهو عتبة بن ربيعة، فنهىهم عن القتال وقال: «يا قوم، إنني أرى قوماً مستميتين، لا تصلون إليهم وفيكم خير، يا قوم اعصبوا اليوم برأسي وقولوا: جَنَّ عَبْتَةَ بْنُ رَبِيَّةَ، وقد علمتم أنك لست بأجنبكم، فسمع ذلك أبو جهل فقال: أنت تقول هذا،

(6) آخرجه الطبري في جامع البيان (1/161)، وانظر: البداية والنهاية (2/266).

(7) آخرجه أحمد (1/411)، وأبو يعلى (5359)، وبالزيار (1759)، والبغوي في شرح السنة (26876)، والبهقي (5/2758)، وصححه ابن حبان (3/4733)، والحاكم وقال: على شرط مسلم (3/202)، وقال البيهقي في الزوائد: «رواى أحمد والبيزار وفيه عاصم بن بيدله وحديته حسن، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح» (1/69)، وصححه الشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند (9/390).
والله لو غيرك يقول لأعضسته قد ملأت رتيك جوفك رعباً، فقال عبته:

"إياي تعير يا مصفر أسته، ستعلم اليوم أيننا الجبان".  

(8) أخرج من حديث علي ورضي الله عنه أحمد (117/14) وأبو داود في الجهاد باب في المبارزة (1665/12) والبزار (119/17) والبيهقي (27/3).

وقال ابن كثير في البداية والنهاية (277/3): "هذا سياق حسن، فيه شواهد لما تقدم وما سبأني..." وقال البصيري: "رواه أحمد والبزار، ورجال أحمد رجال الصحيح غير حارث بن مضرب وهو ثقة" مجمع الزوائد (167/16).

وصححه الشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند (948).

وقول عبته: "اصبوا برؤسا بيريد الحرب، وهي تؤثث، أو يكون أراد السبة التي تلحقهم بالقرار من الحرب، والجنوح إلى السلم، فأضرمها في الكلام اعتماداً على معرفة المخاطبين بها، 109/1 من غريب الحديث للخطابي.


وقول عبته لأبي جهل: "يا مصفر أسته"، قال الزمخشرفي في الفائق (135/2):

هي عبارة عن الترفه. 109.

وقال ابن العائر في النهاية (376/3): "رماه بال-API، وأنه كان يعصر

استه، وقيل: هي كلمة تقول للمتمعن المتفر الذي لم تخونه التجارب والشذرات.


وقد عبر العبאס أيضاً لأبا جهل بذلك في حديث رؤيا عاتكة لم يستهزا أبو

جهل به وبالنساء الهاشمات فقال العباس له: "مهلا يا مصفر أسته" كما في"
قال أبو جهل في غرور واستنكار: "أنتفخ والله سحره حين رأى محمدًا وأصحابه، إنما محمد وأصحابه كأكلة جزور ولقد التقينا، فقال عتبة: ستعلم من الخبر المفسد لقومه، أمّا والله إنّي لأرى قومًا يضربونكم ضربًا، أمّا ترون كأن رؤوسهم الأفاعي، وكأن وجههم السيف" رواه البزار.

رواية الطراوي في الكبير من حديث عروة مرسلاً (2/46) برقم: (80) ونقل الصالحي في سبيل الهدى والرشاد (4/1) عن صاحب الروض قوله: "سادة العرب لا تستعمل الخلق والطيب إلا في الدعوة والخفاض، وتغيب في الحرب أشد الصيب، وأحسب أن أبا جهل لم سلمت العير، وأراد أن ينصب الجزور، ويشرب الحمر بيد استعمل الطيب أو هم بفذلك قال له عتبة هذه المقالة، أيضاً ترى قول الشاعر في بني مخزوم:

ومن جهل أبو جهل آخركم غزا بدراً بمجرمة وتور.
وقوله: "مغفرًا استه" إذا أراد مغفرًا بدن، ولكن قدس المبالغة في الذم فخص منه بالذكر ما يسهو أن يذكر قال الصالح: وهذا الذي قاله مع مخالفته لظاهر اللطيف سبق رده.

(9) أخرج أبى شيبة في مصنفه مرسلاً عن عكرمة مولى ابن عباس به (7/366) برقم: (878)، والبزار كما في مختصر زوائد البزار للحافظ ابن حجر (1/1349)، من حديث يزيد بن هارون، أتبنا جبرير بن حازم، عن أخيه يزيد بن حازم عن عكرمة عن ابن عباس.

ولنقل الحافظ ابن حجر عن البزار قوله: "ما له إلا هذا الطريق، ولا أستنده إلا يزيد، وحدث به مرة أخرى مرسلاً، ويزيد بن حازم لم يسند إلا هذا الحديث.

وانظر: كشف الأستار (1762)، وأورده الهفري في مجمع الزوارد (67/66).

وقال: رواه البزار ورجاله ثقات.

وقول أبو جهل: "أنتفخ والله سحره حين رأى محمدًا وأصحابه«، قد تصحف ـ
المفيد في خطب الجمعة والعيد

لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم في غاية الذل والاستكانة. تعالى، كان ليلة المعركة يلح في دعائه ويناجي ربه ويقول: (اللهم أجز

في مجمع الزوار إلى (شجرة) وهو خطأ بين رواية ومعنى. فالصواب كما في المصنف ومحتصر زوار الزوار وكتب السيرة بلغة: (سحره).


ونقل الخطابي في غريب الحديث (398/1) عن أبي زيد قوله: (يقال للرجل إذا جين وكسر: قد انتفع سحره، قال: والسحر مما تعقل بالخلقوم والمريء).

وقول أبي جهل: (إذا محمد وأصحابه كاألة جزور)، المعنى: هم قليل يشيعهم جزور واحد.

وقد نقل الصاحب في سيرته (4/31) أن المشركين بعثوا عمير بن وهب الجمحي ليحرز لهم عدد المسلمين، فرجع إلى قومه فقال لهم بعد أن أحبرهم بعدهم:

«ولكن رأيت يا عشير قريش البلايا تحمل المنايا، نوضاج يثرب، تحت الموت النافع، قوم ليس لهم منعه ولا ملجا إلا سيفهم، أما ترونهم خرسًا لا يكلمون، يتلمظون تلمظ الأفاضي»، وبعث المشركين أيضاً أبا سلمة الجاشمقي فطاف بالمسلمين ثم رجع إلى المشركين فقال: (وأنت يا داود لا عداً ولا خلفه ولا كراً ولا رأيت قوًا لا يريدون أن يعودوا إلى أهليهم، قومًا مستمتين ليست لهم منعه ولا ملجا إلا سيفهم، زرق العيون كأنها الحصى تحت المجدف فروا وأبقكم».

وعن ذكاء ما قال لأبي جهل ما قال إلا بإشارة من حكيم بن حزم رضي الله عنه، وكان مشركا آنذاك، وكان عتبة بن ربيعة كبير قريش وسبدها وهو المتاع فيها، ولكن غلب غزو أبي جهل وإصراره على القتال قول عتبة بن ربيعة إن فكان من أمرهم ما كان والحمد لله.
غزوة بدر (1)

لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعد في الأرض، فما زال يهتف بربري، مادأ يديه، مستقبل القبلة، حتى سقط رداؤه عن منكبته، فأتاه أبو بكر فأخذ رداه فألقاه على منكبته، ثم الترمى من ورائه، وقال: يا نبي الله، كفاح مناشدتك ربك، فإنه سيجز لك ما وعدك، فأنزل الله عز وجل، "إذ تستغفر ركماً فاستجاب لكم أن م ملفكم بألف من الملاكاة مرفقين" (الأنفال: 9). فأمدهم الله تعالى بجند من الملاكاة يقودهم جبريل وميكائيل (11).

(10) أخرجه من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أحمد (1/103)، وسلم في الجهاد باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر (17/363)، والترمذي في تفسير القرآن باب ومن سورة الأنفال (11/9).

(11) روى الطبري في تفسيره عن علي رضي الله عنه قال: "نزل جبريل في ألف من الملاكاة عن ميمنة النبي صلى الله عليه وسلم وفيها أبو بكر، ونزل ميكائيل في ألف من الملاكاة عن ميسرة النبي صلى الله عليه وسلم وأنا في المسيرة". قال ابن كثير: "وهذا يقتضي إن صح إسناد أن الألف مردهم بطلهما، ولهذا قرأ بعضهم (مرفقات) بفتح الدال، والمشهور ما رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: "وأمد الله نبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين باللف من الملائكة فكان جبريل في خمسة من الملاكاة مجبون، وميكائيل في خمسة مجبية".

في مقابل هذا الدعاء، والالتجاء إلى الله تعالى: كان دعاء المشركين ينضح بالتحدي، ويدل على العلوي والاستكبر، قال أبو جهل دعاءً:

اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو اتخذنا بذاب أليم فنزلت: (وَمَا كَانَ اللَّهُ لَيْغَفَّرُهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُغْفِرَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفَرُونَ) [الأنفال: 33] رواه الشيخان.

وكان استفتاح أبي جهل بالدعاء في ذلك اليوم العظيم قوله: (اللهم أقطعنا للرحيم، وآتنا بما لم يُعرف فائتْه الغلطة، فبينما هم على تلك الحال خفتق رسول الله صلى الله عليه وسلم خفقة في العريش ثم اتبه فقال: أبشر يا أبا بكر، هذا جبريل معتجر بعمامته، أخذ بعنان فرسه يقوده، على ثناءه النفع، أناك نصر الله وعدته) رواه أحمد والعياش.

لقد تتابعت النذرات على المشركين فما اعتبروا ولا انتظروا!! حتى

(12) أخرجت من حديث أنس رضي الله عنه البخاري في التفسير باب: (وَمَا كَانَ اللَّهُ لَيْغَفَّرُهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ) [الأنفال: 33] واسلم في صفة القيامة باب قوله تعالى: (وَمَا كَانَ اللَّهُ لَيْغَفَّرُهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ) [الأنفال: 33] (796).

كانت النذر تنذرهم إلى آخر لحظة قبل بدء المعركة؛ ولكنهم أصرمو
على محاداة الله تعالى، ومعاداة دينه، ومحاربة أوليائه، وقد حضرت
ساعة الحسم، واقترب خلاص المؤمنين، وأوشك هلاك المكذبين،
وندب المعركة، فعملت سيوف المؤمنين مدعومة بمدد الملائكة عملها
في رقاب المشركين، وما هي إلا ساعات حتى تنزل نصر الله تعالى,
وقُتل أكثر أثنيَّة الكفر والطغيان، وأولهم أبو جهل بن هشام.

عن أبي طلحة رضي الله عنه: «أن نبي الله صلى الله عليه وسلم
أمر يوم بدر بِأَرْبَعَةٍ وعِشْرِينَ رجلاً من صناديد قريش فَقُذِفُوا في طوِي
من أُطِوَاء بَدِرِ بِخُبْث، وكان إذا ظهر على قوم آقام بالعرصة
ثلاث ليال، فلما كان بُدر اليوم الثالث أمر براحته فَشَتِتَ عليها رحلها،
ثم مشى واتبعه أصحابه، وقالوا: ما نرى يتلمع إلا لبعض حاجته,
حتى قام على شفى الرِّجَّي - أي شفير القيب - فجعل يناديهم بأسمائهم
وأسماء أبائهم: يا فلان بن فلان، ويا فلان بن فلان، أيسركم أنكم
أطعم الله ورسوله؟ فإننا قد وجدنا ما وعدنا بيننا حقًا، فهل وجدتم ما
وعد ربك حقًا؟ قال: فقال عمر: يا رسول الله، ما تُكَلِّمن من أحساد لا
أرواح لها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: والذي نفسُ محمد
بِيَه، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم. قال قتادة: أحياهم الله حتى أسمعهم
قوله: تبوبحاً وتصغيرًا ونعمًا وحُسْرَة وندماً» رواه الشيخان(14).

(14) أخرجه البخاري في المغازي باب قتل أبي جهل (3971)، ومسلم في الجنة
وصفتها باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه (2874 - 2875).
أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: (إِذْ تَسْتَغْفَرُونَ رَبَّكَ فَاسْتَغْفَرُوهُ وَلَا يَأْتِيكُمْ مَثْلُ هَذَا ۖ وَمَا جَعَلَ اللَّهُ بِشَرْرٍ وَلَتْطَمَنَّ بِهِ قَلْوُبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عَنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) [الأنفال: 9-10].

بارك الله لي وليك في القرآن العظيم،

الخطبة الثانية

الحمد لله وحده، حمداً يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه، وأشكره
على نعمة، شكرًا يستجب رضاه، وبدفع نقمته، وآتوب إليه واستغفره
من كل ذنب يغضبه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له,
وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى
آله وصحبه، ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله عباد الله (وَأَلْقُوا يَوْمَ الْيَومِ تِرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوْقُفُ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَّتْ وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ) [البقرة: 281].

أيها الناس: من طبيعة البشر إذا لم يهتدوا بهدئ الله تعالى: العلوم والفساد والطغيان، فإذا ما ملكوا قوة من مال واقتصاد، أو سلاح وعتاد;
بغوا بها على الناس، وأفسدوا في الأرض، ولم يرعوا الله تعالى حرمته،
أو عظموا له شعيرة، وإذا ذُكِّرُوا لا يتذكرون؛ لأن طغيانهم قد حجب
عقولهم عن التذكير؛ كما قال الله تعالى عن المشركين واصفاً حالهم
في بدر (وَإِذْ زَيَّنَ لِلْشَّيَاطِينَ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبٌ لَّكُمْ يَوْمَ الْيَومِ وَإِنَّكُمْ لْمَثَالُ الْجَاهِلِينَ) [الأنفال: 48]، ولكن ما إن ابتدأ القتال، وتنزلت
الملائكة، ورأه الشيطان حتى فرّ من أرض المعركة، وتبرأ منهم (هكذا
تراوت الفتنان نكص على غبيته وقَالَ إِنِّي بَرَيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَونَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ العقابُ {[الأنفال: 48]}

إنها حالة من الغور بالقوة، والاستضعاف للقلة المؤمنة، تلازم الكافرين المعتدين عبر الزمان وفي كل مكان.

وفي عصرنا هذا تتكرر نفس الصورة التي دائما ما تحدث بين المؤمنين والكافرين؛ فالكافرون من صهاينة اليهود والنصارى ظلوا عقوداً من السنين يبنون قوة ضاربة؛ ليحكموا بها السيطرة على العالم، وكدسوا في خزائنهم من أسلحة الدمار الشامل ما يكفي لتدمر الأرض عشرات المرات؛ وذلك لردع كل من يعترض على قانونهم الجائر، ويخرج عن سلطاتهم القاهر؛ ولكن يحققوا مشاريعهم الطاغوتية الكبرى، ولو كان ذلك على حساب دماء المسلمين وأموالهم وأراضيهم.

فاليهود يريدون بناء إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات، وطرد أهل الأرض منها، وهدم المسجد الأقصى، والاستحواذ على المنطقة فيما يعرف بمشروع الشرق الأوسط.

والقوى الصهيونية الليبرالية النصرانية تريد الاستحواذ على ثروات العالم، وفرض نظامها الرأسمالي الإخلاقي على البشر كلهم، وإلغاء دياناتهم، وخصوصيات أخلاقهم وأعرافهم، فيما يعرف بمشروع المجلة والثورة العالم الجديد.

وكل القوطين ومن ساندها في بيتها وظلمها قد جاءتهم النذر من بين أيديهم ومن خلفهم، في أكناش بيت المقدس، وفي غيرها من
 الأرض لله تعالى، ولكن هذه النذر ما تفعهم; لأن غروبهم بقوتهم،
وعائدةهم بسلاجمهم وكثيرهم قد حجب عقولهم عن التفكر، وكان
حالهم كحال مشركي قريش حينما لم تنفعهم النذر، فهل يودون أن
يكون مصيرهم مصير صناديق قريش في بدر؟!
إن الصورة تشبه الصورة، والحال مطابق للحال، إلا أن الطائفة
المؤمنة في بدر كان عندها من اليقين والإيمان، والتوكل على الله تعالى;
ما استجبل نصر الله تعالى ومدده بملائكة يقاتلون مع المؤمنين، بعكس
حال كثير من المسلمين في هذا العصر؛ إذ ركثوا إلى الذين ظلموا،
ووضع يقينهم بالله تعالى، وتوكلهم عليه، وجزعوا على دنياهم، ولم
يخافوا على دينهم أن يبذل، فوكلهم الله تعالى إلى أنفسهم، وإلى من
ركثوا إليهم، فأذلواهم واستضعفواهم، ولم يرقبوا فيهم إلا ولا دمها.
ولا مخرج للمسلمين من هذه الأزمة العظيمة، وهذا التهديد الكبير
الذي يهدد دينهم وأخلاقهم وجودهم إلا بصدق اللجوء إلى الله تعالى،
والتوكل عليه، والتعلق به، وبدايات ذلك التوبة من الذنب، ومجانبة
العصيان.
إنكم - أيها المسلمون - تستقبلون عشراً مباركًا هي فرصة لتجديد
العهد مع الله تعالى، والتوكل عليه، وكثرة دعائكم، والاجتهاد إليه،
كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يفعل في بدر.
وهي عشراً كثير فيهما النبي صلى الله عليه وسلم، ويجتهد
في العبادة فيها أكثر من غيرها؛ كما قالت عائشة رضي الله عنها:
"كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا دخل العشر شد منزره، وأحيا ليله، وأيقظ أهله (١٠٠)." ألا فاتقوا الله ربكم، وأروه من أنفسكم خيراً، ولأجوا عليك الدعاء لإخوانكم المستضعفين، واسألوه الثبات على الدين، وأن يرد كيد الكاذبين. وصلوا وسلموا على خير خلق الله، ، ، ,

(١٥) أخرجه البخاري في فضل ليلة القدر باب العمل في العشر الآخر من رمضان (٢٤)، وسلم في الاعتكاف باب الاجتهاد في العشر الآخر من شهر رمضان (١١٧).
الحمد لله؛ مالك الملك، يُؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك من يشاء، ويعرَّ من يشاء، ويذل من يشاء. لا يذل من ولاه، ولا يعرَّ من عاداه، وهو على كل شيء قدير. أحده وأشكره، يأتيه واستغفره. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ لا يخرج شيء عن أمره، ولا يعجزه أحد من خلقه، وله الحكمة البالغة في أمره وشرعه، ولا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجه له الحكيم وإليه ترجعون» (القصص: 88).

وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله؛ في غزوة أحد جرح وجهه، وكسرت ربابته، وهشمت البيضة على رأسه، فجعل يسلت الدم عن وجهه ويقول: «كيف يفتح قوم شجوا نبيهم، وكسروا ربابته وهو يدعوهم إلى الله»(1).

(1) أخرج من حديث أنس رضي الله عنه البخاري معلقاً في المغازي في ترجمة باب «ليس لك من الأنهر شيء»، انظر: الفتح (7/165)، ومسلم في الجهاد والسير باب غزوة أحد (1791).

ونحو حديث سهل رضي الله عنه عند البخاري في المغازي باب ما أصاب النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد (5/40)، ومسلم (1790). ومن ثم

أحاديث أخرى عن أبي هريرة وابن عباس وابن عمر رضي الله عنهم.
 صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه؛ قوم بذلكَوا لله نفوسوهم وأموالهم، فماً وَهَّنَا لِمَا أَصَابَهُمْ في سَيِّبِل اللَّهِ وَمَا ضَعَفُوا وَمَا استكزوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ} {آل عمران: 146}. والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الالَّهُ.

أما بعد: فأوصيكم - أيها الناس - ونضبي بتقوى الله عزوجل;

فنعم العدة للشدة تقوى الله تعالى، وهي المخرج من الفتن، وهي النتيجة من عذابه تبارك وتعالى وَيَنْجِي اللَّهُ الَّذين أَقْرَأُوا بِمَكَارَاتِهِمْ لَا يُمِسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَخْرُونْ {الرَّمَضَان: 61}. {وَإِن مَّنْ كَفَرَ إِلَّا أَوْدَاهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حِسَابًا مَّقَضِيًا} {البقرة: 72}. ثم ننجي الذين أقرأوا ونذر الظالمين فيها جزاءً {المريم: 61}. أُبيك المسلمون: كانت غزوة أحد غزوة عظيمة في أحداثها ومجرياتها، عجيبة في آياتها ومعجزاتها، شديدة في ضرائها وابتلاءاتها، غزيرة في عبدها ودروسها.

وقعت في مثل هذه الأيام في شوال من السنة الثالثة من الهجرة، بعد عام واحد من غزوة بدر التي غشي المشركين فيها ما غشيهم من هزيمة جيشهم، وقتل سادتهم، وذهاب هبيتهم؛ فأجمعهم أمرهم، وجمعوا حلفاءهم، وأعدوا عدتهم، وعزموا على غزوة المسلمين في المدينة، والتأم لما أصابهم في غزوة بدر الكبرى؛ فجرت أحداث عظام في هذه الغزوة المباركة، وظهر صدق الإيمان والتضحيات والفاءة، وابتلي المسلمون أبتلاءً عظيماً؛ حتى رأوا رسول الله صل الله عليه وسلم قد وصل إليه المشركون، ونالوا منه، وكانت الصاعقة الكبرى ما أشيَّع من قتله عليه.
الصلاة والسلام؛ ولكن الله تعالى حفظ نبيه صلى الله عليه وسلم، وثبت قلوب المؤمنين، وتلك من أعظم النعم، وأكبر الآيات والمعجزات التي خررت بها هذه الغزوة!

لقد أكرم الله تعالى الطائفة المؤمنة في غزوة أحد بآيات عظيمة، وخصوص نبيه صلى الله عليه وسلم بمعجزات باهرة، كانت معيناً للمؤمنين على ثباتهم رغم هزيمتهم، ومروة لهم في محبتهم رغم قتلهم وكره عدوهم. ولما اشتد الكرب على المؤمنين، وقوي كلب الكافرين، وتمكنوا من رقاب المؤمنين، وعظم خوف الصحابة رضي الله عنهم من نتائج هذه الغزوة، ودب الفوضى في أوساطهم، ونالهم من الشعب ما نالهم، وعلاهم من الغم ما علاهم، وغشيهم من الكرب ما غشيهم؛ ألقى الله تعالى عليهم النعاس وهو النوم الخفيف؛ ليسواهم غمهم، ويزيل تعبهم، ويجدد نشاطهم، فكان ذلك كراوة من الله تعالى لهم، وسكنينة عليهم: {فَمَّا أَنْزَلْنَ ۖ عَلَيْكُمْ مِّنَ الْغَمِّ أَمَّنَ تَعَاسَ ۖ فَغَشِّئُوا طَائِفَةَ مَنْ كَفَّارُكُمْ} [آل عمران: 164].

قال الزبير بن العوام رضي الله عنه: {القد رأيتني مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد حين اشتد علينا الخوف، وأرسل علينا النوم، فما منها إلا وذقته في صدره...}.

(2) عزاء البوصيري في مختصر أخبار السادة المهرة إلى إسحاق بن راهويه (1520) وال(511) وسكت عنه، وسكت عنه الحافظ أيضاً في المطالب العالية (4209).
قال أبو طلحة الأنصاري رضي الله عنه: "كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحد، حتى سقط سيفي من يدي مراراً، يسقط وآخذه، ويسقط فآخذه" رواه البخاري (2).

وفي رواية قال أبو طلحة: "رفعت رأسي يوم أحد فجعلت أنظر، وما منهم يومذ من أحد إلا يمدد تحت جحشه من النعاس؛ فذلك قوله تعالى: "وَلَمْ نَأْنِزْ لَكُمْ مِنْ بَعْضِ الْقُرْآنِ أَمْثَالًا" رواه الترمذي (3).

كان من آيات الله تعالى في هذه الغزوة، وإكراره لعباده المؤمنين: استجابته تبارك تعالى لدعاء بعضهم، وإعطاؤهم ما سألوا؛ كما روى سعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه: "أن عبد الله بن جحش قال له يوم أحد: ألا تدعو الله، فخلوا في ناحية. فدعا سعد فقال: يا رب، إذا كنت العدو، فلقني رجلاً شديداً بأسه، شديداً حزره أي غضبه. أقاطله فيك وقاتلي، ثم ارتقني الظرف عليه حتى أقتله، وأخذ سلبه، فأتم عبد الله بن جحش، ثم قال: اللهم ارتقني رجلاً شديداً حزره. شديداً بأسه، أقاطله فيك وقاتلي، ثم اخذهني، فاتجه شامني وأذني، وإذا لقيتك غداً، قلت: يا عبد، فيم جدع أنفك وأذنك، فأقول فيك وفي رسولك، فقول: صدقت. قال سعد: يا بني، كنتم دعوة (2)

(3) أخرج البخاري في المغازي، باب "لم أنزل عليكم من بعض القرآن أمثالا" [ال عمران: 154 (38)]، والترمذي في تفسير القرآن باب ومن سورة آل عمران (308)، وأحمد (429).

(4) هذه الرواية للترمذي في تفسير القرآن باب ومن سورة آل عمران (7).
عبد الله بن جحش خيراً من دعوتي، لقد رأيته آخر النهار وإن أنه فأتاه
لملعنان في خيط رواه الحاكم وقال الذهبي: صحيح مرسلاً.
ولما دعا أحد المشركين على نفسه بالسوء استجاب الله دعاه، فأصابه
العذاب كما روى بريدة رضي الله عنه: أن رجلاً قال يوم أحد: اللهم
إني كان محمدًا على الحق فخسف بي، قال: فخسف به» رواه البزار (١).
ومن الآيات العظيمة في غزوة أحد: أن الملائكة حضروها، ودافعوا
عن النبي صلى الله عليه وسلم، كما روى الشيخان من حديث صناديق
رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد
ومعه رجلان يقاتلان عنه، عليهما ثواب بيض كأشدة القتال، ما رأيتهما
قبل ولا بعد (٢). (١)
وقد ذكر العلماء أن الملائكة كانوا لحراسة النبي صلى الله عليه وسلم،
وأن الله تعالى قد وعد المؤمنين بأنهم إن صبروا واتقوا أمدهم بخمسة

(٥) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (١٦٧٣ - ١٦٧٤)، وابن الأثير في أسد
الغابة (٢/١٩٥)، وابن سعد في الطبقات (٣/٢٣)، والحاكم مرسلاً وقال:
صحيح على شروطهما لولا إرسالة، وقال الذهبي: صحيح مرسلاً (٣/١٩٩).
(٦) أخرجه البزار كما في كشف في الأستار (١٧٩٧)، وقال الذهبي في الزوائد:
ورجاه رجال الصحيح (٢/١٢١).
(٧) أخرجه البخاري في المغازي بباب إذا أُمِمت طائفتان سماكما أن تشقلا وأنبهما
وليهم (٢/٤٥)، وابن عيان (١/٦١٩)، وابن صاعد (١/٨٥)، وابن وهب
وميقاتي عن النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد (١٢٣).
زوية أحد (1)

آلاف من الملائكة مسومين، وكان قد فعل، فلما عصوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتركوا مصافهم، وترك الرماة عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم آلا يبرحوا منازلهم رفع الله عنهم مدد الملائكة، فصدقهم الله وعده، وأراهم الفتح، فلما عصوا أعقابهم البلاء (8).

وبقي من بقي من الملائكة للدفع عن النبي صلى الله عليه وسلم وحفظه من العدو.


وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أصيب حمزة بن عبدالمطلب وحظظلة بن الراحب وهما جنب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:


(9) أخرجه من حديث عبد الله بن الزبير البهظي (15/1510)، والحاكم وصححه وقال: على شرط مسلم، ووافقه النجبي (13/204، 205)، والطبراني في الكبير بنحوه، وحسن الهشمي في الزوائد (23/33).
رأيت الملائكة تغسلهما» رواه الطبراني بإسناد حسن(10).

وأطلت الملائكة عبد الله بن حرام رضي الله عنه، كما روى ابن جابر رضي الله عنه قال: "لما قتلت أبي جعلت أكشف الثوب عن وجهه وأبكي، وينهوني عنه وهو لا يهاني، فجعلت عميتي فاطمة تبكي، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "تبكين أو لا تبكين، فما زالت الملائكة تُطلِّعُ بأجنتحتها حتى رفعتموها" رواه الشيخان(11).

وكان رضي الله عنه حريصًا على الشهادة، طالبًا لها، صادقًا في طلبه إياها، قال جابر: "اللّه حضر أحد دعاي أبي من الليل فقال: ما أراني إلا مقتولاً في أول من يقتل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وإنني لا أترك بعدي أعزة علي منك، غير نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن علي ديناً فاصف، واستوص بأخواتك خيراً، فأصبحنا فكان أول قتيل، ودفن معه آخر في قبر، ثم لم تطلب نفسي أن أترك مع الآخر، فاستخرجه بعد ستة أشهر، فإذا هو كيوم وضعته هيئةً غير أذنه" رواه البخاري(12).

(10) أخرجه الطبراني في الكبير، وحسنه الهييسي (12/3).
(11) أخرج البخاري في الجائز باب الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج في أخافته (1444)، ومسلم في الفضائل باب من فضائل عبد الله بن عمرو بن حرم (2471).
(12) أخرج البخاري في الجائز باب هل يخرج الميت من القبر واللحد لعلة؟ (1351)، والحاكم (3/206).
غزوة أحد (١)

وقد أكرمه الله تعالى بكرامة عظيمة، قال جابر رضي الله عنه:
قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا جابر، مالي أراك منكسرًا؟
قال: قلت: يا رسول الله، استشهد أبي وتترك عيالًا وديثًا، قال: أَفَلا
أشرك بما لقي الله به أباك؟ فقال: بل إيا رسول الله. قال: ما كلم الله
أحدًا قط إلا من وراء حجاب، وكلّم أباك كفاحًا، فقال: يا عبدي، في
علي أعتلك. قال: يا رب، تهيني فأقتل فيك ثانية، فقال الرسول سباحته:
إنه سبق مني أنهم إليها لا يرجعون. قال: يا رب، فأبلغ من ورائي،
cالر الله تعالى: «ولا تحسن الذين قُتِلوا في سبيل الله أمّا أن يُرَبَّضُونَ» رواه الترمذي والباجي (١٣).

ومن أعظم الأيات في هذه الغزوة: مصير قتلى الصحابة رضي الله عنهم، فقد روى ابن عباس رضي الله عنهم قال:
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لما أصيب إخوانيكم بأحد جعل الله عزّ وجلّ
أرواحهم في جوف طير خضر ترد أنهار الجنة، تأكل من ثمارها، وتأوي
إلى فنادل معلقة من ذهب معلقة في ظل العرش، فلما وجدوا طيبًا
مأكلهم ومشربهم ومقبلهم قالوا: من يُبّلِغ إخوتنا عنا أنت أحياء في
الجنة نرزق؛ لئلا يزهدوا في الجهاد، ولا ينكلوا عند الحرب، فقال الله
عزّ وجلّ: أنا أبلغهم عنكم; فأنزل الله عزّ وجلّ: «ولا تحسن الذين»

(١٣) آخره الترمذي في تفسير القرآن باب ومن سورة آل عمران وحسنه (١٠٠٣)،
وابن ماجه في المقدمة باب فيما أنكرت الجهمية واللفظ له (١٩٠)، والحاكم
وصححبه ووافية الذهبي (٤٣٠)، والطبري في تفسيره (١٧٣/٤).
الخطبة الثانية

الحمد لله، حسناً كثيراً طيباً مباركًا فيه كما يحب ربي ورضي
أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك

(14) أخرجه أحمد (265/1)، والأخير في الشريعة (392)، وعبد بن حميد
في المختب من مسنده (167) وأبو داود في الجهاد ماب فضل الشهادة واللفظ
له (252)، والطبري في تفسيره (2/113)، والحاكم وصححه وقال: على
شرط مسلم، ووافقه الذهبي (88/2).
عله وعلى آل وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.
أما بعد: فاتقوا الله عباد الله، واستقيموا على أمره، ولا تغرنكم الدنيا وزخارفها، ولا يغرنكم بالله الغرور.
أيها المؤمنون: من رحمة الله تعالى بعباد المؤمنين أن يجعل المحن والابتلاءات فرصة لمراجعة أنفسهم، وتصحيح أخطائهم، وتجديد العهد مع ربهم; فما نزل بلاء إلا بذنب، ولا رفع إلا بتوة.
ولقد كانت معصية الرمتا سبباً للهاربة في أحد؛ إذ أمرهم النبي صلى الله عليه وسلم بعدم مبارحة أماكنهم مهما كان الأمر، تتركوا مواقعهم، ورأوا أن النصر حقق، واستغلوا بجمع الغنائم؛ ففجأهم عدوهم من حيث لم يحتسبوا، وانقلب ميزان المعركة، وتحول النصر إلى هزيمة؛ ليعلم المسلمون خطورة المعصية، وخطورة الأثرة بالرأي والفعل.
وعزآ الله تعالى هذه المصيبة التي أصابتهم إلى أنفسهم؛ لأنها كانت بسبب ما كسبوا من العصيان الذي هو أكبر سبب للهاربة في المعارك.
قال سبحانه: {أو لم آصابكم مصيبة قد أصابتم مثليها قلتم أنا هذا قل هوى من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير} [آل عمران: 165].
فهو سبحانه وتعالى كان قد أراد على نصرهم، بدلاً إزالة الملاءكة معهم للقتال، وبدلاً من نصرهم على المشركين في بدر {وقد نصركم الله بآثام أذالكم الله فأنتم فائقو الله تشكرتون} [آل عمران: 123]، ولكن طائفة منهم - هي طائفة الرماة - رضي الله عنهم، غيروا وبدلوا، وعصوا
المفيد في خطب الجمعة والعيد

أميرهم الذي ثبت في نفر قليل، وكان ينهاهم عن ترك مواقعهم، فزال بمعصية الرماة سبب من أسباب تنزل نصر الله تعالى، وهو الطاعة، وحللت محله المعصية، فتخلف النصر، وأحجام المليانة عن القتال مع المؤمنين بسبب هذه المعصية، فكانت النهيمة.

إذا كان النصر قد تخلف في غزوة أحد بسبب معصية واحدة؛ فهل يستطيع المسلمون النصر على أعدائهم، وتأييد الله تعالى لهم وفهم من العصاة أتولى بل ملايين، وفيهم من أنواع المعاصي والمويقات ما لا يعلم به إلا الله تعالى؟! معاص في البيوت والأسواق، معاص في الرجال والنساء، معاص في الشباب والشاب، معاص في الإعلام والتعليم والسياسة والاقتصاد، وفي كثير من شؤونهم.

إن الله تعالى ليس بينه وبين أحد من خلقه نسب، ولن يحابي أحداً من خلقه مهمة عظمت منزلته، فعدله - وهو العدل بارك - تعالى - يأبى ذلك، وقد جعل في الكون سنناً لا تحابي أحداً من الناس، وقوانين لا تجمل كائناً من كان، ومن هذه السنن: أن المستحق لنصر الله تعالى هو من يقيم دينه، وينصر شريعته، ويلتم طاعته؛ وياعد عن معصيته، فمن حق ذلك نصره الله تعالى سواء كان شريفاً أم وضيعاً، قريبًا كان أم بعيداً، وسواء كان جيشه كثيراً أم قليلاً.

وكم تحتاج الأمة المسلمة في هذا العصر الذي تكالبت فيه عليها اللواء والمجن، واجتمع الشر كله من كفار ومنافقين؛ لإنهاء حياتها بإقصاء دينها، وفرض الكفر والنفاق عليها، تحتاج إلى صدق التوجه
إلى الله تعالى، وترك المعاصي والمح Haramات، والاجتهاد في الطاعات، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعاء إلى الله تعالى؛ حتى لا تكون نحن سبأً في تخلف نصر الله تعالى عن الأمة المسلمة، فمن نصر الدين الله تعالى، استحق النصر العظيم، والفتح اللين، فآتيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم [محمد: 7].

وإن اختيار المسلمون طريقاً غير ذلك، فبقوا على عصيانهم، وتخلفوا عن طاعة ربهم؛ فإن العاقبة ستكون أليمة، والقصبة عظيمة، وإن تتوُّلوا يستبدين قومًا غيركم ثم لا يكونون أهالكم [محمد: 38].

فانصرفوا الله عباد الله بإقامة دينه، والتزام طاعته، والبعد عن معصيته، ينصروا على أعدائكم، أصلحوا بيوتكم وأولادكم، وانشروا الصلاح فيما بينكم فأنتم إن حقتم ذلك نصرتم على عدوكم، وإن حققه بعضكم، وتخلف الآخرون؛ فقد برئت ذمة الذين أصلحوا أنفسهم، ولن يعذبهم الله في الآخرة بذنوب غيرهم.

ألا وصلوا وسلموا على نبيكم محمد، كما أمركم بذلك ربك.
128- غزوة أحد (2)
الإبتلاعات والمؤسّن

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونوعذ الله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدى الله فلو مضل له، ومن يضل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

(يا أيها الذين آمنوا انظروا الله حق نظمه ولا تموتون إلا وأنتم مسلمون) [آل عمران: 2:1].

وخلقت من زوجها وبث منهما رجلا كثيرا ونساء وأثنت الله للذين تساءلوا به والأرحام إن الله كان على أليك رقيبا) [النساء: 1].

(يا أيها الذين آمنوا انظروا الله حق نظمه) [الاحرار: 70, 71].

أما بعد: فإن أحسن الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعه، وكل بدعة ضلاله، وكل ضلاله في النار.

أيها المسلمون: لا يجعل الله تعالى الدنيا دار نعم لأوليائه، ولا مستقرًا دائماً لعباده؛ ولكنه أرادها بحكمته دار ابتلاء واختبار وتحيص، يحبع عباده بالبلاء، ويختبرهم بالمحن، ويبتليهم بالضراء؛ ليظهر الصادق من الكاذب، ويلميز الخبيث من الطيب، ومن الناس من
يقول أميّا بالله تعالى إذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولهن جاء نصر من رثنك ليقولون إننا كننا معكم أو ليس الله بعلم بما في صدر العالمين (110).

وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين [العنكبوت: 10-11].

إنها ابتلاءات ومحن ذاق مصيبتها وألمها خير الناس، وأفضل الخلق من النبيين والمرسلين، وأتباعهم المؤمنين المعتذرين، ولم يسلم من البلاء والمحنة خيار هذه الأمة الخالقة: رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصحبه الكرام رضي الله عنهم وأرضاهم، وكان من عظيم ما مر بهم من بلاء، وما أصابهم من مصيبة: ما وقع عليهم في شهر شوال من السنة الثالثة من الهجرة (1)، حينما تسلت كفار مكة وحلفاؤهم عليهم، وغزواهم في ديارهم؛ فكانت وقعة أحد التي كانت مصيبتها شديدة، ومحتها أليمة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصحبه الكرام رضي الله عنهم وأرضاهم.

سمى الله تعالى ما أصابهم في هذه الغزوة من قتل وجراحات مصيبة، ونسب سبب هذه المصيبة إلى أنفسهم؛ لأن الرماة عصوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان ما كان من قدر الله تعالى الذي قتله على عباده المؤمنين، وكان في هذا البتلاء من الخير العظيم ما

(1) كانت غزوة أحد يوم السبت النصف من الشوال في السنة الثالثة من الهجرة، انظر: مغازي الوافيدي (119/1)، وطبقات ابن سعد (2/36)، وتاريخ خليفة (97)، وسيرة ابن إسحاق (324)، وتفسير الطبري (4/70)، والمجمع الكبير للطبراني (3/141)، برقم: (2929)، وقال الهميشي في مجمع الزوائد (1/124)، ورجاله ثقات.
كشف نفاق كثير من المنافيين، قال الله تعالى في شأن هذه المصيبة التي نزلت بالنبي صلى الله عليه وسلم وصحبه الكرام رضي الله عنهم:

"أو لَمَّا أصَابَكُمْ مَصِيَّبَةً فَأُصِيبْتُمْ مَثَلَّكُمْ قَلْتُمْ أَنَّ هَذَا قَلْبُهُ مَن عَدَّ أَنْفَسُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وما أصَابَكُمْ يومَ الْنَّقِيرِ الْجَمِيعُ فَبِذَنَّ اللَّهِ وَلَيْعَلَّمُ الَّذِينَ نَافَقُوا " [آل عمران: 165 - 167].

كانت بوادر المصيبة قبل وقوعها في رؤيا رآها النبي صلى الله عليه وسلم قبل الغزوة، روى ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «رأيت في سيفي ذي الفقار فلا، فأولته فلا يكون فيكم، أي انزلما - ورأيت أن يمردف كشافاً فأولته كيش الكتيبة، ورأيت أن يفي في درع حصينة فأولتها المدينة، ورأيت بقراً تذبح، فبرق والله خير، فبرق والله خير، فكان الذي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: رواه أحمد والترمذي (3)."}

(2) أخرجه أحمد (1/271)، واللفظ له، والترمذي في السير باب النفل (1521)، وحسنها، وابن ماجه في الجهاد باب السلاح (8/380)، والبيهقي (7/41)، والطبري في تفسيره (4/115)، والحاكم وصحبه وواصله الذهبي (2/118)، وحسنها ابن كثير في البداية والنهاية (4/111)، وصحبه الساعادي في الفتح الرباني (7/221)، والشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند (2485)، وكبشت الكتبة المذكورة في الحديث هو: عثمان بن أبي طلحة حامل لواء المشركين كما جاء مصريًا به في رواية الطبري.

وفي الطبقات (2/400)، أنه طلحة بن أبي طلحة، وقد بارزه علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقتله، فسار بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم.
وفي حديث أبي موسى رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «رأيت في رؤيا أبي هزت سيفاً فانقطع صدره، فإذا هو ما أصيب من المؤمنين يوم أحد، ثم هزته أخرى فعاد أحسن ما كان، فإذا هو ما جاء به الله من الفتح، واجتماع المؤمنين، ورأيت فيها بقراً والله خير، فإذا هم المؤمنون يوم أحد» رواه الشيخان.(3)

لقد كان من بدايات ابتلاعات غزوة أحد ومصيبتها ما فعله المناقوس من التخ집 والإراجف، وانخاذهم من الجيش، ورجوعهم عن الغزو في ساعة حربة عصيبة، يقودهم في إراجفهم وانخاذهم من الجيش عبد الله بن أبي سلول، الذي كان يقول وهو يخجل: «ما ندري علام نقتل أنتينا ههنا أيها الناس، فرجع بن تبعه من قومه من أهل الريب والنفاق، فأتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام يناصحهم وينشدهم الرجوع ويقول: يا قوم، أذكريتم الله ألا تخاذوا قومكم ونبيكم عند من حضر من عدواهم، فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم، ولكن لا نرى أنه يكون قتال، قال: فلما استعصوا عليه وأدوا إلا الانصاف قال: أبعدكم الله، أعداء الله، فسيغني الله عنكم نبيه».(4)

(3) آخرجه البخاري في المغازي باب من قتل من المسلمين يوم أحد (81/408)، ومسلم في الرؤيا باب رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم (272).
(4) سيرة ابن هشام (4/10)، والانكفاء للكلامي (2/167)، وتفسير الطبري (4/168)، وتاريخه (2/60)، والبداية والنهبة (4/130)، والسيرة الخليلية (2/494).

مضى الجيش بعد انسحاب المنافقين إلى أرض المعركة، ورسّ النبي ﷺ الصوارف، وقسم المهمات، ووضع الرماة على الجبل وقال لهم: «إن رأيتونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا من مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتونا هزمنا القوم وأوطنأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم» (10).

وبئات المعركة، والتحم الجيشان، وانتصر المسلمون، ولكن الرماة بارحوا أمكنهم، واشتعلوا بجمع الغنانم، فالتفت خيالة المشركين عليهم من ورائهم، قال الزبير بن العوام رضي الله عنه: «والله إني لأتظر يومذا إلى خدمة النساء مشمرات يسعين حين انهم القوم، وما أرى دون أخذن شيئاً، وإذا لنحسبهم قتلى ما يرجع إليهم منهم أحد. فإن الله إذا لکذاك(11).

(5) أخرجه البخاري في المغازي باب: «إذا هممت طائفتان منكم أن تفشيلاً» [آل عمران: 112] (51) وفي مسلم في فضائل الصحابة باب فضائل الأنصار (520).

(6) أخرجه من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه البخاري في المغازي باب غزوة أحد (43) (404)، وأبو داوود في الجهاد باب في الكمناء (2662).

واللفظ له، وأحمد (4/293 - 294).
قد علمناهم، وظهرنا عليهم؛ إذ خالفت الرماة عن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذون الأمتعة، فأتنا الخيل فحظمنا، وكر الناس منهزمين، فصرخ صارخ يرون أنه الشيطان: ألا إن محمدًا قد قتل، فأعظم الناس، وركب بعضهم بعضًا، فصاروا أثلاًًا: ثلثًا جريحاً، وثلثًا مقتولاً، وثلثًا منهزماًۚ

ونال النبي صلى الله عليه وسلم نصيبه من ابتلاءاتها ومصيبتها؛ فجرح صلى الله عليه وسلم وكرس رباعته، وهشمت البيضة على رأسه، فجعل يسلط الدم عن وجهه ويكول: «كيف ينفعل قومُ شجوا نبيهم، وكرسوا رباعيته، وهو يدعوهم إلى الله، فنزل الله تعالى: {ليست للك من الأمر شيء} [آل عمران: 128].» رواه الشيخان.

(7) أخرجه إسحاق بن راهويه من حديث وحب بن جرير بن حازم حدثنا أبي قال: سمعت محمد بن إسحاق يقول: حدثني بحبي بن عبيد عن أبيه عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه، فذكره كم في المطالب العالية لأنب حجر، وقال: هذا إسناد صحيح له شاهد في الصحيح من حديث البراء (457)، صاحبنا البوعشري في إخراج الخير المهرة (456)، والقصص بخدوم النساء: خلاخبلين التي في أرجهن، وهو جمع (خالبَة) ويجمع على (خِدام) كما في النهاية (141/15)، والقاسم (القاسم) مادة (خدام).

(8) أخرجه من حديث أنس رضي الله عنه البخاري معلقاً في المغازي باب: {ليس للك من الأمر شيء أو تربوه عليهم أو يعثدهم فإنهم قالون} [آل عمران: 128]. من حديث حميد الطويل وثابت (الفتح 1/432)، وحديث حميد وصله أحمد (99/3) والتمذي في تفسير القرآن باب من سورة آل عمران (2:300-301)، وأبنا ماجه في الفتح باب: الصبر على البلاء (1794)، وأما حديث ثابت فوصله مسلم في الجهاد والسيرة باب غزوة أحد (1791).
لقد أصاب المسلمين شدة شديدة، وكرب عظيم لما سمعوا بإشاعة
مقتل النبي صلى الله عليه وسلم، ورأى منهم من رأى وجهه يدمي،
واضطرت صفوفهم، وركبهم المشركون يقتلون ويجرون، وصار
المسلمون يضرب بعضهم ببعضًا خطاً من شدة ما نزل بهم من ألم
المصيبة، وعظيم البلاء.

روى البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: "لما كان
يوم أحد هُزر المسلمون فصرخ إبليس لعنة الله عليه: أي عباد الله،
أخراكم، فرجعت أولاهم فاجتلت وفأجراهم، فبصر حذيفة فإذا
هو بأبيه اليمان، فقال: أي عباد الله، أبي، أبي. قالت: فوالله ما
احتجزوا حتى قتلوه، فقال حذيفة: يغفر الله لكم".)

فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُدْبِّر فتصدق حذيفة بديته
على المسلمين، فزادة ذلك عند رسول الله صلى الله عليه وسلم خيراً.

وبلغ من شدة مصيبة هذه الغزوة، وما حق المسلمين فيها من ألم
أن علياً رضي الله عنه ظن أن النبي صلى الله عليه وسلم قد رفع إلى
السماء، قال رضي الله عنه: "لما انحلى الناس عن رسول الله صلى الله
عليه وسلم يوم أحد نظرت إلى القتلى فلم أر رسول الله صلى الله عليه
(9) أخرجه البخاري في المغازي باب: "إذ هزت طائفتان منكم أن تُطُولَان" [آل عمران: 
122 (4:60)، وابن أبي شيبة في مصنفه (136)، والبهائي (8/131)].
(10) هذه الزيادة لابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام (2/ 878 - 880)، وأخرجها
دون الجملة الأخيرة "فزادة ذلك عند رسول الله صلى الله عليه وسلم خيراً".

أحمد في المنسد (429/5) والحاكم (3/78).
 وسلم فيهم، فقلت: والله ما كان ليفر، وما أراه في القتلى، ولكن أرى الله غضب علينا بما صنعنا فرفع نبيه صلى الله عليه وسلم، فما في خير من أن أقاتل حتى أقتل، فكسرت جفن سيفي، ثم حملته على القوم فأقرجوا إلي فإذا أنا برسول الله صلى الله عليه وسلم» رواه أبو يعلى بإسناد حسن(11).

ومع إصابة النبي صلى الله عليه وسلم بالجراحات، ومقتل جميع من أصحابه رضي الله عنهم فإنه أصيب أيضاً بمقتل عمه حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، روى كعب بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم أحد: "من رأى مقتل حمزة؟ فقال رجل أعزز: أنا رأيت مقتله، فقال: فانطلق وأرناه، فخرج حتى وقف على حمزة، فرآه قد شق بطنه، وقد مُشَّل به، فقال: يا رسول الله، مُشَّل به والله، فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينظر إليه، ووقف بين ظهراني القتلى فقال: أنا شهيد على هؤلاء، كفنتهم في دمائهم، فإنه ليس جرح يجري في الله إلا جاء يوم القيامة يدمي، لونه لون الدم، وريحه ريح الامسك، قدما أكثرهم قرأنا فاجعلوه في اللهد"(11).

(11) أخرجه أبو يعلى (542)، وحسام البصيري في إجتاح الخمرة المهرة (457).
(12) أخرجه ابن أبي شيبة في مسنده (507)، وفي مصنفه (712/37)، برقم: (7477)، وأحمد (5/431)، والبيهقي (8/411)، وأبو سعد في الطبقات الكبرى (13/131)، وقال البصيري في إجتاح الخمرة المهرة (457): رواته ثقات.
الله يرض عن شهداء أحد، وعن الصحابة أجمعين، وعن شهداء المسلمين في كل زمان ومكان، واحشروا في زمرتهم يا رب العالمين.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: «من المؤمنين رجال صدقوُمًا قَاءْرَاءَادُوا الله عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَذَلَّتْ بَذْيَلًا»

[الاحزاب: 23].

بارك الله لي ولكم في القرآن الكريم، ،،

الخطبة الثانية

الحمد لله حمدًا طيبًا كثيرًا مباركة فيه كما يحب ربنا ورضي، أحمده وأشكره وأتوب إليه واستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبد الله ورسول الله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله تعالى وأطيعوه، وتباوا عباد الله على دينكم، واشكوروا في النعماء، واصبروا في البلاء.

أيها الإخوة المؤمنون: لقد كان من ابتلاعات غزوة أحد كثرة القتلى وقيلة الشباب، قال أنس رضي الله عنه: «أتي رسول الله صلى الله عليه وسلم على حمزة يوم أحد فوقع عليه فرآه قد سُلْطَن به، فقال: لولا أن تجد صفية في نفسها لتكره حتى تأكله العافية حتى يحضر من بطولتها، قال: ثم دعا بنمرة فكنت فيها فكانت إذا مدت على رأسه بدئت رجلاه وإذا مدت على رجله بدأ رأسه، قال: فكثر القتلى، وقلت الشباب،
قول: فكِتَفُن الرجل والرجلان والثلاثة في الثوب الواحد، ثم يفندون في قبر واحد (134).

وَعَنِ ابْنِ رَحْمَانِ بْنِ عُفُو رضي الله عنه: "أنَّ أَمي بَطَعَم، وَكَانَ صائماً، فقال: قُتل مصعب بن عمير، وهو خير مني، كفِن في بردة، إن غُطي رأسه بِدَت رجلاه، وإن غُطي رجلاه بدا رأسه، وأراه قال: وَقُتل حمزة وهو خير مني، ثم بُسط لنا من الدنيا ما بسط، أو قال: أعطينا من الدنيا ما أعطيناه، وقد خشينا أن تكون حسناتنا عجلت لنا، ثم جعل بيكي حتى ترك الطعام" رواه البخاري (119).

وَعَنِ خُبَابِ بْنِ الأَرْبَتِ رضي الله عنه قال: "هاجرنا مع النبي صلى الله عليه وسلم نريد وجه الله، فوقع أجرنا على الله، فمنا من مضى لم يأخذ من أجره شيئاً، منهم: مصعب بن عمير قُتل يوم أحد، وترك مثرة، فكان إذا غطينا رأسه بِدَت رجلاه، وإذا غطينا رجله بدا رأسه، فأمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نغطي رأسه، وجعل على (134) أَخْرَجَهُ أَحْمَدَ (18/128)، وأبو داود في الجنائز باب في الشهيد يغمس
الله عليه وسلم نريد وجه الله، فوقع أجرنا على الله، ومنا من مضى لم يأخذ من أجره شيئاً، منهم: مصعب بن عمير قُتل يوم أحد، وترك مثرة، فكان إذا غطينا رأسه بِدَت رجلاه، وإذا غطينا رجله بدا رأسه، فأمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نغطي رأسه، وجعل على (134) أَخْرَجَهُ البخاري في المغازي باب غزوة أحد (45/4)، وأبو المبارك في الجهاد (83/1) برقمه: (96).
راحله شيئًا من الإذخر، ومنا من أينعت له ثمرته فهو يهدبها» رواه الشيخان (١٥).

وبعد انتهاء المعركة، ورغم ما أصابهم فيها من ألم المصيبة؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه: «استواوا حتى أثني على ربي، فصاروا خلفه صرفًا، ووقف طويلاً يثني على الله تعالى بما هو أهل له» (١٦).

إن ألم المصيبة، والجراحات التي نالتها، وشدة الفاجعة بعده حمزة وابن أ صحابة رضي الله عنهم ما أنساه نعم الله تعالى عليه، وعلى البقية الباقية من المؤمنين، وهي نعم كثيرة ليست هذه المصيبة أو غيرها من المصائب توازيها أو تدانيها. ثم إن ما أصابهم كان ببعضية منهم؛ كما قال سبحانه: «قل هُوَ الَّذِي أُنْفِكْمُ» [آل عمران: ١٦٥].

وهكذا يجب أن يكون حال المؤمن إذا أحاطته به الابتلاءات، وعظمت في حق المصائب والنكبات أن ينظر إلى نعم الله تعالى عليه، ويقارنها بما أصابه؛ حتى يشكر الله تعالى على نعمه، ويصير على مصابه، ثم ليبحث عن أسباب هذه المصائب والابتلاءات فإنه سيجد

(15) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار باب هجارة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى المدينة (٢٨٧)، ومسلم في الجنازة باب كفن البيت (٩٤٠).
(16) أخرجه أحمد (٣/٤٢٤)، والبخاري في الأدب المفرد (١٩٩)، والناساسي في عمل اليوم والليلة (١٠٠)، والطبراني في الكبير (٤٧/٥، برقم: ٤٥٤٩)، وأبو نعيم في الحلية (١٢٧/١)، وصححه الآلاباني في صحيح الأدب المفرد (٥٣٨).
أنها من عند نفسه بسبب ذنوب أصابها، أو حقوق ضيعها؛ فتكون تلك المصاب والابتلاءات تحيصاً لذنوبه، وتكفيراً لسيئاته؛ كما قال الله تعالى في سياق الحديث عن ابتلاء المؤمنين ومصيبتهم في غزوة أحد:

«وَلِيُمَحَّصِّ الَّذِينَ آمَنُوا وَيُمَحَّصِّ الكَافِرِينَ» [آل عمران: 141].

ألا فاتقوا الله ربك، واسكروه على نعمه، واصبروا على ابتلاواته، واعبدوه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون والمنافقون.

وصلوا وسلموا على نبيكم، كما أمركم بذلك ربك، ；
139- سرية بنر معونة

١٤٢٤/٢/٦

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سينات أعمالنا، من يهدوا الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

{يا أيها الذين آمنوا ألقوا الله حق نقاته ولا تموتنه إلا وأنتم مسلمون} (آل عمران: ۱۰۲)، {يا أيها الناس ألقوا ركوبكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجا وثبت منهما رجالا كثيرا ونساء وأتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إني الله كان عليك رقيبا} ( النساء: ۱)، {يا أيها الذين آمنوا ألقوا الله وقولوا فولا سديدا} ( يصلى لكم أعملكم ويغفر لكم ذنوبكم.

ومن يطيع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما} (الأحزاب: ۷۰،۱۷).

أما بعد: فإن أحسن الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعه، وكل بدعه ضلال، وكل ضلاله في النار.

أيها الناس: في زمن الهوان والانكسار، وعندما تحيط المصائب والنكبات بالمسلمين، ويثبت عليهم أعداؤهم من كفار ومنافقين؛ فإن الواجب على المسلم في مثل تلك الأحوال أن يعتني بصلاح قلبه، وربطة جاشه، وثباته على دينه، وقويه في الحق؛ لئلا يرغي مع
الرافعين، ويملأ مع الهالكين.
وعما يعين على ثبات القلب، وسلامته من الفتنة، وصبره على البلايا: مطالعة أخبار الثابتين على الحق، المستسلمين لامر الله تعالى وحكمه، الرأسيين بقضائه وقدره، المرنين بعلمه وحكمته، الموقنين بوعده ونصره؛ فإن سير هؤلاء الرجال تدفع المسلم إلى التأسي بهم في ثباتهم ووقتتهم.
وكم في تاريخ الأمة المسلمة من رجال واجهوا المحن والخلايا بالثبات والصبر، وألقى بينهم ووعد الله تعالى ونصره، حتى وافتهم المنايا وهم لم يبدوا دينهم، أو ينتكسوا على أعقابهم. حالهم كحال الصالحين من أتباع النبيين والرسليين الذين حكي القرآن قصصهم، وأمر الله تعالى بالتأسي بهم في ثباتهم وصبرهم.
وإن كان المؤمنون يحزنون لما أصاب الأمة المسلمة من الضعف والمهانة، ومن تسلط الكافرين عليها، وشماتة المنافقين بها؛ فإن هذا الحزن قد أصاب خيار الأمة، ولكنه ما فات في عضدهم، ولا هو عزتهم، ولا أضعفهم عن القيام بحق الله تعالى عليهم من الإيمان والدعوة فقد علم إذ لمحزنن الذي يقولون فإنهم لا يكتونون ولكن أئمة الله يجحدون 131 ولقد كتب رسل من قبلك فصبروا على ما كُتِبُوا وأوذوا حتى آتاهم نصرنا ولا مِبَّانِكِ لَكُمْ مَا عَلِيَّ ١٣٢ [الأنعام: 33-42]

ولما توقف الصحابة رضي الله عنهم عن مقاتلة المشركين في أحد
بعدما سمعوا الصارخ يصيح بأن محمدًا قد قتل عتابهم الله تعالى، وعذبهم على فرارهم وتركهم القتال، فقال سبحانه يخطبهم: {ألا إن مات أو قتل أنقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فإن يصر الله شيئًا وسيجزي الله الشاكرين } [آل عمران: 144]. ثم أخبر سبحانه عن أحوال الأنبياء السابقين، ومدح ثباتهم على الحق رغم ما أصابهم من عظيم المحن والبلاء، والقتل والتشريد، فقال سبحانه: {وأتأتمن من بي قاتل معه ربيّون كثيرًا فما هكذا لمأصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استمكانوا والله يحب العبادرين} [آل عمران: 146].

قال قتادة: {فما وهكذا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا} أي: بقتل نبيهم، وما استكانوا} أي: فما ارتدوا عن نصرتهم، ولا عن دينهم أن قاتلا على ما قاتل عليه نبي الله تعالى حتى خلقوا بالله وما ذلوا لعدواهم} (1) وما كان قولهم في حال شدتهم: {إلا أن قالوا زمنًا اغطر لنا ذو نبأ وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين} [آل عمران: 147]. فأقامت الله ثواب الدنيا وحصن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين} [آل عمران: 148]. وثواب الدنيا الذي آتاه الله تعالى إياها هو النصر والظهر وحسن العاقبة، فجمع لهم بين المثوتين، وثالوا الحسنين، نسأل الله تعالى أن يجعلنا كذلك، وأن يلحقنا بهم، إنه سميع مجيب. أيها الإخوة: وكما ثبت قوم صالحين من الأمم الماضية على دينهم فإن رجال صالحين من هذه الأمة ثبتوا كذلك؛ ففي شهر صفر من

(1) انظر: تفسير ابن كثير (615)، عند تفسير الآية (146) من سورة آل عمران.
السنة الرابعة للهجرة، وقعت حادثة جمع من خيار الصحابة وقراءتهم رضي الله عنهم وأرضاهم، لقرأ فيها ربهم، وهم ثابتون على دينهم، موقفون بوعدهم لهم. إنهم جمع من الصحابة بلغوا سبعين صحابيًا، كانوا من زهاد الصحابة، ومن خيار المسلمين وفضلائهم، كان الصحابة يسمونهم القراءة لكثرتهم قراءتهم للقرآن، وتهجدهم به في الليل. كانوا يحثون بالنهاض، ويصلون بالليل، ويضعون الماء في المسجد للمسلمين، ويطعمون قراء الصحابة من طيب كسبهم، جرت عليهم محبة عظيمة، وإبلاه كبير، وغدر بهم المشركون، فثبتوا على دينهم حتى لقوا الله تعالى غير مبدلين ولا مغيرين.

وملخص خبرهم: أن أبا براء عامر بن مالك المدعو "ملاعيب الأسنة" قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، فدعاه إلى الإسلام، فأجاب أن يسلم ولم يعهد، وقال: يا محمد، لو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل تجبر رجوت أن يستجيبوا لك، ويتبعوا أمرك، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إني أخاف عليهم أهل غد" فقال: أنا جار لهم أن يعرض لهم أحد، فبعث معه رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعين من الأنصار شيبة يسمون القراء، وأمر عليهم المندرين بن عمرو الساعدي، فلمزا نزلوا بئر معونة عسكروا بها، وسراحوا ظهرهم، وععوا حرام بن ملحان رضي الله عنه بكتاب من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى

(2) زاد المعاد (3/2) 146/2.
 العدو الله عمار بن الطفيل، فلم ينظر فيه، وأمر رجلاً فطعن حراماً بالحرية من خلفه، فلما أنفذا فيها، ورأى الدم، قال حرام: «فزت ورب الكعبة».

ثم استنفر العدو الله لفوره بني عمار إلى قتال الباقين فلم يجيبه لأجل جوار أبي براء، فاستنفر بني سليم، فأجابته عصبة ورجل وذكوان، فجاووا حتى أحاطوا بصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقاتلوا حتى قتلوه عن آخرهم إلا كعب بن زيد بن النجار فإنه أرثت بين القتلى -أي حمل من أرض المعركة جريحاً- (2)، فعاش حتى قتله يوم الخندق.

وكان عمرو بن أمية الضرمي والمنذر بن عقبة بن عامر في سرح المسلمين، فرآيا الطير تجوم على موضع الوقعة، فنزل المنذر فقاتل المشركين حتى قتل مع أصحابه، وأسر عمرو بن أمية الضرمي، فلما أخبر أنه من مضر جز أبن الطفيل ناصيته، وأعتقه عن رقبة كانت على أمه (4).


وقد وقعت كرامته لأحد القتلى رأها عدو الله عامر بن الطفيل فقد جاء في صحيح البخاري ان ابن الطفيل لما أسر عمرو بن أمية الصمرى أشار إلى أحد القتلى فقال: "من هذا؟ فقال له عمرو بن أمية: هذا عامر بن فُهيرة، فقال: لقد رأيته بعدما قتل رفع إلى السماء حتى ينظر إلى السماء بينه وبين الأرض ثم وضع"  

(6) وجاء في رواية أخرى أن قاتله أسلم وقال: "دعاني إلى ذلك ما رأيت من عامر بن فُهيرة"  

(7) وقد تأثر النبي صلى الله عليه وسلم لمقتله حتى قال أنس رضي الله عنه: "فما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وجد على شيء ما وجد عليهم"  

(8) فقد كان عدهم يؤدي عبد قتلي أحد، إضافة إلى أنهم من القراء العباد، وقد قتلوا غدراً وغلبة؛ ولذلك دعا النبي صلى الله عليه وسلم على قتلتهم شهراً كاملاً؛ كما جاء في الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه وفيه: "أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بلغه خبر مقتل أصحابه وغدر بني سليم بهم قنت شهراً بدعو في الصحيح على أحياء من أحياء العرب، على رَغْلٍ وذكوانَ وعَضُيجه وبني لَحْيَان"  

وَعِنْ أَبِن عَبَّاس رضي الله عنهما أنه قال: "قُنت رسول الله صلى الله عليه وسلم شهراً متابعاً في الظهر والعصر والمغرب والعشاء."

(5) هذه الرواية للبخاري برقم (494)  
(6) فتح البخاري (7/451)  
(7) هذه الرواية للبخاري في الدعوات باب الدعاء على المشركين (6394)  
(8) هو حديث أنس في قصتهم المخرج في هامش (4).
والصحيح، في دير كل صلاة، إذا قال: سمع الله من حمده من الركعة الأخيرة يدعو عليهم، علي حي من بني سليم، على رجل وذكوان وعصي، ويؤمن من خلقه، رواه الإمام أحمد وأبو داود والحاكم، وصححه ووافقه الذهبي.

وقد أخذ العلماء من ذلك مشروعية القنوت في الصلاوات الخمس في النازلة العظيمة تنزل بالإسلامين، كما أخذوا مشروعية الدعاء على المشركين المحاربين. وهذا فيه رضى على من زعم أن الدعاء للمشركين بالهداية أولى من الدعاء عليهم بالهلاك والعذاب، كما يرد عليه بعض من علماء من الصحفيين وأشباههم، ينقدون من يدعون عليهم.

وما كان النبي صلى الله عليه وسلم ليترك الأولى إلى غيره، والهدي النبوي في ذلك هو أكمل الهدي، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو لهم ويدعو عليهم، وموجبات الدعاء عليهم التي وجدت على عهد النبي صلى الله عليه وسلم موجودة في عصرنا هذا، وهي عداواتهم لأهل الإسلام. وأحكام ديننا ومعاملتنا مع غيرنا قد جاء تفصيلها في الكتب والسنة، فلا نحتاج في معرفتها إلى آراء جهالة وأهواء ذوي هوى لا يعرفون شريعة الله تعالى، وقد صح عن النبي

(9) أخرجه أحمد (1/103 - 3/100) واللفظ له، وأبو داود في الصلاة باب القنوت في الصلاوات (1443) وصححه ابن حزم (8/1) والحاكم وقال: على شرط البخاري، ووافقه الذهبي (265/1) وصححه النووي في المجموع (482).
صلى الله عليه وسلم أنه دعا على أهل الأحزاب بالنار وبالزلزلة والهمزية، فقال عليه الصلاة والسلام: "ملا ملا بيونهم وقصورهم ناراً"(11)، وقال: "الله منهم وزلزلهم"(11)، ودعا على أهل مضر بالجوع فقال عليه الصلاة والسلام: "الله منهم اشدد وطالت على مضر الله سنين كسمي يوسف'(11)، ودعا على أحياء من العرب، ودعا على أشخاص من صناديق المشركين سماهم بأسماهم وعنههم في دعائه(11); فكل ذلك مشروع ومن هله وسته المحفوظة، وقد بوب البخاري رحمه الله تعالى على هذه الأحاديث بقوله: "باب الدعاء على المشركين بالهمزية والزلزلة"(11).

(10) أخرجه من حديث علي رضي الله عنه البخاري في الجهاد والسير باب الدعاء على المشركين بالهمزية والزلزلة (931)، وسلم في المساجد باب الدليل من قال: الصلاة الوسطى هي صلاة العصر (272).

(11) أخرجه من حديث عبد الله بن أبي أوفي البخاري في الجهاد والسير باب الدعاء على المشركين بالهمزية والزلزلة (933)، وسلم في المساجد باب استحباب الفنون في جميع الصلوات (275).

(12) أخرج معاشري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في الجهاد والسير باب الدعاء على المشركين بالهمزية والزلزلة (932)، وسلم في المساجد باب استحباب الفنون في جميع الصلوات (275).

(13) وذلك مثل دعائه على أبو جهل، وعبيدة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأبي بن خلف، وعقبة بن أبي معيط، وأمية بن خلف... كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه عند البخاري في الجهاد والسير باب الدعاء على المشركين بالهمزية والزلزلة (934)، وسلم في الجهاد باب ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم من أذى المشركين والناقضين (1794).

(14) وذلك في كتاب الجهاد والسير باب رقم (98)، وفي كتاب الدعوات أيضاً باب رقم: (58).
ولو ظن أنه إن دعا عليهم يدعوون على المسلمين فإنه لا يترك الدعاء عليهم لأجل ذلك؛ لما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إذا غراب عليهم ولا يجابون علينا" وفي لفظ: "يُستجاب لنا فيما، ولا يُستجاب لهم فيما"(15)، وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: "فقيه مسيرة الدعاء على المشركين ولو خشي الداعي أنهم يدعون عليه"(16).

وكما كان من هدي النبي صلى الله عليه وسلم وسنته الدعاء على المحاربين من المشركين فإن من سنته أيضًا الدعاء للمسالمين منهم بالهدية إذا كان يرجى إسلامهم، ويعلم في هدايتهم؛ كما جاء عنه صلى الله عليه وسلم أنه دعا لدوس (17)، ودعا لأم أبي هريرة رضي الله عنها(18)، وقد بوب البخاري على ذلك بقوله: "باب الدعاء للمشركين بالهدى ليتَألَفهم"(19).

(15) أخرج مسلم في السلام باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف برد عليهم (2/166)، وأحمد (3/348/6، واللفظ الآخر لإسحاق بن راهويل في مسنده (1/185).
(16) فتح الباري (6/125) (125).
(17) جاء ذلك في حديث أبي هريرة عند البخاري في الدعوات باب الدعاء للمشركين (2/247)، ومسلم في فضائل الصحابة باب من فضائل غفار وأسلم (224).
(18) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند مسلم في فضائل الصحابة باب فضائل أبي هريرة الدوسي (2/1491)، وأحمد (2/119 - 227).
(19) وذلك في كتاب الجهاد والسير رقم الباب (100)، وفي الدعوات الباب (59).
قال الحافظ ابن حجر رحمة الله تعالى: "وقوله: "ليتألفهم" من تفقه المصنف إشارة منه إلى الفرق بين المقامين، وأنه صلِى الله عليه وسلم كان تارة يدعو عليهم، وتارة يدعو لهم؛ فالحالة الأولى حيث تشتد شوكتهم، ويكثير أذاتهم، والحالة الثانية حيث يؤمن غلائتهم، ويرجى تألفهم كما في قصة دوس" (2).

(20) فتح الباري (126/7). وها هنا مسائل عدة يحسن الحديث عنها:


وأدراد من قال بالنسخ:

1 - حديث أبي هريرة رضي الله عنه: "إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد أن يدعو على أحد أو يدعو لأحد قبل ركوع، فربما قال إذا قال سمع الله من حمد الهمة وليه، اللههم أنت-rootah البيل ننت-rootah البيل، وسلمة ابن هشام، وعياش بن أبي ربيعة، اللههم إنشاد وطائك على مضر، واجعلها سنين كسم يوعصف، يجوز بذلك، وكان يقول في بعض صلاته في صلاة الفجر: اللههم أنت-rootah البيل ننت-rootah البيل لاحياء من العرب حتى أنزل الله "ليس لك من الأمور شيء..." [آل عمران: 128]، نخرج البخاري في التفسير باب "ليس لك من الأمور شيء..." (483)، ومسلم في المساجد ومواضع..."
الصلاة باب استحباب القنوت في جميع الصلوات إذا نزلت بالمسلمين نازلة
(175) وياً، وجاء في رواية مسلم: "ثم بلغنا أنه ترك ذلك لما أتزلَّ: ليسَ للك
من الأمر شيء أو يتوب عليها أو يعذبونها فإنهم ظالمون.» وفي لفظ آخر
مسلم: قال أبو هريرة رضي الله عنه: "ثم رأيت رسول الله صلى الله عليه
وسلم ترك الدعاء بعد، فقلت: أرى رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ترك
الدعاء لهم، قال: فقيل: ما تراهم قد قدموا؟.

2 - حديث أنب رضي الله عنه قال: قلت رسول الله صلى الله عليه وسلم شهراً
بعد الركوع يدعو على أحياء من العرب ثم تركه أخرجه البخاري في المغازي
باب غزوة الربيع (96:4)، وسلم في المساجد ومواضع الصلاة باب استحباب
القنوت في جميع الصلاة (177) واللفظ لمسلم.
فهذان الحديثان وما في معناهما تنسخ ما كان جائزًا في أول الأمر من الدعاء
على المشركين ولعنهم.
والقول بالنسخ مردود بما يأتي:

1 - حديث أنب رضي الله عنه: "أثن النبي صلى الله عليه وسلم كسرت ربايعته يوم
أحد، وشج في جبهته حتى سال الدم على وجهه، فقالوا: كيف يفعل قوم
فعلوا هذا يهبنهم وهو يدعوهم إلى ربه؟! فنزلت هذه الآية: ليسَ لك من
الأمر شيء أو يتوب عليها أو يعذبونها فإنهم ظالمون) [آل عمران: 128:4]
أخرجه البخاري تحقيقاً في المغازي باب) ليسَ لك من الأمر شيء أو يتوب
ووصله مسلم في الجهاد باب غزوة أحد (179:4)، وأحمد (69:3).
فإذا كانت الآية قد نزلت في شأن غزوة أحد خاصة، وكان سابقا في الحديث
عن تلك الغزوة وما جرى للنبي صلى الله عليه وسلم وصلاحته رضي الله
عنهم من عظيم الابتلاء، فإن دعاءه على المشركين وقع بعدها، فغزوة أحد
كانت في السنة الثالثة، وحادثة بئر معونة التي كانت سببا في دعائه على بعض
قبائل العرب كانت في السنة الرابعة مما يدل على أنه لنسخ، وانظر: فنسح
الباري (٨/٥٧٥).

وجمهور الفسرين والعلماء على القول بعدم النسخ هنا، وأن الدعاء على المشركين مشروع.

قال ابن عطية رحمه الله تعالى في المحرر الوجيز (٣/٢٧٧): "وأما ذكر في هذه الآية من أن هذه الآية ناسخة لدعاء النبي صلى الله عليه وسلم على المشركين كلام ضعيف كله، وليس هذا من مواضع الناسخ والمنسوخ". وقال القرطبي رحمه الله تعالى في تفسيره (١٣٩/٤): "زعم بعض الكوفيين أن هذه الآية ناسخة للقول الذي كان يفعله النبي صلى الله عليه وسلم بعد الركوع. وساق القرطبي حداث أبي هريرة في دعاءه ثم نزول هذه الآية ثم قال: "ليس هذا موضوع نسخ، وإنمانه الله تعالى نبئه على أن الأمر ليس إليه، وأنه لا يعلم من الغيب شيئاً إلا ما أعلمهم، وأن الأمر كله الله، يتوب على من يشاء، ويعجل العقوبة على من يشاء، والنتيجة: ليس لك من الأمر شيء والله ما في السماوات وما في الأرض دونك ودونهم يغفر لم يشأ ويتوب على من يشاء، فلا نسخ والله أعلم"، وقد ذكر الطبري معنى الآية بما لا نسخ فيها (٤/٢٨٦).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في الفتاوى (١٥٦/٢١): "وليس لأحد أن يحبس على النسخ بما في الصحيحين عن ابن عمر أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر يقول: "لله من فنادقنا وفلان..."، فبعدما يقول: "سِـمِعَ اللهُ لَمَّـن حمده: رَبِّـنَا وَلَكَ الحمد، فانزل الله: (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءًا وَيَتَبَيْنُ عَلَيْهِمْ فَإِنَّهُمْ طَالِبُونَ) (آل عمران: ١٢٨)". فإن هذا إما يدل على ترك اللعنة لِله، لكونه ليس له من الأمر شيء جواز توبتهم، وهذا إذا كان نهياً فلا فرق فيه بين الصلاة وخارج الصلاة، والكلام إذا هو في الدعاء الجائز خارج الصلاة كالدعاء لمبعين مستضعفين، والدعاء على مبعين من الكفار بالنصرة عليهم، لا باللعنة ونحو ذلك."
قال ابن عاشور رحمه الله تعالى في التحرير والتنووير (4/ 18): "وزيد
الذي أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا على أربعة من المشكرين، وسمى
أنساهم فنزلت هذه الآية لتهنئة أن ذلك، ثم أسلموا، وقيل: إنه هم بالدعاء،
or استذائنا الله أن يدعو عليهم بالاستثناء فنهي، ويرد هذه الوجه ما في صحيح
مسلم (176) عن ابن مسعود قال: "كأن أنظر إلى النبي صلى الله عليه
 وسلم يحكى نبأ من الأنبياء ضربه قوم وهو يسمع الدمع عن وجهه..." 1 هـ.
وقال ابن عاشور أيضاً (4/ 18): "وأغرب جماعة فقالوا: نزل قوله تعالى:
"ليس لك من الأمر شيء" [آل عمران: 128] ناسحاً لما كان يدعو به النبي
 صلى الله عليه وسلم في قنته على ذكوان وعصبة وحيان..." ثم قال ابن
 عاشور بعد أن نقل كلام ابن عطية: "وكيف يصح أن تكون نزلت لنسخ ذلك
 وهي متوسطة بين علل النصر الواقع يوم بدر، وتفسير ما وقع في صحيح
 البخاري من حديث أبي هريرة: "أن النبي صلى الله عليه وسلم ترك الدعاء
 على المشكرين بعد نزول هذه الآية" أخرىاً بكلام الأدب؛ لأن الله لما أعلمه في
 هذا بما يدل على أن الله أعلم بما فيه نفع الإسلام ونقمة الكفر ترك الدعاء
 عليهم؛ إذ لعلمهم سلموا!" 1 هـ.

2- م رواه ابن خزيمة في صحيحه (2/ 155) برقم: (110) من حديث عروة
 ابن الزبير أن عبد الرحمن بن عبد القاري وكان في عهد عمر بن الخطاب مع
 عبد الله بن الأرقم على بيت المال: أن عمر خرج ليلة في رمضان... ونهى:
 فكان الناس يقومون أوله، وكانوا يلعبون الكفية في النصف: اللهم قاتل
 الكفرة الذين يصدون عن سبيلك ويفكرون رسلك، ولا يؤمنون بوعدك،
 ولا خالفين بين كليتهم، وألقى في قلوبهم الرعب، وألقى عليهم رجاء وعداءك،
 وإله الحق..." ورواه البيهقي (2/ 493) دون ذكر اللعن والدعاء على الكافرين.

وصبح إسناى ابن خزيمة الآلباني.

وعلى هذا كان عمل أهل المدينة كما قال الأعرج عبد الرحمن بن هرمز رحمه
 الله تعالى: "ما أدرك الناس إلا وهم يلعبون الكفية في رمضان" أخرجه= 
قال ابن عبد البر في الاستذكار (5/162): «والأمر، وهو عبد الرحمن ابن حرمز، أدرك جماعة من الصحابة وكبار التابعين وهذا هو العمل بالمدينة». 

المسألة الثالثة: أن الدعاء على الكفراء وعلههم مباح وليس بواجب إن شاء فعله وإن شاء تركه، والهدى النبي في ذلك الدعاء للمسالمين منهم والدعاء على المحاربين منهم، كما نقل ذلك ابن عبد البر رحمه الله تعالى في الاستذكار بعد أن سأل قول الأعرج (5/165) فقال: "ففي إباحة لعن الكفرة، كانت لهم دمه أم لم تكن، وليس ذلك بواجب; ولكنه مباح لن يفعله غضبًا لله في جحدهم الحق، وعذابهم للذين أهلته. وما قوله: "في رمضان، فمعناه: أنهم كانوا يقتلون في الزور في صلاة رمضان، ويلعنون الكفرة في القتال، واتضاء برسول الله صلى الله عليه وسلم في دعائه، في القتال على رعل وذكوان وني جهان الذين قتلوا أصحاب بثر مغبونه".

وقال ابن عبد البر أيضاً (5/172): "ومن فعل الصحابة وجلة التابعين بالمدينة في لعن الكفرة في القتال أحد العلماء لعن الكفرة في الخطبة الثانية من الخطبة، والدعاء عليها".

وقال الشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى (21/154): "وأما الدعاء على أهل الكتاب - كما يتخلقه من يتخذه سنة رائحة في دعاء القتال في النصف الأخير من شهر رمضان أو غيره - فهذا إنه لما هو منقول عن عمر بن الخطاب أنه كان يدعو بما كان يجاهد أهل الكتاب بالشام، وكان يدعو في المكتوبة، وهو موافق لنسبه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقنت أحياناً يدعو للمؤمنين ويلعن الكافرين، وذكر قبائل المشركين الذين يحاربون كمشر ورعل وذكوان وعصية، وعمر لما قاتل أهل الكتاب قتلت عليهم في المكتوبة؛ فالسالة أن يعقل عند النازلة، ويدعو فيها بما يناسب أولئك القوم المحاربين".

المسألة الثالثة: حكم الدعاء على معين ولعنة:
اظهر الأحاديث الجوار فإن النبي صلى الله عليه وسلم قد دعا على قبائل سماها، وعلى أشخاص ذكرهم ب_asmاتهم. ومن قال بأن قوله تعالى: 
"ليست للك من الأمر شيء" [آل عمران: 128]، ناسخ لدعاته عليه الصلاة والسلام عليهم بأسمائهم. من ذلك، وبعضهم جعل دعاء عليه الصلاة والسلام خاصاً به؛ لأن الله تعالى قد علمه أنه لا يؤمنون، وبعضهم عكس الأمر فجعل منع لعنهم خاصاً به على الصلاة والسلام؛ لأنه مجاب الدعوة.

قال ابن العربي رحمه الله تعالى في أحكام القرآن (4/212): "دعا نوح على الكافرين أجمعين، ودعا النبي صلى الله عليه وسلم على من تَحَزَّب على المؤمنين، وألب عليهم، وكان هذا أصلاً في الدعاء على الكافرين في الجملة، فأما كافر معين لم تعلم حاسته فلا يدعُي عليه؛ لأن ماله عندنا مجهول، وربما كان عند الله معلوم الخاتمة للسعادة، وإنما خصّ النبي صلى الله عليه وسلم الدعاء على عتيبة وشيبة وأصحابه؛ لعلمه مما لهم، وما كشف له من الغطاء عن حالهم. والله أعلم".

وقال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى (8/235): "والدعاء على جنس الظالمين الكافرين مشروع مأمور به، وشرع القوت والدعاء للمؤمنين والدعاء على الكافرين. أما الدعاء على معيينين كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يلعن فلاناً وفلانًا فهذا قد روي أنه منسوخ بقوله: "ليست للك من الأمر شيء" [آل عمران: 128]. وذلك لأن المعين لا يعلم أن رضي الله عنه أن يهلك؛ بل قد يكون من يتوب الله عليه، بخلاف الجنس فإنه إذا دعي عليهم بما فيهم من الدين وذل عدوه ورفعهم كان هذا دعاء بما يحب الله ويرضا؛ فإن الله يحب الإيمان وأهل الإيمان، وحول أهل الإيمان وذل الكافرون، فهذا دعاء بما يحب الله. وأما الدعاء على المعين لا يعلم أن الله يرضى فغير مأمور به، وقد كان يفعل ثم نهي عنه؛ لأن الله قد يَتَوب عليه أو يعذبه".

وقال ابن مفلح رحمه الله تعالى في الآداب الشرعية (1/279): "ويجوز لعن الكافرين عامةً، وهل يجوز لعن كافر معين؟ على روايتين. نقل عن ابن تيمية."
قوله: "ولكن تارك الصلاة على وجه العموم جائز وأما لعنة المعنين فالأولى
تركها، لأنه يمكن أن يتوب".
وقال عن ابن تيمية في موضع آخر: "في لعن المعنين من الكفار من أهل القبلة
وغيرهم ومن الفاسق بالاعتقاد أو بالعمل: لأصحابنا في أقوال: أحدها: أنه لا
يجوز بحال وهو قول أبي بكر عبد العزيز. والثاني: يجوز في الكافر دون
القبائل. والثالث: يجوز مطلقاً".
وقال ابن مفلح (1/270) عن ابن الجوزي قوله: "وقد لعن أحمد بن حنبل
من يستحق الله، فقال في رواية مسند: قالت الواقية الملونة، والمتنزلة
الملونة: وقال عبد الله بن أحمد الخنابي: سمعت أحمد بن حنبل يقول: على
الجلدية لعنة الله، وكان الحسن يلعن الحجاج، وأحمد يقول: الحجاج رجل
سواء. وقال ابن تيمية: ليس في هذا عن أحمد لعنة معين لكن قول الحسن
نعم".
وقال ابن مفلح (2/271): "وقال القاضي في المعمد: من حكمنا بكفرهم
من المولدين وغيرهم فجازت لعنتهم، نص عليه، وذكر أنه قال في اللفظية: على
من جاء بهذا لعنة الله، عليه غضب الله، وذكر أنه قال عن قوم معينين: هكذا
الله الحبيب، وعن قوم: أخزاء الله، وقال في آخر: ملا الله قبرة ناراً، قال الشيخ
تقي الدين: لم أرى نقل لعنة معينة إلا لعنة نوع، أو دعاء على معين بالعذاب،
أو سبأله، لكن قال القاضي: لم يفرق بين المنطاق والمعين، وكذلك جدنا أبو
البركات.
قال القاضي: فاما فساق أهل الملأ بالاعمال كالنزاعة والسرقة وشرب الخمر وقال
نفسه: فهذا فساق لعنته أم لا؟ فقد توقف أحمد رضي الله عنه عن
ذلك في رواية صالح. قلت لأبي: الرجل يذكر عنده الحجاج أو غيره يلعنهم؟
فقال: لا يعجبني، لأسأل فقايل: ألا لعنة الله على الظلمين".
وقال ابن مفلح في الآداب الشرعية (2/272) قال أبو بكر الخلال في كتاب
السنة: "الذي ذكره أبو عبد الله في التوقف في اللغة فيه أحاديث كثيرة لاإ
تحفظ على أهل العلم، ويتبع قول الحسن وابن سيرين فهما الإمامان في زمنهما.

ويقول: لعن الله من قتل الحسين بن علي، لعن الله من قتل عثمان، لعن الله من قتل علياً، لعن الله من قتل معاوية بن أبي سفيان، وتقول: لعلة الله على الظلمين إذا ذكر لنا رجل من أهل الفتن على ما تقلده أحمد.

قال الفاضي: فقد صرح الخالل باللهجة، قال: قال أبو بكر عبد العزيز فيما وجدته في تعالق أبي إسحاق: ليس لنا أن نلعن إلا من لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم عن طريق الإخبار عنه آه.

وقال ابن مفلح في الآداب الشرعية (1/272): قال الشيخ تقي الدين: "المنصوص عن أحمد الذي قرأ الملل اللعن المطلق العام لا المبين كما قلنا في نصوص الوعيد والوعيد، وكما نقول في الشهادة بالجلة والنار، فإن الله شهد بأنه شهيد في الجنة، وأن الكافرين في النار، وشهد بأن النار لم شهد له الكتاب والسنة، ولا تشهد بذلك لمعين إلا من شهد له النصر أو شهد له الاستفتاًبة على قول. فالشهادة في الخبر كالعن في الطلب، والخبر ونوعا الكلام؛ وللهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إذا الطاعون والمعين لا يكونون شهدا ولا شفاء يوم القيامة" أخرجه مسلم (898/490)، وأحمد (488/576)، وأبو داوود (374/546)، وأبو حبان (449/549)

فالشفعاء ضد اللعن كما أن الشهادة ضد اللعن، وكلام الخالل يختصبي أنه لا يلعن المعين من الكفار فإنه ذكر قاتل عمر وكان كافراً، ويتضح أنه لا يلعن المعين من أهل الأهواء فإنه ذكر قاتل علي وكان خارجياً، ثم استدل الفاضي للمنع مما جاء من ذم اللعن، وأن هؤلاء ترجى لهم المغفرة، لا تجوز لنتهم، لأن اللعن يقتضي الطرد والإبعاد، بخلاف من حكم بكفر من المتالين فإنهم مبعدون من الرحمة كغيرهم من الكفار، واستدل على جواز ذلك وإطلاقه بالنصوص التي جاءت في اللعن وجميع مطلقة كالراشدي والمرتشي وأكل الربا وموكله وكاتبنه وشاهدها". 1

وقال ابن مفلح في الآداب الشرعية (1/273): قال الشيخ تقي الدين: فصار للصحاب في الفساق ثلاثة أقوال:
أحدها: المنع عموماً وتعييناً إلا برواية النص، والثاني: إجازتها. والثالث:
التفرقة وهو المقصود.
وقد نقل عن أحمد لائحة أقوام معينين من دعاة أهل البدع، ولهذا فرق من فرق
من الأصحاب بين لائحة الفاسق بالفعل، وبين دعاة أهل البدع بإبقاء على
تكفيرهم، وإما سلائمة على أن ضررهم أشد.
ونقل ابن مفلح عن شيخ الإسلام قوله (274/1): «ومن جوز لائحة البند
المكرر معيناً فإنه يجوز لائحة الكافر المعين بطريقة الأولى، ومن لم يجوز أن يلعن
إلا من نبت لائحة بالنص فإنه لا يجوز لائحة الكافر المعين. فمن لم يجوز إلا لعن
المقصود يرى أنه لا يجوز ذلك لا على وجه الانتصار، ولا على وجه الجهاد
и إقامة الحدود كالهجير والتعزيز والتحذير».
وقال ابن مفلح (275/1): قال شيخ الإسلام: «وكذلك من لم يلعن المعين
من أهل السنة أو من أهل البقيل أو مطلقًا، واما من جوز لائحة الفاسق المعين
على وجة الغضب في الله عز وجل، والبراءة منه، والتعزيز فقد يجوز ذلك
على وجه الانتصار أيضاً، ومن يرجع المعين من لائحة المعين فقد يجيب عما فعله
النبي صلى الله عليه وسلم بأحد أجرية ثلاثة:
1 - إما أن ذلك مسند كلين من لعن في القرن على ما قالت أبو هريرة.
2 - وإما أن ذلك مما ذكر في قوله: «الله إني أنا بشير أغضب كما يغضب البشر
فأيا مسلم سببه...» لكن يقال هذا الحديث لا يدل على تحريم المفتنة وإنما يدل
على أنه يفعلها بابتة، والتعزيز فجعل هذا الدعاء دافعًا عن ليس لها بأهل.
3 - وإما أن يقال: اللعن من النبي صلى الله عليه وسلم ثابت بالنص فقد يكون
أطلع على عاقبة الممثون، وقد يقال: الأصل مشاركه في الفعل ولو كان لا
بلى إلا من علم أنه من أهل النار لما قال: «إني أنا بشير أغضب كما يغضب
البشر فأيا مسلم سببه...» فهذا يقتضي أنه كان يخاف أن يكون لعنة ما يحتاج
أن يستدرك بما يقلبه من الحسنات؟ فإنه معصوم، والاسترداد بهذا الدعاء يدفع
ما يخافه من إصابة دعائه لمن لا يستحقه وإن كان بابتة؛ إذ هو بابتة».
الشريعي معصوم لأجل التأسي به.

وقد يقال: نصوص الفعل تدل على الجواز للظلم كما يقتضي ذلك القياس؛ فإن اللعنة هي بعد عن رحمة الله، وعُلم به أنه يجوز أن يدعى عليه من العذاب بما يكون مبداً عن رحمة الله عزّ وجلّ في بعض المواضع كما تقدم، فاللعنة أولى أن تجوز، والنبي صلى الله عليه وسلم إنما نهى عن لعن من علم أنه يحب الله ورسوله، فمن علم أنه مؤمن في الباطن يحب الله ورسوله لا يلعن; لأن هذا مرحم بخلاف من لا يكون كذلك».

من أدة جواز اللعن:

1 - حديث عائشة في لعن المعين: «استاذن رهط من اليهود على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: السام عليكم، فثقلت عليكم السام واللعنة.» أخرجه البخاري (241)، ومسلم (1165) والبخاري (360) قالت عائشة: «عليكم لعنة الله وغضب الله عليكم.».

قال ابن تيمية: «كما في الآداب الشرعية (1766) والاستدلال بهذا الخبر في جواز لعن المعين وعده محتمل.»

2 - حديث ابن عمر: أن رجلاً كان اسمه عبد الله، وكان يلقب حمارة جلده النبي صلى الله عليه وسلم. فقال رجل من القوم: «للهام العنة ما أكثر ما يؤتي به».

قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تلمعوا فوؤده ما علمنا إلا أنه يحب الله ورسوله» أخرجه البخاري (760). قال الشيخ ابن تيمية: «فهذا ظاهر الدلالة».

3 - ولمسلم (1195) من حديث بردية أن خالد بن الوليد لما رمى المرجومة بحجر فحضور الدم على وجهه فسها.

قال في النهاية: اللعن من الله جزى وجل له الطرد والإبعاد، ومن الخلق السب والدعاء.

فظاهر جواز السب لولا التوبة» 1/1 من الآداب الشرعية (1767).

ويحتمل أن منع اللعن للنبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنه مجاب الدعوة، وقد يتوب الله تعالى على الملوعين من المشركين فذلك نهي عنه. انظر: تفسير الرازي (191/1).
قال أبو بكر بن العربي في أحكام القرآن (١/٢٤): «قال لي كثير من أشياخنا: إن الكافر المعين لا يجوز لعه؛ لأن حالتنا عند الموافاة لا تعلمنا، وقد شرط الله تعالى في هذه الآية في إطلاق اللعنة الموافاة على الكفر. وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم عن أقوام بأعيانهم من الكفار، وفي صحيح مسلم (٧٠٠) عن عائشة رضي الله عنها: «دخل على النبي صلى الله عليه وسلم رجلان فكلما بسبوبي فأعجبوا، فلم يمنعهم، وإنما كان ذلك لعلمه مباليهما»، والصحيح عندي جواز لعه ظاهر حالي، كجواز قتاله وقتله. وفي الصحيحين: "العن المؤمن كقتله" رواه البخاري (١٦٦٢) ومسلم (١٧٦)، وكذلك إن كان ذميياً يجوز إصغاره فذلك لعنه. فأما العاصي المعين فلا يجوز لعه اتفاقاً لما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم: "وجه بضرب حمر ماراً..." رواه البخاري (١٦٨٠) فجعل له حرمة الأخوة، وهذا يوجب الشفقة.

وأما لعن العاصي مطلقًا فيجوز إجماعاً لما روي في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "العن الله السارق يسرق البيضة" رواه البخاري (١٦٨٣) ومسلم (١٦٧٠)، وقد قال بعض علمائنا في تأويل هذه الآية: إن ممنوع عليهم اللعنة يوم القيامة؛ كما قال تعالى: "فَقُولُوا لِللهِ الْفَاحِشَاءِ يَحْكُمُ بَعْضُهُ بَعْضٍ فَالْيَتَّكِبُوا بِالْكَفَّارَةِ فَيَدْعُوهُمُ الْمَلائِكَةُ إِلَيْهِ حَيَّاً" (العنكبوت ٢٥)، والذي عندي صحبة لعه في الدنيا لم يواجه شارقاً ظاهر الحال، وما ذكر الله عن الكفرة من لعنهم وكرارهم فيما بينهم حالة أخرى، وبيان لحكم آخر، وحالة واقعة تحضد جواز اللعن في الدنيا، وتكوين هذه الآية لجواز اللعن في الدنيا، يكون للأعيان معننا، فإن قيل: فهل ينكر يستحسن بجواز لعنة الله من كان على ظاهر الكفر، وقد علم الله موافاته مؤمناً ؟ قلنا: كذلك نقول، ولكن لعنة الله له حكمه بجواز لعه لعباده المؤمنين أخذها ظاهر حال، والله أعلم به من أحكام القرآن (١/٧٦).

وقال الفرطري رحمه الله تعالى في تفسيره بعد أن نقل كلام ابن العربي السابق (٢/١٢٧): "قلت: أما لعن الكفار جملة من غير تعين فلا خلاف في ذلك" ثم...
قال القرطبي: « قال علمائنا: وسواء كانت لهم دلهم أو اتهام، وليس ذلك يواجد، ولكنه يباح، فهله له، لجهدهم الحق، وعداواتهم للدين واهل، وكذلك كل من جاهر بالمعاصي كشراب الخمر، وأكلة الربى، ومن تشبه بالناسه... إلى غير ذلك مما ورد في الأحاديث لعنه ».

وقال القرطبي (2/127): « ليس لعن الكافر بطرق الزجر له عن الكفر؛ بل هو جزاء على الكفر، وإظهار قبح كفره، كان الكافر ميتاً أو مجنوناً. وقال قوم من السلف: إنه لا فائدة في لعن من مات منهم لا بطرق الزجر ولا بطرق الزجر فإنه لا يتأثر به ».

وتعمق القرطبي (1/127) ابن العربي في تفسيره للتفاوت على عدم جواب لعن العاصي، وذكر حدث (شامب الحمر): « لا تكونوا عوناً للشيطان » فقال القرطبي: « وقد ذكره بعض العلماء خلافاً في لعن العاصي المعين، قال: وإنما قال عليه السلام: لا تكونوا عوناً للشيطان على أخيكم » في حق نعيم بعد إقامة الحد عليه، ومن أقيم عليه حد الله تعالى فلا ينبغي لعنه، ومن لم يقم عليه الحد فلعنته جائزة سواء سئي أو عين أم لا لأن النبي صلى الله عليه وسلم لا يلعن إلا من تجب عليه اللعنة ما دام على تلك الحالة الموجبة للعن، فإذا تاب منها وأقنع وظهر الخد فلا لعنة تتوجه عليه، ويبين هذا قوله صلى الله عليه وسلم: إذا زنت أمة أحدهكم فليلددها الحد ولا يرتب فدل هذا الحديث من صحته على أن التشريب واللعن إما يكون قبل أحد الحد، وقبل التوبة، والله أعلم ».

وقال ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسيره (299/161) عند تفسير الآية (111) من سورة البقرة: لا خلاف في جواب لعن الكفار، وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومن بعد من الأئمة يلعنون الكفرة في القرب وغيرة. أما الكافر المعين فقد ذهب جماعة من العلماء إلى أنه لا يلعن؛ لأننا لا ندري بما يختص الله له، واستدل بعضهم بالآية: إن الذين كفروا وفامنا وهم كفار أولئك علىهم لنعمة الله والملائكة. [البقرة: 111]. »

وقالت طائفة أخرى: بل يجوز لعن الكافر المعين، واختياره الفقيه أبو بكر بن =
العبري المالكي ولكنه احتاج بحديثه في ضعف، واستدل غيره بقوله عليه السلام في قصة الذي كان يؤتي به سكران فيحدث... لا تعلمه فإنه يحب الله ورسوله (4/22) اه من ابن كثير.

وقال الألوسي رحمه الله تعالى في روح المعاني (9/34): "واعلم أنه لا خلاف في جواز لعن كافر معين تحقيق موته على الكفر إن لم يتضمن إذاء مسلم أو ذمي إذا قلت باستوناته مع المسلم في حربة الإيذاء، أما إن تضمن ذلك حرم.

وقال أيضاً: (9/34): "ثم إن لعن من بجوز لعنه لا أرى أنه عبادة إلا إذا تضمن صمالة شرعية، وأما لعن كافر حي فالمشهور أنه حرام، ومقتضى كلام حجة الإسلام الغزالي أنه كفر؛ لما فيه من سؤال تثبيته على الكفر الذي هو سبب اللعنة، وسوا ذلك كفر، ونصت الزركشي على أرضايته حيث قال عقبه: فتفطن لهذه المسألة فإنها غريبة، وحكمها متجه، وقد زل فيها جماعة، وقال العلامة ابن حجر في ذلك: ينبغي أن يقال: إن أراد بلعنه الدعاء عليه بتشديد الأمر أو أطلق لم يكرر، وإن أراد سؤال بقائه على الكفر والرضى بقائه عليه كفر، ثم قال: فتدبر ذلك حق التدبير فإنه تفصيل متجه قضت به كلماتهم".

ورد مسلم في صحيحه في البر والصلة والآداب باب من لعن النبي صلى الله عليه وسلم أو سوءبا أو دعا عليه وليس أهلًا لذلك كان له زكاة وأجرًا ورحمة...


وعن جابر (262).

قال النووي رحمه الله تعالى: (228/16): "إنا يكون دعاوته عليه رحمة وكفرة وركاه ونحو ذلك إذا لم يكن أهلاً للدعاء عليه، والسب واللعن ونحوه، وكان مسلمًا، وإلا فقد دعا صلى الله عليه وسلم على الكفار والمنافقين ولم..."
المنفي في خطب الجمعة والعيد


- يكن ذلك لهم رحمة. فإن قيل: كيف يدعو على من ليس هو باهل للدعاء عليه، أو يشبه، أو يلمعه، ونحو ذلك، فالأجواب ما أجاب به العلماء، ومختصره وجهان:

أحدهما: أن المراد ليس باهل لذلك عند الله تعالى، وفي باطن الأمر؛ ولكنه في الظاهر مستوجب له، فهو صيء الله عليه وسلم استحقاقه لذلك بامرة شرعية، يأكل في باطن الأمر ليس أهلًا لذلك، وهو صيء الله عليه وسلم مأمور بالحكم بالظاهر والله يؤول السرائر.

الثاني: ما أن وقع من سهوة ودعائه ونحوه ليس بقصود؛ بل مما جرت به عادة العرب في وصل كلامه بلا نية، كقوله: (تربت يمك...). لا يقصد بشيء من ذلك حقيقة الدعاء، فخاف صيء الله عليه وسلم أن يصادف شيء من ذلك إجازة، فسأل ربه سبحانه وتعالى، ورغب إليه في أن يجعل ذلك رحمة وكمارة وقريبة وظهوراً وآجراً، وإنما كان يقع هذا منه في النادر الشاذ من الأزمن. ولم يكن فاحشاً ولا متفحضاً ولا عائناً ولا متنقماً لنفسه...» 1ه ونحو ذلك كان جواب القراطي في المفهم (6/54، 58).

وقال الألفوسي أيضاً (9/624): «وكلمن الكافر الحي المعين بالشخص في الحرم لعن الفاسق كذلك، وقال السراج البلقيني بجاوز لعن العاصي المعين، واحتاج على ذلك بحديث الصحيحين: "إذا دعا الرجل أمرته إلى فراشه فأتى أن تجبه فيات غضبان لعنها الملائكة حتى تصبح" وهو ظاهر فيما يدعيه، وقول ولده الجلال البلقيني في بحثه معه: يحتلم أن يكون لعن الملائكة لها ليس بالخصوص بل بالعموم بأن يقولوا: لعن الله من دعاها روجها إلى فراشه فأتى أن تجبه فيات غضبان بعيد جداً. وما يؤيد قول السراج خبر مسلم أنه صلى الله عليه وسلم مر بمحار وسم في وجهه فقال: "العن الله من فعل هذا" وهو أبعد عن الاحتمال الذي ذكره ولده. وقد صح أنه صلى الله عليه وسلم لعن بختلف بلى فيه وأعطاه السلم وسم في وجهه، ثم قال: وفيه نوع تأييد لذلك أيضاً، لكن قيل: إنه يجوز أن يكون قد علم عليه الصلاة والسلام مرتهم، أو مرت أكثرهم على الكافر فلم يلعن صلى الله عليه وسلم إلا من علم موهبه عليه، ولا يخفى عليك الأحوط في هذا الباب، فقد صح «من»
iture بُثر مَعونة


وقال الشيخ بكر أبو زيد في المناهي اللفظية (471): فلا يَّلعن إلا من استحق اللَّه بنص من كتاب أو سنة وهي في الأمور الجامعة الآتية:

1- لعن بوصف عام مثل: لعنة عامة على الكافرين أو علىظلامين والكافرين.
2- لعن بوصف أخص منه مثل: لعن آكل الربا، وعين الرذة، وعين السراح، والمرضين، ونحو ذلك.
3- لعن الكافر المعين مات على الكفر مثل: فرعون.
4- لعن كافر معين مات، ولم يظهر من شواهد حال دخوله في الإسلام فيلعن.
5- إن توقَّف المسلم، وقال: لعنة الله إن مات كافراً حسن.
6- لعن كافر معين حي، لم تعم دخوله في لعنة الله على الكافرين، ويجوز قتله، ووقتله، ووجوه إعلان البراءة منه.
7- لعن المسلم العاصي - معيناً - أو الناسق بفسقه، والفاجر بفجورة، فهذا اختالف أهل العلم في لعنه على قولين، والآثر بل حكى الاتفاق عليه، على عدم جواز...
الأمر الذي يحتمي أن يرضل الله عليه، وأن يثبتنا على الحق المبين، وأن يكشفنا شر الكافرين والمنافقين، إنه سبحانه وتعالى. وأقول قولي هذا وأستغفر الله لي وكم فاستغفروه إن هو الغفور الرحب.

الخطبة الثانية

الحمد لله حمدًا طيبًا كثيرًا مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى.

قال ابن عبد البر (5/116): "قد لحى رسول الله صلى الله عليه وسلم كُل الربا ومولك وكَانَتُوه وشاهدهو... إلى أن قال: وَلِعَشْرَةَ جُمُوعَ يَطُوَّلُ ذَكَرَهُمْ قَضِيَّةً إلى لَعْنَاهُم، وَلَيْسَ لَعْنَةَ هُؤُلَاءِ، وَلَا مِنْ أَسْتَغْفَارِ اللَّهِ مِنْ بَابِ مِنْ لَعْنَةِ رَسُولِ اللَّهِ وَشَمْتُهُ عَنْ غَضَبِهِ وَهُوَ يَظْهَرُ أَهْلًا لَّكَ، ثُمَّ تَبَينَ لِهِمَا كَانَ مِنَ الْبَشَّرَ - غير ذلك - بل يكون لَعْنَةً هَيْلًا ورَحْمَةً؟ كَمَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "إِنَّ اِسْتَرْطَبَتْ عَلَى رَبِّي فَقَلْتُ: إِنَّا أَبَضَّ أَبْرَزُهُ كَمَا يَرْضَى البَشَّرَ وَأَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ البَشَّرُ، فَأَنَا أَحَدُ دَعُوتِهِ مَنْ أَمْتِي بَذُوَةً لَّيْسَ لَهَا بَأَلَّا يَحْتَلِلُهَا، لَكَمَا أَخْرَجَهُ مَسْلِمُ مِنْ حَدِيثِ أَنَّ فِي الْبَرَاءة وَالْأَدِبَّ بَرَقْمَ: (٣٦٠)."أَخْرَجَهُ مَسْلِمُ مِنْ حَدِيثِ أَنَّ فِي الْبَرَاءة وَالْأَدِبَّ بَرَقْمَ: (٣٦٠)."أَخْرَجَهُ مَسْلِمُ مِنْ حَدِيثِ أَنَّ فِي الْبَرَاءة وَالْأَدِبَّ بَرَقْمَ: (٣٦٠)."

قال ابن عبد البر في التمهيد (135/44): "وفى لحن رسول الله صلى الله عليه وسلم آلاف الربا ومولك، وَالْيَهُودُ وَغَيْرِهِمْ، وَهُمْ أَشْرَى عَلَيْهِمْ، فَمِنْ لَحْنٍ مِنْ يَسْتَحْقِقُ أَنْ يَلَعَنَّ فَحْمًا، وَمِنْ لَحْنٍ مِنْ لَا يَسْتَحْقِقُ اللَّهُ حَرَّمًا عَلَيْهِمْ، وَمِنْ تَرْكِ اللَّهِ عَلَى الْغَضَبِ وَلَمْ يَلَعَنَّ مُسْلِمًا، وَلَمْ يَبْشِرَهُمْ مِنْ أَعْزَمِ الأَمْوَرِ."
سرية بثر معونة

أحمد وآخرك، وأتوب إليه واستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله تعالى وأطيعوه، وابتوا على دينكم حتى تلقوا ربككم؛ ففي ذلك النجاة من عذاب الآخرة، والفوز بالنعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول فينجي الله الذين آتوا بمفازاتهم لا يسهوه السوء ولا هم يحزنون [الزمر: 61].

أيها الإخوة المؤمنون: تنطوي حادثة سرية بثر معونة، وما حصل للمسلمين فيها من عظيم الابتلاء على دروس مهمة، جدير بالمسلم أن يتأملها، ويستفيد منها، ولاسيما في وقت تعظيم فيه المحن، وتشتت الأزمات.

فهذه الحادثة تبين بجلاء حقيقة المشركين، وشدة عدوتهم للمؤمنين، وغدرهم بهم حينما تسنى فرصة للغدر، كما تبرز حجم الابتلاء الذي ابتلي به هؤلاء النخبة من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فقد خرجوا يُعلمون الناس القرآن، فقتلكم خيانةً وغدرًا. وما كاد النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم يكشفون دموعهم على شهادته أحد حتى ابتلوا بقتل سبعين آخرين في هذه الحادثة المؤلة، وليس بين الحادثين إلا قرابةً من ثلاثة أشهر (11)؛ فابتلاع يعقبه

(11) وذلك أن غزوة أحد كانت في النصف من شوال سنة ثلاث، وسرية بثر معونة كانت في صفر سنة أربع، فيكون بينهما ثلاثة أشهر ونصف.
التمييز في خطب الجمعة والعيد

ابتلاء، وامتحان في إثر امتحان للطائفة المؤمنة، وليس المسلمين في هذا العصر بأكرم على الله تعالى من رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام رضي الله عنهم الذين ابتلوا أشد الابتلاء، ومن أراد ثواب الآخرة صبر على ابتلاءات الدنيا، والابتلاء سنة ماضية يجريها

الرب تبارك وتعالى على الأنبياء وأتباعهم.

ومن أهم الدروس التي يحتاجها المسلم في هذا الزمن من تلك الحادثة: ثبات هذه العصابة المؤمنة على دينهم حتى لقوا الله تعالى، وكان أشد شيء حرصوا عليه وهم يلقون الله تعالى أن يبلغوا النبي صلى الله عليه وسلم، ويلبغا إخوائنا رضاهم عن الله تعالى بما أكرههم به من الكرامة والشهادة، وما أسبر عليهم من الرضى عليهم حتى قالوا: اللهم بلغ عنا نبينا أنا قد لقيناك فرضينا عنك ورضيت عنا»(22)، وفي رواية قالوا: «رنا أخبر إخوائنا بما رضينا ورضيت عنا فأخبرهم عنهم»(23).

إنهم ما نالوا هذا الرضى من الله تعالى إلا لأنه سبحةه أرضاه، وقد استحقوا هذا الرضى برحمته الله تعالى، ثم بسبب ثباتهم على دينهم رغم المحسن والبلاء، حتى بذلوا نفوسهم رخيمة في سبيل ذلك، وما كان لهم من هم إلا أن أعلم إخوائنا مصيرهم، ورضي الله تعالى عنهم؛ حتى يثبتوا على دينهم ماها كانت الصوراف والثبعات؛ ذلك أن رضي الله تعالى يستحق كل تضحية.

(22) هذا اللفظ لسلم، وانظر الحديث مخرجًا في هامش (3).
(23) هذا اللفظ للبخاري في المغازي (93).
وتحت ملاحظة لأبد أن نفطن لها، وهي أن الخوف على النفس لا يسوغ وقف الدعوة إلى الله تعالى؛ فإنذا ما عظمْ مكرُ الكافرين، وافتراء المنافقين على عباد الله المؤمنين، وآذوه بسبب دعوتهم إلى الله تعالى؛ فإن ذلك ليس عذراً صحيحاً لتعطيل الدعوة، حتى ولو كان في ذلك مظنة ذهاب النفس، فقد رأينا النبي صلى الله عليه وسلم كان خائفاً في بداية الأمر من إرسال هذه السرية، وصرف بخوفه عليهم من الغدر؛ ولكنه غلَب جانب مصلحة الدعوة، وتبليغ الدين للناس على جانب الخوف على أصحابه، فكان ما كان من أمر الله تعالى وقدره.

إذا كان الخوف على النفس لا يسوغ وقف الدعوة إلى الله تعالى وتعطيلها فما دونه من باب أولى كالخوف على الجاه والمال وغيره.

أما فاتقوا الله ربيكم، وابتوا على دينكم، وادعوا إلى سبيل ربيكم بالحكمة والموعظة الحسنة؛ حتى تلقوا الله تعالى فيرضى عنكم وترضوا عنه، وذلك الفوز العظيم.

وصلوا وسلموا على خير خلق الله كما أمركم بذلك ربيكم، ﷺ.
الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهدى الله فلا مضلل له، ومن يتضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبد ورسول الله. {يا أيها الذين آمنوا انقروا بالله حق نتقين ولا تموتون إلا وأنتم مسلمون} [آل عمران: 2]. {يا أيها الناس أتقوا الذين خلقتم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وثبت منها رجلاً كبيراً ونساء وأتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيماً} [النساء: 1]. {يا أيها الذين آمنوا أتقوا الله وقولوا قولاً صيدداً} [الأحزاب: 71]. ومن يطيع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً {[الأحزاب: 72]. أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدى هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعوة، وكل بدعه ضلاله، وكل ضلاله في النار.

أيها المسلمون: من سمات الخلقين طمع أقوامهم في ضعفائهما، وظلمهم لهم، وتعديهم عليهم، وسلبهم حقوقهم. وهذه الصفة توجد في البشر أفراداً ودولاً وأمة، ولهذا جاءت الرسالات بالشرعات التي تهذب أخلاق الناس، وترتقي بهم عن الشهوات والغريзы الحيوانية إلى مقامات العبودية لله رب العالمين؛ ليحقق الأمن والعدل في الأرض ومن طبائع الطالبين طمعهم في المظالمون إذا ضعفوا أمام الظلم.
وأهله، واستكانوا للقهر والبغي، وتشريبا الذل والمهانة، وما عرف التاريخ ظالمين يتركون ظلمهم أو يخففون رحمة بالمظلومون؛ بل يزدادون في ظلمهم وقهرهم لهم كلما خضع المظلومون واستكانوا لهم. وإذا حلت بأمة هزيمة من الهزائم كثر شامتها، وقوي أعداؤها، وقل أنصارها؛ مما يجعل المهرومين يعانون أضعاف ما كانوا يلقون قبل هزيمتهم.

والهدي النبي في مثل هذه الحالة هو: الثبات على الحق، والإصرار على الانتصار، وعدم الاستكانة والخضوع للعدو مهما كلف الأمر. وقد مرّت بالنبي ﷺ، وبحسابه رضي الله عنهم أيام عصيبات، وأزمات عسيرات، استد فيها كلب المشركين، وعظم أذى المنافقين، وتحركت يهود بدسائسها ومؤامراتها.

ومن تلك الأيام العصيبية ما حصل بعد غزوة أحد التي قتل فيها سبعون من خيار الصحابة وشجاعتهم رضي الله عنهم وأرضاهم، فكان من نتائج ما أصاب المسلمين في أحد من الهزيمة والمحصبة أن طمع فيهم الطاعون، واشتراب أعلام الظالمين، وظهر نفاق بعض المنافقين، وعزم جمع المشركين على غزو المدينة، منهم: بنو المصطلق، وهم بطن من بطون خزاعة كانوا يسكنون قديماً وعسفان بين مكة والمدينة (1)، وقاتل من قبائلهم رجال مع المشركين في أحد، وشجعتهم هزيمة المسلمين في أحد على تجمع الجمع، وتجهيز الجيوش للإغارة على المدينة،

(1) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية للدكتور مهدي رزق الله أحمد (431).
فقد منزل النبي صلى الله عليه وسلم بالغزو، وفجأهم في ديارهم في أوائل شعبان من السنة الخامسة {2}، فكتب الله له النصر والغزارة عليهم، كم جاء في الصحيح أن ابن عون قال: "كتب إلى نافع فكتب إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم أغار على بني المصطلق وهم غارون - أي

(2) وقع خلاف بين المؤرخين وأهل السير في وقت هذه الغزوة على أقوال:

الأول: أنها في أوائل شعبان سنة خمس، وقال به الزهري، وابن سعد، والبلاذري، والواقدي، وابن تربة، وابن حبان، وابن القيم، والذهبي، وابن كثير، وابن حجر، وغيرهم. لانظر: السنن الكبرى للبيهقي (4/4)، وطبقات ابن سعد (36/123)، والمغازي للواقدي (4/4)، وأنساب الأشراف للبلاذري (324)، والمعارف لابن عدي (161)، وزاد المعاد (26/3)، وتاريخ الإسلام للذهبي (272)، والبداية والنهاية (242-156)، وفتح الباري لأبن حجر (495)، والسيرة النبوية لأبن حبان (453).

الثاني: أنها في سنة ست، وهو قول ابن إسحاق، وعنه ابن هشام، وخليفة خياط، والطبري، وابن العربي، وابن عبد البر، وابن حزم، وابن الأثير، وابن خلدون، وأبي الريح الكلاعي الأندلسي. لانظر: سيرة ابن هشام (4252)، وتاريخ خليفة (80)، وتاريخ الطبري (4/6)، وجامع السيرة لأبن حزم (161)، والدرر في اختصار المغازي والسير لأبن عبد الجليل (2/160-1/209)، والكشف للكلاعي (2116)، وتاريخ ابن خلدون (52/96)، وعشرة الأحوذي شرح جامع الترمذي لأبن العربي (49/12)، والكامل في التاريخ لأبن الأثير (2/192).

الثالث: أنها في سنة أربع، ونقله البخاري تعلقًا عن موسى بن عقبة، وتعقبه الحافظ في الفتح بقوله: "فذا ذكره البخاري، وعنه سباق قلم أراد أن يكتب سنة خمس وكتب سنة أربع، والذي في مغازي موسى بن عقبة من عدة طرق أخرجها الحاكم وأبو سعيد النيسابوري والبيهقي في الدلائل وغيرهم: سنة
غزو بنو المصطلق

اغفلون وأعاصيمهم تسقي على الماء؛ فقتل مقاتلتهم، وسبى ذرائهم
وأصاب يومئذ جهورية، حدثني به ابن عمر وكان في ذلك الجيش.
رواه الشيخان وهذا لفض البخاري.

واخذ الفقهاء من هذه الحادثة جواز الإغارة على من بلغتهم الدعوة
من المسلمين دون سابق إنذار، ولا سيما إذا كانوا محاربين للمسلمين،
مائلين لأعدائهم.

وأصاب المسلمون في هذه الغزوة سبياً كثيراً، ووقعت جهورية بنت
الحارث ابنه سيد قومها في السي، فكاتبت على نفسها بالتحليص

= خمس =

والراجح أنها سنة خمس، ودليل ذلك: تنازع سعد بن معاذ وسعد بن عبادة
رضي الله عنهما في أصحاب الأئمة، وسعد بن معاذ مات في غزوة فريضة
التي بعد الخندق وهي كانت في شوال سنة خمس، وحادثة الأئمة كانت في
غزوة بنو المصطلق، فلو كانت سنة ست لما كان سعد بن معاذ رضي الله عنه
حاضرا فيها، انظر: الفتح (7/495).

(3) أخرجه البخاري في العتق باب من ملك من العرب رقيقاً فوتب وبايع وجامع
وفدى وسبي الذرة (1/541)، ومسلم في الجهاد باب جواز الإغارة على الكفار
الذين بلغتهم دعوة الإسلام (173)، وأبو داود في الجهاد باب في دعاء المشركين
(2/626)، وأحمد (2/31) وغيرهم.

(4) ملخص الأقوال في مسألة دعوة الكافرين إلى الإسلام قبل قتالهم ثلاثة هي:

الأول: وجوب دعوتهم مطلقاً.

الثاني: لا يجب مطلقاً.

الثالث: يجب إن لم تبلغهم الدعوة، ولا يجب إن بلغتهم لكن يستحب.

وهو قول أكثر أهل العلم فيما حكاه ابن المنذر عنهم.

قال النروي: وهذا هو الصحيح وله قال نافع مولى ابن عمر والحسن البصري.
المفتي في خطبة الجمعة والمفيد

والثوري واللبي والشافعي وأبو ثور وأبنا أثر وأبنا المذار والمجهول، وقد تظاهرت الأحاديث الصحيحة على معناه، فمنها هذا الحديث، وحديث قتل كعب بن الأشرف، وحديث قتل أبي الحقيق (5/48) من شرح النووي على مسلم (174/1). ويدل على ذلك أيضاً رواية مسلم (173/6) لحديث ابن عمر في ذلك وهي أن ابن عون قال: "كتب إلى نافع أسأل عن الدعاء قبل القتال؟ فكتب إلي: إذا كان ذلك في أول الإسلام قد أغار النبي صلى الله عليه وسلم على بني المصطلق وهم غارون.

ولا يفهم من هذا الحديث النسخ، بل يفهم منه تفصيل حال الدعوي، فإن فيه في أول الإسلام كان الدين ضعيفاً، والإسلام غير معروف، وبعد الهجرة وغزوة بدر، وأحد عرف الإسلام في جزيرة العرب، فلم تكن دعوة الناس واجبة، قال أبو عثمان النهدي: "كنا نغزو فندعو ولا ندعو" أخرجه الطاحوي في شرح معايي الآثار (101/1). وسعيد بن منصور في سنته، وصححه الحافظ في الفتح (6/127).

قال الطحاوي بعد أن ذكر جملة من الآثار في ذلك: "فيما وروينا من هذا أن الدعاء إنما كان في أول الإسلام؛ لأن الناس حينذاك لم تكن الدعاء بلغتهم، ولم يكونوا يعلمون على ما يقاتلون عليه، فأمر بالدعاء؛ ليكون ذلك تبليغًا لهم، وإعلامًا لهم ما يقاتلون عليه، ثم أمر بالغالبة على آخرين، فلم يكن ذلك إلا ملئاً لم يحتاجوا فيه إلى الدعاء؛ لأنهم قد علموا ما يدعون إليه لو دعوا، وما لآجرواه لم يقاتلوه فلا عفونية للمدعو، وهكذا كان أبو حنيفة، وأبو يوسف ومحمد رحمة الله عليهم أجمعين يقولون: كل قوم قد بلغتهم الدعوة فأراد الإمام قتالهم فله أن يغير عليهم، وليس عليه أن يدعوهم، وكل قوم لم تبلغهم الدعوة فلا ينبغي قتالهم حتى يتبين لهم المعنى الذي عليه يقاتلون، والمعنى الذي إليه يدعون" أه من شرح معايي الآثار (36/11)

وأنظر: شرح السير الكبير (7/77)، والمسوسي (61/31).

وقال الشافعي بعد أن ساق الأدلته التي أشار إليها الطحاوي آنفاً: "وفيما وصفنا
من هذا كله ما يدل على أن الدعاء للمشركين إلى الإسلام أو إلى الجزية إذا هو واجب لن لم تبلغه الدعوة، فاما من بلغه الدعوة فلمسلمين قلته قبل أن يدعى، وإن دعوه فذلك لهم من قبل أنهم إذا كان لهم ترك قتاله بمدة تطول، فترك قتاله إلى أن يدعى أقرب، فاما من لم تبلغه دعوة المسلمين فلا يجوز أن يقاتلو حتى يدعوا إلى الإمام إن كانوا غير أهل الكتاب أو إلى الإمام أو إعطاء الجزية من أهل الكتاب، ولا أعلم أحداً لم تبلغه الدعوة اليوم إلا أن يكون من وراء عدونا الذين يقاتلونا أمة من المشركين فعله أولئك أن لا تكون الدعوة بلغتهم» آه من الأم (2/433).

وقال أبو بكر ابن العربي من المالكة: "لما أقام النبي ﷺ يدعو عشة أعوام أو ثلاثة عشر عاماً أو خمسة عشر عاماً على اختلاف الروايات في مدة مقالته بكمه، ثم تيقن القتال بعد ذلك سقط فرض الدعوة إلا على الذين لم تبلغهم، ويجب مستحباً، فأنا الآن فقد بلغت الدعوة وعشت وظهر العنان ولكني الاستحبات لا ينقطع« آه من أحكام القرآن (1/477).

ونذكر ابن قادة في أهل الكتاب والمجوس "أنهم لا يدعون قبل القتال؛ لأن الدعوة قد انتشرت وعمة، فلم بيق منهم من لم تبلغه الدعوة إلا نادر نادر». وعلق على قول الخرقي: "يذكر عبادة الأولوئن قبل أن يحاربوا" فقال: "فليس بعام، فإن من بلغته الدعوة منهم لا يدعون، وإن وجد منهم من لم تبلغه الدعوة دعي قبل القتال، وكذلك إن وجد من أهل الكتاب من لم تبلغه الدعوة دعوا قبل القتال".

وقال عن الإمام أحمد قوله: "إن الدعوة قد بلغت وانتشرت ولكن إن جاز أن يكون قوم خلف الروم وخلف الترك على هذه الصفة لم يجز قتالهم قبل الدعوة." ذلك (1/47/48)، ونظر كشاف الأقناع (172/3)، ومطالب أولي النهى (2/515).

وقال ابن القيم في أحكام أهل الذمة (1/88): "ومنها أن المسلمين يدعون الكفار قبل قتالهم إلى الإسلام، وهذا واجب إن كانت الدعوة لم تبلغهم=()}.
من السبي، وطلبت معونة النبي صلى الله عليه وسلم؛ فقضى ما عليها وتزوجها برضاءها.

قالت عائشة رضي الله عنها: "وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج جويرية بنت الحارث، فقال الناس: أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأرسلوا ما بايديهم - أي من سبي بني المصطلق - قالت عائشة: فلقد أعطت بتزويجه إيّاها مثة أهل بيت من بني المصطلق، فما أعلم امرأة أعظم بركة على قومها منها"

رواه أحمد وأبو داود بإسناد جيد (5).

وفي هذه الغزوة حاول المنافق عبد الله بن أبي بن سلول أن يشعل نار الفتنة بين المسلمين، ويفرق بين المهاجرين والأنصار بعد أن تأخوا في الله تعالى، واجتمعوا في الإسلام إخوة متحابين؛ وذلك أن رجلاً من المهاجرين كسع رجلاً من الأنصار - أي ضرب قفاه - فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقل المهاجري: يا للمهاجرين، فسمع ذلك رسول الله صلى الله صلى مستحب إن بلغتهم الدعوة، هذا إذا كان المسلمون هم القاصدين للكفارة"

وانظر: زاد المعاد (3/224).

(5) أخرجه أحمد (6/477)، وأبو داود في العنق باب في بيع المكتوب إذا فسخت الكتابة (261)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (3/11)، وإسحاق بن راهويه في مسنده (275)، وابن الجارد في المتنقث (750)، والطبراني في الكبير (24/10)، والبيهقي (7/475 - 757)، وابن سعد في الطبقات (8/4), (116 - 1711), والحاكم وسكت عنه ذهبي (22/4), وصححه ابن حبان (4/55 - 4/50), وقال الساّجئي في الفتح الرباني: سنده جيد (14/9/20).

(6)
الله عليه وسلم فقال: «ما بال دعوى الجاهلية؟ قالوا: يا رسول الله، كسب رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال: دعوها فإنها مننتة» (1).

فغضب عبد الله بن أبي وقاصه رهط من قومه وقال: أوقذ فعلوها؟ قد نافرونا وكائروننا في بلادنا، والله ما أعدنا وجلابيب قريش - يعني المهاجرين - إلا كما قال الأول: سمن كلبك يا وكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعرج منها الأذل، ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم: أحللتموه بلا لكم، وقاسمتموه أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير بلادكم.

فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: مر به عباد بن بشر فليقتفه، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه! لا ولكن أدك بن الرحل»، وذلك في ساعة لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يرتحل فيها، فارتحل الناس، وجاء أسيد بن حضير إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال: يا نبي الله، والله لقد رحلت في ساعة منكرة، ما كنت تروح في مثلها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إلا أخرج البخاري في التفسير باب قوله: فسواء عليكم أستغفروا لهم أم لم تستغفر لهم» (49:67)، ومسلم واللظة في الرب والصلة باب نصر الآخ، أو مظلوماً (2584)، والمرتذي في التفسير باب ومن سورة المنافقين (3215)، والنسائي في السن الكبرى (8863)، وأحمد (3292 - 3293)، وغيرهم.

ثم مشى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدّ رؤومهم ذلك حتى أذنتهم الشمس، ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وجدوا مسًّا الأرض فوقعوا نياماً، وإنما فعل ذلك ليشغِّل الناس عن الحديث الذي كان من عبد الله بن أبي، فلا تقع فتنة بين الصحابة رضي الله عنهم (7).

وكان لذلك المنافق ابن صالح يدعى عبد الله، فلما بلغه ما قاله والده أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه، فإن كنت لابد فاعلًا فمرني به، فأن أحمل إليه رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبى بوالده مني، وإن أخشى أن تأمل به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يشي في الناس، فأقتل رجلًا مؤمنًا بكافر، فأدخل النار، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(7) انظر: سيرة ابن هشام (255/116)، وجامع البيان للطبري (28/217)، والاتكفاء (2/617، والسيرة الحلبية (2/592).
بلغ نترفق به، ونحن صحبته ما بقي معنا.(8)

إن عبد الله بن عبد الله بن أبي قد ضرب مشلاً عظيماً في ولاء المؤمنين لدينه، وبراءتهم من المنافقين، ولو كانوا أقرب الناس إليهم؛ إذ عزم على قتل والده وهو أب الناس له، لأنه آدى النبي صلى الله عليه وسلم، وكم في مجتمعات المسلمين المعاصرة من منافقين، يرفضون شريعة الله تعالى، ويهزون بهاء، ويردون سنة النبي صلى الله عليه وسلم، ويقدمون عليها أقوال البشر بل وأقوال الكافرين، ويسخرون من يستمكعون باللهدي النبي بقولاتهم وكتاباتهم، ولا يحرك ذلك ساكناً عند كثير من المسلمين، بل يواكلونهم، ويجالسونهم، يقرؤون لهم، يستمعون إلى أحاديثهم، ويرموا أشادوا بهم، وأعلو من قدرهم، وقدموه في الوضائف، وبوأوههم صدور المجالس، وخلعوا المديح والثناء على فكرهم وثقافتهم التي لا تعدو أن تكون رفضاً لاحكام الإسلام، ودعوة إلى مذاهب أعداء الأمة المسلمة، في تبعية ذليلة، وتقليد أعمن، فأين هي الغيرة لدين الله تعالى من وجه ما تمطرت في وجه المنافقين، ومن ألسن ما أنكرت مقولاتهم، وربما من قلوب ما كرهت بل وافقت ورضيت؟

وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردة

بل إن هذا الأبن البالر بوالده، الموالي للمؤمنين، المعادي للكافرين والمنافقين أمسك بوالده وقال: «والله لا تنقلب - أي: ترجع إلى المدينة.

حتى تُقَرَ أنك الذيل ورسول الله صلى الله عليه وسلم العزيز، ففعل رواه الترمذي (9).

وخذل الله هذا المنافق، فما أحدث حدثًا بعد ذلك إلا كان قومه هم الذين يعابونه، ويبذلونه، ويعفونه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم له الخاطب حين بلغه ذلك من شأنهم: كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لي: اقتل؛ لأرعدت له أن يقتل أمرتهما اليوم بقتله لقتله، فقال عمر: قد والله علمت لآخر رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم بركة من أمري (10).

نفعني الله وإياكم بأي القرآن العظيم، ويهدي سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم، وأقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

الخطبة الثانية

الحمد لله حمدًا طيبًا كثيرًا مباركاً فيه كما يحب بني وليد، أحمده وأشكره وأتوب إليه واستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين.

(9) حديث جابر رضي الله عنه المخرج في الهامش (6)، وهذه الزيداء أخرجها الترمذي في تفسير القرآن باب ومن سورة المنافقين، وقال: هذا حديث حسن صحيح (319).

(10) انظر: المراجع المذكورة في هامش (7).
غيزوة بني المصطلح

أمامًا بعد: فاتقوا الله - عباد الله - وتمسكوا بكتاب ربكم جلّ في علاء،
وبسنة نبيكم محمد ﷺ; فإن الخير كل الخير في التمسك بالكتاب والسنة.
أيها المسلمون: ما أصاب الأمة الإسلامية من عجز وضعف في العصور
المتأخرة كان سببه تقديم الدنيا على الآخرة، وما نتج عن ذلك من تفرق
واختلاف، وتنافس على الدنيا. كل ذلك أدي إلى طمع الآخرين من
كفار ومنافقين في المسلمين; فاستباحوا حماؤهم، واعتدوا على بلدانهم،
بل وعلى دينهم وشريعتهم.
إنه واقع مهين يتكرر مع المسلمين على مر الأزمان، واختلاف البلدان;
متأثرة ما ضياع المسلمين أمر دينهم، واستكانوا لأعدائهم. ويزداد العدوان
مع ازدياد الذل والمسكنة والخضوع.
وفي عصرنا هذا يعيش المسلمون ذلًا وخصوصًا ليس خافياً على
أحد; فإخوانهم يقتلون ويذبحون ويحاصرن في كل مكان ولا يستطيعون
تهدئة فضلاً عن نصرتهم، ويعتدي على مقدساتهم وحراماتهم وهم
عاجزون عن صيانتها وحفظها.
ولما اكتشف ضعف المسلمين وفرقه بانت أطماع الكافرين، وظهر
نفاق المناقشين، وتلاشت القيم الحضارية، والقوانين الدولية، التي كان
يتشدق بها أعداء المسلمين.
لقد أعلنوا حربهم على الإرهاب، وحشدوا أمم الأرض كلها خلفهم
بالرغم أو بالإكراه، وامتنعوا عن تعريف هذا الإرهاب الذي جمعوا
العالم كله لحربه ؛ ولكن جمعًا من كتابهم وسياسياً اتهموا الإسلام
بناءً دين التطرف والإرهاب، وأن نصوص الجهاد في الكتب والسنة هي تكرير للعنف، وطالبوا المسلمين بإعادة النظر في مصطلح الجهاد وبدل وصوته (11)، ثم برز عدد من هؤلاء بالاعتداء على شخص النبي صلى الله عليه وسلم، واتهمه بأنه أول إرهابي في هذه الأمة (12).

وظهر بذلك مقصودهم بالإرهاب الذي يريدون حره وهم لم يعرّقوه. إنه دين الإسلام الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من عند الله تعالى، وصدق الله العظيم حينما أخبرنا عنه فقال: «وَلَن تَرْضَى عَنَّكَ الْيَهْوَةُ وَلاَ الْمَجْرَمُ وَلاَ الْبَصِيرُ» (البقرة: 120)، وقال سبحانه: «وَأَوْلاَهُمَا سَبَّبُوا عَنْكَ هَٰذَا مِثْلَهُمْ» (البقرة: 121). ومن ذلك أن عدداً من الخبراء والأكاديميين الأمريكيون عقدوا اجتماعاً في واشنطن في شهر جمادي الأول من هذا العام لمناقشة كيفية التعامل مع العالم الإسلامي، وما ألقى في ذلك الاجتماع: إمكانية البحث عن بديل لكلمة الجهاد، وكذلك مطالبتهم بتغيير المناهج الدراسية الدينية، وحذف كل ما يدل على الجهاد من الآيات والأحاديث، ومن عجبهم ما يذكر في هذا الشأن: أن طالباً مسلمًا أمريكيًا اختير في حفل التخرج لإنقاء كلمة الطلاب، فاختارها بعنوان (الجهاد الأمريكي) فمنعوا ذلك الطالب من ذكر هذا المصطلح الشرعي، أو الإشارة إليه; لأنه صار عنواناً للتطرف والإرهاب!!

(12) ومن أولئك المتحفون الأمريكيين الذين حاولوا تشويه الإسلام، والهجوم على النبي صلى الله عليه وسلم جيري فاليويل الذي وصف النبي صلى الله عليه وسلم بأنه (إرهابي) وبات روبرتسون الذي وصفه بأنه (شخص متصب وقاتل وقاطع طريق)، وفرانكلين جراهام الذي وصف دين الإسلام بأنه (دين شرير ومؤذ) وهذه المقولات كلها كانت قبل أيام في ظل تصاعد الحملة الأمريكية على الإسلام والمسلمين.
غزوة بني المصطلق

من بعد ما نُبِينَ لهُم الحَقّ [البقرة: 109].
وأما المنافقون من بني جلدتنا فما بارحت أفعالهم أفعال سالفيهم من ابن سلول وأتباعه؛ فإنهم وقفوا صفًا متراصاً مع حملة الكافرين على الإسلام وتعاليمه وأحكامه، فأعمدتهم في صفحهم تطالعنا كل يوم بالهجوم على مناهج تعليمنا، ومقررات ديننا مطالبين بتغييرها، وتجاوز هذا التراب القديم كما يقولون، الذي هو شريعة الله تعالى.
ولكن كان ابن سلول يقول في غزوة بني المصطلق: (لئن رجعنا إلى المدينة ليخرج من الأعرج منها الآذل) فإن منافقين عصراً يشرون بذلة المسلمين، وانتهاء دينهم، وتغيير ثوابتهم مع هذه الحملة الصليبية الظالمة، ويعدونا بنديمر ما يسمونه بالإسلام السياسي؛ إذ إنهم قسموا الإسلام الشامل الكامل إلى أقسام ينتمون منها ما يشأون، ويرفضون ما لا يريدون.
ورغم مظاهر الضعف والذلة التي تحيط بالمسلمين من كل جانب فإن دين الله تعالى عزيز، وإن ما يسوء الكافرين والمنافقين باق رغم أنواعهم، ولن يقضي على الدين الذي ارتداء الله تعالى لعباده مهما كانت قوة الكافرين، وهما كان ضعف المسلمين، ومهما بلغت مؤامرات المنافقين، وما أصاب المسلمين من ذلة وقهر واستكانة وسلطة أعدائهم عليهم كان بسبب ذنبيهم ومعاصيهم.
وواجب هذه المرحلة يقتضي العودة الجماعية من الأمة المسلمة إلى دين الله تعالى، والاستماسك بأحكام الشريعة، مع كثرة العبادة والأعمال الصالحة، والدعوة إلى الله تعالى، والتخلص من الذنوب ومعاصيهم.
التي هي سبب الذل والمهانة، والإلحاح على الله تعالى بالدعاء على الكافرين والمنافقين بأن يرداً كيدهم في نحوهم، و وسلم المسلمون من شروهم، وما ذلك على الله عزيز.

وإذا علم الله تعالى صدق عباده في اللجوء إليه، والتوكل عليه، كفاهم أعداءهم كما كفى المسلمين شر الأحزاب في غزوة الخندق، ورداً الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً و كفى الله المؤمنين القتال وكان الله قريباً غزيزاً؛ (الإحزاب: 25).

لا وصلوا وسلموا على خير خلق الله كما أمركم بذلك ربك.
الحمد لله ﷺ، يعلم السر وأخفى، ويسمع كل نحوي، وإليه ترفع الشكوى. أحمده وأشكره، وأتوب إليه واستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وإلا الله وحده لا شريك له؛ خيره يرجى، وفضله وإحسانه لا يحصى، وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله أحمد المجتبى، النبي المصطفى، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه أولي البر والترقي، والصلاح والاقتضاء، والتابعين، ومن بعدهم وسار على نهجهم واقتفى. أما بعد: فأوصيكم - أيها الناس - ونسي بقوي الله عز وجل، فاتقوه حق القوى، واستمسموا بالهبرة الوثقى {يا أيها الذين آمنوا أئتموا أوقوا الله وَلْتَنْظَرُ نفسٌ ما قَدْ مَتْتَ ظَلْلَةَ اللهِ إِنَّ اللهَ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [الخمر: 10].

أيها الإخوة المؤمنون: ما فتي الكافرون والمنافقون يهددون أهل الإسلام على إسلامهم، في الغابر والحاضر، حاوا المؤامرات، ودبروا المكائد، ومكروا مكراً كباراً؛ للقضاء على الإسلام والمسلمين.

وقد سجل التاريخ مكاتبه ومكرهم، وما خلت أمة الإسلام من منافقين يندسون في صفوفها، ويكونون من أبنائها وهم من أعدائها منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا.

وفي حادثة عظيمة: أوذى رسول الله صلى الله عليه وسلم على يد المنافقين، وقذفت زوجه أم المؤمنين الصديقة بنت الصديق عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنها وعن أباها. قذفت في عرضها، واستباحت.
كرامتها، وتولى القرآن العظيم الدفاع عنها بأيّات تتلى إلى يوم الدين. وأحداث القصة مذكورة في كتاب السنة والسيرة، وهاكم إياها على لسان صاحبة الحادثة عائشة رضي الله عنها.

روى الشيخان واللفظ للبخاري من حديث عائشة رضي الله عنها وقالت: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يخرج أفرع بين أزواجه، فأثبته خرج تسعة خرج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم معه. وقالت: فأفرع بينا في غزوة غزاة، فخرج سهمي، فخرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدما نزل الحجاب، فأتى أعمل في هودجي وأنزل فيه، فسربنا حتى إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوتنا ذلك وقلت، ودندنا في المدينة قافلين؛ آذن ليلة بالرحيل، فقامت حين آدننا بالرحيل، فمشيت حتى جاوزت الجيش.

فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي، فإذا عقد لي من جزء أطوار قد انقطع، فالتمست عقدي، وحسيسي ابتغاؤه، وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون لي، فاحتموا هودجي قرعتمو على بعيدي الذي كنت ركبتي، وهم يحسبون أنني فيه. وكان النساء إذ ذلك خفافاً لم يقبل بنهم اللحم، إنما تأكل العلفة من الطعام، فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعه. وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل وساروا، فوجدت عقدي بعدما استمر الجيش، فجفت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب، فأمامتُ منزلي الذي كنت به، وظنت أنهم سيفقدونني فيرجعون إلي. فينينا أنا جالسة في منزلي غلبنتي عيني فنمت، وكان صوان بن
المعنى السلمي من وراء الجيش، فأصبح عند منزلتي، فرأى سواد
إنسان نائم فأناشي، فعرفني حين رأيني - وكان يزاني قبل الحجاب -
فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني، فخمارت وجهي بجلباني، والله ما
كلمني كلمة، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حتى أتيت راحلته،
فوطئ على يديها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة، حتى أتيت الجيش
بعدما نزلوا موجرين في نهر الظهيرة، فهلك من هلك [أي وقع في
الإفك من وقع] وكان الذي تولى الإفك عبد الله بن أبي بن سلول.
فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمت شهرآ، والناس يُفيخون في
قول أصحاب الإفك، ولا أشعر بشيء من ذلك، وهو يربيني في وعي
أبي لا أعرف من رسول الله صلى الله عليه وسلم اللطف الذي كنت
أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم
فيسألُ ثم يقول: "كيف تيكس؟" ثم ينصرف. فإذا الذي يربيني ولا
شعور بالشر حتى خرجت بعدما تقهيت، فخرجت معي أم مسطح قيل
المناصب - وهو متبرزن - وكننا لا نخرج إلا ليلة إلى ليل، وذلك قبل أن
تتختى الكُنف قريباً من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأول في التبرز قيل
الغائر، فكننا نتأذى بالكنف أن نتختى عند بيوتنا، فانطلقت أنا وأم
مسطح - وهي ابنة أبي ركهم بن عبد مناف وأمها بنت صخر بن عامر
خالة أبي بكر الصديق، وأبناها مسطح بن أيоцен - فأقبلت أنا وأم قيل
بيتي قد فرغنا من شئنا، فعثرت أم مسطح في مرطها فقالت: تمس
مسطح، فقلت لها: باس ما قلت! أعسبين رجلاً شهد بداراً! قالت:
أي هنالك، أو لم تسمعاني ما قال؟ قالت: قلت: وما قال؟ قالت: فأخبروني بقول أهل الإفك؟ فازدادت مرضاً على مرضي.
فدع الله رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب وأسامة
ابن زيد رضي الله عنهما حين استبليت الوعي يستأمرهما في فراق أهله. وقالت: فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم لهم في نفسه من الود، فقال: يا رسول الله، أهلك وما نعلم إلا خيراً، وأنا علي بن أبي طالب فقال: يا رسول الله، لم يُضيق الله عليك، والنساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدقك، قالت: فدع الله رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة.
فقال: لبي، هل رأيت من شيء يريك؟ قالت بريرة: لا والذي بعثه بالحق، إن رأيت عليها أسرأ أعصره سوى أنها جارية حديثة.
السن تنام عن عجبن أهلها، فتأتي الداْجِنُ فتاكله. 

قام رسول الله صلى الله عليه وسلم واقلذ يومنذ من عبد الله ابن أبي بن سلول. قالت: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر: يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني أذه في أهل بيتي فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلا معي، فقام سعد ابن معاذ الأنصاري فقال: يا رسول الله، أنا أعذرك منه، إن كان من الآوس ضربت عنقه، وإن كان من إخوانا من الخزرج أميرنا ففعلنا أمرك، قالت: فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج - وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً، ولكن احتمله الحميَّة - فقال لسعد: كذبت لعمر الله، لا تقتلوا ولا تقدر على قتله، فقام أسيد بن حضير - وهو ابن عم سعد - فقال لسعد بن عبادة: كذبت، لعمر الله لنقتلته، فإنيك منافق تجادل عن المناقنين، فتثاور الحيان الآوس والخزرج حتى همُّوا أن يقتلوا ورسول الله صلى الله عليه وسلم قام على المنبر، فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم ي孵قهم حتى سكتوا وسكست، قالت: فمكثت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع، ولا أكحبو بنوم، قالت: فأصبح أبي وحدي وقد بكيت ليتين ويوماً، لا أكحلي بنوم ولا يرقأ لي دمع يظنان أن البكاء فالق كبدي، قالت: فبينا هما جالسان وحدي وأبناء أبيكي فاستأذنت عليّ امرأة من الأنصار، فأذنت لها فجلست تبكي معي.
قالت: فيننا نحن على ذلك دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وسلمَ ثم جلس، قالت: ولم يجلس عندي منذ ذيل ماه قبلها، وقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأني، قالت: فشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جلس ثم قال: أما بعد، يا عائشة فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسبرتكُ الله، وإن كنت ألمت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه؛ فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه، قالت: فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبي: أجب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال. قال: والله ما أدرى ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم. فقلت لأمي: أجببي رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقلت: ما أدرى ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم. قالت: قلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن: إنى والله لقد علمت، لقد سمعت هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم، وصدقتم به فلئن قلت لكم: إنى بريئة والله يعلم أنى بريئة لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أنى منه بريئة تصدقني، والله ما أجد لكم مثلًا إلا قول أبي يوسف قال: قصر جميل والله المستعان على ما تصفون [يוסף: 18].

قالت: ثم تحولت فاضطرجت على فراشي، قالت: وانا حينذ أعلم أنى بريئة، وأن الله مبهرَني ببراءتي، ولكن والله ما كنت أظن أن الله منزل في شأني وحياً يتلى، ولنشأني في نفسي كان أحرص من أن
يتكلم الله في الأمر يتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم رؤيا يُبشرني الله بها.
قالت: فوالله ما رام رسول الله، ولا خرج أحد من أهل البيت، حتى أنزل عليه، فأخذته ما كان يأخذه من الصرحاء حتى إنه ليتحدر منه مثل الجماع من العرق وهو في يوم شتات من شنّ القول الذي ينزل عليه، قالت: فلما سُرّى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم سُرّى عنه وهو يضحك، فكانت أول كلمة تكلّم بها: "يا عائشة أمّنا الله عزّ وجلّ فقد برّاك"، فقالت أمي: قومي إليه، قالت: فقتلها: والله لا أقوم إليه، ولا أهود إلّا الله عزّ وجلّ، وأنزل الله عزّ وجلّ "إن الذين جاءوا بالإفك عصبة مكّن لا تحسّون إلا العشر أوائل كلها".
فلما أنزل الله هذا في براءتي قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه - وكان ينقف على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره - والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ما قال، فإنزل الله: "ولأ يأتئ أولوا الفضل منكم وسأن تؤوّل أولي القبر والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليّعوا وليصفحوا ألا تبجو أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم" (النور: 22) قال أبو بكر: بلى والله إني أحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينقف عليه، وقال: والله لا أزفعها منه أبداً، قالت عائشة: وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل زينب ابنة جهش عن أمري فقال: يا زينب ماذا علمت أو رأيت؟ فقالت: يا رسول الله، أحمي سمعي وبصري، ما علمت إلا خيراً، وقالت: وهي
المفيد في خطبة الجمعة والعيد

التي كانت تساميني من أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعصموا الله بالورع، وطافت أختها حميتة تحارب لها، فهلكت فيم هلك من أصحاب الإفك".

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: "فإن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تخسروا شرًا لكم بل هم خير لكم لكل أمرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذى توالي كبره منهم له عذاب عظيم (1) لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرًا وقألو هذا إفك تبين (11) لولا جاوه عليهم بأربعة شهداء فإن لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون (12) ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لستكم في ما أفظعن فيه عذاب عظيم (13) إذ تلقؤوه بالستكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتخسبروه هينًا وهو عند الله عظيم (14) ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن تكلمكم بهذا سبحانه هذا بهتان عظيم (15) يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين وربيت الله لكم الآيات والله علم حكم (16) وإن الذين يحرون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلمن وأنتم لا تعلمون (17) لولا فضل الله عليكم ورحمنه وأنان الله رعوف رحيم" [النور: 11]

10 - 11 بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم.

(1) أخرجه البخاري في مواضيع من صحيحه وهذه الرواية في كتاب التفسير، تفسير سورة النور باب: "لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرًا" (475)، ومسلم في التوبة باب في حديث الإفك وقوله توبة القاذف (270)، والترمذي في التفسير باب ومن سورة النور (138)، وأحمد (7/69) وأبو يعلى (439/41)، وعبد الرؤف (4927/91).
الخطبة الثانية
الحمد لله، حمدًا يليق بجلاله وعظم سلطانه، لا يذل من وآله
ولا يعز من عادائه. أحدهم وأشكره، واتوب إليه واستغفره، وأشهد أن
لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن نبينا محمداً عبده ورسوله
صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن تبعهم
بإحسان إلى يوم الدين.
أما بعد: فلئن كان متولي كبر الإفك: رأس المنافقين عبد الله بن
أبي بن سلول وقد ذهب وهلك؛ فإن له خلفاً يوجدون في كل عصر
ومصر، ويجتمعون من كل حدب وصوب. جمعتهم عقيدة النفاق،
ورابطة التلون، يخفون في أنفسهم ما لا يبدو لك. ظاهرهم الإسلام،
وباطنهم كفر وأحقاد، اختلتوا بمجتمع المسلمين، هم من جنسنا-
عرب لا عجم - ويتكلمون بالسنتنا، يظهرون الدفاع عن الأوطان،
ويتطنون العداة لأهل الإيمان، يقيدون المكافئ، ويتربصون بالمؤمنين
الدوائر، (هم العدوُّ فاحذُوهُم قاتلُهم الله أنيِّ يُؤفِّكُونَ) [المافقون: 4].
يفرحون لظهور الكافرين، ويغتمرون لنصر المؤمنين. (إِنْ تُمْسَكْمُ
حِسَانَةٌ تَسْوَهُمْ وَإِنْ تُصَبَّكُمْ سَيِّتَةٌ يُفْرِحُوا بِهَا) [آل عمران: 120].
الجهاد الإسلامي ليس جهاداً عندهم، وإنما هو اقتتال قبائل، أو
تحرير أرض، أو نصر للقومية والوطنية. عندما التقى الجمعان في أحد
انسحب منهم ثلاثينات تخذيلاً، وارجاعاً للمؤمنين (وَمَا أصَابْكُمْ يَوْمَ
الْتَقَى الجَمْعانِ فِيذْنُ اللَّهِ وَلْيَلْعَمَّ الْمُؤْمِنِينَ ۚ) وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم:
 تعالىا قاتلوا في سبيل الله أو أذفوا قاتلوا لو علمنا قلنا لأن يبُعْناكم هم لكثر
يومنا أقرب منهم للإيمان يقرون بأقوامهم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما
يكتمن» [آل عمران: 166, 167] المجاهدون عنهم ثوار: إما ثور
جوع أو ثوار حرب.
كل إنجاز أو خير يحصل للمسلمين ينسبونه إلى أنفسهم وأفعالهم،
وكل مصيبة أو بلاء ينزل بالمجتمع يفرحون به، ويترؤون منه ولو
كانوا هم وراءه.
يريدون من المسلمين أن يثوروا على الإسلام وتعاليهم، ويصفون
العلماء والدعاة والمصلحين بأوصاف منفرة، ويرمونهم بتهم باطلة.
يجدون دس الدسائس، وإلصاق التهم في مظهر الناصح الأمين،
وقصدهم خلخلة الإسلام في القلوب، وزعزعة المجتمعات الآمنة،
ونزع الثقة بين العباد، إيجالًا للصدور، وتفرقة بين الناس، ويعملون
على إيجاد الفجوات بين العلماء والولاية وسائر الناس، حتى يتمكنوا،
ولفسادهم ينشروا.
ولكن كان رسول الله قد آدى رسول الله صلى الله عليه وسلم في أهله؛
فإن فيهم هذا الزمن من يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه
الكرام، والمؤمنين أجمعين، ويسؤون للإسلام في مجالسهم ومنتدياتهم،
وصفحهم ونشراتهم، ومقالاتهم وقصائدهم. فيهم من يستهزؤن بالله
وآياته ورسوله، فيهم من يحبون أن تشع الفاحشة في الذين آمنوا
بذلك المحصنتين الغفلات المؤمنات، وإتهام المؤمنين الصادقين، وفيهم
من يشعرون الفاحشة بتسهيل طرقيها، وإقرار فعلها، بل والتّشجيع على ارتكابها، يدعون إلى الفساد بكل أسلوب، وينشرون الرذيلة في كل مكان، لا يقولون ولا يملون.

وإذا ما افتضح أمرهم، وبان للناس عوارهم ونفاقهم، كتبوا عن محاسن الإسلام مقالة، أو نشروا في آداب الخلاف بين الأمة بيانًا؛ امتضاها للغضب، وخداعاً للعامة؛ حتى يقول العامة: ها هم يكتبون عن الإسلام والدعوة، فلماذا يوصمون بالنفاق والعلمة، وهم يدسون فيما يكتبون حتى عن الإسلام، ويكذّرون عنه بعشرات المقالات في نقد الإسلام وتعاليمه وحملته.

وعند المنافقين: من دعا إلى خير، أو أمر بمروء، أو نهى عن منكر فهو من المجرمين الخارجين المارقين في المناقشات والمفاوضات، فبعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويبغضون أنديهم نساً الله. فنسبهم إن المنافقين هم الفاسقون [ال분ية: 26]. ولشيع أفعالهم، وقيّح صناعهم؛ أمر الله بالغيلة عليهم يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغظه عليهم، وأما في الآخرة ومأواهم جهنم وبنس المصير [البحري: 9]، إن المنافقين في الدار الأبدية من النار ولن تجد لهم نصيرا [النساء: 65]، وعد الله المنافقين والمنافقين نار جهنم خالدون فيها هي حسبي، ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم [ال분ية: 88].

نعود بالله من النفاق وأهله، ونسأل الله تعالى أن يملا قلوبنا بالإيمان.
وأن يثبتنا عليه إلى أن تلقاه.
اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم
إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت
على آل إبراهيم إنك حميد مجيد.

أما بعد: فإن سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم وسته في أقواله وأفعاله، وأخلاقه وإقرارته. في حله وترحاله، وحربه وسلمه، وفي حياته كلها، ومعاملاته مع المسلمين وغيرهم ترسم المنهج الصحيح، وتدل على الصراط المستقيم الذي لن يجد عنه من كان مستمسكاً بالاثر، مستنباً بالسنة. تلك هي الحقيقة التي ضل عنها كثير من المسلمين في عصور الانحراف والانحطاط.

وفي حادثة من حوادث السيرة النبوية وقعت في ربع الأول من
السنة الرابعة من الهجرة (1) يتبين من خلالها غدر اليهود، وعوار المنافقين في آيات تتلى إلى يوم الدين، ذلكم هو جلاء بني النضير عن المدينة النبوية.

لقد كان موقف الناس من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه بعد الهجرة على ثلاثة أقسام:

قسم وادعهم على أن لا يحاربوه ولا يمالئوا عليه عدوه، وهم طوائف اليهود الثلاثة قريظة والنضير وقيقاع.

قسم حاربوا ونصبو له العداء وهم قريش.

قسم تاركون وانتظروا ما يؤول إليه أمره كطوائف من العرب (2).

واليهود لا عهد لهم ولا ذمة ولا أمان; إذ فقروا عهدهم طائفة طائفة. وكذلك فعل بنو النضير فقد روى عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: «أن كفار قريش كتبوا إلى ابن أبي ومن كان يعبد معه الأوثان من الأوس والخزرج، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يومنا هذا بالمدينة قبل وقعة بدر: إنكم آويتكم صاحبنا، وإننا نقسم بالله لنقاتلَته أو لتخرجَته أو لنسيركَن إليكم بأجمعنا حتى نقاتل مقاتلكم، وتستبيح نساءكم. فلما بلغ ذلك عبدالله ابن أبي ومن كان معه من عبادة الأوثان اجتمعوا لقتال النبي صلى الله صلى الله.

(1) انظر: مغازي الواقدي (1/363) وطبقات ابن سعد (2/57) وسيرة ابن هشام (3/267) وجواهر السيرة لابن حزم (1/144).
(2) فتح الباري للحافظ ابن حجر بتصرف يسير (2/383).
إجلاء بني النضير

عليه وسلم، فلما بلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم لقيهم فقال:
«لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم، تريدون أن تقاتلو أبناءكم وإخوانكم» فلما سمعوا ذلك من النبي صلى الله عليه وسلم تفرقوا.

فبلغ ذلك كفار قريش؛ فكتبوا بعد وقعة بدر إلى اليهود: إنكم أهل الحلقه والطهور، وإنكم لتقاتلين صاحبنا أو لنفعلن كذا وكذا لا يحول بيننا وبين خدم ناسكم شيء - وهي الخلاخيل - فلما بلغ كتابتهم النبي صلى الله عليه وسلم وأجتمعت بنو النضير بالغدر.

فأرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: أخرج إلينا في ثلاثين رجلاً من أصحابك، وليخرج ثلاثون حبرًا؛ حتى نلتقي بمكان المتصفح فيسمعوا منك، فإن صدوقوك وآمنوا بك آمنا بك - فقضى خبرهم - فلما كان الغد غدا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكتاب فحضرهم، فقال لهم: «إنكم والله لا تؤمنون عندي إلا بعهد تعاهدوني عليه» فأبوا أن يعترفوا عهداً، فقاتلتهم يومهم ذلك. ثم غدا الغد على بني قريظة بالكتاب، وترك بني النضير، ودعاهم إلى أن يعهدوه فعاهدوه. فانصرف عنهم، وغدا على بني النضير بالكتاب فقاتلهم حتى نزلوا على البلاط فجعلا بنو النضير واحتملوا ما أقثلت الإبل من أمتعتهم وأوبراب بيوتهم وخشبها.

فكان نخل بني النضير لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة، أعطاه الله إياها وخصصه بها فقال: "وما أفاء الله عليهم رسول منه فما
المفيد في خطب الجمعة والعيد

أوَّجَفْتُ عَلَيْهِ مِنْ حَيْلٍ، وَلَا رَكَابٍ [الحشر: 6] يقول: بعير قنال، فأعطى النبي صلى الله عليه وسلم أكثرها للمحاربين وقسمها بينهم، وقسم منها لرجلين من الأنصار وكانا ذوي الحاجة لم يقسم لأحد من الأنصار غيرهما، وبقي منها صدقة رسول الله صلى الله عليه وسلم التي في أبيي بني فاطمة رضي الله عنها» أخرجه عبدالرزاقي وأبووادود وابن مردويه وصححه الحافظ.

وتذكر كتب السير قصة غدر آخر كانت أيضاً من أسباب جائلهم عن المدينة، وهي: «أن النبي صلى الله عليه وسلم ذهب إليهم ليستعين بهم على دية قتيلين معاهدين، فلما كلمهم قالوا: نعم، فقد عد رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أبي بكر وعمر وعلي ونفر من أصحابه إلى جدار من جدرهم. فاجتمع بنو النضير وقالوا: من رجل يضهد على ظهر البيت فيلقع على محمد صخرة فيقتله، فريحنا منه؟ فاتدبه لذلك عمرو بن جحاش بن كعب، فأوحى الله تعالى بذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام ولم يشعر بذلك أحداً من أصحابه ممن معه. فلما استلبه أصحابه رضي الله عنهم قاموا فرجعوا إلى المدينة».

(3) أخرجه عبدالرزاقي في المصنف (973/2) وأبووادود في الخراج والإمارة والفيء باب في خبر النضير واللفظ له (4004) والبيهقي في السدائل (178/3) وعزاز الحافظ في الفتح لابن مردوية وصحح إسناط (785/2) وله شاهد من حديث عائشة رضي الله عنها عند الحاكم وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبى (525/2) برقم (7997).
وأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرهم بما أوحي الله تعالى إليه مما أرادته اليهود، وأمر أصحابه بالتهيؤ لحربهم، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم. ونُهِض إلى بني النضير فحاصراهم ست ليلًا، فتحملوا منه في الحصون، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقطع النخل وإحراقها. ودعَ عبد الله بن أبي بن سلول ومن معه من المنافقين إلى بني النضير: فإنا معكم، وإن قوتنا قاتلنا معكم، وإن إخراجهم خرجنا معكم، فاغتروا بذلك، فلم جاءت الحقيقة خذلوهم وأسلموهم، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجلبهم ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أمولهم إلا السلاح فاحتموا بذلك إلى خيبر ومنهم من صار إلى الشام. أخرجه أهل السير مرسلاً.

وقد كان جلاؤهم من المدينة رحمة لهم كما قال الله تعالى (وَلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ عِلْمَ إِلَيْهِمْ عَدْمَ إِلَيْهِمْ [الجُلُدُ: 8] وذلك بالقتل والسبيل كما كان مصيرٌ إخوانهم بني قريظة.

وقد أخذ الفقهاء من قطع النبي صلى الله عليه وسلم بعض نخيل النضير وإحراقها أن الحكم الشرعي في أشجار العدو وإتلافها منوطٌ بمايراهم الإمام أو القائدٌ من مصلحةٍ في النكبة بال العدو، وأن ذلك من قبل مايدخل تحت السياسة الشرعية، قال ابن عمر رضي الله عنهما:

(4) انظر: سيرة ابن هشام (2/180) ودلائل النبوة للبيهقي (3/217) وجامع السيرة لأبي حزم والنظف له (144) وفتح الباري (7/385).

(5) انظر: شرح النووي على مسلم (5/192) وفته السيرة النبوية للبوطي (192).
السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية للدكتور مهدي رزق الله (423) وهذا هو مذهب الجمهور نافع ومالك والثوري وأبي حنيفة والشافعي وأحمد وإسحاق وغيرهم، وعدم جواز قطعهم قال به: الليث وابن ثور والأوزاعي والأول أرجح للنص، ولعدم الدليل على الخصوصية.

(6) أخرجه البخاري في المغازي باب حديث بني التضير (314) ومسلم في الجهاد والسير باب جواز قطع أشجار الكفاف وتحريتهما (1746) وأبو داود في الجهاد باب في الحرق في بلاد العدو (315) والترمذي في السير باب التحريك والتخريب (1552) والنسائي في التفسير (593).

(7) فتح الباري (7/474).

(8) أخرجه البخاري في المغازي باب حديث بني التضير (303).
وأنزل الله في شأنهم وما حدث لهم من الخوف والرعب والحصار والجلاء سورة تلتها إلى يوم القيامة هي سورة الحشر، وقد كان ابن عباس رضي الله عنهما يسميها: سورة النضير، كما أخرج البخاري من حديث سعيد بن جبير رحمه الله تعالى قال: "قلت لابن عباس: سورة الحشر، قال: قل: سورة النضير" (9)

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم (1) هو الذي أخرج الذين كفرّوا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظلمت أن يخرجوا وظنا أنهم منعتهم حصنهم من الله فقاتهم الله من حيث لم يحسبوا وقفا في قلوبهم الرغب يخرجون بيونهم بأيديهم وآيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولاى الأنصار (2) ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لغذبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار (3) وذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب (4)

[الحشر] بارك الله لي ولكلكم في القرآن العظيم...

الخطبة الثانية

الحمد لله حمدًا طيبًا كثيرًا مباركاً فيه كما يحب ربي ورضي، أحمده وآسركه، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن حادثة النضير وإجلاله كم عن المدينة تنظري على

(9) أخرج جابر البخاري في المغازي باب حديث بني النضير (2940).
آيات وعبر يجب أن يعتبر بها المؤمنون، فعلى الرغم من حصون اليهود
المنيعة وكثرته العدد ووفرة الغведения، فإنهم نزلوا على حكم رسول الله
صلى الله عليه وسلم، وخرجوا من حوصونهم أذلة، وقبلوا الجلاء!!
فما الذي أخرجهم من حوصونهم؟

[المصدر: 31] إنه الرعب، جندي الله الخفي، الذي لا يتفعل معه عدد
ولا عدد، ولا قوة ولا شدة، فالأمير الذي يحتسبونه ويعظون أن الخلل
يدخل عليه من دخل، هو الحصون التي تحسنوا بها، وأطمانت
نفوسيهم إليها. ومن وثيق بغير الله فهو مخصول، ومن ركن إلى غير
الله كان وبالا عليه، فأتاههم أمرُ سماوي نزل على قلوبهم التي هي محل
الثبات والصبر أو الخور والضعف، فزعزعها وحِزها، وأزال قوتها
وثبتها، وشدتها وباسها، وأورثها ضعفاً وخروناً وذلاً لا حيلة
لهم في دفعه ولا رفعه (10)، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا، وقذف في
قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأنصار
لا حق ولا دين، اعتبروا؛ لأن الموطن موطن اعتبار، اعتبار للمؤمنين
أن لا يخفوا عدوهم، ولا يرهبوا ترسانته النووية، لأن الرعب أمضى،
وجنذ الله أقوى، ووالله ما تترس الأعداء خلف هذه النوويات المخيفة،
والكيميائيات المهلكة إلا من رعب في قلوبهم، وهلع في أوضاعهم،
(10) بتصرف من تسير الكريم الرحمن للشيخ السعدي (5/3/202).
وجوح يلفهم من كل جانب. وإنك لتشاهد صوراً من هذا الربع تدعو للاعتبار، حينما ترى اليهود المدجنين بالسلاح المتطور يتردون في مواجهة عزلٍ يرشقونهم بالحجارة.
وينبغي أن يزيد اعتبارك حينما تعلم عن تقارير تصف الحالة النفسية السيئة لليهود في فلسطين، وأن الخوف والقلق يصبح معهم ويمسي، ويأكلون معه ويشرون. ويتكرد ذلك أكثر لمن تأمل تصريحات قادتهم، وتمارير منظريهم من المستقبل الغامض لديهم، واحتمالات انفجار الوضع في أي لحظة.
هم لا يخفون الحمائم العلمانية المنافية؛ لأنها شريكة لهم في فصول المسرحية الهزلية، وما كان أمن اليهود إلا من خلال أفعالها؛ ولكن اليهود يخشون - كما يخشى إخوانهم المنافقون - انضاجة الصقر الإسلاميه الصادقة.
والجميع: اليهود والمنافقون يخشونها أشد حشية؛ حتى إنهم يخشون المؤمنين أشد من خشيتهم لله تعالى، ولكن حين يأذن الله بها فلن ينفع اليهود بالمنافقين، ولا المنافقون باليهود، فهل ترى إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لن أخرجُ منكم لعَن أخَروجُ نُصرُونَا لعَن أخَروجُ فيكم أحداً أبداً وإن نُصرُونا لنصيرُكم والله يشهِد إنهم ل كاذبون (11) لن أخرجوا لا يخرجون معهم ولن نُصْرُونَا لا يُنصرُونَا ولن نصورهم لولي أن الأذان ثم لا يُنصُرُونَا (12) لأنتم أشد رهبة في صدوركم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أور من وراء جدر بأسهم بينهم (13)
شديد تحسُّبهم جميعًا وقلوبهم شتّى ذلك بأنّهم فَوْمَ لا يَعْقُلوُنَّهُمْ [الحجر: 11 - 14].
ولكن خذل ابن أبي ومن معه من المنافقين إخوانهم يهود النصير، وتخلو عنهم لما جد الجن، وحصل الحصار، وتم الجلاء؛ فإن يهود اليوم ومنافقيهم سيتخلى كل طرف منهما عن صاحبه، وستعلن كل أمة منها أختها، وذلك حينما يعود المسلمون إلى كتاب ربهم وسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم، ويعثروا شعيرة الجهاد من جديد؛ فتحقق الوعد الحق بنصر المؤمنين على عدائيهم وكان حقًا عليهًا نصر المؤمنين [الروم: 47] وإنا ننصر رسالنا والأذين آمنوا في الحياة الدنيا [غافر: 51] ونحن جندها لهم الغالبون [الصافات: 67] ألا وصلوا وسلموا على محمد بن عبّاد الله كما أمركم بذلك ربك...
الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرر أنفسنا، ومن سائر أعمالنا، من يهدى الله فلأضل له، ومن يضل فلادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبد ورسوله، {يا أيها الذين آمنوا أن تقولوا الله حق نطقه ولا تموتون إلا وأنتم مسلمون} [آل عمران: 20]. {يا أيها الناس أثناكم رتبكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقنوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً} [ النساء: 1]. {يا أيها الذين آمنوا أن تقولوا الله وقولوا قولأ سديدًا} ({بصيح لكم أعمالكم ويعفر لكم ذنوبكم}).

ومن يطبع الله ورسوله فقد فاز فوزًا عظيمًا {الأحزاب: 70-71}. أما بعد: فإن خير الكلام كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكلي محدثة بدعاء، وكل بدعة ضلاله، وكل ضلالة في النار. أيها الإخوة المؤمنون: نظل السيرة النبوية - وهي تحكي حياة أفضل البشر وأحواله وأيامه - معيناً لا ينضب، وحديداً لا يمل، ومصدراً يهدي العباد للتي هي أقوم، في كل أمر يحتاجونه. إنها سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصحبه الكرام رضي الله عنهم وأرضاهما، سيرةً فيها أمل لليانسين، وسولان للمغممين، ووعوض للموتورين، تسجل تلك السيرة العطرة أنه كان ليهدو خيبر.
موعد مع جيش رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصاحب الكرام رضي الله عنهم وأرضاهما في أول شهر من السنة السابعة من الهجرة المباركة، ويحلو الحديث عن خير وأحاديثها في محرم؛ لأنها وقعت فيه، وعن اليهود؛ لأن حديث العالم اليوم عن اليهود.

كانت خير آنذاك مدينة كبيرة، ذات حصور منيعة، ومزارع مشترء، وكان يهودها قد حزبوا الأحزاب من قبل ضد المسلمين، وأشاروا على بني قريظة بالغدر والخيانة، وما زالوا يتصلون بالمنافقين في المدينة لتأثير القلاقل، ويث شائعات، والإضرار بالمسلمين، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُرجى قتالهم لانشغاله بكفار مكة عنهم، وكانت الفرصة مواتية لغزوهم حينما تم صلح الخدبية، والاتفاق على إيقاف الحرب بين الجيش المدني المؤمن والجيش الكافي الكافر، فنفر رسل الله صلى الله عليه وسلم وصحابته ليهود خير بعده هذا الصلح مع قريش، وقد وعدهم الله تعالى عقب هذا الصلح معنام خير بقوله تعالى: (واعدهم الله معنا نكرانًا تأخذونه فعمل لكم هذا) [الفتح: 20] قال المفسرون "فعجل لكم الصلح مع قريش لغزو خير وأخذ معنامها" (1).

ورد هذا في حديث مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة أنهما قالا: "انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخدبية فنزلت عليه سورة الفتح، فيما بين مكة والمدينة فاعظته الله عز وجل فيها خير..." أخرى البهيج في دلائل النبوة (4/197) وذكره الحافظ في الفتح (7/44) وقاله مجاهد كما في تفسير ابن كثير (7/272) وانظر: زاد المعاد (3/317) وسيرة ابن كثير (3/244).

(1)
وكعاده المنافقين في كل وقت محاولة قطف الثمار التي لم يزرعواها، وسرقة نتائج جهاد وجهود الآخرين، فأرادوا الانضمام إلى جيش المدينة المؤمن؛ لأنهم علموا أن المؤمنين موعودون بالنغاشم من قبل الله تعالى، والله لا يخلف الميعاد، فتبث للمنافقين كيف يعلمون أن محمدًا رسول الله تعالى، وأنه بالنصر موعود، ولم يؤمنوا! بل لم يدفعوا أذاهم عن المؤمنين! ولكن المنافقين لم ينالوا ما أرادوا، فقد أنزل الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم قوله تعالى: {سيقولون المخافون إنا نعلم ما انطلقتم إلى مغامتم لنا أخذوا ذرونا تبعتكم يريدون أن يبتلعوا كلام الله قل أن تبعتنا كذلك كالفيل من قبل فسيقولون بل تحصدوننا بل كانوا لا يفهمون إلا قليلاً} [الفتح: 15]. وأعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يخرج معه إلا راغب في الجهاد، وأما الغنيمة فلا، فخرج أصحاب الشجرة، وهم ألف وأربعين.

وكما هي عادة المنافقين: خيانة المؤمنين في الساعات الحرجة، والمواجهات العصبية؛ فإن رأسهم آنذاك عبد الله بن أبي بن سلول راسل بهدف خبر يخبرهم بعزم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه على المسير إليهم.

سار رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم إلى خيبر، قال سلمة بن الأكويع رضي الله عنه: "خرجنا مع النبي".

(2) طبقات ابن سعد (2/106) وسبل الهدى والرشاد (5/115).
(3) الرحيق المختموم (365).
صلِّي الله عليه وسلم إلى خيبر، فسرنا ليلاً، فقال رجل من القوم لعمر بن الأكوع: ألا تسمعنا من هنئياتك - وكان عامرُ رجلاً شاعراً - فنزل بحذو بالقوم يقول:

اللهِم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلِّنا
فاغفر فداء لك ما اتقينا وألقِين سكينة علينا
وثبت الأقدام إن لاقينا إذا صيح بنا أتينا
وبالصباح عُولِّو عَلَّنا

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من هذا السائق؟ قالوا:

عوامُ بن الأكوع، قال: يرحمه الله، وفي رواية: غفر لك ربُّك، قال:

وما استغفر رسول الله صلى الله عليه وسلم لنسان يختصه إلا استشهد
فقال عمر وهو على جمل: وجبت يا رسول الله لولا أمعنتا بعامر أخرجه الشيخان(4). ووقع ذلك فاستشهد عامر رضي الله عنه في هذه الغزوة، وهذه من آيات نبوته صلى الله عليه وسلم.

وأشرف المسلمون على وايد رفعتوا أصواتهم بالتكبير، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أرعبوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصمٌ ولا غابباً، إنكم تدعون سمعاً قريباً» أخرجه الشيخان(5).

(4) أخرجه البخاري في المغازي باب غزوة خيبر (116) ومسلم في الجهاد باب غزوة خيبر (2 ح - 180).

(5) أخرجه البخاري في المغازي باب غزوة خيبر (42) ومسلم في الذكر والدعاء باب استحباب خفض الصوت بالذكر (472) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.
ووصل المسلمون قريباً من خيبر فباتوا، وكان من هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتى قوماً بليل لم يقربهم حتى يصبح، وفي تلك الليلة - ليلة دخول خيبر - قال النبي عليه الصلاة والسلام: «لأعطني الرأية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله»، فلمما أصبح الناس غدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، كلامهم يرجو أن يعطاه، فقال: أين علي بن أبي طالب؟ فقالوا: يا رسول الله، هو يشتكى عينيه، قال: فأرسلوا إليه، فأتي به، فبصر رسول الله صلى الله عليه وسلم في عينيه، ودعا له، فبهرع كأن لم يكن به وقع، فأعطاه الرأية، فقال: يا رسول الله، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ قال: انفذ على رسلك، حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يحب عليهم من حق الله فيه، فقال: لأن يجيء الله بك رجلاً واحداً خيراً كلك من أن يكون لك حُمْرُ النَّعَم»، أخرجه الشيخان.

فلما أصبح صلٍّي الفجر بغسل، وركب المسلمون، فلما أشرف على خيبر، تضرع إلى الله قائلاً: «أللهم رب السماوات وما أطلن، ورب الأرضين وما أطلن، ورب الشياطين وما أطلن، ورب الرياح وما أذرن، فإنما سالك خير هذه القرية، وخير ما فيها، ونعود بك من».

(7) أخرجه البخاري في المغازي باب غزوة خيبر (241) ومسلم في فضائل الصحابة باب فضائل علي رضي الله عنه (240) وله روايات أخرى في الصحيحين وغيرهما.
شرهًا، وشر أهلها، وشر ما فيها» أخرجه الطبرانی فی الكبير
ولم يشعر اليهود بمقدم المسلمين، فخرجوا على عادتهم إلى مزارعهم
بمساحتهم ومكاتبهم، فلما رأوا الجیش قلوا: محمد، والله محمد والخمیس
- أي الجیش - ثم رجعوا هاربين إلى مدینتیم، فقول النبی صلی الله
عليه وسلم: «الله أكبر، خربت خرب، الله أكبر، خربت خرب»، إذا إذا
نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين» أخرجه الشيخان.

كانت خبر موحصنة بحصون ثمانیة، تساقط بعضها فی أيدي
المسلمین، وبعضها تماکس وظل منعاً، فضرب المسلمون الحصار عليها،
وطال الحصار حتی جاع المسلمون، وهموا بآل الحمر، قال عبد الله

(7) أخرجه النسائی من حدیث صهیب رضی الله عنه فی عمل اليوم والليلة من
السن المکرم (582-571) والبههی (527-516) وابن عیاث (729)
وصححه ابن حبان (677-627) وابن هبه (686-676)
و(666-646) كله مدون ذكر خبر بلفظ: «آن رسول الله صلى الله عليه وسلم
لم ير قربه بید دخولها إلا قال حين يراها...» وقال البهیمی فی الزواید:
«دیة الرجال الصحيح غیر عضاء بن أبي مروان وأبيه وكلاهما ثقة». وأخرجه
الطبرانی فی الكبير من حدیث أبي مروان الامسیكي عن أبي متعب بن عمرو أن
رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أشرف علی خبر قال لأصحابه وأنا فيهم:
فلأغرًا ثم قال: ... فذکره، وقال البخاری فی تلك الروایة بعد أن ساقها فی
التاريخ الكبير (671): «ولا يصح هذا» وحسنه الامسیكي فی فقه السیرة
للبغزائی (586) باعتبار حديث صهیب شاهدًا له (671)
(8) أخرجه البخاری فی المغزایی باب غزوة خیبر (417) و المسلم فی الجهاد باب
غزوة خیبر (586).
ابن أبي أوفى رضي الله عنه: «أصابتنا مجاعة ليالي خيبر، فلما كان يوم خيبر وقعنا في الحمر الأهلية، فاتحدناها، فلما غلبها القدر؛ نادى منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أكثروا القدر، ولا تأكلوا من حوم الحمر شيئاً رواه الشيخان».

واستند الخصائص على اليهود، وطال على المسلمين - أربعة عشر يومًا - حتى هم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يضربهم بالمنجنيق، فلما أيقنوا بالحيلة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلح، فصالحهم على حق دماء من في حصونهم من المقاتلة، وترك الذريه لهم، وخرجون من خيبر بذراتهم، وأما الأرض والأموال - الذهب والفضة، والكراث، والخليفة، والبرز - فللمسلمين إلا ثوباً على ظهر إنسان، وفي رواية: أن لهم أن يأخذوا ما تحمل ركابهم، وبعد هذه المصالحة سلموا الحصون للمسلمين، وتم فتح خيبر.

كان كفار مكة يتحسسون الأخبار لعل جيش الإيدين يهزم أمام هذه الحصون المديدة ولكن الله تعالى أراهم ما يكرهون.

وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجلي اليهود منها، فقالوا: يا محمد، دعنا نكون في هذه الأرض نصلحها ونقوم عليها، (9) أخرج البخاري في المغازي باب غزوة خيبر (421) ومسلم واللفظ له في الصيد والنبلاء وما يؤكل من الحيوان، باب تحرير أكل الحم الخمر الإنسانية (1937).

(10) انظر: البداية والنهاية (199/4) وزاد المعاد (3/325) والسيرة الخليلية (2/744).
فنحن أعلم بها منكم، ولم يكن لرسول الله صلى الله عليه وسلم غلمان يقومون عليها، ولم يكن هو وأصحابه فارغين حتى يقوموا عليها، فأعطاه خيبر على أن لهم الشطر من كل زرع ومن كل ثمر، ومتى أراد المسلمون إخراجهم منها خرجوا، فقروا زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم خلافة الصديق رضي الله عنه، فلما كانت خلافة عمر رضي الله عنه غشوا المسلمين، وألقوا عبد الله بن عمر رضي الله عنه من فوق بيت فدفعوا يده، وأنتموا بقتل رجل من الأنصار فخطب عمر رضي الله عنه في الناس قائلاً: "إن رسول الله كان عامل يهود خيبر على أن نخرجهم إذا شئنا، وقد عدوا على عبد الله بن عمر فدعوا يديه كما قد بلغكم، مع عدوهم على الأنصاري قبله، لا نشك أنهم أصحابه، ليس لنا هناك عدو غيرهم، فمن كان له مال بخير فليلحق به فإني مخرج يهود، فأخرجهم".

(11) أخرجه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أبو داود في الخراج باب ما جاء في حكم أرض خيبر (629/4) والبيهقي في السنن (114/6) وفي دلائل النبوة (629/4) وصححه ابن حبان (5199) وانظر أيضاً: صحيح البخاري كتاب المغازي باب معاملة النبي أهل خيبر (4248) وصحيح مسلم كتاب المسافة باب المسافة والمعاملة بجزء من الشمر والزهر (1551).

(12) أخرجه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أحمد واللفظ له (15/1) وأخرجه أبو داود مختصراً في الخراج باب ما جاء في حكم أرض خيبر (4248) والبخاري في البصيرة في الزهار (1514) وابن عبد البر في التمديد (642/4) وصححه الشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند (90) وأخرجه البخاري بتحويه في الشروط باب إذا اشترط في المزارة: إذا شئت أخرجتك (2732-42).
أيها الإخوة: كُانت هذه الغزوة حافلةً بالأحداث الكثيرة المثيرة، ووقع فيها من الآيات والمعجزات ما يزيد إيمان المؤمنين، ومن ذلك: أن امرأة يهودية بعثت بشاة مسمومة مصلية إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنهسا من كتفها نهساً ثم لفظها وقال: "إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم"(١٣).

وفي هذه الغزوة قدم جعفر بن أبي طالب ومن معه من الأشجعيين رضي الله عنهم من أرض الحبشة، وكانوا قد هاجرنا إليها زمن إيذاء المشركين في مكة، فأسهم لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفرح بقدوم ابن عمه ومن معه وقال: "وأيما أدرى بأيما أفرح، فبفتح خير أم يقدوم جعفر؟!"(١٤)، وقدم كذلك أبو هريرة ومن معه من الدوسيين (١٣)

(١٣) خبر الشاة المسمومة أخرجه البخاري في الهبة باب قبول الهدية من المشركين (٢٦١٧) ومسلم في السلام باب السم (٢١٩) من حديث أنس رضي الله عنه، وخبر إخبار العظم له انظره في: تاريخ الطبري (٢/١٣٨) وسيرة ابن هشام (٣/١٢٠) والدرر لابن عبد البر (١/١٤٠) وسيرة الحلبية (١/٢٤٣) ودلائل النبوة (٤/١٦٦) والبداية والنهاية (٦/٢١١) وزاد المعاد (٣/٣٥) ووسيلة النجاة (٥/١٣٤).

(١٤) أخرجه مرسلاً عن الشعبي ابن أبي شيبة في مصنفه (٣٢٣) وابن سعد في الطبقات (٣/٤٤) والطحاوي في شرح معاني الآثار (١/٤٤) والطبراني في الكبير (٢/٨٧) بروق (١٤٦٩) وأخرجه مسندًا من حديث الشعبي عن جابر رضي الله عنه الحاكم وصحبه ووقفه الذهبي (٢/٦٠٤) وأخرجه من حديث أبي جعفة عن أبي الطبراني في الكبير (٤/٨٠٠) بروق (١٤٧٠) وفي الأوسط (٣/٣٠٣) وفي الصغير (٣/٣٠٣) ورسالة، وحسن الآلباني في فقه السيرة للغزالي (٣٠٠).
مسلمين، فاعطاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الغنائم برضا الغانم(١).

ويفتح خير شبع المسلمين من التمر، قالت عائشة رضي الله عنها لما فتحت خير: «الآن نشبع من التمر»، وقال ابن عمر رضي الله عنهما:

"ما شبعنا حتى فتحنا خير" أخرجهما البخاري(١١).

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ١٩٠٩ لفد رضي الله عن المؤمنين إذ يابونك تحت الشجرة فعلمت ما في قولهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبًا (١٨) ومغانهم كثيرة تأخذونها وكان الله عزرا حكيمًا (١٩) وعدكم الله مغانهم كثيرة تأخذونها فجعل لكم هذه وكفاف أبد الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطًا مستقيماً (٢٠) وأحرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شيء قديرًا» [الفتح: ١٨ -٢١] بارك الله لي و لكم في القرآن العظيم...

الخطبة الثانية

الحمد لله حمدًا يليق بجلالة وعظمةه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آل وصحابه ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله - أيها المؤمنون - فتقوى الله تعالى سبب للتوفيق في الدنيا، والفوز في الآخرة.

(١٥) أخرجه عبدالرئاح في المصنف (٢٥٦٧).
(١٦) صحيح البخاري كتاب المغازي باب غزوة خير (٤٢٤٦) و (٤٢٤٣).
أيها الإخوة المؤمنون: إن اليهود على ما ألف المسلمون من حروبهم لا يعتمدون على تسرب الجيوش في الفضاء الرحب، تصيبُ وصابُ منها، إنهم يكرهون اللقاء في تلك الميدان المكشوفة، ودِينهم الذي لا ينفكون عنه هو الكفاح من وراء الجدران(17)، كما أخبر القرآن العظيم عليهم: [لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيُّا إلَّا في قُرْرٍ مُّحْصَنَة أو مِّرَاءٍ جُدَّرٍ] (الحجر: 14). ولا يخرجون للمواجهة إلا حينما تكون أبادي خصومهم مغلولة حينها تبرز شجاعتهم التي تدك الأرض دكًا، وتمزق العهود والمواثيق تزيفًا. تلك العهود والمواثيق التي ما سالت الأحداث تلم الأحداث تثبت أن اليهود ليسوا أهلاً للوفاء بها، وهي الحقيقة التي قررها القرآن قبل أن تقرر الأحداث، وهي حقيقة أمر من العلم على نفس قوم تهاونوا بالقرآن، قولاً وعملاً، ولا زالوا يظنون بأعدائهم خيراً، رغم أن أعداءهم يضمنون لهم الشر والضيغينة!! 

وإذا كان اليهود قد استطاعوا أن ييرهنوا للعالم بأن شؤونهم الداخلية التي تخصهم وحدهم مؤثرة في العالم كله، وتهم الناس كلهم(18)؛ 

(17) فقه السيرة النبوية للغزالي (٣٤١).
(18) هذا إشارة إلى انتخابات اليهود التي تقام هذه الأيام ويتناقص فيها حزب الليكود وحزب العمل، وأكثر العرب يريدون فوز حزب العمل لدعمهم أنه أكثر فهماً، خاصة باسر عرفات الذي يتصرفه من خلال تلك الانتخابات، وكذلك الرئيس الأمريكي كلينتون؛ لذا فإن إذاعات العالم وقنوات التلفزيونية والصحف والمجلات ليس له هم هذه الأيام إلا تلك الانتخابات وانسحاب ذلك على مجالات العامة والخاصة حتى إنك تسمع هذا الموضوع في كل مكان، فهذا المستعان.
فإنهم لن يستطيعوا أن يزيلوا كراهيتهم من قلوب المسلمين، ولن يثابوا أنهم ليسوا بأعداء؛ لأن القرآن يثبت أنهم أعداء، "لتجدن أشد الناس عداوة للذين أنمنا اليهود والذين أشركونا" (المائدة: 82). وتلك عقيدة يعتقدها المسلم، ودين يدين الله تعالى به في كل ركعة يصليها الله تعالى، "اهدنا الصراط المستقيم" (الصافات: 6-7)، وسيعجز اليهود بقوتهما وأموالهما، ومكرهم ودهائهم عن إزالة هذا القرآن، أو محاوه؛ لأنه محفوظ بحفظ ربي العالمين، وخلق اليهود والناس أجمعين، "إنا نحن نزلنا الذكر وإنا لحافظون" (الحجر: 9).

وضعف المسلمين وعجزهم كان سبباً في قوة اليهود وتسلطهم وغيهم، وهو من نتائج الذنب والمعاصي التي تورث كل ذلة، وتسبب كل مصيبة، وحين يرجع المسلمون إلى دينهم أفراداً وجماعات فسوف يرفع الدله عليهم، وتعود اليهود كما كانت عليهم، حتى يقاتلهم المسلمون فينطبق الحجر والشجر يقول: "يا مسلم يا عبادة هذا يهودي خليفي فتعال فإنه إذ أفرقت فإنه من شجر اليهود" كما صح بذلك الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (19)، فعوذاً إلى الله يا عبادة الله عوداً.

(19) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في الجهاد باب قتال اليهود (2926) وسلم في الفتي باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل. (2927) واللفظ له. وأخرجه من حديث ابن عمر رضي الله عنهم البخاري (2925) وسلم (2921).
أصلحوا أنفسكم وبيوتكم، وانشروا الصلاح بين الناس، ومروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر؛ فإذا تحقق ذلك جاء العز والنصر، ورفع الذل والهوان، وإذا كان غير ذلك فمزيد من الهوان، وعذاب الآخرين أخير وهم لا ينصرون.

ثم صلوا وسلموا على نبيكم كما أمركم بذلك ربككم...
الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعزذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدى الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ﷺ ﴿يا أيها الذين آمنوا إتقوا الله حق ثقافته ولا تموتون إلا وتأتكم مسلمون﴾ (آل عمران 101) ﴿يا أيها الناس إتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجاً وثنت منهما رجلاً كثيرة ونساءً إتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا﴾ (النساء 129) ﴿يا أيها الذين آمنوا إتقوا الله وقولوا فوا سيدنا يصلكم نجاحاً ويعفر لكم ذنوبكم ومن بيعت الله ورسوله فقد فاز فرداً عظيماً﴾ (الإحزاب 71). أما بعد: فإن رمضان يرتبط بمكة حيث كان المباهت والرسالة، ونزول القرآن، فهي البلد المقدس، وهو الشهر العظيم. فكيف إذا انضم إلى ذلك أن تطهيرها من الرجس والأوثان على يد أهل الإيمان كان في رمضان.

هي البلد الحرام، فيها ولد سيد الأنام، عليه الصلاة والسلام، عاش يئبه فيها، وعرفته جبالها وسهلها زمن صباها راعياً لأغناه نقيشاً على قرايط يعين بها عمه الفقير.

فيها زوج وانجب، وكُلف وبعث؛ ليخرج الناس من الظلمات
إلى النور، فشهدت مكة إيذاء المشركين له ولأتباعه الذين آمنوا. كما سجل تاريخها قوة إيمان أنباءهم وشدة بأسهم، وصلاةهم في الحق، أذنبا فما ارتدوا، وأخرجوا من ديارهم فخرجوا، وخلعوا من أموالهم فانخ楽وا.

فرقتهم قريش عن آبائهم وأبنائهم ونسائهم فتفرقوا. هاموا في الأرض، وهاجموا إلى البلدان، وهجروا الراحة والأمان، وانطلقوا من الغناء إلى الفقر، ومن الاستقرار إلى التشريد، كل ذلك ابتلاء رضوان الله تعالى، فلله كم ضحوا؟ وكهم صبروا فما وجدوا وما أصابهم في سبيل الله وما ضعموا وما استكانوا والله يحب الصادقين [[147]] [ال عمران].

خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من بلد الله الحرام التي ولد فيها وشب وترعرع، خرج مهاجراً مستخفياً من قريش وشدتها وبطشها، وماهي إلا رمضانات سبع حتى يعود إليها فاتحاً منشوراً مؤزراً، يظهرها من الشرك والوثنية، ويعلن فيها التوحيد بكرب العالمين.

خرج منها مستخفياً خوفاً من قريش، وعاد إليها وقريش تخفافه.

إن هذا الزمن الذي كان بين خروجه جداً وعودته فاتحاً أشبه ما يكون بأسطورة يتسال بها أهل الحكايات؛ لكن هذا الزمن حقيقة من الحقائق، جلتها رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحب الكرام، بصدق الإيمان، وصحة المنهج، وتحقيق الإخلاص، وإيثار الله تعالى ورسله صلى الله عليه وسلم على كل شيء؛ ولا أدل على ذلك من فعل أم حبيبة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما جاء أبوها
أبو سفيان لتجديد العهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن نقضته قريش، فدخل على ابنته أم حبيبة، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم طوجه عنه، فقال: «يا بنيّة، أرغبتي بي عن هذا الفراش؟ أم رغبت به عني؟ قالت: بل هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنت رجلٌ مشركٌ نجس، فقال: والله لقد أصابك بعدي شر» (1).

لقد ذُهِب أبو سفيان لما رأى من إثارة ابنته أبداً عليه وهو أبوها؛ لكن هذا المقدم عليه ليس كسائر الناس، إنه رسول الله صلى الله عليه وسلم إمام المرسلين وخاتم النبيين.

خرج عليه الصلاة والسلام من المدينة إلى مكة عازماً فتحها لعشرة أيام خلت من رمضان في السنة الثامنة من الهجرة (2)، كان صائماً والمؤمنون معه صيام حتى بلغ الكبد فأفتر وافتر الناس معه (3) وأوقدت نيران الجيش، عشرة آلاف نار أرهبت قريشاً وأرعبتها.

(1) سيرة ابن هشام (226/5/120) وانظر: تفسير ابن جرير (792/2).

(2) ورد ذلك في حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند ابن إسحاق وقال الهيثمي: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع فالحديث صحيح، انظر: مجمع الزوائد (2/124) وفتح الباري (4/181).

(3) كما جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند البخاري في المغازي باب غزوة الفتح في رمضان (4275) وسلم في الصيام باب جواز الصوم والفطر في شهر رمضان في غير معصية (1113) وفي رواية أخرى لمسلم أن الإفطار
وخرج أبو سفيان - سيداً قريش وكبيرة - ينظر الخبر، فلقية
العباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأدرسه خلفه على بغلة
رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلطب له الأمان، فأبصروه عمر بن
الخطاب وكان قائد الحرس تلك الليلة، فلما رأى أبا سفيان قد أدرسه
العباس قال: أبا سفيان عدو الله؟ الحمد لله الذي أمكن منك
بغير عقد ولا عهد، قال العباس: ثم خرج عمر يشتدد نحو رسول الله
صلى الله عليه وسلم وركضت البغلة فسبقت، فاقتَحمت عن البغلة
فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل عليه عمر فقال:
يا رسول الله، هذا أبا سفيان قدعني أضرب عنقه، فقال العباس: إن
قد أجرته، ثم جلست إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذت
برأسه فقلت: والله لا ينانيه الليلة أحد دوني.
فلما أكثر عمر في شأنه قلت: مهلاً يا عمر، فوالله لو كان من
رجال بني عدي بن كعب ما قلت هذا، قال عمر: مهلاً يا عباس
فوالله لإسلامك كان أحب إليّ من إسلام الخطاب لو أسلم، وما بي
إلا أنني قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه
وسلم من إسلام الخطاب.

كان في (كراع الغامم) (114) وفي سيرة ابن هشام أنه كان في عسفان
(4/10) والكديد: عين جارية تبعد عن مكة ستة وثمانين كيلومتراً، وعن المدينة
ثلاثمائة وواحداً وواحداً بين عسفان وقديماً، انظر السيرة النبوية في ضوء المصادر
الأصلية (160) وذكر ابن القيم في زاد المعاد أنه الذي تسميه الناس في زمنه
قديماً (3/40).
الله أكبر! ما هذه القوة من عمر؟ وما هذا الإيثار لرسول الله صلى الله عليه وسلم وليقربه على نفسه ووالده؟! فرضي الله عن عمر وأرضاه.

عند ذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اذهب به يا عباس إلى رحلك، فإذا أصبحت فأثنى به"، قال العباس: فذهبته فلم أصبت غدوت به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلمما رآه قال:

"ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟"، قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمنك وأكرمك وأوصلك؟ لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني شيئاً بعد، قال: "ويحك يا أبا سفيان، ألم يكن لك أن تعلم أن يأي رسول الله"، قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمنك وأكرمك وأوصلك؟ أما هذه فإن في النفس حتى الآن منها شيئاً، فقال العباس: وهمح أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله قبل أن تضرب عنيك، فأسلم وشهد شهادة الحق، فقال العباس: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فجعل له شيئاً، قال:

"نعم، من دخل دور أبا سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن".

(4) انظر: الرحيق المخوم للمباركفورى (400) وقصة إسلام أبي سفيان جاءت بروايات عدة، عزها الهشمي في المجمع للطرائني وقال: رجال رجال الصحيح (164/2) وصحابه الحافظ ابن حجر في المطالب العالية وقال: أخرجه إسحاق ابن راهوي (456) وانظر: طبقات ابن سعد (134) والدلائل للبيهقي (93)، وسيرة ابن هشام (399) وصحيح السيرة لإبراهيم العلي (604).
وفي صيحة الثلاثاء السابع عشر من رمضان (5) سار إلى مكة حتى دخلها، لم يكن صلى الله عليه وسلم متشبهاً بالنصر كما يمشي القادة الفائ hannون. يضعفون في تلك اللحظات مهما كانوا قوة وقيادة، فيظهر منهم أثر ذلك في إعمال السيف في الرقاب، وانتهاب الأموال، وانتهاك الأعراض، أو على الأقل الفرح الشديد الذي يستخف صاحبه. لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن كذلك؛ بل نهى أن يكون جيشه كذلك، حينما مر سعد بن عبادة وكان يحمل راية الأنصار فقال لأبي سفيان: اليوم يوم الملحة، اليوم تستحل الحركة، فلما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم نزع اللواء من سعد وقال: "كذب سعد - أي أخطأ - ولكن هذا يوم أعظم الله فيه الكعبة، يوم نكسى فيه الكعبة"(1). وكان يضع رأسه تواضعاً لله تعالى حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح حتى إن

(5) الرحيق المختوم (420) والمتفق عليه عند أهل المغازي أنه خرج في عاشر رمضان، ودخل مكة لتبع عشيرة ليلة خلت منه كما في سيرة ابن هشام (4/60) والمغازي للواقي (2/80) والطباقات (2/135) وناصر: "فتح الباري (9/6) والسيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (511)

(6) كما في حديث عروة عند البخاري في المغازي (428).

(7) جاء هذا في حديث عبدالله بن معفج عند البخاري في المغازي باب أين ركز النبي صلى الله عليه وسلم الرأية يوم الفتح (281) وسلم في صلاة المسافرين باب ذكر قراءة النبي صلى الله عليه وسلم سورة الفتح يوم فتح مكة (794) والترمذي في الشمائل (1231).
شعر لحيته ليكاذب يمس واسطة الرجل من شدة طأطائه (8).

أنت صلى الله عليه وسلم مكة والمهاجرون والأنصار بين يديه وخلفه وحوله حتى دخل المسجد فأقبل إلى الحجر الأسود فاستلمه ثم طاف بالبيت وفي يده قوس وحول البيت عليه ثلاثمئة وستون صنماً فجعل يطعنها بالقوس ويقول: جاء الحق وزهق الباطل وإن الباطل كان زهوقاً "جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد" (4).

ولم يدخل البيت وفيه أصنامهم؛ بل أمر بها فأخرجت، فأخرج صورة إبراهيم وإسماعيل في أيديهما الأزلام فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "قاتلهم الله، لقد علموا ما استقصاما بها قط" (11)، فأمر بالصور فمحيت، وfortawesome في البيت، وكبر نواحيه، ووحد الله تعالى، ثم فتح الباب وخرج وقرش قد ملأت المسجد صفوفًا ينتظرون ماذا يصنع؟ فأخذ بعضادتي الباب وهم تحته فقال: "لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عهده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو مال أو دم فهو تحت قدمي هايتين إلا سدنة البيت وسقاية الحاج... إلى أن قال: يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية

(8) الرحيق المختموم (٣٠٠).

(9) أخرجه البخاري في المغازي باب آين ركز النبي صلى الله عليه وسلم الراية يوم الفتح؟ (٤٢٨) ومسلم في الجهاد باب فتح مكة (١٧٨١).

(10) أخرجه أحمد (١٣٦/١) والبخاري في المغازي باب: آين ركز النبي صلى الله عليه وسلم الراية يوم الفتح؟ (٤٢٨٨).

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. {لقد صدقت الله رسوله الرؤيّا بالحق}

(١١) أخرجه ابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام (٨/٨٨) وروى بعضه أبو عبيد في الأموال (١٤٣) وابن سعد (٢/١٣١) بسند لابن الأحمر من مجهول أو إرسال، وانظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (٥١٩).

(١٢) الرحيق المختوم بصرف (٥٠٤).
المفيد في خطَّب الجمعة والعيد

لَتَخَذِّلُنَّ المَسْجِد النَّبِي، إِن شاء الله أَمْنِيْن مُحَلِّقِين رُؤْوَسَكُمْ ومُقَحِّرِين لَا تَخَافُونْ فَقُلُوا لَا تَعْلَمُونَ فَجَعَلُونَ مِن دُونَ ذَلِكَ فَجَعَلُوا قَرِيبًا (٢٧) [الفتح] بَارِك الله لي وَلَكَم فِي الْقُرْآن العَظِيم...

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً كَمَا أُمِرَ، والشُّكر لِهِ وَقَد تَأْذَنَ بِالزُبْدَا لِمَن شَكَرَ،
و أَشَهَّد أَن لَا إِلَهِ إِلَّا الله وَحده لا شَريِّك لِهِ، وَأَشَهَّد أَن مُحَمَّدًا عِبَاده وَرُسُوله خَيرٌ مِنْ نُصْرٍ وأَفْضِلٌ مِنْ ظَفْرٍ، صلى الله وسلم وَبَارِك عَلَيْهَ وَأَصْلَحُه السَّادَةُ الغَرْرُ وَمِن تَبْعُهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْم العَرْض الأَكْبَر.

أَمْا بَعْدَهُ فَايَقُوِّوا اللَّهُ عَبَّادِهِ فَإِنَّهُ ﷺ مِنْ نَبْيِ اللَّهِ يُجْعَلُ لَهُ مَخْرَجًا (٣)
وَبِرَزْقِهِ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْسَبُ وَمِنْ يَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ
فَذَّجَّعَ اللَّهُ لَكُلِّ شَيْءٍ فَقُدْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى أَمْرِهِ

أيها الإخوة المؤمنون: لما تم فتح مكة على يد الرسول صلى الله عليه وسلم وهي بلدة وموئله وموطنه قال الأنصار بعضهم لبعض:

»أَمَّا الرَّجُل فَأَذَكَّرْتُه رَغْبَةً فِي قَرِيبِهِ، وَرَأَيْتُ بِعَشْرِهِ، فَقَالَ أَبُو هِرِيرَةُ:«وَجَاءَ الْوُلِي، وَكَانَ إِذَا جَاءَ الْوُلِي لَا يُخْفِي عَلَيْنَا، فَإِذَا جَاء فُلِيس أَحَدَ يَرْفَع طُرفه إلى رَسُول اللَّه صلى الله عليه وسلم حتَّى يَنْقُضُ الْوُلِي فَلَمَّا اتَّقَضَى الْوُلِي قَالَ رَسُول اللَّه صلى الله عليه وسلم: "يا مُعَشِّرُ الأَنْصَارُ قَالَوْا: لِبِكَ ِأَنْصَارِيَّ، فَقَالَ: قَالَ آمَنَمُّ أَمَّا الرَّجُل فَأَذَكَّرْتُه رَغْبَةً فِي قَرِيبِهِ؟ قَالَوْا: قَدْ كَانَ ذَلِكَ، قَالَ: كَلّا، إِنِّي عَبْدَاللَّه وَرَسُولِهِ"
 رمضان ومواعظ من الفتح المبين

هاجرت إلى الله وإليكم، والمحيا محياكم، والممات مماتكم، فأقبلوا إليه يبكون ويقولون: والله ما قلنا الذي قلنا إلا الضعف بالله وبرسوله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله ورسوله يصدقانكم ويعذرانكم

(13) أخرجت مسلم في الجهاد باب فتح مكة (178).
(14) أخرجه ابن سعد في الطبقات (2/177).
المفيد في خطب الجمعة والعيد
والأخفدة. ويكون هذا الشهر معظم موسمًا للفضائيات تبث هزليها وتتنها
على عين الساداتين في غفلتهم.
ف رمضان شهر الانتصار والتفاح، شهر التقدم والفتاح، تُخدّر
فيه أمة الإسلام حتى لائفته ذلك ولا تدركه. فلا تزال تُجرح وتُقتل
وهي تضحك، وتُتهب وأبناؤها لاهم مرحون. فما عسنا أن نستفيد
من أخبار الفتح المبين، وكيف أثرت فينا دروس رمضان الكريم؟!
فاتقوا الله ربيكم، واحفظوا صيامكم من الأذان، واقرأوا سير
الأبطال، وافقهوا منها الدروس، ولا تلهوا مع اللاهين؛ لعل القلوب
تحيا، والعقول تدرك، فترفع إلى ربيها، حينذاك يكون المسلم بالنصر
حقيقًا، بالنصر على نفسه وهواء و الشيطان. وإذا حقق كل مسلم ذلك
في نفسه كان النصر على الأعداء قريباً. ثم صلوا وسلموا على نبيكم
كما أمركم بذلك ربيكم...
الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونُعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِّه الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، بلغ الرسالة، وأدّى الأمانة، ونصح الأمّة، ووجادل في الله تعالى حتَّى آتاه اليقين، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه؛ هاجروا فراراً بدنهم، وقادرون في سبيل ربهم، وبذلوا أرواحهم، وانخلعوا من جُلْ أموالهم؛ رغبة في رضوان الله تعالى وحتجته، والتبعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فأوصيكم - أيها الناس - ونفسي بتقوى الله عزّ وجلّ، فكم كانت التقوى سبباً في تفرج الضوائِق، وضبط الأزراق، وحلول الأمن.

ومن يتق الله يجعل له خيرَجا ويزفه من حيث لا يحتسب ومن يتولى على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكِّل شيء قدراً (الطلاق: 2-3).

أيها الإخوة المؤمنون: سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم تزخر بالحكم والأحكام، والدورات والفوائد، ليست قصصاً من نسج الخيال، ولا هي إبداع من لسان محدث، أو قلم كاتب، يقرأها من يقرؤها.
جُمال في الإنشاء، أو بلاغة في التركيب، أو استفادة من الأسلوب؛ بل هي حق واقع، وأخبار جامعة. فيها الحدث والعبرة، والمعروفة الحسنة. تحوي أحكاماً فقهية، ودروساً تربوية، وتنطوي على علوم متعددة، كالسياسة والاقتصاد، وشؤون الحرب والجهاد، وأحكام الهداة والسلام، وغير ذلك مما يحتاجه المسلمون.

وكان ما وقع في شهر رجب من السنة التاسعة للهجرة من الأحداث الكبرى، والمغازي العظمى: غزوة تبوك، التي كانت آخر مغازي رسل الله صلى الله عليه وسلم، قبل أن يتوفاه الله تعالى.

كانت غزوة مليئة بالأحداث، فيها أخبار الموسرنين الذين أنفقوا، والفقراء الذين عجزوا، وفيها أبناء المناققين الذين فضحوا، وحكاية الثلاثة الذين خلفوا، ناهيك عن أخبار المسير والخصار، وفرض الجزية على أهل الكتاب، وما الحديث عنها تكفيه الساعات؛ ولكن هذه أجزاء ومقتطفات عن العصرة والمشقة التي كانت فيها، حتى سماها القرآن ساعة العصرة؛ لأن العصرة لفتها من كل مكان، وأحاطت بها من كل جانب؛ فوقعها عصرة؛ إذ كانت في حمارة القيظ، وشدة الحر، وما أشد المسير تحت وهج الشمس اللافحة، وفوق الأرض الساخنة!! وكانت شدة الحر تدعو إلى المقام في المدينة، ذات الماء الطيب، وثمار الصيف البانعة، فلا يخرج للغزو في هذا الوقت إلا مؤمن يدفعه إياه إلى تقديم رضوان الله تعالى على لدّة الحياة، والاستمتاع بطيباتها.

(1) انظر: سيرة ابن هشام (٤/١٨٨)، وفتح الباري لابن حجر (٧/١٤٧).
ومن العسرة فيها: قلّ ما يجد كثير من المسلمين للتجهز لها، فلقد جاء أبو موسى الأشعري رضي الله عنه يطلب من النبي صلى الله عليه وسلم أن يحمل الأشعرين فلم يجد سوى ستة أبحر دفعها إليه ليحمل عليها قومه.

لقد كان الأغنياء من الصحابة يتجهرون ويجهرون، والفقراء لا يجدون، اشتقوا للجهاد في سبيل الله تعالى؛ لكن أعجزتهم الوسائل التي تبلغهم الميدان، فسحبت أعينهم بالدموع لهذا الحرمان. كان منهم علبة بن زيد قام من الليل يتهجد، فصلى ما شاء الله ثم بكى، وقال: «اللهم إنك أمرت بالجهاد، ورغبتك فيه، ثم لم تجعل عندي ما أتقوى به، ولم تجعل في يد رسولك ما يحملي عليه، وإنني أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابي فيها في مال أو جسد أو عرض، وأصبح الرجل على عادته مع الناس فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أين المتصدق بهذه الليلة؟ فلم يقم أحد، ثم قال: أين المتصدق؟ فلقب. فقام إليه فأخبره، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أبشر، فوالذي نفسي بيده لقد كتبت في الزكاة المتقبلة» ذكره ابن إسحاق ووصله الحافظ.

(2) كما في حديث أبي موسى الذي أخرجه البخاري في المغازي باب غزوة تبوك وهي غزوة العسرة (4415)، وسلم في الإيمان باب ندب من حلف يميناً. فرأى غيرها خيراً منها أن يأتي الذي هو خير ويكفر عن يمينه (1249).

(3) أخرجه ابن سعد في الطبقات من طريق الوافدي (4/379)، وعزاه الحافظ في الفتح لأبن إسحاق في السيرة ولم أجد في المطبوع منها، ولم آثر عليه.}
لقد كان علبة بن زيد واحدًا من سبعة رجال من المؤمنين عرفوا بالبكائين، أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، يطلبون منه ما يخرجون عليه معه في هذه الغزوة، فلم يجد ما يحملهم عليه، فبكوا لذلك، فأنزل الله تعالى فيهم: "ليس على الضعفاء ولا على المرضي ولا على الذين لا يجدون ما يفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم" (91) ولا على الذين إذا ما أدرك لتحملهم قلت لا أحد ما أحملكم على نزلوا وأعيدهم تفيض من الدمع حزنًا إلا يجدوا ما يفقون.

[النبوة: 91 - 92].

إنها صورة مؤثرة للرغبة الصحيحة في الجهاد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما كان يحسه صادقو الإيمان من ألم إذا ماهالت ظروفهم المادية بينهم وبين القيام بواجباتهم. إنهم لم يبخلوا بمالهم، ولم يفرحوا بتخلفهم؛ حتى كان منهم من تصدق بعرضه على المسلمين.

- في النسخة المطبوعة لدى من سيرة ابن هشام التي حققها الدكتور عمر تدمر: إلا أن ابن هشام نقل عن ابن إسحاق أنه دفع علبة بن زيد في البكائين، وذكره السهيلي في الروض الأنف (7/366 - 365)، وابن القيم في زاد المعاون (3/528 - 529)، وابن كثير في البداية (5/5)، وقال الحافظ ابن حجر: "وقد ورد مسندًا موصولاً وعزة لا ابن مردوخة منده وخطيب وغيرهم وصححه انظر: الإصابة (7/434)، وصححه الألباني في تعليقه على فقه السيرة للغزالي (5/40)."

(4) انظر: سيرة ابن هشام (119/4)، والسيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (617).
يبيح كل من تكلم في عرضه بسوء أو ناله بغية، ومع أنهم عذروا، ولم يخرجوا للغزوة فإن قلوبهم كانت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام رضي الله عنهم، ذكر النبي صلى الله عليه وسلم وهو في المسير خبرهم فقال: "إن بالمدينة أقوياء ما سرتهم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم، قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة؟ قال: "وهم بالمدينة حبسهم العذر" أخرجه البخاري.

ومن العصرة أيضاً: "عتُدُ المسافة بين المدينة وتبوك، ووعورة الطريق، وقلة الظهر، فهي عصرة في كل شيء، فسرها جابر بأنها عصرة الظهر، وعصرة الزاد، وعصرة الماء".

وستعمل عمر رضي الله عنه عن شأن العصرة فقال: "خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلًا أصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستقطع، حتى إن كان الرجل ليذهب يلمس الماء فلا يرجع حتى نظن أن رقبته ستقطع، حتى إن الرجل لينحر بعيره، فيصير فرثه فيشريه".

(5) أخرجه من حدث أنس بن مالك رضي الله عنه أحمد (1/103)، وأبو شيبه (18856)، والبخاري في المغازي باب (81)، وأبو داود في الجهاد باب الخصبة في القعود من العذر (82)، وأبي ماجه في الجهاد باب من حسنا العذر عن الجهاد (274). وأخرجه من حدث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما مسلم في الإمرة باب ثواب من حبهم عن الخزوة مرض أو عذر آخر (1911).

(6) الجامع لأحكام القرآن الشرقي (8/177) عند تفسير الآية (117)، من سورة التوبة.
ويجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله، قد عَوَّدْك الله في الدعاء خيراً فاعلف لنا، فقال: أنت ذلك؟ قال: نعم، فرفع يده صلى الله عليه وسلم، فلم يرجعهما حتى أظلمت سحابة، فسكبت فملاوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر، فلم نجدها جاوزت العسكر.
رواه البزار وصححه ابن حبان والحاكم.(7)
ويصف العسيرة أبو سعيد أبو بكر هريرة رضي الله عنهما يقول:
«كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك، فأصاب الناس مجاجة وقالوا: يا رسول الله لو أذنت لنا نفرحنا ناوضحنا فأكمنا وافتهنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أفعًا فجة عمر وقال: يا رسول الله إن فعلوا قل الظهر، ولكن أدعهم بفضل أزوادهم، فداع الله عليها بالبركة لعل الله أن يجعل في ذلك البركة، قال: نعم، ثم دعا بنطع فسطح، ثم دعا بفضل الأزوات، فجعل الرجل يجيء بكف ذرة، ويجيء الآخر بكف ثمر، ويجيء الآخر بكسرة؛ حتى اجتمع على النعط من ذلك شيء يسير، قال أبو هريرة: فحزره فإذا هو قدر ربيضة العنز، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبركة ثم قال:
(7) أخرجه الطبري في جامع البيان (11/5)، والبزار في البحر الزخار (214)، وصححه ابن خزيمة (1/3)، وابن حبان (1283)، والحاكم وقال: على شرط الشيخين (119/459)، وأخرج أبو نعيم في دلائل النبوة (457)، والبهبهي في الكبرى (957/323)، وفي دلائل النبوة (5/231) وحوالاً إسناده ابن كثير في السيرة (4/16)، وقال الهيثمي: رواه البزار والطبراني في الأوسط ورجال البزار ثقاتًا، انظر: مجمع الزؤائد (194/195–196).
خذوا في أوعيتكم، فأخذوا في أوعيتهم حتى والذي لا إله إلا هو ما بقي في العسكر وعاء إلا ملؤوه، وأكل القوم حتى شبعوا، وفضلت فضيلة فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما فيحجب عن الجنة
(8) أخرجه مسلم.

وقال الحسن البصري رحمة الله تعالى يصف العسرة: "كان العشرة من المسلمين يخرجون على بعير ينعيقوه بينهم، وكان زادهم التمر المتسوس، والشعار المتغير، والإهالة المتنية، وكان النفر يخرجون ما معهم إلا التمرات بينهم، فإذا بلغ الجروج من أحدهم أخذ التمرة فلا كوا حتى يجد طعمها، ثم يعطيها صاحبه حتى يشرب عليها جرعة من ماء كذلك، حتى تأتي على آخرهم فلا يبقى من التمرة إلا النواة، فمضوا مع النبي صلى الله عليه وسلم على صدقاته وثقاته رضي الله عنهم"، فكان جزاؤهم أن تاب الله تعالى عليهم ؛ حيث لم تردهم العسرة التي (8) أخرجه مسلم في الإمام باب الدليل على من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً (26).

(9) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (8/177)، ونحوه عن مجاهد وقناة كما في جامع البيان للطبري (5/111) عند تفسير الآية (117) من سورة النبوة، ولقد جاء في تفسير القرطبي: "كانت العسرة من المسلمين يخرجون على بعير ينعيقوه بينهم... فلعله تصحف من: كان العشرة من المسلمين... وعن عبدالله بن محمد بن عقيل بن أبي طالب: أن الرجليين والثلاثة على بعير... عزاء السيوطي لابن أبي حاتم وأبي الشيخ والبيهقي في الدلائل، انظر: الدر المشور (3/512).
أحاطت بهم من كل جانب عن الخروج في سبيل الله تعالى.
أعود بالله من الشيطان الرجيم: { لقد قطع الله على النبي و المهاجرين والأنصار الذين آتىهم في ساحة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم}
[النور: 117]
بarkan الله لي و لكم في القرآن العظيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله حمدًا طيّبًا، مباركًا فيه كما يحب ربي ويرضى، أحمده وأشكره، وأتوب إليه واستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن سار على نهجهم واتفقى أثرهم إلى يوم الدين.
أما بعد: فلقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يدرك حجم المشقة التي سلحت به وأصحابه في غزوة العسرة، فجلَّى للناس أمورهم، وأوضح وجهته. قال ابن إسحاق: {وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قلما يخرج في غزوة إلا كنّى عنها، وأخبر أن يريد غير الوجه الذي يعمد له إلا ما كان من غزوة تبوك فإنه بينها للناس، لبعد الشقية، وشدة الزمان، وكثرة العدو}.

سار عليه الصلاة والسلام إلى تبوك في رجب، وعاد في رمضان، واستغرقت الغزوة خمسين يوماً من العسرة والمشقة، ثلاثون يوماً منها مسير وطريق، وعشرون يوماً آقامها في تبوك، وجبن الروم عن المنازلة.

(10) سيرة ابن هشام (118/4).
فضرب الجزية على بعض قرى النصارى، ثم عاد وقد هابت الروم وحلفاؤها من قبائل العرب قوة المسلمين.(1)

لقد وطدت هذه الغزوة سلطان الإسلام في شمالي شبه الجزيرة العربية، ومهدت لفتح الشام التي استعد لها رسول الله صلى الله عليه وسلم بإعداد جيش أسامة بن زيد وفاته، فأنذره أبو بكر رضي الله عنه، ثم أتبعه بجيوش الفتح الأخرى التي ساحت في بلاد الشام والعراق، وكانت بداية تحرير شعوب تلك المناطق من عبودية الفقيصرية والكسرية.(2)

وما كان هذا الحديث عن تبوك إلا لبيان حجم المشقة، حتى سميت الغزوة غزوة العصرة، وفي ذلك دفع للمؤمنين إلى سبيل الطاعة، ولو كان فيها بعض مشقة، فرسول الله صلى الله عليه وسلم خير الخلق، وصحابته خير الأصحاب عانوا مشقة عظيمة في سبيل الله تعالى، وابتساء مرضاته، فإن تعمل ما عملوا نستطيع ما استطاعوا؟ إن واقع الحال ينغي ذلك، وإذا كان كثير من المسلمين يتخلفون عن صلاة الجماعة، أو لا يؤديون الصلاة في وقتها مع أن ما فيها من المشقة لا يساوي عشر معاشر مشقة تبوك، فكيف سيطير المسلمون مشقة جهاد الأعداء، ومقاومة الباطل! وما ذلوا ولا انهزموا إلا لما تناقلوا عن الطاعات، وخلدوا إلى الدعوة والراحة.

حضر العصرة من حضر، وتخلف عنها من تخلف، وتحمل أصحاب

(1) انظر: الرحيق المختم (436).
(2) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (638).
رسول الله صلى الله عليه وسلم المشقة، وذهبت وذهبوا، وبقي الأجر موفوراً للغاشين، والوزير مكتوباً على المخلفين، إلا من تاب منهم، وهكذا يفعل الطاعة من يفعلها، ويتخلف عن الصلاة من يتخلف عنها، وسيئي صاحب الطاعة المشقة التي خفته، كما سيئي المقر فيها الراحة التي خلد إليها، وسيمغبون، وسيبقى الأجر للمسارعين، والوزير على المخلفين، وكل سبجد ما عمل يوم الدين، والجنة حفته بالذكرى، وحفظ النار بالشهوات.

وقصة الغسيرة تثبت أن الإيمان بالله تعالى يفوق كل قوة؛ رغم قلة الزاد، وقلة الظهر، وبعد المسافة، وشدة الحر إلا أن الصحابة استطاعوا الوصول إلى تبوك، وحاصروا العدو، وجنز العدو المدجج بالأسلحة، والقيم على أرضه عن ملاقاة أقومهم أقل منه عدّاً، وأضعف عتاداً، وأشدّ جوعاً! إن إيمان المؤمنين، والرعب الذي قذقه الله في قلوب الكافرين، فما أحوج المسلمين إلى اليقين بأن الإيمان أقوى من كل قوة، ومن كان الله معه فلن يغلب من ضعف أو قلة، "وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أُمَّرِهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ الْتَّمَاشِيِّنَ لا يَعْلَمُونَ" [يسوع: 121].

وصلوا وسلموا على نبيكم كما أمركم بذلك ربككم،
الآيات والمعجزات

الجماعة 20/7/1427 هـ

الحمد لله، ﴿أَرْسَلَ رُسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينَ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الْذِّينَ كَذَّبُوا وَكَفَّارَ بَالَّآخِرَةِ﴾ [الفتح: 28]. أُحْمَدَهُم وَأَشْكُرُوهُ، وَأَتِبْوَ اَللهِ وَأَسْتَغْفِرُوهُ، وَأَشْهَدُ أنَّا لَا إِلَهَ إِلَّا أَللهُ وَحَدَّهُ لَا شَريكَ لَهُ؛ أَيَّدَ رَسُولَهُ بِالْمَعْجَزَاتِ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمُ اللَّهُ الآيَاتِ؛ دَلَأَهُ عَلَى صَدِقِهِمْ، وْبِرَهَانًا عَلَى رَسُولَهُمْ.

وَأَشْهَدُ أنَّ مُحَمَّدًا عِبْدُهُ وَرُسُولُهُ، أَرْسَلَ اللَّهُ بِهِ يَدًا السَّاعَةِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا، فَبَلَغَ الرَّسُالَةَ، وَأَدَى الْأَمَانَةَ، وَنَصَحَ الْأَمَةِ، وَفَجَّرَتْ فِي الْأَمْرِ حِيَّةً هَٰٓتِي الْإِلَيْقَ، صَلِّي الله وَسَلَّمُ وَبَارَكُ عَلَيْهِ وَعَلَيْ آمِنِهِ وَأَصْحَابُهُ اْلْمُضْمِنِّينَ فِي خَدَمَتِ الْإِسْلَامِ، وَنَشَرَ شَريِّعَتِهِ فِي الْأَرْضِ، فَكَبَرَ الْبَرُّ وَالبَحْرُ، وَجَارَ الْبَسِرَاءِ السَّهْلُ، وَالْوُقُورُ، مِنْهُمْ مَنْ مَاتَ فِي مَرْكَبِهِ، وَسَطَ حُبْلِ الْبَحْرِ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى تَحْتُ أَسْوَارِ الْعَدْوَ، وَمِنْهُمْ مِنْ عَاشَ حَيْنَّاً مِنَ الْبَحْرِٰ، فَمِنْ الْمُؤْمِنِينَ رَجُالٌ صَدَقُوا مَا غَيَّرُوا اللَّهُ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مِّنْ قَضَى نَجَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَتَشَيَّرُ وَمَا بَدَّلْتُوا تَبْدِيلاً﴾ [الإحزاب: 23] وَالْمَاتِينِ، وَمِنْ تَعْمَمْ بِإِحسَانٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

أَمَّا بَعْدَ فَأَوْصِيمُنِّي - أَيَّهَا الْمُؤْمِنُ - وَفِنْسِي بَتَبْقِى اللَّهُ عَزُّ وَجَلّ، فَنَفَعْ الْمِنْزَلَةَ مِنْ نَالَهَا، وَيَا لَسَعَادَةٌ مِنْ حَقَّهَا. هِيَ الْنُّورُ وَالْهَدَى، وَهِيَ تَنْالُ الْدِّرَجَاتِ الْعَالِيَةِ، وَهِيَ تَكُونُ النِّجَاةُ مِنْ نَارِ تَلْطُي.

أَيَّهَا الْمُؤْمِنُ: حَيَاةُ الْمُسْلِمِينَ وَعَزُّهُمْ وَرَفَعُهُمْ تَكُونُ فِي الْجَهَّادِ فِي
سيل الله تعالى؛ به تنازل العزة، وتحفظ الكرامة، وتحقيق الدماء، وتضمان الأعراض، ويهاب الأعداء، فلا تقوم لنكرر قائمة في أرض فيها جهاد خالص لله تعالى.

الجهاد دليل قوة الإيمان، وصحة اليقين، وصدق التوكل. يبذل المجاهد ماله ودمه وجسده رخيصة في سبيل الله تعالى. يكابد لأواء السفر، ومشقة السهر، وعنت الطريق، وكلب العدو، وكل هذا من أجل ماذا? إنه من أجل الإسلام، فهل إيمان يعدل هذا الإيمان، متى ما زرع المجاهد الإخلاص؟

وإن من الغزاز المشهورة بعسرتها وشدتها: غزوة تبوك التي سميت غزوة العصرة؛ إذ اجتمع على المسلمين فيها عصرة الظهيرة، وعصرة الزاد، وعصرة الماء، وعصرة الحر، وعصرة الطريق، وعصرة إيذاء المنافقين وإراجفهم؛ ولكن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم احتفلا في سبيل الله تعالى كل أنواع العصرة.

إن المنافقين ما تركوا سبيلًا للتخليل والإرجاف في هذه الغزاة إلا سلكوه، ولا عذراً للتخلف عن الغزو إلا اختلقوه. وما كان الله تعالى ليتخلل عن نبيه صلى الله عليه وسلم وأصحابه بين أنواع من العصرة، وبين شكوك المنافقين وأراجيفهم؛ فجعل الله تعالى له من الآيات والمعجزات في هذه الغزاة ما ثبت إيمان المؤمنين، ودحر أراجيف المنافقين، وسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى لو قيل: إن هذه الغزوة أكثر غزواته معجزات، لما كان ذلك بعيد.
قلت المراكب، وكلت الرواحل فدعا النبي صلى الله عليه وسلم ببركة الظهر فبارك الله تعالى فيها. قال فضالة بن عبيد رضي الله عنه: «غزونا مع النبي صلى الله عليه وسلم غزوة تبوك فجهد الظهر جهداً شديداً، فسكتوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بظهروهم من الجهاد، فتحين رسول الله صلى الله عليه وسلم مضيقاً سار الناس فيه وهو يقول: «مروا باسم الله» فجعل ينفخ بظهروهم وهو يقول: «اللهم احمل عليها في سبيلك؛ فإنك تحمل على القوي والضعف، والرطب والياس، في البر والبحر»، قال فضالة: فما بلغنا المدينة حتى جعلت تناظتنا أزمنتها، فقلت: هذه دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم في القوي والضعف في بال الرطب والياس!! فلما قدمنا الشام غزونا غزوة تبوك في البحر، فلما رأيت السفن وما يدخل فيها عرفت دعوة النبي صلى الله عليه وسلم» أخرجه أحمد وصححه ابن حبان(1).

إن تبوك كانت في شدة حرّ فصل الصيف؛ فاجتمع عليهم مع حمارة القيف، ووهج الشمس، ندرة الماء، وشدة العطش، فشكوا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فاستنفه لهم فسقهم الله تعالى. روى ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: حدثنا عن شأن العصرة، قال: «خرجننا إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلة أصابنا فيه العطش حتى ظننا أن رقابنا ستعطع، حتى إن كان الرجل ليذهب يلتمس الماء فلا يرجع، حتى نظم أن رقبته

(1) أخرجته أحمد (2/620)، والبزاز (1840)، والطبراني في الكبير (1/8/1761)، وصححه ابن حبان (491).
المنفيد في خطب الجمعة والعيد

ستنقطع، حتى إن الرجل لينصر عصره فيعصر فره فيشربه، ويجعل ما
بقي على كبده، قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: يا رسول الله،
قد عزتك الله في الدعاء خيراً فادع، قال: «أنبى ذلك؟» قال: نعم،
قال: فرفع يديه صلى الله عليه وسلم فلم يرجعهما حتى أظلمت سهابة
ثم سكتت، فملؤا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر».

صححه ابن حبان والحاكم وقال ابن كثير: إسناده جيد (٣).

لقد أصاب المسلمين في تبوك مجازعة شديدة حتى همّوا بنحر ما
يركبون لياكلوا، فدعا لهم النبي صلى الله عليه وسلم فبارك الله في
طعامهم، قال أبو هريرة أو أبو سعيد - شك الأعمش - «ما كان يوم
غزو تبوك أصاب الناس مجازعة في طعامهم، فقالوا: يا رسول الله،
لو أذنت لنا فتحرتنا تواضحتنا فأكلنا وادثنى، فقال رسول الله صلى الله
عليه وسلم: (افعلوا)، فجاء عمر رضي الله عنه فقال: يا رسول الله،
إذا فعلت قل الظهر، ولكن ادعه بفضل أزواجههم، وادع الله لهم فيها
بالبركة لعل الله عز وجل يجعل في ذلك، فقال رسول الله صلى الله
عليه وسلم: (نعم) فدعا يبنطف فسطبه، ثم دعا بفضل أزواجههم، قال:
فجعل الرجل يجيء بكصف ذرة، قال: ويجيء الآخر بكصف ثم، قال:

(٢) أخرجه الحاكم وصححه وقال: على شرطهما (١٥٩/١)، وصححه ابن حبان
(١٢٨٣) وأخرجه البهتري في السنن الكبرى (٣٥٧/١٥)، وفي دلائل النبوة
(٢٣١/٥) والبزار (١٨٤) وعزال الهيثمي في مجمع الزائد للبزار والطبراني
في الأوسط وقال: ورجال البزار ثقات (١٩٤/٦)، وقال ابن كثير في السيرة:

إسناده جيد ولم يخرجوه من هذا الوجه (١٦/٤).
ويجيء الآخر بكسرة؛ حتى اجتمع على النقطع من ذلك شيء يسير، قال: فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبركة، ثم قال: "خذوا في أوعيتكم" قال: فأخذوا في أوعيتهم، حتى ما تركوا في العسكر وعاءٍ إلا ملاوئه، قال: فأكلوا حتى شبعوا وفضلت فضلة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله"، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيحبب عن الجنّة أخريج مسلم (3). وفي معجزة أخرى حاول أحد المنافقين أن يشكك في نبوته صلى الله عليه وسلم، واستغل فرصة ضياع ناقة النبي صلى الله عليه وسلم فقال هذا المنافق في ثلث من الصحابة: "ليس محمد يزعم أن نبي، ويخبركم عن خبر السماء، وهو لا يدري أين ناقته؟ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في جمع من أصحابه لا يدري ما قال المنافق، فقال لاصحابه: "إن رجلاً قال: هذا محمد يخبركم أنه نبي، ويزعم أنه يخبركم بأمر السماء وهو لا يدري أين ناقته، وإنني والله ما أعلم إلا ما علمني الله، وقد ذلني الله عليها، وهي في هذا الوادي في شعب كذا وكذا، قد حبستها شجرة برمامها، فانطلقوا حتى تتأونى بها، فذهبوا فجاوا بها" أخريج الطبري والبيهقي ورجاله ثقات (4).  
(3) أخريج أحمد (421/421), ومسلم في الإيمان باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنّة قطعاً (22).  
وثبت في صحيح مسلم أنه عليه الصلاة والسلام أخبرهم عن عين
في تبوك تبض بشيء من ماء، فغسل وجهه فيها، فجرت بءا كثير،
فاستحق الناس (6)، وأخبرهم أيضا بريح شديدة تهب عليهم، وأمرهم
بعقل رواحهم فهبت ريح شديدة كما قال (1).

وأيضاً من هذه الغزوة خمسين يوماً من العسرة والمشقة؛ ثلاثون
يوماً منها قضاها في الطريق ذهاباً وإياباً، وعشرون يوماً حاصر تبوك
ثم عاد بلا قتال حيث جبن الروم عن القتال. خرج في رجب وعاد في
 رمضان سنة تسع للهجرة.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: (لقد تاب الله على النبي وآل المهاجرين
والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يرزق قلوب فريق منهم)
ثم تاب عليهم إنه بهم رعوف رحم (117) [التوه: 117].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ، ،

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربي ورضي، أحمده
وأشكره، وأنبأ إليه واستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا
شريك له، وأشهد أن محمد أعبده ورسله صلى الله وسلم وبارك

(5) كما في حديث معاذ رضي الله عنه عند مسلم في الفضائل باب في معجزاته
صلى الله عليه وسلم (1491).
(6) كما في حديث أبي حميد الساعدي عند البخاري في الزكاة باب خرص التمر
(1492)، وسلم في الفضائل باب في معجزاته (1396).
عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.
أما بعد: فإن أخبار معجزات النبي صلى الله عليه وسلم في تبوك كثيرة بالنسبة لغيرها من الغزوات، وذلك يتناصب مع حجم التحدي؛ فإن المنافقين كما هي عادتهم قد أجبروا بخيلهم ورجلهم في بث الشكوك، واختلاص الأناذيب؛ تذكياً لرسول الله صلى الله عليه وسلم وإرغافاً للمؤمنين، وإرضاءً لمن حارب الله ورسوله.
فإذا ما انضم إلى ذلك أنواع من العسرة والمشقة لحقت بالصحاباء رضي الله عنهم; فإن تكالب هذا عليه قد يؤدي إلى الشعور باللأب والإحباط، واستبطاء نصر الله تعالى؛ ولربما وجدت مقالات المنافقين آذانًا صاغية، وما كان الله تعالى ليترك رسوله صلى الله عليه وسلم بل أيده بهذه المعجزات ليحبط كيد المنافقين، ويفضح مكرهم، ويشبست قلوب المؤمنين على الحق؛ ولهذا كان في هذه الغزاة من المعجزات ما يتناسب مع حجم مشقتها، وحجم كيد المنافقين.
وما أشبه الليلة بالبارحة؛ فمنافقو هذا العصر يقومون بذات الدور الذي قام به أسلافهم من التشكيك في الإسلام، وبث الشائعات، وقذف الشبهات، والدعوة إلى غير دين الله. وليس رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهر المسلمين ليرد كيد المنافقين بما أيده الله تعالى به من معجزات؛ ولكن المؤمنين عندهم كتاب الله تعالى أعظم معجزة، وأكبر آية، و승ه رسوله صلى الله عليه وسلم، هما النجاة لم تسكن بهديهما، وسار على دربهما، ولن تضره فتنة ما دام على ذلك.
و لكن الديويمة على ذلك عزيمة المنال، في ظل ما توج به الفتى في هذه الأيام من أنواع الشبهات والشهوات؛ مما يزعزع إيمان ضعفاء القلوب، ولذا كان أجر المستمك بدينه في هذه الأحوال يعادل أجر خمسين من الصحابة رضي الله عنهم مع فضلهم، وقوة إيمانهم، كما ثبت ذلك في حديث أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إِنَّمَا وَرَأَيْتُمُ الْقَلْبَ، الْقَلْبَ، الْقَلْبَ، الْقَلْبَ، الْقَلْبَ،ِّ أَجْرَهُ الْأَرْبَعَةَ إِلاَّ النَّاسِيَّ".

و ما ذاك إلا لشدة الابتلاء، وعظم الفتنة، وقلة النصير من البشر فكان الأجر مناسباً لعظيم الابتلاء.

فاتقوا الله ربيكم، وثبتوا على الحق مهما كثر الزائغون، وعلا صوت المنافقين؛ فإن بعد العسر يسراً، وبعد الشدة فرجاً، ولن يجذب الله تعالى من أخلص له العبودية؛ بل سيصره ويوده وَلَيَصْرَحْ عَلَيْهِ نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ [الروم: 47،] وَلَيَصْرَحْ عَلَيْهِ نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ [الحج: 40]. ألا وصلوا وسلموا على منهم كما أمركم بذلك ربيكم.

الجمعية 23/7/1421 هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعود بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهدده الله فلا مضلّ له، ومن يضلّ فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

يا أيها الذين آمنوا أتّقوا الله حقّ تقاتِل ولا تموتون إلا وأنتم مسلمون [آل عمران: 2:1]، يا أيها الناس آتقوا رَّبَّكُم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجاً ونسل منهما رجلاً كثيراً ونساءً وأتقو الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً [النساء: 1]، يا أيها الذين آمنوا أتّقوا الله وقولوا قولًا سدديًا يصلى لكم أعملكم ويعفّر لكم ذنوبكم.

ومن يطبع الله ورسوله فقد فاز فوزًا غزيماً [الائدحات: 70].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعئة وكل بدعه ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المسلمون: كانت غزوة يبوذ التي حدثت في رجب من السنة التاسعة من الهجرة فرقانًا بين الإيمان والتفاق؛ إذ كثرت فيها أعمال المنافقين، وعظمت أقوالهم، واتسعت أراجيفهم، وعقبها بأسابيع أنزل
الله تعالى سورة كاملة في شأنها فضحت المنافقين، وكشف أفعالهم. لقد كان المنافقون يعيشون بين الصحابة، وجلُّ الصحابة رضي الله عنهم لا يعرفونهم إلا من أمر الله صلى الله عليه وسلم ببعضهم كحذيفة بن اليمان رضي الله عنهما؛ ولكن بعد تبوك، وعقب نزول سورة براءة عرف الصحابة كثيراً منهم؛ إذ نصت السورة على أقوالهم وأفعالهم، فعُرف أن أصحاب تلك الأقاويل والأفعال كانوا منافقين. ولذا كان ابن عباس رضي الله عنهما يسمىها الفاضحة؛ لأنها فضحت المنافقين، قال سعيد بن جبير: قلت لأبي عباس: سورة التوبة، قال: "النوبة هي الفاضحة، ما زالت تنزل: "ومنهم" حتى ظننا أنها لم تبق أحداً منهم إلا ذكر فيها" أخرجه البخاري (1). وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى يسمىها الحافرة؛ كأنها حفرت عما في قلوب المنافقين من التفاف فأظهرته للمسلمين (2)، وسماها قتادة: المثير، لأنها أثارت عورات المنافقين وأظهرتها (3).

1) هي سورة التوبة، وافق المفسرون على أنها نزلت في السنة التاسعة للكن اختلفوا في الشهر، فقيل: نزلت في أول شوال، وقال: نزلت في آخر ذي القعدة، والجمهور على أنها نزلت دفعة واحدة فتكون مثل سورة الأعرام بين السورة الطوال، انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (97/1).
2) أخرجه البخاري في التفسير باب تفسير سورة الحشر (482).
3) التحرير والتنوير (3/46/1)، ومحاسن التأويل (30).
4) التحرير والتنوير (97/10)، وعزة القاسمي لابن أبي حاتم كما في محاسن التأويل (4/80)، ولها أسماء كثيرة مذكورة عند القاسمي منها أربعة عشر اسمًا: وعده بعضها ابن عاشور في التحرير والتنوير.
بدأ نفاقهم في هذه الغزوة قبل سير الجيش، فمنذ أن أعلن النبي صلى الله عليه وسلم أنه عازم على التوفيق إلى تبوك، وأمر المسلمين بالصدقة لتجهيز الجيش، جعل المنافقون يلمؤون المتصدقيين. قال أبو مسعود البدرى رضي الله عنه: «لما نزلت آية الصدقة كنا نحامل، فجاء رجل فتصدق بشيء كثير، فقالوا: مرائي، وجاء رجل فتصدق بصاع، فقالوا: إن الله لعنى عن صاع هذا. فقالت: الذين يلمؤون المطرع من المؤمنين في الصدقات، الذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم. سخر الله منهم ولههم عذاب أليم» [الtolva: 79]، رواه البخاري ومسلم.5

وأما أعلن النبي صلى الله عليه وسلم النفير بهذا المنافقون يعتذرون عن المسير معه؛ وذلك لتشييط هم الناس، وإضعاف معنوياتهم، فقالوا: لا تنفروا في الحر» [الtolva: 81]، فنزل الله تعالى: «قل نازُ جههم أشد حراً أو كانوا يفقوهون» [الtolva: 81].6

وقال النبي صلى الله عليه وسلم للجزء بن قيس: «يا جدل هل لك العام في جلاد بني الأصر؟» فقال: يا رسول الله، أوتأذن لي ولا تفتيتي، فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل يأشد عجبًا بالنساء مني، وإن أخشى إن رأيت نساء بني الأصر أن لا أصر؛ فأفرض رسول

5) آخر جه البخاري في التفسير «سورة التوبة» باب الذين يلمؤون المطروع من المؤمنين في الصدقات (468)، ومسلم في الزكاة باب الحمل بأجرة يتصدق بها والهشيش السديد عن تقيص المتصدقي بقليل (181).
6) سيرة ابن هشام (216 - 217)، وتفسير الطبري (14/499-500)، والجامع لأحكام القرآن (8/216)، وتفسير ابن كثير (2/564).
الله صلى الله عليه وسلم عن وقائع: "قد آذنت لك" وفيه نزل قوله تعالى: "ومنهم من يقول انذن لي ولي نتفتي آلا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين" [التوبة: 49].

وتتبع أعدادهم الكاذبة على النبي صلى الله عليه وسلم فكان يأذن لهم فعند الله تعالى يقوله: "عقا الله عنك لم آذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقو وتعلم الكاذبين" [التوبة: 43].

وقبيل مسرح الجيش بنوا مسجد الضرار ليجتمعوا فيه؛ مكايدة للمؤمنين، وتوفيقاً لاجتماعهم، وإرصاداً من حارب الله ورسوله، وطلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن يصلي فيه فنهى الله عن ذلك، ثم لما عاد من تبوك أحرقة؟.

وآذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في أصحابه، فقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالإقامة في أهله، وخلله عليهم فقال المنافقون: «ما خلقه إلا استقلاً له وتخففاً منه» فأخذ علي رضي الله عنه سلاحه، وخرج من المدينة حتى آتي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نازل بالحرف، فأخبره بما قال المنافقون عنه، وقال: «يا رسول الله، تخلفي في النساء والصبيان».

(7) سيرة ابن هشام (216-217)، وتفسير الطبري (14/287)، وزاد المعاد (3/266)، والإكتفاء للكلامي الأندلسي (271)، والسيرة الحلبية (3/213 اثنين عباس وعن مجاهد وعن قناة رضي الله عنهم ورحمهم.

(8) قاله مجاهد ورحمه الله تعالى، ورواه عنه الطبري (14/273).

(9) تفسير الطبري (14/268).
فكذب النبي صلى الله عليه وسلم مقولة المنافقين وقال لعلي رضي الله عنه: «ولكني خلفتك لما تركت ورائي فارجع فأخليفي في أهلي وأهلك. أفلا ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا النبي بعدي» (١).«

سار جيش العسرة إلى تبوك، وتخلف عن المسير من تخلف من المؤمنين وهم قلة، وتخلف من المنافقين كثرة، وسار قوم من المنافقين مع الجيش، ليكملوا مهمتهم في الكيد والتآمر على المؤمنين، والتروص بهم، ولم يوقفوا عن ذلك أو يخففوه، بل عظم شرهم، واستفحل خطرهم، حتى كانوا يوهون عظام المؤمنين، ويبطمون معنوياتهم بأقوالهم؛ إذ قال قائل منهم جمع من الصحابة رضي الله عنهم: "إذا الطريق إلى تبوك: أنحوس جلاد بني الأصفر كقناة ترسب بعضهم بعضًا، والله لكأنهما بكم مقرنين بالحبال". يقولون ذلك؛ إرجافاً وتهريجاً للمؤمنين (١١).

ومأخوذو يموتون بقراء الصحابة رضي الله عنهم؛ ففي مجمع لهم قال أحدهم: "ما رأينا مثل قرائن هؤلاء أرغب بوطناً، ولا أكتب ألسناً،

(١٠) أخرج الحديث البخاري في المغازي باب غزوة تبوك وهي غزوة العسرة (٤٤١٦)، ومسلم في فضائل الصحابة باب فضل علي بن أبي طالب رضي الله عنه (٢٤٠٤)، وليس في رواية الصحيحين ذكر مقولة المنافقين، وإنما هي في سيرة ابن هشام (٣٠/٥١٥)، والثقافات لابن حبان (٢/٩٢)، (١١) سيرة ابن هشام (٢/٥٢٤)، والاكتفاء (٢/٢٧٧)، وزاد المعاد (٣/٤٣٦) والسيرة الحلبيه (٢/١٠).
ولا أjenis عند اللقاء فقال رجل في المجلس: «كذبت، ولكنك منافق; لأخبرن رسول الله صلى الله عليه وسلم»; فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم، ونزل القرآن، قال ابن عمر رضي الله عنهما: «فأنا رأيته متعلقاً بحقب ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم تنبك الحجارة وهو يقول: يا رسول الله، إذا كنا نخوض ونلعب، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «أجرالله وآياته ورسوله كتم تستهؤلون لا تعذروا قد كفتم بعد إيمانكم» (11)، وقد استدل العلماء بهذه الآية على أن اللعب والجد في إظهار كلمة الكفر سواء، ولا خلاف بين الأئمة في ذلك كما نقله ابن الجوزي (12).

وأعظم من ذلك وأثر كفراً أنهم حاولوا قتل النبي صلى الله عليه وسلم فقام جماعة منهم - وهم ملثمون حتى لا يعرفون - بمحاولة تنفيذ دابة النبي صلى الله عليه وسلم لتطرره من رأس عقبة في الطريق مع عتمة الليل، فعلم عليه الصلاة والسلام كي يدهم، وفطن لهم، وأمر بإبعادهم (13).

(11) تفسير الطبري (14/333)، والدر المتثور للسيوطي (254/3)، والاكتفاء (277/2)، وزاد المعاد (536/3).
(13) مسند الإمام أحمد (5/453)، والسنن الكبرى للبيهقي (9/32)، وقال الهشمي عن إسناد أحمد: ورجاله رجال الصحيح. انظر: مجمع الزوائد (6/190).
لقد كان شرهم في تبوك على المؤمنين مع شدة وعسرة، وحر شديد، ومفاوض بعيدة؛ لكن الله تعالى ثبت المؤمنين، وفضح المنافقين، ونهي النبي صلى الله عليه وسلم بعدها عن الصلاة عليهم. أعود بالله من الشيطان الرجيم: ولا تصل على أحد منهم فات أبداً ولا تقعد على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون (84) ولا تتعجب أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وترهق أنفسهم وهم كفارون [النبوة: 84, 85].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...

المخطبة الثانية

الحمد لله حمدًا طيبًا كثيرًا مباركًا فيه كما يحب ربنا ورضي، أحمده وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله عباد الله جعلكم فرقًا ويكفر عنكم سينانكم ويعفف لكم والله ذو الفضل العظيم [الأنفال: 29].

أيها المؤمنون: كان المنافقون من أعظم الأعداء الذين ابتليت بهم الأمة المسلمة منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا؛ يدسون الدسائس، ويبدون المؤامرات، ويبحثون الشائعات، ويتحاللون مع العدو ضد المسلمين. ولعظيم خطرهم وشرهم صنّرت أطول سورة في القرآن ببيان جملة من صفاتهم ومكرهم. يخادعون الله والذين
آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون في قلوبهم مرض فرآدهم الله مرضًا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون [البقرة: 9، 10]. إنهم أخطر من اليهود والنصارى والوثنيين؛ لأنهم يظهرون الإسلام ويطعون الكفر، وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنًا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالتوا إلا ما معكم إنما نحن مستهزئون [البقرة: 14]. كانوا على عهد النبي صلى الله عليه وسلم يخفون نفاقهم خوفًا من تنزل الآيات التي تفضحهم ففضحهم الله تعالى، وأما بعد النبي صلى الله عليه وسلم فإن كثيرًا منهم أظهروا نفاقهم وأعلنوه. ولهم في هذا العصر سمات يعرفون بها لا تخفي على أولي الآلباب، إنهم يستهزئون بالله تعالى، والرسالات، والقرآن، والصحاباء، وبشعائر الإسلام الظاهرة، وعباد الله الصالحين التمكينين بالسنة. إنهم فيما يكتبون يبدون إعجابهم برموز النصارى، وربما بشعائرهم، ويتلون على كل ما جاء من العرب، ويعترفون رجاءً وحضارة بخيره وشره، وحلوه ومره! لا يفركون بين شيء من ذلك!! ويطلبون المسلمين بقبول الآخر وعدم كراهيته، وإلغاء النصوص التي فيها كراهية الآخرين كما يقولون. إنهم يدخرون هذا الآخر - الذي هو الكافر - غيروا اسمه من الكافر إلى الآخر؛ لاعتقادهم أن ما عنده من كفر قد يكون صحيحاً، وأنه لا يوجد حقيقة مطلقة كما يقولون، وأن عصر المعلومات حطم الآيدولوجيات، ويجعلون من ضمن الآيدولوجيات: الإسلام، أخزاه الله وفضحهم.
وفي الوقت الذي يمدحون فيه الكفر وأهله يشترون فيما يقولون ويكتقرون حرية لا هوادة فيها على كل من دعا إلى الإسلام، أو طالب بتحكيم شريعة الله تعالى، وتصرفه بأشع الأوصاف التي تخوف العالم منه، وياليتهم لما طالبوا المسلمين بقبول الآخر - الذي هو الكافر - قبلوا هم الصالحين من عباد الله تعالى، وكفروا ألسنتهم وأقناعهم عن أذنهم، ولكن كيف يفعلون ذلك وهم يفرحون بكل مصيبه تقع على المسلمين، ويشمرون بهم، وينتمون لكل حسنة تصيبهم: إن تمسكتم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها» [آل عمران: 120].

الله ربيكم وامحزوا النفاق والمنافقين، ولا يأمن أحد على نفسه أن يكون فيه شيء من النفاق، فإن من أمن النفاق وقع فيه، ومن خافه سلم منه، وقد كان الصحابة يخفون على أنفسهم النفاق. نعوذ بالله من النفاق وأحوال المناقين، ونسأل الله تعالى أن يحفظ المسلمين من كيدهم وشرهم إنه سميع مجيب. وصولا على النبي المختار من ولد عدنان، محمد بن عبد الله كما أمركم بذلكRibkum.
دعاء أهل الكتاب

الجمعة 13/7/1423 هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، وننذور بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهدده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله...

يا أيها الذين آمنوا انقوا الله حق نفقاته ولا تموتون إلا وأنتم مسلمون} [آل عمران: 2]. {يا أيها الناس انقوا ربكما الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجاً وثنتين منهما رجلاً كثيراً ونساءً وانقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً} [النساء: 1]. {يا أيها الذين آمنوا التقوا الله وقولوا قولاً سيدناً} [الحجرات: 70-71].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدى هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعوة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالاً في النار.

أيها الناس: أرسل الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم إلى هؤلاء كاففة، إنهم وجوههم، عربهم وعجمهم، قريهم وعبيدهم؛ ليرجهم من الظلمات إلى النور} [سرا: 28]. {قل يا أيها الناس إن رسل الله إليكم أكتر الناس لا يعلمون}
ـ جميعًا ـ [الأعراف: 168]، وأنزل عليه القرآن مصدر هدياً وتذكيرة لجميع المكلفين ـ إن هو إلا ذكر للعالمين ـ لمن شاء منكم أن يستقيهم وما نشاءون إلا أن نشاء الله رب العالمين ـ [التكوير: 27-29].

وقد قضى الله سبحانه بأن يكون محمد صلى الله عليه وسلم خاتم المرسلين، وشريعته خاتمة الشرعات، وهي باقية بحفظ الله تعالى لها إلى قيام الساعة، ولذلك أوجب الله تعالى عليه بلى أنها للفقراء، ووجب على من بلغته وآنها أنها يتبعها لم تبلغها من الناس ـ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعتصم بالناس ـ [المائدة: 77] .


قال ابن كثير رحمه الله تعالى: ـ هذه الآية الكريمة نزلت أول الأمر بقتل أهل الكتاب بعدما تهدت أمور المشركين، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، واستقامت جزيرة العرب، أمر الله رسوله بقتل أهل الكتابين اليهود والنصارى، وكان ذلك في سنة تسعة؛ ولهذا تجهز رسول الله
صلى الله عليه وسلم لقتال الروم، ودعا الناس إلى ذلك، وأظهره لهم، وبعث إلى أحياء العرب حول المدينة فندبهم فأوعبوا معه، واجتمع من المقاتلة نحو من ثلاثين ألفاً (1).

كان هذا الاستثمار العظيم سنة تسع للهجرة في شهر رجب، والوجهة كانت إلى تبوك؛ لإخضاع أهل الكتاب لحكم الإسلام بإسلامهم، أو دفعهم الجزية، أو قتالهم على ذلك؛ ليكون الدين كله تعالى.

اجتمعت الجموع التي ما جمع في الإسلام قبلا مثلا، وحدث النبي صلى الله عليه وسلم الناس على التبر بالذباب والسلاح والطعام لتجهيز هذا الجيش الكبير وتموينه، وقال عليه الصلاة والسلام: "من جهيز جيش العسرة فله الجنة"، فجهزه عثمان بن عفان رضي الله عنه (2)، وجاء بالثلث دينار في ثوبه فنصبها في حجر النبي صلى الله عليه وسلم، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقبلها بيده ويقول: "ما ضر ابن عفان ما عمل بعد اليوم، يرددها مراراً (3).

---

(1) تفسير ابن كثير (2/542)، عند تفسير الآية (29) من سورة البقرة.
(2) أخرجه البخاري معلقاً مجزأً، باليوصايا باب إذا وقف أرضاً أو براً.
(3) أخرجه أحمد (5/635)، والترمذي في المناقصات باب مناقب عثمان بن عفان وحسن (1/117)، وأبو نعيم في الحلية (11/95)، والحاكم وصحيحه ووافقه.
(4) البغدادي (2/10).
لا تَمِ تجهيز الجيش سار من المدينة إلى تبوك، وجهة الصحابة رضي الله عنهم جهداً شديداً في الطريق؛ لبُعد المسافة، وشدَّة الحَر، وقلة المؤونة والظهُر؛ حتى سُمي تلك الغزوة بِغُزوة العسيرة. فلما وصل الجيش إلى تبوك لم يجد جيشاً يواجهه؛ إذ جبن الروم وحلفاؤهم من العرب عن ملاقَاة المسلمين، فأقام النبي صلى الله عليه وسلم بِتبوك عشرين ليلةً، أرسَل فيها الرسول إلى ملوك النصارى يدعوهم إلى الإسلام، ومن أبى فرض عليه الجزية، وأخضع بلاده لحكم المسلمين.

روى الإمام أحمد وأبو يعلى من حديث سعيد بن أبي راشد قال:

النبي صلى الله عليه وسلم رحل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحمص، وكان جاراً لي شيخاً كبيراً قد بلغ الْقُند أو القرب، فقالت: ألا تخبرني عن رسالة هرقل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ورسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هرقل؟ فقال: بل، قد طرحت عليه وسلم تبوك، فبعث دحية الكبلي إلى هرقل، فلمَّا أن جاءه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا قَسِيسي الروم وبطارقها، ثم أغلق عليه وعليهم باباً، فقال: قد نزل هذا الرجل حيث رأيتهم، وقد أرسل إليِّ يدعوني إلى ثلاث خصال؛ يدعوني إلى أن أتبعه على دينه، أو على أن نعطي ما لنا على أرضنا، والأرض أرضنا، أو نُقِي

(4) أخرجه أحمد (295/3)، وأبو داوَد في الصلاة باب إذا أقام بأرض العدو يقصر (1335)، وعبد الرزاق في مصنفه (4335)، والبيهقي في الكبير (152/3)، وصححه ابن حبان (2738) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.
ألي الحب. والله لقد عرفتم فيما تقرؤون من الكتب لياخذن ما تحت قدمي، فهللم تتبعته على دينه، أو نعثيه ما لنا على أرضنا، فنخرعوا نخرة رجل واحد حتى خرجوا من براينهم، وقالوا: تدعونا إلى أن ندع التنصارية أو نكون عبدا لأعرابي جاء من الحجاز!
فلما ظن أنهم إن خرجوا من عنده فادسوا عليه الروم رفأهم ولم يكد - أي هدأهم - وقال: إنما قلت ذلك؛ لأعلم صلاتكم على أمركم، ثم دعا رجلاً من عرب تجيب كأن على نصارى العرب، فقال: ادع لي رجلاً حافظاً للحديث، عرفي اللسان، أبعه إلى هذا الرجل بجواب كتابه، فجاء بي فدفع إليّ هرقُ كتاباً فقال: اذهب بكتابي إلى هذا الرجل، فما ضي xét من حديثه فاحفز لي منه ثلاث خصال: انظر هل يذكر صحيفته التي كتب إليّ بشيء، وانظر إذا قرأ كتابي فهل يذكر الليل، وانظر في ظهره هل به شيء يريب؟
بصحيفة فخرتُها، والله مخرّجه ومخرج ملكه - وهذا النجاشي غير النجاشي الذي أسلم ومات وصل على النبي صلى الله عليه وسلم - وكتبته إلى صاحبته بصحيفة فأمسكها، فلن يزال الناس يجدون منه بأساً ما دام في العيش خير، قلت: هذه إحدى الثلاثة التي أوصاني بها صاحبي، وأخذت سهمًا من جعبتي، فكتبتها في جلد سيفي.
ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أيكم ينزل هذا الرجل؟ قال فني من الإنصار: أنا، فقام الإنصاري وقمت معي حتى إذا خرجت من طائفة المجلس ناداني رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: تعال يا أخا تنونخ، فأقبلت أهوى إليه حتى كنت قائماً في مجلسي الذي كنت بين يديه، فحل حبّته عن ظهره، وقال: ها هنا أمض لما أمرت له، فجلت في ظهره، فإذا أنا بخاتم في موضع غضون الكتف مثل
الخطبة الثانية

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه كما يحب ربي ورضي، أحمد
وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا
شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه
وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله - عباد الله - كما أمر، واجتنبوا الفواحش ما
بطن منها وما ظهر، واعلموا أن الله مع المتقدمين.

أيها الناس: ماتت غزوة تبوك غزوة الخندق في شدتها وعسرها،
وما حاكم بالصحابة رضي الله عنهم من إبلياتها، كما كانت نهاية
الغزواتين واحدة؛ إذ كفى الله تعالى المؤمنين القتال، فسلط على الأحزاب
ريحا رحلتهم عن المدينة، وقذف في قلوب النصارى رعبًا قعد بهم عن
ملاقاة المسلمين في تبوك، وكانت تبوك نصرًا عظيمًا للإسلام والمسلمين;

(5) أخرجه أحمد (4/441 - 442)، وابن عبيد الله في الزوائد (4/75).
والبيهقي في الدلائل (1/272)، وأخرجه مختصراً أبو عبيد في الأموال (225).
وأبو زهير في الأموال (961)، وعزاء الهشمي في الزوائد لأبي يعلى وقال:
ورجال أبي يعلى ثقات (8/236-237)، وقال ابن كثير في البداية والنهاية:
هذا حدث غريب، وإسناده لا ياسه إلا تفرد به الإمام أحمد (5/15-16).
إذ أخذت النبي صلى الله عليه وسلم كثيراً من القبائل والبلدان المتحالفة مع الروماني لسلطان المسلمين، وضرب عليهم الجزية، فبعث خالد بن الوليد إلى أيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل، فأسره خالد وأتى به النبي صلى الله عليه وسلم في تبوك، فحقن له دمه، وصالحه على الجزية(1)، وأهدى أيدر حلة من حرير إلى النبي صلى الله عليه وسلم فعجباً الناس منها، فقال على الصلاة والسلام: "أتعجبون من هذا فوالذي نفسي بيده لناديُ سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا"، رواه الشيخان(2).

وأرسل ملك أبلة هدية إلى النبي صلى الله عليه وسلم وصالحه على الجزية(3). وهكذا فعل أهل جرباء وأدرك فاعطوه الجزية(4).

(1) سيرة ابن هشام (4/232)، والإصابة (1/1341).

(2) أخرجه البخاري في بده الحكم باب ما جاء في صفقة الجنة وآبها مخلوقات (3/348)، ومسلم في فضائل الصحابة باب من فضائل سعد بن معاذ رضي الله عنه (2/88)، والترمذي في اللباس باب من غير لبس (173)، وأحمد (1/111) من حديث أنص بن مالك رضي الله عنه، وعاباً من حديث البراء رضي الله عنه عند البخاري في مناقب الأنصار باب مناقب سعد بن معاذ رضي الله عنه (2/88)، ومسلم في فضائل الصحابة باب من فضائل سعد بن معاذ رضي الله عنه (2/1461).

(3) أخرجه البخاري في الجزية وموادعة باب إذا وادع الإمام ملك قرية هل يكون ذلك ليقيهم (1361)، ونقل الحافظ في الفتح عن ابن إسحاق قوله: "لمأ انتهى النبي صلى الله عليه وسلم إلى تبوك أتاه بحنة ب روئة صاحب أبلة فصالحه وأعطاه الجزية..." (3/268).

(4) سيرة ابن هشام (3/230).
وهيذا دانت كثير من البلاد والقبائل المنتصرة لسلطان الإسلام،
ودخل كثير من أفرادها في دين الله تعالى، فوطدت هذه الغزوة سلطان
الإسلام في شمالي الجزيرة العربية، ومهدت لفتح الشام التي استعد
لها رسول الله صلى الله عليه وسلم بإعداد جيش أسامة قبيل وفاته،
فأنفذه أبو بكر رضي الله عنه، ثم أتبعه أبو بكر بجيوش الفتح الأخرى،
ثم عمر رضي الله عنه حتى كسر الرومان في معركة بريموك، والفرس
في القادسية، وعزر الإسلام، وانتشر في الأرض، وتحرر الناس من
ظلم الأكاسرة والقيصرة.

إن ما جرى في غزوة تبويك من مبادأة أهل الكتاب بالغزو لمما يرد
شبهة أولئك الكتاب المعاصرين الذين أرادوا توزير مفهوم الجهاد في
سبيل الله تعالى، وحصروه في الدفع فقط. وهمفهم من هذا الترويج
هو: إخصوص الإسلام بحدود الحضارة المعاصرة، وتطوعه للفوانين الدولية
الجارية، فما وجدوا سبيلًا لرضى أهل الكتاب عنهم إلا بالتلاعب
بأحكام الله تعالى، من توزير مفهوم الجهاد، وتضييق نطاقه، وإلغاء
أحكام أهل الذمة، حتى كتب أحدهم كتابه: "مواطنون لا ذميون" (1)
بل وصل الحال ببعضهم إلى إلغاء حد الردة، وبالغ بعضهم فرض
كل الحدود بحجة عدم مناسبتها لهذا العصر.

إن هؤلاء المزورين للذين، المتلاعبين بأحكام الشريعة قد ارتدوا
أن يسخطوا الله تعالى برضي الناس، فهم حررون بسخط الله تعالى عليهم،

(1) هو الكاتب الصحفي فهمي هويدي، هداؤر الله تعالى.
وأن يسخط عليهم الناس، وما رأينا من حاولوا إرضاءهم قد رضوا
عنهم ولا عن دينهم، ولا عن أفكارهم التي فيها من بنود الخضارة المعاصرة
أكثر ما فيها من الإسلام، بل سخطوا عليهم ورفضوه ولم يقبلوه.
أليس القوى الظالمة قد اعتبت مقاومة المحتل العتادي إرهاباً؟
لأنهم يريدون من الضحية أن يذبح ولأعترض، وأن يعذب فلا يتوجع.
ولن يرضيهن شيء حتى يبدلا دينانا، وصدق الله القائل: «ولن
ترجمك أنك الهود ولا النصارى حتى تبعث منهم» [البقرة: 120].
لا فاتقوا الله ربككم، واستممسوا بدينكم، وثبتوا عليه مهما كانت
التبغات؛ فإن حوض النبي صلى الله عليه وسلم لا يرده من بدلا وغيروا،
ولسوف يعجبون عنه، ويقول النبي صلى الله عليه وسلم: «سحقاً
سحقاً ممن بدل بعدي»(11).
وصلوا وسلموا على نبيكم محمد، كما أمركم بذلك ربككم...

(11) كما جاء في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عند البخاري في الرقاق
باب في الحوض (684)، وسلم في الفضائل باب إثبات حوض نبينا محمد
صلى الله عليه وسلم وصفاته (2991).
الجمعة 11/7/1417 هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعود بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يشهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله.

١٤٩ - أحداث توبة صادقة
توبي كعب بن مالك رضي الله عنه

اللهم صل على محمد وآل محمد.

أما بعد: فقد كان من الأحداث الكبرى في تاريخ الإسلام الواقعة في شهر رجب: غزوة تبوك. تلك الغزوة التي كانت ابتداءً للعهد، وتمحياً للمؤمنين، وفضحاً للمنافقين. وأحداث الغزوة طويلة، ومن أبرز أحداثها تخلف الصحابي الجليل كعب بن مالك رضي الله عنه، ثم توبته الصادقة التي برهن الابتلاء على صدقها. ونحتاج في زمن المعاصي والفتنة أن نستن من النظرة جيداً في تلك التوبة الصادقة.

فمسى أن نتوب إلى الله جميعًا فتكون من المفلحين.
أخير الشيخان وغيرهما(1) من حديث عبد الله بن كعب بن مالك
وكان قائداً كعب رضي الله عنه من بنه حين عمري، قال: سمعت كعب
ابن مالك رضي الله عنه يحدث بحديثه حين تخلف عن رسول الله صلى
الله عليه وسلم في غزوة تبوك، قال كعب: لم أتخلف عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم في غزوة غزاها قط إلا في غزوة تبوك، غير أن
قد تخلفت في غزوة بدر، ولم يعاتب أحد تخِلَف عنه؛ إنما خرج
رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون يريدون عهر قريش حتى
جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد. ولقد شهدت مع رسول
الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة حين توافقنا على الإسلام، وما
أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها.
وكان من خبرى حين تخلفت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم
في غزوة تبوك أنني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه
في تلك الغزوة، والله ما جمعت قبلها راحلين قت حتى كانت تلك
الغزوة، ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد غزوة إلا ورّى
بغيرها حتى كانت تلك الغزوة، فغزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم

(1) الحديث أخرجه البخاري في المغازي باب حدث كعب بن مالك (4418)
وسلم في التوبة باب حدث توبة كعب بن مالك (2719) والتمدّر في
tلفس، سورة براءة (31 101) وأبو داود في الجهاد باب إعطاء البشير (22)
والنسائي في الطلاق باب الحقي بأهلك (152) وأحمد (452/2) وساق
رواياته في الكتب الخمسة ابن الأثير في جامع الأصول (171).
في حَر شديد، واستقبل سفراً بعيداً ومفارضاً، واستقبل عدداً كثيراً، فجعل لي المسلمين أمورهم ليتأبهوا أهة غزوه، فأخبرهم بوجههم الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله كثير ولا يجمعهم كتاب حافظ - يريد بذلك الديوان - قال كعب: فقل، رجلي يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى به ما لم ينزل فيه وحي من الله، وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الغزوة حين طابت النمار والطلال فأنها إليها أصغر.
فتجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه، وطفقت أغدو لكي أتجهز معه، فأرجع ولم أقطع شيئاً وأقول في نفسي: أنا قادر على ذلك إذا أردت. فلم يزل يتمادى بي حتى استمر الناس الجدُّ فأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم غاديًا والمسلمون معه ولم أقصر من جهاري شيئاً، ثم غدته فوجعت ولم أقصر شيئاً. فلم يزل يتمادى بي حتى أسرعوا وتتفارط الغزوة. فهممت أن أرتحل فأدركهم، فباشرت، ثم لم يُقدَّر ذلك لي.
فطفت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم يحزني أنه لا أرى لي أسوة إلا رجلاً مغضوماً عليه في النفاق، أو رجلاً ممن عذر الله تعالى من الضعفاء، ولم يذكرني رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبكيك: ما فعل كعب بن مالك؟ فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله حببه برزاه، والنظر في عطفه، فقال له معاذ بن جهل رضي الله عنه: بشما قلت! والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً، فسكت رسول الله
 صلى الله عليه وسلم. فبينما هو على ذلك رأى رجلاً مُبْيَضاً يزول به السراب، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كن أبا خشتة، فإذا هو أبو خشتة الأنصاري، وهو الذي تصدق بصاع التمر حين لمزه المناقرون.

قال كعب: فلما بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توجه قافلاً من تبوك حضرني بغي، فطوفت أتذكر الكذب وأقول: بم أخرج من سخطه غداً وأستعين على ذلك بكل ذي رأي من أهلي. فلما قيل:

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أظل قادماً زاخ عنى الباطلُ حتى عرفت أني لم أنج منه شيء أبداً، فاجمعت صدقته وأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم قدماً. وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلصون يعتذرون إليه ويلحرون له، وكانوا بضعا وثمانين رجلاً فقبل منهم علانيتهم وباعهم واستغفر لهم، ووكل سرايرهم إلى الله تعالى حتى جفت; فلما سلمت تبسم تبسم الممضبث ثم قال: تعال، ففجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: ماهلَّك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟ قال: قلت: يا رسول الله، إنني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أنني سأخرج من سخطه بعذر، لقد أعطيت جدلاً، ولكنني والله لقد علمت لن عن حديثك اليوم حديثٍ كذب تضى به عني ليوشكن الله أن يُسْخَطَّك علي، وإن حديثك حديث صدق تجدُ علي في إني لأرجو فيه عقبتي اللهم عز وجل، والله ما كان لي من عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك. قال:
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ فَقَمْ حَتِّى يُقْضِي اللَّهُ فِي كُلِّ لَٰٓهٖ". وسأَر رجَالٌ مِن بَنِي سُلَيْمَة فَأَبَعَونَ فَقَالُوا لَهُ: وَاللَّهِ مَا أَمَلِكُوا أَذِينَتُ ذَنْبًا قَبْلُ هَذَا، لَقَدْ عَجزَتْ فِي أَنْ لَا تَكُونَ اعْتَذَرَتْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم بِمَا اعْتَذَرَ إِلَيْهِ المَخْلُفُونَ فَقَدْ كَانَ كَافِيَ ذُبُّبَكَ اسْتَغْفَارُ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم لَكَ. قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا زَالْتُمْ يَؤْتِونِي حَتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجَعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم لَي. قَالَ: فَقَالُوا: نَعَمْ، لِقَيْبَةٌ مَعِكَ رَجُلانَ قَالاً مَثِلَ مَا قَلِتُ، وَقَبِيلَ لَهُمَا مَثِلٌ مَا قَلَى لَكَ؟ قَالَ: فَقَالُوا: مَمَّا رَأَيْتُنَا مِنْهُ، فَقَالَ: فَذِكَرُوا لَهُ رَجلٌ صَالِحٌ قَدْ شَهِدَ بَيْنَا فِيهِمَا أَسْوَةً، قَالَ: فَضَمَّبَتْ هَيْنَأُهُمَا لِي.

وَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم عَنِ كَلاَّمَةِ أَيْبَهَا الثَّلَانِيَةَ مِنْ بَيْنِنَا مِنْ تَخْلُقُ عَنْهُ، قَالَ: فَاشْتَبَهْتُ الْأَظْلُومَ عَلَى ذَلِكَ إِنْ لَيْنَا لَيْنَا نَتَكَرَّرُ لَيْنَا فِي نَفْسِي الأَرْضِ فَمَا هِيَ بِالأَرْضِ الَّتِي أَعْرَفُ. فَلَبِينَا عَلَى ذَلِكَ خَمسِينَ لِيْلَةً. فَأُمِّي صَاحِبَيْنِ فِي بُكَنَا وَقَعَا فِي بُوْنِهَا يَكْيَانِ، وَأُمِّي نَفْسِي. فَاشْتَبَهْتُ أَنْ لَيْنَا أَنْ لَيْنَا نَكُلَّمُنَا وَأَنْ لَيْنَا نَكُلَّمُهُمَا، فَكَتَبْ أَخْرِجُ فِي نَفْسِي الصَّلَاةَ قَالَ: فَأَقُولُ في نَفْسِي: هل حَرْكْ شَفُتِي بَرَّ السَّلَامَ أمْ لاَ، ثُمَّ أَصْلِي قَرَبًا مِنْهُ وَأَسَارِقُهُ الْبَصَرَةَ فَإِذَا أَقْبَلَتْ عَلَى صَلَاتِي نَظْرٌ إِلَيْهِ، وَإِذَا الْتَفَتُّ نَحْوُه.
أعرض عنٍ.
حتى إذا طال ذلك علىٍ من جفوة المسلمين مشيتُ حتى تسورت
جدار حائط أبي قتادة - وهو ابن عمي وأُحبّ الناس إليه - فسلمت
عليه فوالله مارد عليّ السلام، فقالت له: يا أبا قتادة: أنشدك بالله هل
تعلمني أحبب الله ورسله صلى الله عليه وسلم؟ فسكت، فعدت
فنشدت فسكت، فعدت فنشدت فقال: الله ورسوله أعلم؛ ففاضت
عيناي، وتوليت حتى تسورت الجدار. فبينا أنا أمشي في سوق المدينة
إذا تضط من نبت أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول:
من يدل على كعب بن مالك؟ فطلق الناس يشيرون له إليّ حتى
جاءني فدفع إلي كتاباً من ملك غسان، وكنت كاتبًا، فقرأته فإذا فيه:
أما بما فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بداره وعاد
ولا مضيعة، فاللهم يا نواسك، فقلت حين قرأتها: وهذه أيضاً من
البلاء، فيممت بها التنور فسجرتها.
حتى إذا مضت أربعون من الخمسين واستلبث الوجي، إذا رسول
رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتيني فقال: إن رسول الله صلى الله
عليه وسلم يأمرك أن تعزل امرأتيك، فقلت: أفأطِلُّها أم ماذا أفعل؟
قال: لا بل اعتزلها فلا تقربنها. وأرسل إلى صاحبتي بمثل ذلك،
فقلت لأمراتي: الحلي بأملك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا
الأمر. ففجأت امرأة هلال بن أمية رسول الله صلى الله عليه وسلم
فقالت له: يا رسول الله، إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم؟
فهل تكره أن أخدمه؟ قالت: لا ولكن لا يقربتك. فقالت: إنه والله مابه من حركة إلى شيء، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا. فقال لي بعض أهلي: لو استذازت رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمانتك؛ فقد أذن لامرأة هلال بن أبي من أن تخدمه؟ فقلت: لا استذازني فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استذازتها وأنا رجل شاب! فلبث بذلك عشر ليال فكتم لما خمسون ليلة من حين نجى عن كلامنا. ثم صلبت الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى لنا، قد ضاقت علي نفسي وضاقت علي الأرض بما رحبت; سمعت صوت صارخ أوفى على سلم يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك! أبشر! فخررت ساجداً وعرفت أنه قد جاء الفرج. فآذن رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بتوتة الله عز وجل علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناسْ ينشروننا فذهب قُتل صاحبٌ بشرون، وركض رجلٌ إلى فرساً، وسعى ساعٍ من أسلم قبلي وأوفى على الجبل، وكان الصوت أسرع من الفرس. فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشيرني نزعت له ثوبى فكسوتهما إياه ببشرته، والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستمعتُ ثوبين فلبستهما وانطلقت أناوم رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقاني الناس فوجأ فوجأ يهتئوني بالتوبة ويقولون لي: لتهنك توبة الله عليك! حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم
جسماً حوله الناس. فقام طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه يهرول
حتى صفاحني وتهاني، والله ما قام رجل من المهاجرين غيره. فكان
كعب لا ينساه لطلحة.
قال كعب: فلما سلّمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال
وهو يبرّع وجهه من السرور: أبشر بخير يوم مراّ عليك منذ ولدتك
أمك. فقلت: أمٍّي، يا رسول الله أدم من عند الله؟ قال: لا بل
من عند الله عز وجل، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سأَر
استنار وجهه حتى كان وجهه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه.
فلما جلسنا بين يديه قلت: يا رسول الله، إن من توبتي أن أنخلع
من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله، فقال رسول الله صلى الله عليه
 وسلم: أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك، فقلت: إني أمسك
سهمي الذي بخير، وقالت: يا رسول الله، إن الله تعالى إنما نجاني
بالصدق، وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقا ما بقيت، فوالله ما
علمت أحداً من المسلمين أباه الله تعالى في صداق الحديث منذ
ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن مما أبلاني الله
 تعالى، والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله صلى الله عليه
 وسلم إلى يومي هذا، وإنني لأدري أن يحفظني الله تعالى فيما بقي.
قال: فانزل الله تعالى: {قد ثاب الله على النبي وآلهاجرين وآل
الذين يبعون في ساعة العسرة} [الأنبياء: 117] حتى بلغ {إلههم رعو
رفعهم}، وعلى الثلاثة الذين خلقوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت.
قال كعب: والله ما أنعم الله علي من نعمةٍ قطّ بعد إذ هدياني الله
لإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله صلى الله عليه وسلم
أن لا أكون كذيعًا؛ فأهلك كما هلك الذين كذبوا، إن الله تعالى قال
للمين كذبوا حين أنزل الوحي شرّ ما قال أحد فقال الله تعالى
سيحلفون بالله لكم إذا اقتلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم
رقس وما أواهم جههم جزاء بما كانوا يكسبون (45) يحلفون لكم بترضا عنهم
فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين (46) [النبية: 95،
96]. . . الحديث، بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله حمدًا طبأا كثيرًا مباركًا فيه كما يحب ربي ورضي،
أحمده وأشكره وأتوب إليه واستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده
لا شريك له؛ يغفر الذنب، ويقبل التوبة، شديد العقاب، ذو الطول
لا إله إلا هو إليه المصير، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أصدقُ
الناس توبة، وأعلاهم عند ربه منزلة، صلى الله وسلم عليه وعلى آل
وصحبه ومن سار على نهجهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين.

يا أيها الذين آمنوا إن تلقوا الله يجعل لكم فرجًا ويكفر عنكم سبئاتكم
ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم (49) [الانفال] وتوبوا إلى الله جميعًا
أيها المؤمنون لعلكم تفلحون (51) [النور].
أيها الأخوة المؤمنون: كانت قصة كعب من أرواح القصص التي خُفِقْت في السنة النبوية، وذُوِتَت في تاريخ المسلمين. لقد كانت تويته توبة صادقة؛ ثبت بها كعب أن تميّز به الابتلاءات، أو تميّز به الإغراءات؛ فرضحى تضحية جسيمة حينما صدق الله ورسوله، وصرّ على المقاطعة والهجران.

وكم هو عسير على النفس البشرية أن تعيش مع الناس، وفي شدة المحن والمتاعب، يأتيه ما يُظنُّ أنه فرج وهو زيادة في البلاء، حين يُرسل إليه ملك غسان أن يوافيه، ويترك الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبه، لكن كعباً صمد ولم يفتين، فسجَّر الكتاب في التنور، وماقاده إلى ذلك إلا قوة إيمانه، وصدقه في النوبة.

فما أحورنا بعد استعراض تلك الحادثة أن نعيد النظر في توبتنا. كيف نتوب ثم نعصي، ثم نتوب ثم نعصي؟ بل ونزداد عصياناً ونفوراً، إن ذلك لمن الكذب في النوبة؛ إذ لو صدقتنا مع الله في توبتنا كما صدق كعب، لرزقاً توبة نصوحاً كما رزق كعباً.

هل تحقق اللندم على المعصية في توبتنا كما تحقق في توبة كعب؟ وهل ألقعنا عن ذنوبنا؟ وهل عزمنا على عدم الرجوع إليها؟ أم أننا عند أدنى إغراءٍ نرجع إلى المعصية مرة أخرى، وهل نطبّق ما طاق كعب من البلاء؟

إذاً لا يستطيع ذلك لأن إيماننا ليس كإيمان كعب، وصدق كعب ليس كصدقنا، فاستحق كعب وصاحبه أن يُعلن قبول توبتهم في قرآناً.
يتلى إلى يوم الدين.
فهل تعتبر يا أيها المؤمنون، ونجدُ التوبة، ونصدقُ فيها في كل وقت وحين. وإذا أنسانا الشيطانُ ولهُنا على الدنيا، وجبنا للمعصية عدنًا من جديد فتذكرنا ذلك، خصوصاً حينما نتلقوا إعلان توبة الله على كعب وصاحبه في آيات من سورة سبعة بسمة التوبة؛ لعظم هذه القصة، وعظم التوبة. وكيف لا تكون التوبة عظيمة وهي رجوع إلى الخالق، وانطراح بين يديه، وندم على العصيان، وإراغة للشيطان.
فالتوابات التوبة يا عباد الله، والصدق الصدق فيها؛ فمن قلب توبتهُ فمع المفلحين، اللهم ارزقنا التوبة الصادقة النصوح، اللهم تب علينا...
"إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصِلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُو عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسليماً" [الأحزاب: 56].

* * *
غزوة مؤتة: أحداث ودروس
140- غزوة مؤتة: أحداث ودروس

١٤١٧/٥/٢٢

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاتُه ولا تموتون إلا وأتّمُّ مَسْلَمُونَ} [آل عمران: ٢٠] {يا أيها الناس آتِّقُوا رَبَّكُمَّ الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وثبت منها رجلاً كبيرًا ونساء. إِنَّهُ لَلَّهُ عَلِيٌّ رَقِيبٌ} [ النساء: ١١] {يا أيها الذين آمنوا أتِّقُوا الله وقولوا قولاً سِنِيدًا} [المحرز: ١٧٠-١٧١].

أما بعد: فإن خير الكلام كلام الله تعالى، وخير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعه، وكل بذعة ضلالة، وكل ضلاله في النار.

أيها الناس: تحتاج أمة الإسلام في حال ضعفها واستكانتها، وتسلط أعدائها، وعجز أبنائها؛ من أجل إيقاظها وإحيائها إلى الموعظة والتذكير، ومراجعة حساباتها، والرجوع إلى ربيها، والاستمساك بدينها، فهي أمة لا تغيب ولا تقوى إلا بالإسلام؛ فإذا أعرضت عنه عاشت في الدنيا والدون، وما يهم في إحيائها، وعين على نهوضها: مدارسة تاريخها،
والذكرُ بأمجادها وأيامها، والوقوف على سير أبطالها ورجالاتها، لا
اكتمالًا بذكر الأمجاد السالفة، ولا تغني بأيامها الخوالي، ولكنه وقوفٌ
تأمل وتدبر، يقود إلى التتابع والاتقاء، والسعي الجاد إلى الصلاح
والإصلاح، ونشر الخير بين الناس، حتى تنهد أمة الإسلام، ويقوى
أبناؤها؛ فتكون شريعة الله تعالى حاكمة بين العباد.
وهذا حديث عن غزوة مؤتة التي عيِّن النبي صلى الله عليه وسلم
لها قادة ثلاثة، يعقب أحدهم الآخر إذا استشهد، والتي كانت أول
معركة للمسلمين مع النصارى، فخرجت تلك الغزوة عن المعبرود؛ إذ
كانت حروب المسلمين قبلها مع العرب واليهود.
يُذكر في سبب هذه الغزوة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث
بكتاب إلى ملك بصرى، مع الحارث بن عمير الأردي، فلما نزل مؤتة
عرض له شرحبيل بن عمرو الغساني فقتله صبراً - وكانت الرسل لا
تقتل - فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل رسوله، فأرسل
إلى مؤتة ثلاثة آلاف من المسلمين في جمادى الأولى من السنة الثانية
من الهجرة النبوية (1) وأمر عليهم زيد بن حارثة ثم قال: «إن قُتل زيد
فجعل، وإن قُتل جعفر فعبد الله بن رواحة». أخرجه البخاري (2).

(1) انظر: طبقات ابن سعد (2/128) وسيرة ابن هشام (22/2) والإبادة والنهجية
(4/241).
(2) أخرجه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما البخاري في المغازي باب غزوة
مؤتة من أرض الشام (4211) وأخرجه من حديث أبي قتادة الأنصاري رضي
الله عنه أحمد (5/299-300).
فمضى الجيش حتى نزلوا مكان من أرض الشام، وكانت أخبار هذا الجيش قد وصلت إلى الروم، فجهزوا ملائكته مئة ألف، وانضم إليهم مئة ألف أخرى من نصارى العرب، فكانوا مئتي ألف كافر، مقابل ثلاثة آلاف مسلمين، فالمقارنة بينهما ضرب من ضروب الخيال، والدخول في القتال مجازفة أي منازفة، مما جعل المسلمين - فيما يروى - يترددون في ملاقاة عدوهم، وقيمون ليلتين يفكرون في أمرهم، فقالوا: "نكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنصبه بعد عددونا، فإنا أن يمدنا بالرجال، وإنا أن يأمرنا بأمره فنمضي له، لكن ابن رواحة قطع تفكيرهم، وشجع الناس على المضي في القتال قائلًا: يا قوم، والله إن التي تكرون للتي خرجتم تطلبون: الشهادة، وما نقاتل الناس بعد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرم الله به، فانطلقوا فإنا هي إحدى الخسينين: إما ظهور، وإما شهادة، فقال الناس: قد والله صدق ابن رواحة".  
فمضوا حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء لقيتهم جموع هرقل من الروم والعرب، فانحاز المسلمون إلى موتة، وعبأوا أنفسهم فيها، ثم التحم الفريقان.
وغريب جداً أن ينازل المسلمون عدوهم وهو يزيد عليهم بما يقارب سبعين ضعفًا، إن المقايس والحسابات ترفض ذلك، لكن تطمته المقايس،

(3) سيرة ابن هشام (5/42) وتاريخ الطبري (2/150) والبداية والنهج (4/328) والسيرات الخليلية (2/587) وزاد المعاد (3/223)
وأُلغيت الحسابات؛ فالقاطلون هنا ليسوا كسائر المقاتلين، بل هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، امتهنوا قلوبهم إيمانًا وتقيًا، وعلموا أن ما عند الله تعالى حق، فلم يحجاموا ويعتذروا بكثرة عدوهم وقتلهم، وقوته وضعفهم؛ بل قاتلوا قتالًا مريناً، وعانقوا المنايا، وخاضوا حمام الموت؛ حتى استشهد قاتلههم زيد رضي الله عنه، فأخذ الرأية القائد الذي يليه جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه فعقر فرسه الشقراء(4) وقال بالرائة فقطعت يمينه، فأمسك الرائة بشماله، فقطعل شماله، فاحتضن الرائة بعضاً حتى استشهد وهو ابن ثلاث وثلاذين سنة(5)، ولقد أبدله الله تعالى عن يديه جناحين يطيب بهما في الجنة كما ثبت في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم(6)، وقيل: إنه ظل

(4) جاء هذا في حديث عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه من الرضاعة وهو من بني مرة بن عوف، وقد حضر الغزوة، وشهد فعل جعفر رضي الله عنه. أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (2/54)، ورقم (721)، وأبو داود وقال عقب ذكره: "هذا الحديث ليس بالقوي" (573)، والبيهقي (2/78)، والطبراني في الكبير (2/601)، ورقم (1492)، وحسبه الحافظ في الفتح (7/584)، ونظير كالامخطابي عن حكم عقر الفرس في خطبة سيرئة جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ج(4) ص(52) من هذه المجموعة.
(6) جاء ذلك في أحاديث عدة، منها:

أ) حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: رأيت جعفرًا يطير في الجنة مع الملائكة» أخرجه أبو يعلى (493) والترمذي وقال: هذا حديث غريب (376) وزاحجه ابن حبان (474)، والحاكم.
غزوة مؤتة: أحداث ودور

محتضناً الرأية حتى قُطع جسده نصفين(7)، فلله دره ما أثبته، قال ابن عمر رضي الله عنهما: "ووجدنا ما في جسده بضعاً وتسعين من طعنة ورمية"(8). وعلى رغم استشهاده لم تسقط الرأية بل أحدها القائد الثالث عبد الله بن رواحة فقاتل حتى استشهد.

قال على شرط مسلم ووفاقه الذهبي (3/112/12).

(7) حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "رأيت جعفر بن أبي طالب في الجنة ذا الجناحين يطير حيث شاء". أخرجه الطبراني في الكبير (3/112/12).


والأحاديث في ذلك كثيرة، وقد ذكر كثيراً منها الحافظ في الفتح في مناقب جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه وحسنه.

(9) انظر: وسيلة الإسلام لأبي العباس أحمد بن أحمد الخطيبي (8/1).

(8) آخرجه البخاري في المغازي باب غزوة مؤتة من أرض الشام (4/1) وجاء في حديث آخر عن نافع أن ابن عمر رضي الله عنهما أخبره أنه: "وقف على جعفر يومنذ وهو قليل، فعندت به خمسين بين طعنة وضربة ليس منها شيء في دبره، يعني في ظهره". أخرجه البخاري (4/1) وهذا تعارض من راو واحد هو ابن عمر رضي الله عنهما، وللجمع بين الحديثين أوجبه عدة منها:

الأول: أن العدد قد لا يكون له معنى.

الثاني: أن الزيادة باعتبار ما وجد فيه من رمي السهام، فإن ذلك لم يذكر في هذه الرواية؛ بل ذكر "طعنة وضربة" والحديث الآخر قال فيه: "طعنة ورمية".

الثالث: أن رواية الخمسين مقيدة بكونها ليس فيها شيء في ظهره، ورواية التسعين يكون الزائد على الخمسين في ظهره أو جنبيه، ولا يستلزم ذلك أنه ولي الدبر فقد تكون السهام أته من ظهره وجنبيه.
فمضى الثلاثة الذين عينهم النبي صلى الله عليه وسلم قادة للجيش، فأخذ الراية ثابت بن أقرم وصاح: "يا عشر المسلمين، اصطلحوا على رجل منكم، قالوا: أنت، قال: ما أنا بفاعل، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد" وتثبت بن أقرم رضي الله عنه أبي القيادة لا هروداً من المليئة، أو خوفاً من العدو، ولكنه أحس بوجود من هو أكفاء منه، كيف! وقد حمل الراية خشية أن تسقط، وصاح في المسلمين أن يعينوا قائداً والجند تدور رحاها، إن ذلك لم آيات الشجاعة والجرأة في هذا الموقف العصيب، وكم هو جميل أن يصبح الناس به ليكون قادئهم فياً!

استضغاً لنفسه، وهو يرى وجود من هو أولئك بالقيادة منه!!

وهو هذا دعوة عظيم من هذا الصحابي الجليل رضي الله عنه في معرفة أقدار الرجال، وإنزالهم منازلهم التي يستحقونها؛ حتى لا تكلف أمننا أن تحمل عجزاً وأثرنا".

ويؤيد الوجه الأول رواية عمر بن نافع: "فوجدنا ذلك فيما أقبل من جسده " بعد أن ذكر العدد بضعًا وأربعين.

ووقع في رواية البيهقي في الدلائل: "بضعًا وأربعين، أو بضعًا وسبعين" وأشار إلى أن بضعًا وسبعين أثبت. انظر: فتح الباري (7/585).

(9) أخرجه ابن إسحاق عن عروة مرسلاً; كما في فتح الباري لابن حجر (8/584). وأخرجه الطبري في تاريخه عن ابن إسحاق عن يحيى بن عباد بن عبد الله ابن الزبير عن أبيه من السنة وهو من بني مرة بن عوف وكان في الغزوة (121) وابن كثير في البداية والنهاية (4/244)، وانظر: سيرة ابن هشام (5/10) والثقة لابن حبان (32/133) والدرر لابن عبد البر (120) وزاد المعاد (3/383) والسيرة الخليلية (2/788).

(10) انظر: فقه السيرة للغزالي (3/368-378).
لقد اصطلح الناس على خالد بن الوليد، وخلال لها، شجاعة وإقامةً، وخبرة بأمور الحرب وسياستها، فأخذ الراية، وقاتل قتالاً مريحاً حتى تكسرت في يده تسعه أسياف من شدة القتال، لا شرط اللحم، روى البخاري عن خالد رضي الله عنه أنه قال: «لقد انقطع في يدي يوم مئة تسعه أسياف فما بقي في يدي إلا صفحة بنانية» (11).
وكان خالد يقاتل وهو يتحال للخلوص بالجيش من هذا المأزق المتضابق، وقتل الانسحاب شاق ومرهق، لاسيما وخالد لا يريد إشعاع الروم بالحفاظ على الجيش وسحبه.
ودخل الليل على المتحاربين، فتوقف القتال، فأعاد خالد تنظيم قواته القليلة، فجعل مقدمته ساقته، وساقته مقدمته، وميمنته ميسرتها، وميسرتها ميمنته؛ فأنكر الأعداء ما كانوا يعرفون من رايات وهيئات المسلمين وقالوا: «قد جاءهم مدد، فرعوا» (12)، وكان هدف خالد مناوئهم وإلحاق الخسائر بهم، دون إدخال المسلمين في حرب عامة معهم تكون خطراً عليهم
واكتفى بذلك، ثم أثر الانصراف من مكة، وكان من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم أن أخبر أصحابه في المدينة بخبر الجيش. روى أنس بن مالك أن رسل الله صلى الله عليه وسلم: «نعي زيداً وجعلوا

(11) أخرجه البخاري في المغازي باب غزوة مئة من أرض الشام (426) وابن المبارك في الجهاد (218) وأبي شيبة في مصنفه (1944) وأحمد في فضائل الصحابة (1481) والخريطي في مكارم الأخلاق (175).
(12) البداية والنتيجة (247/4).
وأبان رواحة للناس قبل أن يأتهم خبرهم فقال: أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذها جعفر فأصيب، ثم أخذها ابن رواحة فأصيب - وعِيناء صلى الله عليه وسلم تذرفان - حتى أخذ الراية سيف من سيف الله حتى فتح الله عليهم». رواه البخاري (١٣).

وعلى الرغم من ضرورة هذه المعركة، وكتة أعداد جيش العدو، فإنه لم يستشهد من المسلمين سوى أثنا عشر رجلاً فقط، أما العدو فلم يعرف عدد قتلاهم، غير أن وصف المعركة يدل على كثرةهم، وما انكسرت تسعة أسياط في يد خالد رضي الله عنه عبيثاً(١٤).

(١٣) أخرجه البخاري في المغازي باب غزوة مؤتة (٤٧٢) والسناني في الجناز.

(١٤) مختلف أهل السير في نتائج هذه الرسية هل كانت نصرًا للفلسطينيين أم كانت هزيمة عليهم على أقوال ثلاثة:

القول الأول: أنها كانت هزيمة على المسلمين، وهذا اختيار ابن سعد في الطبقات (٩٨/٢) إذ قال رحمه الله تعالى: فاصطلح الناس على خالد بن الوليد فأخذ اللواء، وانكشف الناس فكانت الهزيمة، فتبوع المشركون، فقتل من قتل من المسلمين؟ ولعل هذا القول مبني على ما حصل للقادة الثلاثة رضي الله عنهم؟ إذ يبعد أن يقتل ثلاثة قادة متتابعين في معركة واحدة دون أن يكون هناك هزيمة! وجواب ذلك: أن القادة الثلاثة كانوا من فرط شجاعتهم، وحبهم للشهداء في مقدمة الجيش، فكان بده الرمي والضرب عليهم، أو أن الروم قدروا الراية;

لأنها عنوان النصر والهيبة، فتساقط القادة الثلاثة تحتها; حماية لها.

القول الثاني: لم يكن هناك نصر ولا هزيمة بل احترس كل طائفة عن الطائفة الأخرى، كما روى ابن هشام عن ابن إسحاق: فاصطلح الناس على خالد ابن الوليد فلمما أخذ الراية دافع القوم، وخاشى بهم، ثم احترس وانحجز عنه;

حتى انسرب بالناس» انظر: سيرة ابن هشام (١٩/٤).
قال ابن إسحاق في موضع آخر (4/43): «وقد قال فيما كان من أمر الناس وأمر خالد، ومختاهة بالناس، وانصرفه بهم قيس بن المسرح اليعمري يعتذر
ما صنع يمتد وصنع الناس:
فولله لا تنفك نفس تلومتني
ولكنها لا مستحيزاً فرذاؤاً
آلا خالد في القوم ليس له مثل
ويا أنبيتي نفس بخالد
بمتي إذا لا ينعف النابل السبب
وضم إلينا حجزتهم كليمهمَا
فيف قيس ما اختلف فيه الناس من ذلك في شعره: أن القوم حاجزا وكرهوا
الموت، وحقن انحياز خالد بمن معه» اه وانظر: تاريخ الطبري (4/42) والاكتفاء
للكلاعبي (4/2) وقوله: "مخاشته بالناس" معناه: أنه رضي الله عنه خشي
على المسلمين لقلة عددهم وكترة عدوهم، وقبل: الصواب "حاشي بهم" بالحاء
المهملة، ومعناه: انحاز بهم، انظر: الروض الألف (4/81).

وقد أيد قول ابن إسحاق هذا بأنهم انحازوا ابن القيم في زاد العاد (383/2)
فقال: «والصحيح ما ذكره ابن إسحاق أن كل فتة انحارت عن الآخر» اه.
القول الثالث: أن غزوة مؤنث كانت نصراً عظيماً للمسلمين، كما هو قول موسى
ابن عقبة والزهرى ومن وافقهما; فقد نقل ابن هشام في السيرة (4/42) عن
الزهرى قوله: "أمّ المسلمون عليهم خالد بن الوليد فتح الله عليهم". وقال
الحافظ في الفتح (6/586): "وقع في الغازى لموسى بن عقبة - وهي أصح
المغازي - ما نصه: ثم أخذه - يعني اللواء - عبدالله بن رواحة فقتله، ثم
اصطلح المسلمون على خالد بن الوليد فهزم الله العدو وأظهر المسلمين" اه.

ونصر هذا القول ابن كثير في البداية والنهي فقال: "هذا عظيم جداً أن يقاتل
جيشان متعديان في الدين، أحدهما وهو الفئة التي تقاتل في سبيل الله عدتها
ثلاثة آلاف، وأخرى كافرة وعدتها مئتي ألف مقابل: من الروم مئة ألف، ومن
نصارى العرب مئة ألف، يتبازون ويتصالون، ثم مع هذا كله لا يقتل من

ومن الذي يظهر رجحانه القول الثالث لما يلي:

1- حدث أنس رضي الله عنه وله أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "حتى أخذ الرابئة سيف من سيف الله حتى فتح الله عليهم" أخرجه البخاري، وانظر تخريجه في هامش (13) نسخة النبي صلى الله عليه وسلم فتحاً، والفتح لا يكون إلا عن انتصار.

2- ما جاء في مغازي أبي الأسود عن عروة بن الزبير رضي الله عنهما قال:

"فحمل خالد على الروم فهزمهم" ذكره الحافظ في الفتح (7/86).

3- أن رجلاً من المسلمين من أهل اليمن قد قتل فارساً من الروم، وسلبه سرجاً وسلاحاً مذهبين؛ كما في حديث عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه عند أحمد (2/28) ومسلم (153) وأبي داود (2719) ولا شك في أن السرب غنيمة، والغنية تكون عن ظفر بالمعركة.

4- أنه لم يقتل من المسلمين بإجماع أهل السير والمغازي - فيما وقفت عليه من كتبهم - سوى اثني عشر رجلاً سماهم ابن هشام في سيرته (4/27-28) والهيبة لا يكون ضحاياها هذا العدد الضئيل؛ بل كثير من المعارك التي انتصر فيها المسلمون انتصاراً ساحقاً كان عدد قتلاهم أكثر من هذا العدد.

5- الظاهر من حال المعركة أن المسلمين أطنخوا في الروم، ولا يعرف كم كانت خسائر الروم، لكن سباق المعركة يدل على أنها خسائر فادحة، ويتبين ذلك من وجهين:
ولقد كان لشهداء موقعة مكانة عظيمة عند الله تعالى؛ لذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما يسرني - أو قال ما يسرهم - أنهم عندنا» 

أخيره البخاري (١۵).

أم أسرهم ففي كفالة الله تعالى، وهو نعم المولى ونعم النصير. عن عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما قال: «جاءنا النبي صلى الله عليه

الأول: أن خالداً رضي الله عنه انقضت في يده تسعة أسياط، وهذا عدد كبير في معركة واحدة، ويدل على إخزائه في العدو سوي غيره من أبطال المسلمين وشجاعتهم؛ كما هو قول ابن كثير رحمه الله تعالى.

الثاني: أن المسلمين استطاعوا الانسحاب من أرض المعركة بسلام، ولولا أن القتل كان كثيراً في الروم - حتى إنهم كانوا عن المسلمين - لما انسلحوا وركبوا ظهور المسلمين قتالاً وأسراً، وأطبقوا عليهم من كل جانب، خاصة وأنهم يزيدون على المسلمين بما يقارب سبعين ضعفًا، وهذا عدد كبير جداً - بل لا يكاد يصدق لولا إجماع أهل السير عليه - وما منهم من ذلك إلا ما رأوه من القتل في قومهم، فتهيأوا من المسلمين فلم يطردوهم، وكانهم فرحوا بانحيازهم عنهم. وهذا الانحياز، والخلوص من هذه الجموع العظيمة من الروم بخسائر قليلة من أبين الدلائل على أنه نصر عظيم، وفتح مبين؛ ولذلك اعتبره بعض المحققين علامة على الفتح والنصر؛ كما قال الدكتور أكرم العمري في السيرة النبوية الصحيحة (٢/٤١٩): «يُعتبر هذا الانسحاب المنظم الناجح فتحاً عظيماً، حيث تمكنت خالد من إنقاذ جيشه بخسائر طفيفة مع الإخنان في الروم، وإصابتهم ببلى وجرحى، ولا شك أن استياس المسلمين في القتال، وشجاعتهم النادرة، وحرصهم على الشهادة، بالإضافة إلى عبقريه خالد العسكرية هو الذي مكنته بعون الله تعالى من الخلاص من المأزق».

(١۵)أخيره من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه البخاري في الجهاد والسير باب تزني الشهادة (٧٧٩٨) وأحمد (٣/١٣٣).
 وسلم بعد ثلاث من موت جعفر فقال: لا تبكون على أخي بعد اليوم، وادعوا لي بني أخي، قال عبد الله: فجيء بننا كأننا أفرخ، فقال: ادعوا لي الخلاق، فجيء بالخلاص، فخلق رؤسنا، ثم قال عليه الصلاة والسلام مداوباً: أما محمد فشبيه عمنا أبي طالب، وأما عبد الله فشبيه خلفي وخلقي، قال عبد الله: ثم أخذ بيدي فأشارها وقال: اللهم اخلف جعفراً في أهله، وبارك لعبد الله في صفقة يمينه. قالها ثلاثاً، قال عبد الله: فجاءت أمانا فذكرت له يمتنا، وجعلت تُبرح له: فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم: "العيلة تخافين عليهم ومعنا وليهم في الدنيا والآخرة؟".

أخيره أحمد بسنده صحيح (١٦).

ودلها جاء نعي جعفر قال النبي عليه الصلاة والسلام: "اصنعوا لأئ يعفر طعاماً فقد أناههم أمر يشغله، أو أناههم ما يغله". أخبره أحمد والترمذي وقال: حسن صحيح (١٧).

(١٦) أخرجه أحمد (١١/٤٠٤-٠٥٠) وابن سعد في الطبقات (٤/٣٣٧) والنسائي في الكبير (٤٨٤) والطباراني في الكبير (٢/١٠٥) برقم (١٤١١) وابن عبد البر في التمديد (١٣٩٠) وأخرجه مختصرًا أبو داود في الجزيل باب في حلق الرأس (٤١٩٢) والنسائي في الزينة باب حلق رؤوس الصبيان (١٣٨٠) وصححه الشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند (١٧٥٠) ونظر شرح كلمة (تفرح له) في خطة سيرة جعفر رضي الله عنه (٤) ص (٤٥) من هذه المجموعة.

(١٧) أخرجه أحمد (١١/٢٠٥) وإسحاق بن راهوي في سنده (١٠٠) وابن يعلى في مسنده (١٨٠٠) وعبد الرزاق في مصنفه (١٦٥٢) وابو داود في الجائز باب صنعة الطعام لأهل البيت (١٣٣٢) والترمذي في الجائز باب ما جاء في الطعام يصنع لأهل البيت (٩٩٨) وابن ماجه في الجائز باب ما جاء في الطعام يبعث.
اللهُمَّ ارضِ عَن شهادَةِ مَوتِهِ، وَعَن الصَّحابَةِ أَجْمَعِينَ، وَاحِثِرْنَا
فِي زمَرتِهِمْ يَا رَبِّ الْعَالَمِينَ.
أَعْوذُ بِاللّهِ مِن الشَّيْطَانِ الرَّجيمِ مِنَ الْؤُمِّمِينَ رِجَالٍ صَدَّقُوا مَا عَاهَدُوا
اللّهُ عَلَيْهِ فَقُمْ نَحْبَةً مِّنْهُمْ مَنْ يَنَتَظِرَ وَمَا بَذَّلَوْا بَذِيلاً [الأحزاب: 23].
بارك الله لي وَلَكِمْ فِي الْقُرآنِ العَظيمِ . . .

الخطبة الثانية
الحمد لله؛ كَتَبَ النَّصرُ والفَلَاحُ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَجَعَلَ الصَّغَائِرُ والذَّلِيلَ
عَلَى الكَافِرِينَ، أَحَمَّدَهُمْ وَأَشَكَرَهُمْ، وَأَتَوَّبَ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفَرَهُ، وَأَشْهَدَ أنَّ
إِلَيْهِ إِلاَّ اللَّهُ وَحَدَّهُ لَا شَرِيكُ لَهُ، وَلَا نَعْبُدُ إِلَّآ إِيَاهُ مَلَكِ الْعَرْشِينَ
وَلَوْ كَرَهُ الكَافِرُونَ. وَأَشْهَدَ أنَّ مِهْمَا بَعْدَ هَذَا وَرُسُولُهُ إِبْرَاهِيمُ الْمُرْسَلُينَ،
وَقَادِئَ الْغَرْبِ الْمُحِجَّلِينَ، وَشَافِعُ المُشْفَعُ يَوْمَ الْمَدِينَةِ، سَلَّمَ اللَّهُ وَسَلِيمَ وَبَارَكَ
عَلَيْهِ وَعَلَيْهِ أَصْحَابِهِ وَمَنْ سَارَ عَلَى نَهْجِهِمْ وَاقْتَفَى أَثْرَهُمْ.
أَمَّا بَعْدَهُ: فَأَقْتَلُوا اللَّهُ - عِبَادُ اللَّهِ - لَعِلَّكُمْ تَفَلْحُونَ وَمَنْ يَطْعَ اللَّهَ
وَرُسُولُهُ وَيَخْشَى اللهُ وَيَبْقَآهُ واُلَّذِينَ هُمْ الفَاتِرُونَ [النور: 52] .
أيُّها الإخوةُ الْمُؤْمِنُونَ: كَانَتْ غُزْوَةُ مُؤْتِئِةٌ مَّلِيشِّةً بَالدُّروُسِ، حَافَلَةً

إِلَى أُهُلَّ الْمَيْتِ (١١١) وَالدَّارِقِتِي (١١). وَقَدْ جَاءَ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ ابْن
جَعْفَرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَمِنْ حَدِيثِ اسْمَاءَ بْنَتِ عُمَيْسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا،
وَقَالَ التَّرمِذِيُّ: حَدِيثُ حَسنٌ صَحِيحٌ، وَصَحِيحَهُ حَامِلُ وَوَقِيفُ الْمَهْبِيِّ (١/)
٣٧٢ وَصَحِيحَهُ السُّنَّةُ أَحَمَّدٌ شَاَكِرُ فِي شَرْحِهِ عَلَى الْمَسْنَدِ (١٧٥١) .
بالبطولات، تعطي البرهان على أن الإيام إذا استقر في القلوب، وعمل عمله فيها؛ قاد النفس إلى استقبال المانيا، وتميي الموت؛ إبغاء رضوان الله تعالى. وهكذا سقط القادة الثلاثة في مؤتة الواحد منهم تلو الآخر، ولم يكن همهم أنفسهم والرماح والسيوف قد خالطت أجسادهم، بل همهم الإسلام، فلم تسقط رايته من أيديهم رغم ما لاقوه من ألم القتل والتمزيق.

إن طبيعة البشر عدم الاهتمام عند الموت إلا بالموت وسكراته، لكن أولئك القادة نسو ما هم فيه، وقضى كل واحد منهم نحبه وقلبه مع الإسلام، إن هذه النماذج من البشر إذا وجدت في الأمة تحقق لها النصر بإذن الله تعالى.

أيها الإخوة: إن مجااهدي غزوة مؤتة برهنوا برهاناً واضحاً على أن حروب المسلمين مع عدوانهم لا تخسر بكترة العدد، أو قوة العتاد، بل الفيصل فيها قوة الإيمان، وصدق التوكل على الله تعالى، والإخلاص في طلب الشهادة. وتلك سنة أبدية، وهي مفسرة لأسباب هزائم المسلمين المتتابعة متي ما ضعف الإيمان، أو تخلف التوكل والإخلاص؛ كما هو حادث في أزمة الضعف والانحطاط حتى ولو كان المسلمون أعدادًا كبيرة، فهم بدون إيمان وثقة وإخلاص وتوكل غثاء كغثاء السيل.

أيها الإخوة: إن كل مسلم في الأرض مسؤول عن الأمة ماذا قدم لها؟ هل حافظ على فرائض الله تعالى حتى لا يتخلف النصر بسببه؟ هل أدى الأمانة فيما استرعاه الله تعالى عليه من أهله وذريته، وفي
عمله ووظيفته؛ كي لا يتخلف نصر الله تعالى بسببه! هل سعى في الإصلاح على قدر استطاعته وجهده؟ هل أمر بالمعروف ونفى عن المنكر، وأخذ على يد السفيه، وعلم الجاهل؛ حتى يتحقق النصر؟
إن مشكلتنا—أيها الإخوة— أن كل واحد منا ينتصل من مسؤولياته، ويلقي باللائمة على غيره، بينما في غزوة موتة لم تسقط الراية حتى بعد مقتل القادة الثلاثة، وأحس كل فرد من أفراد الجيش المسلم أن الراية لو سقطت فإنه المسؤول عنها دون غيره، إنا نحتاج إلى هذا الشعور بالمسؤولية؛ حتى يأتي نصر الله تعالى.
فاتقوا الله وبكم، واستمسكوا بدينكم، فلا نصر إلا بالاستماسك بالإسلام، والأخذ به قولاً وعملاً، وتقديم حق الله تعالى على أهواء النفوس وشهواتها.
ثم صلوا وسلموا على نبيكم كما أمركم بذلك ربيكم...
الحمد لله؛ جعل الدنيا دار بلاء لأوليائه، وامتحان لسائر عباده,
فكم نجا في ابتنائها من مرحوم! وكم فتن بها من محروم!! أحمد ربي
وأشركت، وأتوب إليه وأستغفره. وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك
له؛ تفرد بالعزة والجلال، والجبيل والكرياء. لا يبذل من ولاه، ولا
يعز من عاداه. ينص أولياءه، ويكتب أعداؤه، وهو عزيز ذو انتقام.
وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله؛ دعا إلى توحيد ربه، فأوذى وأخرج
من بلده، وفي أحد شج رأسه، وكسرت رباعته، فما فت ذلك في
عضاذه، ولا زعزع يقينه بره. صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آل
وه أصحابه، اختارهم الله تعالى لصحبة نبيه، وتبليغ رسالته، فكانوا
على قدر المسؤولية؛ أدوا ما حملوا، وأوفوا بما عاهدوا من المؤمنين
رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمن قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما
بُدلوا تدليلاً [الاحزاب: 23]. والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين:
أما بعد: فأوصيكم - أيها الناس - ونفسي بقوى الله عز وجل،
فاتقوه يجعل لكم من ضيقكم مخرجًا، ومن عسركم يسرًا، ومن
يَتَبَرَّكَ اللَّهُ يَجْعَلُهُ مَخْرَجًا (1) ويرزقُه من حبّ لا يُحْسَبُ ومن يَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ
فَهُوَ حَسَبُهُ إنَّ اللَّهَ يَزَالُ أمَرَهُ قَدَّ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدَّرَهُ [الطلاق: 2, 3].
أيها المسلمون: خلق الله تعالى كل مخلوق، وفصل بين مخلوقاته;
لحكمة أرادها سبحانه وتعالى.
فضائل بيته المقدس

خلق الشهور والأيام والليالي ففضل رمضان على سائر الشهور، وفضل عرفة والجمعه والعيدين وأيام التشريق وأيام العشر على سائر الأيام، وليلة القدر على سائر الليالي، وثلث الليل الآخر على سائر الليل، وساعة الجمعة على سائر الساعات.

خلق البشر وفاضل بينهم، ففضل المؤمن على الكافر، والبر على الفاجر، والنبيين على سائر البشر، والرسول على سائر النبيين، وخاتمهم محمدًا صلى الله عليه وسلم على سائر الرسل.

خلق البقاء ففضل بينها، وجعل جزيرة العرب وأرض الشام أفضل البقاء. ففضل جزيرة العرب ببيك والمدينة، وفضل مكة والمدينة بحرمها، وفضل الشام بفلسطين، وفلسطين بالقدس، والقدس بمسجدها، مسجد سليمان عليه السلام، ومسرى نبيا محمد صلى الله عليه وسلم.

عرف به إلى السماء من أرضها، وصلى بالنبيين في مسجدها.

إنها ما فضلت بتربتها أو بنائها، أو هوائها أو مائها، أو جنس أهلها، أو عرقهم أو لونهم أو لسانهم؛ ففي الأرض تراب أخصب من ترابها، وبناء أعلى من بنائها، وهواء أعلى من هواها، وماء أعمق من مائها.

إنها فضلت مع مكة والمدينة على سائر بقاع الأرض؛ لأن خالقها تبارك وتعالى فضلها، وجعل لمسجدها فضلاً على سائر مساجد الأرض إلا حرمي مكة والمدينة، ومسجدها كان الثاني في تاريخ بناء المساجد عند البشر؛ كما جاء في حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: "قلت: يا رسول الله، أي مسجد وضع في الأرض أول؟ قال: المسجد
الملفيد في خطب الجمعة والعيد


وهو مسجد مبارك، وأرضه مبارك، وما حوله مبارك أيضًا. سُبحان الذي أسرى بعيدًا ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركًا.

حوَّله [الإسراء: ١] [الazıء: ١] وأسباب بركته كثيرة، ومنها: ما له من البركة بمن صلى فيه من الأنبياء من داود وسليمان ومن بعدهما من أنبئاء بني إسرائيل عليهم السلام، ثم بحلول الرسول عيسى عليه السلام، وإعلانه الدعوة إلى الله تعالى فيه فيما حوله، وأعظم تلك الوركات: حصول النبي صلى الله عليه وسلم فيه. ذلك الحصول الخاير للعادة، وصلاته فيه بالأنبياء كلهم عليهم الصلاة والسلام (٢).

ووصف الله تعالى أرض الإسراء بالقدسية فقال على لسان موسى عليه السلام أن قال لبني إسرائيل: "يا قوم! ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم" [المائدة: ٢١].

وجعل النبي صلى الله عليه وسلم وسلم مسجدها من المساجد التي تشهد الرحال إليه للعبادة، فقال عليه الصلاة والسلام: "لا تشهد الرحال إلا (١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب (١٠) (٣٣٦٦)، ومسلم في المساجد ومواقع الصلاة (٣٠) (١٥) انظر: التحرير والتنوير لأبن عاشور (٢٠).
إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد الرسول صلى الله عليه وسلم، ومسجد الأقصى" رواه الشيخان (3).

وجعل في الصلاة فيه من الفضل ما ليس للمساجد الأخرى إلا الحرم، فقال على الصلاة والسلام: "لما فرغ سليمان بن داود من بناء بيت المقدس سأل الله ثلاثة: حكماً يصادف حكمه، وملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، وألا يأتي هذا المسجد أحد لا يريد إلا الصلاة فيه إلا خرج من ذنوبي كيوم ولدته أمه" فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "أما اثنتان فقد أعطيهما، وأرجو أن يكون قد أعطي الثالثة" رواه النسائي.

وابن ماجه (1).

وأرضه أرض المحشر والمنشور كما جاء في حديث ميمونة مولاية النبي صلى الله عليه وسلم أنها قالت: "قلت: يا رسول الله، أفتنا في بيت المقدس، قال: أرض المحشر والمنشور، اتبعوه فصلوا فيه؛ فإن صلاة فيه كألف صلاة في غيره" قلت: آرأت إن لم استطع أن أحمل إليه؟

(3) أخرجه البخاري في فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة باب مسجد بيت المقدس (1197)، وسلم في الجاح نسبه سفر المرأة مع حرم وغيره (1338/827)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. وأخرجه البخاري (1189)، وسلم (1397/111) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(4) أخرجه النسائي في المساجد باب فضل المسجد الأقصى والصلاة فيه (2/434).

وأبي ماجه في إقامة الصلاة والسن فيهما باب الصلاة في بيت المقدس (1408/149/1).

وصحيح البخاري في صحيح سن النسائي (149/11).
النافيد في خطب الجمعة والعيد

قال: «فتهدي له زيتاً سرج فيه، فمن فعل ذلك فهو كمن أتاه» رواه ابن ماجه، قال البصري: إسناده صحيح (๕).

وجاء في حديث في مسند الإمام أحمد أن الدجال يمنع منها (١).

وفي حديث آخر عن مسلم أن عيسى عليه السلام يدرك الدجال بباب لدّا فيقلته (٧)، وُلِدَتْ قرية قرب بيت المقدس من نواحي فلسطين (٨).

لقد عرف قادة المسلمين وأثنتهم منزلة بيت المقدس في الإسلام؛ ولذا صرفوا له من الهمة والهيئة ما يستحقه منذ عصر الصحابة رضي الله عنهم وأرضواهم.

(٥) أخرجه أحمد (٨٦٣/٢٤)، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنن فيها بباب الصلاة في بيت المقدس (٤٠٧)، والطحاوي في شرح مسائل الأثر (١٦٠).

قال الهيثمي في الزوائد: رواه أبو بكر بن تهمه من حديث ميمونة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ورجاله ثقات (٤/٧).

وقد جعله الهيثمي من حديث ميمونة زوج النبي صلى الله عليه وسلم تابعاً في ذلك لأبي بكر بن تهمه النبي الذي جعله كذلك، والصواب أنه من حديث ميمونة مولاته لا زوجته.

قال البصري في مصاحبة الزجاجة (١/٤٥٤): وإسناد طريق ابن ماجه صحيح رجالة ثقات.

(٦) كما في حديث جنيدة بن أبي أمية قال: «أتينا رجلاً من الأنصار»، وذكر فيه أن الدجال يمنع من أربعة أماكن: المساجد الثلاثة: الحرام والنبوي والأقصى، إضافة إلى الظهر. أخرجه أحمد (٥/٣٦٤)، قال الهيثمي في الزوائد: رواه أحمد ورجاله صحيح (٧/٤٤٣).

(٧) وذلك في حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه عند مسلم في الفتى وأشراط الساعة باب ذكر الدجال وصفته وما معه (٢٠٣٧). معجم البلدان لياقوت الحموي (٥/١٥).
فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يرحل من المدينة إلى الشام ليستلم من النصارى مفاتيح القدس بيده، وليباشر الصلح معهم بنفسه، ولم يجعل هذه المهمة لغيره، وأشهد على هذا الصلح كبار القادة من الصحابة، وقد حفظه التاريخ، وتناقلته كتب المؤرخين من العام الخامس عشر من الهجرة، ونص هذا الصلح:

«بسم الله الرحمن الرحيم: هذا ما أعطى عبداللله، عمر أمير المؤمنين أهل إيلياه من الأسان، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأمواهم ولكنائسهم وصلبانهم، سقيهم وإيذائها، وسائر ملتها أن لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا يتنصص منها ولا من خيرها ولا من صلبهم، ولا من شيء من أمواهم ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياه معهم أحد من اليهود، وعلى أهل إيلياه أن يعظموا الجزية كما يعطي أهل المذاهب، وعليهم أن يخجروا منها الروم والنصوص - أي اللصوص - فمن خرج منهم فهو آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل إيلياه من الجزية، ومن أحب من أهل إيلياه أن يسير بنفسه مع الروم، ويخلص بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم، فمن شاء منهم فقد وعليه مثل ما على أهل إيلياه من الجزية، ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله، فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصاهم، وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله، وذمته رسوله، وذمة الخلفاء، وذمة المؤمنين؛ إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية».
شهد على ذلك خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبد الرحمن ابن عوف، ومعاوية بن أبي سفيان. وكتب وحفر سنة 15 هـ.
وحضر هذا الصلح بلال رضي الله عنه، وأذن في المسجد الأقصى بعد فتحه، كما أذن من قبل في مسجد مكة والمدينة، وولي القضاء فيها عبادة بن الصامت رضي الله عنه، وسكتها إلى أن مات ودفن فيها.

ومن يومها صار الصحابة رضي الله عنهم يتواتدون على بيت المقدس لزيارته، ويشدون الرحال إليه، وأقام بعضهم فيه مجاوراً لمسجده، وسجلت كتب التراجم والتاريخ عددًا من الصحابة من ماتوا مجاورين لبيت المقدس، وكان ابن عمر رضي الله عنهما يأتي إلى بيت المقدس فيصلي فيه، ولا يشرب فيه ما إلا حتى تصيبه دعوة سليمان عليه السلام لقوله: "لا يريد إلا الصلاة فيه". (1)

(9) تاريخ الطبري وذكره فيه بنفسه (449)، وأشار إلى هذا الكتاب ابن كثير في البداية (7/490)، في أحداث سنة 15 هـ، ونقل ابن كثير عن يعقوب بن سفيان أن فتح بيت المقدس كان سنة 16 هـ وذكر ابن الجوزي في المتنم (4/193) فتح بيت المقدس في أحداث سنة 15 هـ.

(10) المذكور في السير أن بلاً خرج للجهاد في الشام ومات فيها في دمشق سنة عشرين، أي: بعد فتح بيت المقدس بخمس سنوات، وفي بعض الروايات أنه أذن في الجامية من أعمال الشام، فعلم بهذين أذن فيها وفي بيت المقدس. انظر: سير أعلام النبلاء (1/356 - 357). وأما عبادة بن الصامت رضي الله عنه فمات سنة خمس وأربعين، وقرب بيت المقدس كما في السير (2/11)، وانظر: ملف القدس لنا، إصدار جمعية إحياء التراث الإسلامي في الكويت (34/6).

(11) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (27/1).
ولا انتزع النصارى بيت المقدس في الحملة الصليبية الأولى أصاب المسلمين حزن كبير، وعلاهم كرب شديد، وخطلب الخطباء لهذا الأمر الجليل، ورغبة الشعراء، وظل المسلمين أكثر من تسعة سنين ليس لهم هم يشغلهم إلا تطهير بيت المقدس من رجس النصارى. كل واحد منهم يرى أنه المسؤول عن هذا الأمر العظيم أمام الله تعالى، عامتهم وقادتهم في ذلك سواء; حتى قيصر الله تعالى صلاح الدين الأيوبي لفتحه، وتطهيره من رجس عبادة الصبان، ولم يكن ذلك أمرًا سهلاً، بل ما حصل إلا بعد إصلاحات كثيرة، وجهاد طويل، وتضحيات جسيمة طيلة تسعين سنين، ونقل من كتبنا سيرة صلاح الدين أنه رحمه الله تعالى كان لا يرى إلا مهتمًا مغتمًا، تعلوه كابة الحزن والأسى. بل كان عزوفًا عن الطعام، ولا يتناول من الغذاء إلا الشيء اليسير، ولما سُنِّل عن سبب ذلك أجاب: "كيف يطيب لي الفرح والطعام ولذة النام وبيت المقدس بأيدي الصليبيين".

ولا بلغه أن المنجمين يتذاكرون ويقولون: إن صلاح الدين سيفتح بيت المقدس، وتهذب إحدى عينيه. قال رحمه الله تعالى: "رضيت أن أفتحه وأعمى"، وكافأه الله تعالى على همه تلك بأن يسر له أسباب الفتح، وأعادها إلى حظيرة الإسلام. أيها الإخوة: كانت تلك جمل من فضائل البقعة المباركة، وجزء

(12) القدس لنا (40).
(13) شذرات الذهب لابن العمام (275/4).
الخطبة الثانية

حمد الله، حمدًا طيبًا كثيرًا مباركًا فيه كما يحب ربي ويرضى،
أحصده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده
لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده رسوله صلى الله وسلم وبارك
عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدي بهداههم إلى يوم الدين.
أما بعد: فاتقوا الله - عباد الله - وأصلحوا سركم تصلح علانيكم،
وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين.

أيها الإخوة في الله: كما أن بقية بيت المقدس منزلة عظيمة عند
المسلمين، فلها كذلك منزلة عظيمة عند اليهود والنصارى، ولهم فيها
أحلام ونبؤات، ولن يتخلو عنها إلا مكروهين.

واليهودي يدعو على نفسه بالشلل والحرس إن هو نسي القدس
فهو يترنمن بالمزمجر يقول: "إن نسيتك يا أورشليم فلتصلِّي يميني، وليلتصرف
لساني بحكني إن لم أذكرك، إن لم أرفع أورشليم على قمة إبتهاجي" (11).
ولن يرضيعهم ما أخذوه وياخذونه من الأرض حتى يسيروا على

(14) القدس مدينة الله/ د. حسن ظاظا (31).
الأرض كلها، وهذا معلوم من طبائعهم، ومن تجارب الأمم معهم كما نص عليه تلمودهم إذ يقول: "أعطني شيراً من الأرض واتركني أجعله لك ألف شير، ولا تسليني كيف" (15).

لقد توحد أكثر اليهود على هدف واحد، وكرسوا جهودهم لمهمة واحدة، هي: الاستيلاء على القدس، ثم التوسع شيئاً فشيئاً، ويبسط الهيمنة والانفوذ على كل ما جاورها، وهذه الغاية متفق عليها بين علمانيتهم ومثنيتهم، فالمثنيون منهم تدفعم أحلامهم، وتحركم نبوءاتهم، والعلمانيون منهم يجدون أمل السيطرة على كل الشرق الإسلامي، واستعماره سياسياً واقتصادياً.

وأما كان لليهود أن ينجحوا لو أن من أدار الصراع معهم عرفوا لبيت المقدس فضلهم، وثمنوا قيمته في الإسلام، ولتمكن المسلمون من إخراج اليهود منه، كما أخرج النصارى منها صلاح الدين رحمه الله، وكما فتحها قبله عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

إن من أداروا الصراع مع اليهود لم تكن علمانيتهم كعلمنانية اليهود، تتشبث بالأرض، وتعرف لها قيمتها وميزتها؛ ولذلك اختصروها في تراب وعمر وأشجار وبناء، فلم يكن لديهم مانع من التخلي عنها إذا تم تعويضهم بتراث آخر، وانخدعوا حينما اتخذوا السلام خياراً استراتيجياً؛ لأن اليهود في الأحداث الأخيرة لقنوهما درس السلام اليهودي، وأثبتا لهم أن علمنانية اليهود ليست كعلمنانية القومين العرب.

(15) اليهود وتذكرة قبل أن نفقد الذكرى. رمضان حافظ (146).
لا تظنوا - أيها الأخوة - أن أولئك الصحفيين الذين يتبادلون على الدم الفلسطيني كل يوم في أعمدة كثير من الصحف العربية، من فلول الماركسيين والليبراليين، لا تظنوا أن يكون الدم الفلسطيني، إنما يكون على أنفسهم، وعلى مشاريعهم الفاشلة، وعلى مشروعهم الاستراتيجي: عملية السلام التي ظلت في غرفة الإجتماع منذ ولادتها في مدريد إلى أن تم قبرها في انفجاسة الأخيرة.

لقد راهن العلمانيون العرب على السلام، واعتبروا كل معارض له، أو مناقش فيه متطرفًا إرهابيًا؛ فإذا باليهود يخذلونهم، ويقولون لهم: إن تخلیتهم عن دينكم و قدسكم؛ فإن اليهود لن يتخلعوا عن مشاريعهم الدينية في القدس المباركة.

إن رعب العلمانيين العرب ما يجري أشدًا من رعب اليهود؛ لأنهم يعلمون أن ما يجري في الأرض المباركة يحیي الشعور الديني في كل العالم. وإذا ما ظهر الدين، وصار هو المحرك للناس فلا مكان للعلمانية حينئذ، فلا بد من أن تسحب من ساحة الصراع، وهذا ما يخشونه حينما يحذرون في كل يوم من تنامي الأصوليات المختلفة.

ورغم البؤس الذي لقيه المسلمون على أيدي أولئك المناقين المتخذيين، ورغم ممارسات اليهود العدوانية على أهل الأقصى، وتخاذل أمم الأرض عن نصرتهم ومعونتهم، فإن المقاومة المسلمين أثبتوا أنهم على قدر المسؤولية، وأنهم أمناء على مقدسات المسلمين، أوفياء في حفظ الأمانة، وأن باستطاعتهم مواجهة اليهود وأسلحتهم، مع مواجهتهم للفكر العلماني.
فطائر بيت المقدس
المترصب بهم.

لقد هدمت ديارهم، وقتلت أطفالهم، ورملت نسااؤهم، وأتلت مزارعهم، وهم صامدون، لا يزدادون مع جبروت اليهود وعلوهم إلا صموداً واستسلاماً.

لقد استخدم اليهود الدبابات والطائرات ليواجهوا عزالاً يرونهم بالحجارة، فما استطاعوا إخمادهم، ولا إطفاء نار الجهاد من قلوبهم. حتى نقلت الأخبار أن أرطالاً من اليهود يهاجرون كل يوم من فلسطين رعباً ما يجري فيها، وحتى صار الواحد من اليهود لا ينام إلا بالتهديدات والسكنات.

لقد ألقى الله تعالى الرعب في قلوبهم رغم ما يملكونه من أسلحة وجهاد مخابرات، وجوش من المخبرين، ورغن أن العالم النصراني يقف خلفهم.

إن واجبنا - أيها المؤمنون - أن نقف مع إخواننا المقدسة في جهادهم، فندمهم بالمال، ونكبر لهم من الدعاء، حتى يأذن الله تعالى بنصره، ولنكن أهلاً للمسؤولية كما كان المقدسة لها أهلاً.

وبيت المقدس يهمنا أجمعين، ويهم كل مسلم يؤمن بالله والملائكة والنبيين، فأعينوا إخوانكم أعانكم الله، وأحسنوا إليهم بعض المال كما أحسنا إليكم بالدفاع عن قدسكم، وإياكم والتخلي عنهم في محتتهم; فإنكم والله مسؤولون عن ذلك يوم القيامة، وأعلموا أن ما تبذلونه لهم سيصل إليهم بإذن الله تعالى، ليخفف معاناتهم، ويضمد
جراحهم، ويكون عوناً لهم في كربهم وشدتهم، ويقوي عزهم على المضي في طريق الجهاد إلى أن يتم إخراج اليهود الأنيس من الأرض المباركة.

ألا وصلوا وسلموا على نبيكم محمد كما أمركم بذلك ربك.
الفتح الأول لبيت المقدس

الجمعة 18/3/1412 هـ

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أ النفس.

ومن سيئات أعمالنا من يهدى الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن

محمدًا عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه،

ومن النزوم ستتهم، وسار على هديهم إلى يوم الدين. { ۱۸ } أي أن الذين

آمنوا اتّقوا الله واتّظَنَّ نَفْسَهُمْ قَدْ مَاتَ لَغَدْ وَأَتَّقُوا اللهِ إِنَّ اللهَ خَرِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ 

ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون. }

أيها المؤمنون: قراءة الحوادث، والإمام بالتواتير، والإطلاع على

أحوال الدول، ومصير الأمم، يقود إلى الاعتبار والإدكاك، ويكون سبباً

للمزيد في الدنيا، والرغبة في الآخرة. لأن عبد يرى فيما يقرأ أشخاصاً

تملكوا ثم ملكوا، وأما عزت ثم ذلت، ودولاً أقبلت ثم أدربت، ولا

يبقى إلا وجهة ربك ذو الجلال والإكرام { لَمَّاِ المُلْكُ الْيَوْمِ لِلْهَ الْوَاحِدُ } [قواف: ۱۶].

وهما سجل التاريخ: ما وقع في شهر ربيع (1) من فتح بيت المقدس،

(1) قول: كان فتحه في ربيع الأول، وذكر الطبري أنه كان في ربيع الآخر، وأما

ستنه فذكره كل من الطبري وابن الجوزي وابن كثير في حوادث سنة (15 هـ)

ذكره الذهبي في حوادث سنة (16 هـ) وهو قول ذكره الطبري أيضاً، وذكر

البلاذري أنه كان في سنة (17 هـ)، وانظر: تاريخ الطبري (45/45) والمنتظم.
مدعَنَ الأنبئاء من لدن إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، ثم كان مسيرًا خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم، إذ جمع له فيه الأنبئاء كلهُ عليهم الصلاة والسلام، فأمامهم في محلِّتهم ودارهم.

كان هذا الفتح العظيم في عهد الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ ولكن بشائره كانت زمنًا رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن تدين له العرب، وقبل أن يفتح على يده مكة. كانت تلك البشارة حينما قابل هرقل الروم أبا سفيان وكفار قريش وسألهن جملة من الأسئلة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت تلك المقابلة بإيلايا أي ( بيت الله) الذي هو بيت المقدس.

فما أن انتهى هرقل من أسئلته، والمشروكون من إجابة تلك الأسئلة، حتى أطلق هرقل تلك البشارة التي أذهلت كفار مكة. قالها وهو يتحسر على ملكه، ونفسه يتنازع فيها داعٍ الإسلام وداعٍ الملك، وقلبه يضطرب بين حظ الدنيا وفوؤد الآخرة؛ لكنه في نهاية المطاف اختار الملك والدنيا؛ فخسر الملك والدنيا والآخرة.

(2) حديث صلاته صلى الله عليه وسلم بالنبياء عليهم الصلاة والسلام في بيت المقدس مخرج في مسند الإمام أحمد (257/1) وصحبه الشيخ أحمد شاكر في شرح المسند (2324).
الفتح الأول لبيت المقدس

قال هرقل لأبي سفيان رضي الله عنه: «إن كان ما تقول حقاً في سماك موضوع قدمي هاتين، فقد كنت أعلم أنه خارج، لم أكن أظن أنتم منكم، فلو أعلم أنك أخذت إليه تجشمته لقاءه، ولو كنت عينته لغسلت عن قدمه».

إنها آية بينة، وبشارة متقدمة، بشارة بفتح بيت المقدس، وإزالة عرش الرومان، وكانت تلك البشارة قبل أن تفتح مكة، فما أعظمها من آية!! وما أطيبها من بشارة!!

ودار التاريخ دورته، وتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن كمل به الدين، وتمت به النعمة، ثم تولى خليفته الصديق الأول فقضي على الردة، وارسأ دعائم السنة، ثم أسس حيجه الفاطمة صوبة الشام تحقيقاً للبشارة، ومات الصديق رضي الله عنه وجيوش الإسلام قاب قوسين أو أدنى من تحقيق البشارة، وخلعه الفاروق عمر، وجيوش الحق تواصل فتحها؛ حتى بلغت بيت المقدس، فحاصر المسلمون أهلها، ثم تصالحوا بعد الخصائر، وقيل: بعد الفتنة(1) على أن يقدما الخليفة

(2) قصة هرقل مع أبي سفيان مخرجة في الصحيحين وغيرهما من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: أخرجها البخاري في بعة الوفي باب (7) حديث (2)، وانظر: فتح الباري (1/44-44) ومسلم في الجهاد باب كتابة النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل يدعوهم إلى الإسلام (1/773) والبرمذي في الاستذان باب ماجأ كيف يكتب لاهل الشرك (1872).

(3) والراجح أنه لم يحصل قتال بل حاصرهم المسلمون فاشتردوا أن يقدم عليهم عمر حتى يباشر الصلح بنفسه لما علموا من عدل رضي الله عنه، وقيل: إن صفة من يتزعج بيت المقدس موجودة في كتبهم؛ فأرادوا قبل تسليمه التحقٍ
عمر رضي الله عنه من المدينة ليباشر الصلح بنفسه، لما علموا من سيرته وعدله.

فكتب أبو عبيدة إلى عمر يخبره بشرط أهل إيلياء، فشاور عمر أصحابه في الخروج، ثم انشرح صدره إلى القودم على بيت المقدس، واستخلف عليناَّ على المدينة 5 وسار إلى حيث مدينة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وكتب إلى أمراء الأنداد أن يستخلفوا على أعمالهم ويوافقو بالجابية، وفي رواية أخرى: أنه وافهم عند بيت المقدس 1.

فلما بلغ الجابية من أعمال الشام نزل بها، وخطب خطبة بلغة طويلة مشهورة كان منها قوله رضي الله عنه: «أيها الناس، أصلحوا سراً تصلح عللتيكم، واعملوا لأخرتكم تكفوا أمر دنياكم، وإعلموا أن رجلاً ليس بينه وبين آدم أب، ولا بينه وبين الله خاد، فمن أراد لحُب وجه الجنة - أي طريقها - فليلزم الجماعة، فإن الشيطان مع الوحد، وهو من الاثنين أبعد.» الخ خطبه البلغة 3.

≈ من كون الوصف الذي جاءت به كتبه منطقاً على عمر فكان كذلك فسموه.

5 انظر: تاريخ الطبري (2/449) والبداية والنهاية (7/45).
3 قول: بل إن أبابيعي والقادة لما بلغهم مقدمو عمر ذهبوا يستقبلون حال دخوله الشام، وانظر: الفتح لابن أعثم (226/1241) والبداية والنهاية (7/47).
4 انظر: تاريخ الإسلام (3/127) ومعجم البلدان لياقوت (2/91).
وجاءة رجل من يهود دمشق فقال له: «السلام عليك يا فاروق، أنت صاحب إيلياء لا والله لا ترجع حتى يفتح الله إيلياء»(8).
وصلح عمر أهل الجابة ثم سار وقادته إلى بيت المقدس، وكان رضي الله عنه في غاية التواضع والاستكانة والذلة لله رب العالمين، قال أبو الغادية المزني: «قدم علينا عمر الجابة، وهو على جمل أورق، تلوح صلعته للشمس، ليس عليه عمامته ولا فلتَسوة، بين عودين، وطأوه فرو كبش نجدي، وهو فراشه إذا نزل، وحقيته شملة أو نمرة محشوة ليفاً وهي وسادته، عليه قميص قد انخرق بعضه، ودنس جمه»(9).
هكذا نقلوا في وصف مركبه وملسه، وهيبته وعذبته، ولو أراد رضي الله عنه للبس الخرير، ومشي على الدبياج، وركب أصيلات الخيول، ولو شاء حمل معه المناع الكبير، وأحاطته به المراكب، وحافت به المواكب؛ ولكن رضي الله عنه علم قيمة الدنيا فأعطاها مستحقها، وعلم قدر الآخرة ففرغ قلبه لها، وعمل عملها، وسعى لها سعيها.
وقد حول أمراء الجيش أن يُحسَّنوا من هيئة المتواضعه أمام الأعداء؛ ولكن من يقدر على من؟ أيقدرون على عمر الذي كان كبير الشياطين يخافه، ويسلكُ فجاً غير فج؟!
قال له أبو عبيدة رضي الله عنه: «يا أمير المؤمنين، لو ألتقيت عنك

(8) تاريخ الطبري (2/448/4) والم-lnظ (192).
(9) تاريخ الإسلام (3/162) وانظر: الفتوح لابن عثم (227/11) والبداية والنهاية، وفيه أطول ما ذكرت، وزعاء لابن أبي الدنيا (49/7).
هذا الصوف، ولبست البياض من الثياب، لكان أحبب لك في قلوب هؤلاء الكفار، فقال عمر رضي الله عنه: لا أحب أن أعوذ نفسي مالم تعتده، فعليكم معشر المسلمين بالقصد»(11).

وباءت محاولة أبي عبيدة بالفشل فحاول يزيد بن أبي سفيان رضي الله عنهما فقال: «يا أمير المؤمنين، إننا في بلد الحصن والدعة، والسعر عندنا بحمد الله رخيص، والخير ودمنا كثير من الأموال والدواب والعيش الرفيع، وحال المسلمين كما تخب، فالنس بثاباً بيضاً واسها الناس، واركب الخيل واحمل الناس عليها; فإنه أعظم لك في عيون الكفار، وأتئ عنك هذا الصوف، فإنه إذا رآك العدو على هذه الحال ازدرأك، فقال عمر رضي الله عنه: يا زيد ما أريد أن أتزيا للناس بما يشتهني عند الله عزوجل، ولا أريد أن يعظم أمري عند الناس، ويسغ عند الله عز وجل، فلا تردد في شيء من هذا الكلام»(11).

وواصل عمر رضي الله عنه مسيره إلى بيت المقدس على تلك الحال المتواضعة؛ فعرضت له مخاضة طين قسل عن بعيده، ونزع عليهم فأسكه بيد وحاضر الماء ومعه بعيده، فقال له أبو بعيدة: «قد صنعت اليوم صنعاً عظيماً عند أهل الأرض، صنعت كما كنتم كنتم أذال الناس، وأحقر الناس، وأقيل الناس، فأعزكم الله بالإسلام فهم مما تطلبوا العز».

(10) الفتح لابن أمعم (226/12).
(11) الفتح لابن أمعم (227/12).
الفتح الأول لبيت المقدس

بغيره يذكروه الله (12).

فلما بلغ بيت المقدس خرج إليه بطريركها صفرونيوس وكتب عمر رضي الله عنه لهم الأمان لأنفسهم وأمواتهم وكنائسهم وصلبانهم، ولا ينقص شيء من أمواتهم، ولا يكرون على دينهم في مقابل أن يعطوا الجزية للمسلمين(13) وسلم البتيرك مفاتيح القدس لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، ثم بكى البتيرك فقال له عمر: لا تخزون، هون عليك، فالدنيا دؤاليك، يوم لك يومٌ عليك، فقال البتيرك: أظنتني على ضياع الملك بكأيت، والله مال هذا بكأيت، وإنما بكأيت لما آيقنت أن دولتكم على الدهر باقية، ترق ولا تنقطع، فدولت الظلم ساحة، ودولت العدل إلى قيام الساعة، وكنت حسبتها دولة فاتحين ثم تنقرض مع السنين(14).

وتم الفتح، ودخل عمر بيت المقدس من الباب الذي دخل منه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء، وصلى فيه مستقبلاً القبلة، وجعل يزيح بردائه الأقدار التي رماها النصارى في قبليته. ولما رأى

البداية والنهاية (49/7) وقصة خروجه رضي الله عنه في الطين أخرجهما الحاكم بسياق أطول وصححها، وقال: على شرط الشيخين، ووافقه الذهبية.

انظر: المستدرك (1/11 - 20) برقم (67).

(13) انظر كتابة الصلح في: تاريخ الطبري باطول مما ذكرته (449/2).

(14) لم أعثر على هذا فيما وقفت عليه من كتب التاريخ وقد ذكره عبدالله الثلث في خطر اليهودية على الإسلام والمسيحية (129) وانظر: بيت المقدس وما حوله للدكتور محمد عثمان شبيب (44).
المسلمون فعل عمر أخذوا في تنظيف المسجد من أفكار النصارى
ثم بعد الفتح عاد رضي الله عنه إلى المدينة على ذات الجمل الذي قدم عليه، وعلى نفس الهيئة التي كان عليها قبل الفتح؛ لأن اهتمامه رضي الله عنه ما كان بالأشكال والظاهر، وإنما كان بأصول الشيء ومعانيه.
أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ووالذين كفروا فتعصا لهم وأضل أعمالهم
[محمد: 7, 8]
بارك الله لي وكم في القرآن العظيم.
الخطبة الثانية
الحمد لله حمدًا طيبًا كثيرًا مباركًا فيه كما يحب ربي ورضي، أحمده وأشكره، وأتوب إليه واستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن سار على نهجهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين.
أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعه، وكل بدعه صلالة، وكل ضلالة في النار.
أيها المؤمنون: ظل يبيت المقدس عبر تاريخه الطويل حافلاً بالاختلافات العظيمة منذ أن سكنه خليل الرحمن إلى يومنا هذا، وسيستمر حافلاً
(15) البداية والنهياء وعزاء ابن كثير للإمام أحمد ولهضياء المقدسي وقال: وهذا إسناده جيد (48/77).
الفتح الأول لبيت المقدس

بالأحداث الكبرى إلى أن يرتَّب الله الأرض ومن عليها؛ إذ إن الأحداث العظيمة في آخر الزمان ستكون على أرضه كما صحت بذلك الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

افتتح بيت المقدس عمر بن الخطاب رضي الله عنه في السنة الخامسة أو السادسة عشرة للهجرة (11)، وظل تحت حكم المسلمين خمسة قرون، حتى استولى عليه الصليبيون في أثناء حكم العبيد بابن الطواني حينما حكموا الشام، ومكث في أيدي الصليبيين قرابةً من تسعين سنة، ثم استرده المسلمون في حكم الأيوبيين، وظل في حوزة المسلمين أكثر من ثمانية قرون، إلى أن جاء الاستعمار الظالم فاستولى عليه وسلمه لليهود في أواسط القرن الهجري الماضي.

إن الملاحظ - أيها الإخوة - أن المسلمين لما فتحوا بيت المقدس تحت إمرة عمر رضي الله عنهما استلعموا مفاتيحه من اليهود وإما من النصارى، بل اشترط النصارى على عمر رضي الله عنه أن لا يسمح ليهود بدخوله، لأنهم قتلوا المسيح حسب زعم النصارى، فكيف يسكنون بلد المسيح عليه السلام؟! ووافق عمر على هذا الشتر. وفي العهد الأموي تسلم إلى بيت المقدس عشرة يهود، واشتعلوا فيه خدماً فطردهم عمر بن عبد العزيز لما تولى (17)، ولما استولى الصليبيون عليه أبدوا من كان به من اليهود، واحترقوا عليهم دورهم (18). ثم فجأة إذا بالاستعمار النصراوي

(16) انظر: هامش (1) في تاريخ فتح بيت المقدس.
(17) انظر: القدس مدينة الله، للدكتور حسن ظاظا (97).
(18) المصدر السابق (99).
يُسلم القدس لليهود، فلماذا هذا التغيير؟ وما الذي دُهى النصارى؟
لقد لعبت العصابات الصهيونية الإنجيلية النصرانية لعبتها،وقدف في رؤية النصارى أن نزول المخلص يعنى عليه الصلاة والسلام الذي يُسلِّم من المسلمين حسب زعمهم لن يكون إلا باستيلاء اليهود على القدس، وتجمعهم فيها، وجعلها عاصمة لليهود، وأن الحروب الصليبية لِن تكون إلا بذلك؛ فوافق هذه الفكرة هوى في نفوس النصارى خاصة بعد أن أهلكوا من جراء الحروب مع المسلمين، وبعد أن فشلت مساعي الاستعمار الحديث بالمقاومة الصامدة من قبل الشعوب الإسلامية المستعمَرة؛ فتأثرت الصهيونية النصرانية بالصهيونية اليهودية في هذا السبيل؛ تحقيقاً للعقيدة الألفية التي أصلها عقيدة يهودية ١٩
وملاحظة أخرى جيدة بالتأمل وهي أن اليهود محاربون عبر تاريخهم الطويل ولو مرة واحدة من أجل الاستيلاء على بيت المقدس؛ ففي تاريخهم الحديث سَلَمَ النصارى بيت المقدّس، وفي تاريخهم القديم دعاهم موسى عليه الصلاة والسلام لمحاربة الكنائس ودخولها فامتتعوا ورفضوا فمَثَٰلُ كان اليهود أهل حرب ومبادئا بها؟ أيوم قال لهم موسى عليه الصلاة والسلام: قاتلو، فقالوا: فاذْهِبْ أِنْتُ وَرْبُكُ فَقَاتِلُ إِنَّا (١٩)
(١٩) وملخص هذه العقيدة الألفية اليهودية: أن اليهود يتظرون منتظراً من نسل داويد يخرج في آخر الزمان ليحكم العالم ألف سنة يسمى "ملك السلام"، وتسببت هذه العقيدة على الأصوليين الإنجيليين الذي يحاولون إقناع سائر النصارى بها. ٢٠
(٢٠) انظر: محاور التأويل للقاسمي (٣٩-٩٣) والتحرير والتموير لابن عاشور (١٦١-١٦٦) عند تفسير الآيات (٢٢-٢٦) من سورة المائدة.
هَاهُنَا قَاعِدُونَ [المائدة: 22]؟ أم يوم دعاهم عليه الصلاة والسلام إلى الفتح وقد مهَّد الله لهم أسبابه، وفتح لهم بابه؛ فاتجهوا كالشياه المذورة وقالوا: "إِنَّ فِيهَا قُوَّةً جَيْبَاءِنَّا إِنَّا لَن نَّدْخُلُهَا حَتَّى نَخْرُجَوْنَ مِنْهَا فَإِنَّا نَخْرُجُوْنَ مِنْهَا" [المائدة: 22].

هذه بطولات اليهود! يريدون من يحارب عنهم، ويخرج لهم العدو من القلعة ليدخلوها فاتحين، وماتبدلت حالهم. إنهم كما كانوا من قبل يقاتلون بسلاح سواهم، ويلوحون بقوة غيرهم. فليس بلاء المسلمين من قوة اليهود؛ وإنما من ضعف المسلمين أنفسهم، حينما انتشرت فيهم العقائد المنحرفة، والأخلاق الفاسدة. حينما اعتمدوا على حولتهم وطولتهم، واغتروا بعدهم وكثرتهم. فكلهم الله إلى أنفسهم. حينما تخلوا عن هدى الله، وركنا إلى الذين ظلموا، في عصبات جاهلية وأحزاب ضالة، وقوميات ضيقة، ينفخ فيها دعاءٌ كنعان، ودعاء العروبة، ودعاءُ التراب والوطن، بما زادهم ذلك إلا ذلًا وانهزاماً.

أما آن للامة أن تستفيد من تلك النتائج المرارة، التي أفرزتها التجارب المخزية، فتعود أفراداً وجماعات - إلى كتاب ربها، وسنة نبيها بفهم سلفها قولاً وعملًا؟ وبذلك سيكون النصر والخبر، والصلاح في الدنيا والآخرة، ولن يصبح آخر هذه الأمة إلا ما صلّه به أولها.

ولا وصلوا وسلموا على محمد بن عبد الله كما أمركم بذلك رب العزة والجلال.

(21) بتصرف من: قصتنا مع اليهود للشيخ علي الططاوي (37).
الفتح الأندلس

الفتح الأندلس

الجمعة 26/9/1421 هـ

إن الحمد لله نحن وعمري ونصره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهدنا الله فيا مصله، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، يا أيها الذين آمنوا إنفوا الله حق نفاسته ولا تموتون إلا وأنتم مسلمون [آل عمران: 201] يا أيها الناس آمنوا إنكم ربكُم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجًا وثنتين منهما رجالاً كثيراً ونساءً وآمنوا الله الذي نساء نون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيهم [النساء: 1] يا أيها الذين آمنوا إنفوا الله وقولوا قولاً صادقًا يصلح لكم أعمالكم ويعفّر لكم ذنوبكم ومن يطيع الله ورسوله فقد فاز فؤاداً عظيماً [الأحزاب: 75-76].

أما بعد: فإن رمضان بالأمس آتانآ، وهو الآن يودعنا، فأحسنوا وداعه بالأعمال الصالحات، واسألوا الله تعالى قبول الأعمال؛ فإن السعيد من قبل الرحمن، فغفر له ورحمه وأعتقه من النار. أيها الناس: كان رمضان يحكي أمجاد للمسلمين ذهبت، وأحداثًا فيه دونت، وبلا داً فيه فتحت، وعزاً حكايا المتأخر عن المتقدم. حكي بدراً والفتح وعين جالوت وغزو الأندلس وغزوات أخرى كثيرة، عرى نفوس أسلافنا بالإيمان والعبادة فانتصرت على شياطينها وشهواتها، وعزت بلادهم بالجهاد فأرهبت كفارها ومنافقيها، وخضعت
الدنيا لحكم الإسلام، ودخل الناس في دين الله تعالى أفواجاً، وأما في الأزمان المتاخرة فإن كل رمضان يحكي للمسلمين رزية، ويكون موقعًا لليهودية وليبية؛ فمن البوسنة إلى البوسنة، ومن كشمير إلى كوسوفا، ومن هناك وهنالك إلى بيت المقدس، وما أدرك ما بيت المقدس؟!

لقد ذلت نفوس كثير من المسلمين بالمعصية؛ فذلت ديارهم بسلط أعدائهم عليهم، وما أصابهم ما أصابهم إلا بما كسبت أيديهم، ولا يظلم ربك أحدًا.

لقد أتي على أسلافنا أيام ملأت من الدهر مسعة، وضربت كل جبار في أخدعهٔ، وفرضت الذلة على جماجم الأكاسرة، وأطارت النعّرة من معاطس القياصرة.

قوم ابتسلوا للموت نفوسهم، فرفعوا في الحياة رؤوسهم، يركبون من البر والبحر كل غارب، ويلتمسون بالجيش دار المحارب، أحمت أنوفهم حياة القفر، وأعزت نفوسهم الرمل العفر، فكانت بلا دم عذاري تُخلف ظن كل فاتح، وعاقبات لا ينتهي إليها الطيف فضلاً عن الطائفٔ.

(1) الأخدع: عرفان خفيان في موضوع الحجاجة من العنق، وقيل: هما الودجان.
(2) انظر: اللسان (8/25) مادة (خدع). وقد جاء في حديث أنس رضي الله عنه:
"أن النبي صلى الله عليه وسلم احتجم ثلاثة في الأخدعين والكاهل" أخرجه أبو داود (386) والمزد-i وحسن (51) وابن ماجه (483) وأحمد (3/119).
(3) انظر: الخلل السندية ل شكيب أرسلان (7/1).
جاءهم الإسلام بعزائم القرآن، وعزز ما فيهم من خيرٍ كريمٍ، وطبع سليم. بصلاة الإمام اندفعت سيولهم من منابعها، وخرجت سنابلهم من قنابعها، وملكوا ما بين الصين وبحر الظلمات في أقل من مئة عام، وأتوا من الأعمال ما لو حدثوا بها أنفسهم من قبل لقيل: إنه من الأحلام.

وكان من أنفس ما سددهم الله تعالى إلى فتحه: جزيرة الأندلس الخضراء، الدرجة الدهماء، والبقعة الجامعة بين الشمس والأفياء، أثرها من كل فج، جيش يتلو جيشاً، وبعثُ يردد بعثاً، حتى ذللا أعرفها، وألانوا أعطافها، فخيم الإسلام بعقرتها تخيم من جمع الاعمار، وأمدتهم جزيرة العرب بأفلاذ أكبادها، ورمت أعداءهم باغتاد أجنادها. ففتح عقبة بن نافع رحمه الله تعالى أفريقية، فلما انتهى إلى الماء الذي يفصلها عن أوربة دفع فرسه إلى الماء حتى بلغ نهره ثم قال:

«اللهم إن أشهدك أن لا مجاز، ولو وجدت مجازاً لجزتٍ».

وقف عقبة في أفريقية بعد أن فتحها وأقام فيها للإسلام دوله، وبني القيروان، فأكمل المسيرة عقبه رجال هاماتهم تنظح السحاب، وهمهم تدك الجبال، وتتابعت الحروب بين المسلمين والبربر والقوط.

(3) الخيل بكسر الحاء وفتح الياء وضم الميم هو الخلق، وقيل: سعة الخلق، قال أبو عبيد: الخيل الشيمة والطبعة والخلق والسجية.

(4) الخيل السندسية مع بعض التصرف (17/7).

(5) المصدر السابق مع بعض التصرف (17/8).

(6) الفتوحات ابن عبد الحكيم (199) والكامل لابن الأثير (42/4).
إلى عهد التابعي الجليل موسى بن نصير اللخمي رحمه الله تعالى الذي يعتبر أول رجل قدر أن يجوز الإسلام على يديه للمرة الأولى القارة الأوروبية، وأن كتب فيه صفحة من أمجد صفحاته، فاقتفي طنجة، وولي عليها طارق بن زياد الليثي (7) رحمه الله الذي اهتم اهتماماً كبيراً بنشر الإسلام بين قبائل البربر، فأقبلوا على اعتنائهما، ثم بني موسى بن نصير مصنعاً لبناء السفن، وأنشأ أسطولاً ضخماً لحماية الثغور، وأخذت السفن المسلمة تغير على جزائر القوط الأوروبية، وسط المسلمون سلطانهم على شمالي أفريقية برأ وبحراً، ثم أكملوا فتح المغرب الأقصى، واستولوا على طنجة، وأشاروا على شؤون الأندلس من الضفة الأخرى من البحر.

فلما رأى موسى أن الوقت قد حان لفتحها كتب إلى الويلد بن عبدالملك يستأذنه في العبور من المغرب إلى الأندلس، فأشار عليه أن يختبر بالسرايا قبل أن يخاطر بالمسلمين كلهم، فعمل بمشورته، وسيّر أول سرية في رمضان عام إحدى وتسعين للهجرة، غُنمَت هذه السرية، وجاء في ديار الأندلس الخصبة، ثم عادت تحمل الغنائم، وتزف


(8) انظر: دولة الإسلام في الأندلس للمؤرخ عبدالله عمان (38/1) وما بعدها.
المفيد في خطب الجمعة والعيد

البشائر بإمكانية الفتح، فجهز موسى بن نصير جيشًا قوامه سبعة آلاف مقاتل تحت قيادة طارق بن زياد، فعبر بهم البحر من سبته، ونزل بالبقعة الصخيرية المقابلة التي سميّت بعد ذلك (جبل طارق) وهزم القوط بها، واستولى عليها؛ فكتب حكام الولايات النصرانية إلى حكومتهم في طلطيطة التي كانت عاصمة القوط، فجهز النصارى جيشًا قوامه ألف مقاتل، فأمام موسى طارقاً بخمسة آلاف مقاتل؛ ليكون جيش المسلمين اثنتي عشر ألفًا مقابل مئة ألف من النصارى.

لقد كان النصارى أضعاف المسلمين، والمسلمون يقاتلونهم في أرضهم، في هضاب ومفاور شاقة لا يعرفونها من قبل؛ لكن الإيمان عمل عمله في القلوب، وذلّ لهم الخطوب، فالتقى المسلمون والنصارى في الثامن والعشرين من رمضان عام ثنتين وتسعين للهجرة، واستمر الاشتباك أربعة أيام كسر المسلمون فيها النصارى، وتزلّ نصر الله تعالى، وأوغل طارق في المسير يفتح الحصون، ويملك المدن إلى أن وصل إلى عاصمة القوط فأخذها منهم (1)، وواصل فتوحه.

وبعد عام عبر إليه موسى بن نصير في ثمانية عشر ألف مقاتل، وذلك في رمضان عام ثلاثة وتسعين (11) ومضى يفتح المدن والقلاع

(9) الكامل (4/114/1) ونفح الطيب (1/120).
(10) نفح الطيب (1/112) وتاريخ ابن عذاري (9/2)، ونقله عبد الله عنان عن الطبري في تاريخه (8/42) وانظر: دولة الإسلام في الأندلس (44/1).
(11) دولة الإسلام في الأندلس (51/1) ونقله عن ابن عبد الحكم في الفتوح (208) وانظر: جذوة المقتبس للحميدي (6) ونفح الطيب (1/117/1).
فتح الأندلس

حتى فتح إشبيلية أعظم قواعد الأندلس في رمضان أيضاً سنة أربع وتسعين.

وكان موسى عازماً على أن يفتح أوربة كلها ويصل إلى الشام من طريق القسطنطينية، أي: ابتداً غرباً وأراد أن ينتهي شرقاً، وكون قد لف القارتين الأفريقية والأوروبية، قال ابن خلدون رحمه الله تعالى:

"واستجمع - أي موسى - أن يأتي المشرق على القسطنطينية، ويتجاوز إلى الشام ودروب الأندلس، ويعرض ما بينها من بلاد الأعاجم أمم النصارى مجاهداً فيهم، مستلحاً لهم إلى أن يلحق بدار الخلافة"(11).

لكن الخلافة الإسلامية في الشام أمرته بالتوقف؛ لثلا خاطر بالمسلمين(12) وأمره الوليد بن عبد الملك أن يعود إلى الشام، فنظر إدارته الأندلس، وجعل حاضرتها إشبيلية، وولي عليها، ثم عاد إلى الشام في ذي الحجة عام خمسة وتسعين ومعه من الغنائم والنسى ما لا يحصى(13)، وذلك بعد أن سطر مع طارق بن زياد تاريخاً مجيداً للاسلام في الجزيرة الخضراء، وكان رمضان المبارك موقعاً لكثير من فتح بلاد الأندلس.

لقد كان فتح الإسلام لآسانيا وما حولها فاتحة عصر جديد بزغ فيه النور، وأقيم فيه العدل، ورفع الظلم، ونشر العلم، وفتحت المدارس، وذهب هوب الحضارة والتقدم بشهادة المؤرخين الغربيين؛ إذ يقول أحدهم:

(12) تاريخ ابن خلدون (4/117 ونفع الطيب (1/130).

(13) دولة الإسلام في الأندلس (54).

(14) المصدر السابق (1/50-56).
في أقل من أربعة عشر شهراً فضي على مملكة القوط قضاء تاماً، وفي عامين فقط وطُلِدَت سلطة المسلمين فيما بين البحر الأبيض المتوسط وجبال البرانيس، ولا يقدم لنا التاريخ مثلًا آخر اجتمعت فيه السرعة والكمال والرسوخ بمثل ما اجتمعت في هذا الفتح١⁵، ويقول آخر: "أنشأ العرب حكومة قروطبة التي كانت أروعية العصور الوسطى، بينما كانت أوربا تتخذ في ظلمات الجهل فلم يكن سوى المسلمين من أقاموا بها منائر العلم والمدنية... وواصل قائلًا: ما كان المسلمون كالبربر من القوط أو الوندال، ي تركون وراءهم الخراب والموت، حاشاً؛ فإن الأندلس لم تشهد قط أعدل وأصح من حكمهم١⁶.

وكان هذا الفتح مهداً لنهضة أوربة كما شهد على ذلك أحد المستشرقين الأسبان فقال: "لقد سطعت في أسبانيا أول شعلة لهذه المدنية التي نثرت ضوءها فيما بعد على جميع الأمم النصرانية.. وإلى حكمة العرب وذكائهما ونشطهم يرجع الفضل في كثير من أهم المخترعات الحديثة وأتفعهما١⁷" انتهى كلامه، وصدق في قوله، لكنهم كانوا عرب الأمس ولم يكونوا عرب اليوم، أصلح الله تعالى الأحوال، وأعز الإسلام.

(١٥) قائل ذلك هو المؤرخ الأمريكي (سكوت) ونقله عنه عبد الله عنان في دولة الإسلام في الأندلس (١٦).
(١٦) قائل ذلك هو: لاب بول، عن المصدر السابق (١٥).
(١٧) قائل ذلك هو المستشرق الأسباني جانجوس عن المصدر السابق (١٦).
أعوذ بالله من الشيطان الرجيم {يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم وثبت أقدامكم} [محمد: 7].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركًا فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره، وأتوب إليه واستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبد ورسول لله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آل واصحابه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين.

أما بعد: فأحسنا خاتم شهركم، وأصلحوا سرايكم تصلح علائكم، واهتموا بشأن آخركم تكفوا أمر دنياكم، واصدقوا مع الله تعالى ينصركم على أعداكم.

أيها المؤمنون: فرض الله تعالى عليكم زكاة الفطر طهرة للصائم، وطمحة للمساكين، وهي صاع من ثمر أو برتقال أو شعير أو من قوت البلد {قد أفقل من تركي} [الأعلى: 1، 15]، يخرجه الراج عن نفسه ومن تلزمته نفقته، ولا يجب على الحمل الذي في البطن إلا أن يتطوع وله بإخراجها.

وقتها الفاضل يوم العيد قبل الصلاة، ويجوز إخراجها قبله يومين أو يومين.

وقد شرع الله تعالى لعباده التكبير من غروب شمس ليلة العيد إلى صلاة العيد {ولتكموا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم وعلكم}.
المفيد في خطبة الجمعة والعيد

[البقرة: 185] يجهر به الرجال في المساجد والأسواق والبيوت؛ تعظیماً لله تعالى، وإظهاراً للشكر، والسنة أن يأكل قبل الخروج لصلاة العيد ثمرات وياكلهن وترآ. 

أيها المسلمون: احذروا المنكرات والمعازف والغناة؛ فإن من الناس من يبدؤ نعمة الله تعالى كفراً والعياذ بالله، واحذرها أن تحرب نساكم ويناتكم الشوارع والأسواق والتجمعات وهن سافرات؛ فإن في ذلك فتنة لعباد الله تعالى، وأنتم المسؤولون عنهم أمام الله عز وجل، أشيروا عليهم بلباس الخشمة، ومروفين بالقرار في البيوت، فذلك خير لكم ولهم، ومرروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر، وأخلصوا لله عز وجل أعمالكم، واسألوا القبول؛ فإن ربك سميع قريب.

آلا وصلوا وسلموا على محمد بن عبد الله كما أمركم بذلك ربك.
الحمد لله؛ أوجد الخلق من العدم، ورباه بالنعم. أحمده وأشكره، وأتوب إليه واستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ أنعم على بني الإنسان بأفادة وأسماع وأبصار؛ حتى يسمعوا العبر، ويروا الآيات، وتعلموا العلوم، وقد كانوا لا يعلمون شيئاً، وقال الله: أخرجكم من بطن أماتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السموع والأبصار والافادة لتلوكمن تشكومن في النحل: 78.

وأشهد أن محمدًا عبده ورسله؛ أكرمه الله تعالى بالرسالة، وأكرم هذه الأمة به؛ فبلغها رسالات ربه، ونصح لها، وقادها في دعوتها وجهادها حتى توفاه الله تعالى، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فأوصيكم - أيها الناس - ونفسى بتقوى الله عز وجل - فلتلك وصية الله لنا ولن كننا قبلنا ولقد وصينا الذين أوتى الكتاب من قبلكم وإياكم أن أثروا الله وإن تكفر فأن لله ما في السموات وما في الأرض وکان الله غنياً حميداً (النساء: 131).

إيها المسلمون: جرت في الأرض آيات وعبر، وحتى التاريخ أخبار كثير من الأمم، عاشوا كما عشنا، وعمرونا الأرض، ثم صاروا أثراً بعد عين، وخبراً يقرأ في تاريخ الأمم؛ ليتسلى به من يتسلى، ويعتبر به من يعتبر قد حللت من قبلكم سنن قضيروا في الأرض.
الفانظروا كيف كان عاقبة المكذبين هذا بيان للناس وهمى وموضحة للمؤمنين بالله تعالى [آل عمران: 137, 138]،
وكم يقول: فالتاريخ يعيد نفسه، والأيام تتوالى، والسنن تكرر، والحوادث تشادب. والمفتعل من فقه سن الله تعالى فاعترض، وكرس حياه فيما يرضي ربه، واجتنب كل ما يخطه. والأحق من يرى السنن، ويصر الآيات والعبر، فلا يبنه ولا يعتبر، بل يأكل ويشرب وينام، وينتظر الآجل وهو بلا عمل.
وفي مثل هذه الأيام، أي: قبل رمضان بسبعة أيام، منذ ما يقارب ألف عام انزع الصليبيون بيت المقدس من المسلمين، ومنسوه زهاء تسعة سنة، وأنشئوا أربع إمارات صليبية في المشرق الإسلامي، ومكثوا في بلاد المسلمين مئتي سنة، كانت أوروبا خلالها ترسل الحملات في إثر الحملات، والجيوش تردف الجيوش؛ لإحكام القبضة على بلاد المسلمين، ولكنها فشلت وعادت أدراجها من حيث أتت، بعد تضحيات جسيمة من قبل المسلمين في مصر والشام.
اصطلح على تسمية هذه البعثات الإفروية الكاثوليكية بالحملات الصليبية، لأن الجيوش جُست تحت راية الصليب، وبشعار تخلص قبر يسوع المقدس - حسب زعمهم - لهذه الحملات الضخمة التي استمرت قرنين كاملين قصة دينية عند عيان الصليب؛ إذ إن قادح شرارة راهب يدعى: «بطرس الناسك»، ومسير حربها هو المعتمل على سدة
عرش البابوية الكاثوليكية آنذاك البابا "أوربان الثاني".
كان بطرسُ الناسكُ منقطعًاً للرهبنة والتبعيد في مغارة من مغارات أوروبا، وأثناء رهبتته طرأ عليه الحلمً إلى بلد عيسى عليه السلام، فرحل إليها عام ستة وثمانين وأربعمئة للهجرة، فلما وصل بيت المقدس، ورأى سلطان المسلمين عليها غاظه ذلك، وامتلاَّ قلبٌ حقداً على المسلمين، واجتمع مع بطريرك كنايس فلسطين، وظلا ييكيان ويتحبان ويتذاكران مجد النصارى في تلك الأرض، ثم تقطع بطرسُ الناسكُ على نفسه عهداً ليجندن أوربة لانتزاع القدس من المسلمين(1).

وعاد إلى أوربة للوفاء بهبته، فالتقى بالبابا أوربان في روما، وأخبره بخبره، وكان البابا أشد حماساً من بطرس ليحقيق مجدًا للناصرى عامة، وللبابوية الكاثوليكية على وجه الخصوص، واتخذ من بطرس وسيلة إعلامية لتأجيل مشاعر الأوروبيين ضد المسلمين، فسار الراهب بطرس يجوب أرجاء أوربة راكباً بلغته، معتقاً صليبه، مشياً لحماسة الناس، داعياً إلى حرب مقدسة ضد المسلمين(2)، وكان لرحلته تلك أبلغ الأثر في تهيئة الناس لغزو المسلمين. فلما رأى البابا أوربان أن الوقت قد حان لقطع ثمرات دعوات بطرس، وأن الحماسة الدينية قد ألمت قلوب الأوروبيين عقد مجمعاً كنسياً ضخماً في فرنسا تفاضل عليه النصارى من جميع أنحاء أوروبا حتى امتلأت المدن والقرى والمزارع

(1) الحروب الصليبية لسيد علي حريري (236)، والحوروب الصليبية في الشرق والمغرب للمروي المطوي (645).
(2) الحروب الصليبية في الشرق والمغرب (464-67).
المحيطة بمكان المجمع.
وفي الجلسة العاشرة من المجمع، افتتح بطرس الخطاب بالأكاذيب والدعاء ضد المسلمين، معداً ما زعمه شدادين يعاني منها نصارى الشرق، في بلد يسوع. فلما تهيأ الناس، واشتد غضبهم قام بابا أوروبا ليخطب خطبة مليئة بالشحنة ضد المسلمين كان من قوله فيها: "أيها المسيحيون: إن تلك الأرض المقدسة بحضور شخصها المخلص فيها، وتلك المغارة المرعبة المختصة بفادينا، وذلك الجبل الذي عليه تألّم ومات من أجلنا، كلها أضحت ميراثاً لشعب غريب. ولم يعد من معبد داخل المدينة المقدسة الخصوصية، والشريع الذي هو المهد والينبوع المقدس لإيماناً لا يعد مشهداً إلا لافتخارات أعمال المسلمين".

وخاطب الشعوب النصرانية الأوروبية بعامة فقال: "يا شعب الفرنجة شعب الله المحبوب المختار، لقد جاءت من تُحوم فلسطين، ومن مدينة القسطنطينية أبناءً محزنة، تعلَّن أن جنساً لعبنا أبعد ما يكون عن الله قد طغى وبلغ في تلك البلاد بلاد المسيحيين. إلى أن قال: فليشره من جنوب فنشيره من شمال، و يشيد في كل مكان الصليب المقدس ربينا ومنذنا، الضريح الذي ملتله الآن أمّا نجسه، وغيره من الأماكن المقدسة التي لوتود ودنسها".

ثم خصص البابا جزءاً من خطابه للأمة الفرنساوية التي ترعى هذا المجمع الهائل فقال لهم: "أيها الطائفة الفرنساوية العزيزة لدى الله،

(3) الحرب الصليبية للحرية (24 - 25).
(4) قصة الحضارة لدبورانت (15/1).
إِن كَنِيَّةَ الْمَسِيحِينَ قَدْ وَضَعَتُ رُجَاهَا مَسْنُودًا عَلَى شَجَاعَتِكُمْ، فَأَنَا
الذِي أَعْرَفُ جَيْدًا تَقْوَائِكُمْ وَكَفَاءَتِكُمْ بِالشَّجَاعةِ وَالْمَيْرَةِ، وَقَدْ اجْتَزَتُ
الجِبَالُ الأَلْبَيْةِ وَحَضْرَتْ لَكُنَا أَنْذِرُ بِكَلَامِ اللَّهِ فِي وَسْطِ بَلَادِكُمْ...
يَا أَيُّهَا الشَّجَاعُانَ: أَذْهَبُوا مَسْلِحِينَ بِسِيفٍ مَفَاتِيحِ الْبَطْرِسِ،
وَأَكْتَسِبُوهَا بِأَذْوَاتِكُمْ خَزَائِنُ المُكَافَاتِ السَّمَوَاءِيَةِ الأَبْدِيَةِ، فَإِذَا أَنْتُمْ اتَّصَرَّمُونَ
عَلَى أَعْدَادِكُمْ فَمَلْكُ الشَّرْقِ يَكُونُ لَكُمْ قَسْمًا وَمِيَارًا، وَأَمَا إِذَا قُنْتُمْ
فَلَكُمْ المُجْدُ; لَا نَكُونُنَّ فِي المَكَانِ الْذِي فِيهِ مَاتٌ يَسَعُوْ النَّسَيْحَةَ»(٥).
تَعَالَى اللَّهُ عَلَى إِفْكُهُمْ وَكَذَّبُوهُ عَلَوْا كَبِيرًا.
ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ أُوْرُشْلِيْمَ أَرْضُهُ لَا نَظَرَّ لَهَا فِي ثُمَّارَهَا، هِيَ فَرِدُوسُ
المُبَاهِج، إِنَّ المِنْدَةَ الْعَظِيمَةَ الْقَانِتَةِ فِي وَسْطِ الْعَالَمِ تَسْتَغْيِثُ بِكَمْ أَنْ
هُوَ لِإنْقَاذَهُمْ، فَقُوِّمُوا بِهِذِهِ الرَّحْلَةِ رَاغِبِينَ مَتَحَسِّسِينَ تَخْلَصُوا مِنْ ذَنْبِكُمْ،
وَقُوِّمُوا بِأَنْتُمْ سَتَنَالُونَ مِنْ أَجْلَ ذَلِكَ مُجْدًا لَا يُقَدِّرُ فِي مَلَكُوتِ السَّمُوَاتِ»(٦).
فَعَلَّت أَصَوَاتُ الجَمْعِ الحَاشِدَةِ المَحْتَمِسَةَ قَالَتِهَا: «تَلَكَ إِرَادَةُ اللَّهِ».
ثُمَّ أَمَرَ الْبَابَا الْذَّاهِبِينَ إِلَى الْحَرْبِ أَنْ يَضْعُوا عَلَامَةَ الْصَّلِيبِ عَلَى جَبَاهِهِمْ
أوْ صَدْرَهُمْ، وَتَقْدِمُ جَمْعٌ مِنْ الأَسَاقِيَةِ وَالأَمْرَاءِ وَالْتَجَارِ، وَخَرْوَا
رَأَعِينَ أَمَامَ الْبَابَا مَلَأَنِينَ أَنْتُمْ وَهُوَ بَيْنَ نَفْسِهِمْ وَأَموَالِهِمْ اللَّهُ، وَحَدِّ شَوْهُمْ
آلَافَ العَامةِ، وَخَرَجَ الْرُّهَبَانُ وَالْنَّسَاكَ مِنْ صَوَاعِمِهِمْ لِيَكُونُوا جَنَوْنِ النَّسِيْحِ
حَسبٍ زِمْعَهُمْ(٧).
(٥) الحَرُوبُ الصَّلِيبِيَّةَ لِلْحَرْبِيِّ (٢٤ - ٢٥).
(٦) قَصَةُ النَّجْسَةَ (١٥/١٥).
(٧) المَصْدِرُ السَّابِقَ (١٦/١٥).
قال المؤرخ الأوروبي ديورانت: «وهكذا توحدت أوروبا كما لم توحد في تاريخها كله. وسرت روح الحماسة فيها كما لم تسر فيها من قبل في أثناء هذا الاستعداد المحموم للحرب المقدسة»، وأصر النساء والأطفال على المشاركة في هذه الحملة ضد المسلمين.

وقد صور المؤرخ المسلم ابن الأثير رحمة الله تعالى الحماسة الدينية لدى الصليبيين لما استرد المسلمون منهم بيت المقدس بقيادة صلاح الدين.

فقال رحمة الله: "ثم إن الرهبان والقسوس، وخلقًا كثيرًا من مشهورهم وفرسانهم ليسوا السود، وأظهروا الحزن على خروج البيت المقدس من أيديهم. وذكر أنهم طافوا في بلاد الإفرنج يستنجدان أهلهام، ويحرونهم على الأخذ بأثر البيت المقدس، وصوروا المسيح عليه السلام، وجعلوا صورة لرجل عربي، والعبري يضربه، وقد جعلوا الدماء على صورة المسيح عليه السلام، وقالوا لهم: هذا المسيح يضربه محمد نبي الإسلام، وقد جرحه وقتلته، فعظم ذلك على الفرنج فحشروا وحشدوا حتى النساء. ومن لم يستطيع الخروج استأجر من يخرج عوضه أو يعطيهم مالًا على قدر حالهم، فاجتمع لهم من الرجال والأموال ما لا يتطرق إليه الإحصاء". وقال ابن الأثير: "وحدثني بعض الأشرى منهم أن له والدة ليس لها ولد سواه، ولا يملكون من الدنيا غير بيت باعته وجهزته بثمنه، وسبرته لاستنقاذ البيت المقدس، فأخذ أميراً. وكان عند الفرنج من الباعثي الديني والنفساني ما هذا حلة، فخرجوا على المصدر السابق (15/17). (8)
بداية الحملات الصليبية

الصعب والذلول باراً وبحراً من كل فج عميق (1)

سارت طلائع الصليبيين يتقدمها بطرس الناسك، ثم أدرفت بأربعة جيوش ضخمة لا يعلم عددها إلا الله تعالى، وصفها بعضهم فقال:

"كانت الجيوش الصليبية عبارة عن شعب كامل يسير (1)

فلما دخلوا القسطنطينية للمعبور إلى الشرق فزع أهل القسطنطينية من كثرتهم حتى قالت ابنة إمبراطورها آنذاك: "يخيل لي أن أوريا اقتلعت من أصولها (1)"

وأعجبت كثيرهم أي جيش أن يقف أمامهم، وما توقفوا إلا في بيت المقدس، وألقوا القتال في أهله، واستولوا عليه، وذلك في ضحى الجمعة لسبعة أيام بقيت على رمضان من سنة ثمانية وتسعين وأربعة أطوار للهجرة (12)، واهتز المسلمون لهذه الفاجعة العظيمة، وبقوا بقاءً مراً، وخطر الخطباء، وتراسل الأموات، واجتمع العلماء؛ لكن الضعف والفرقة قد عملت عملها في المسلمين فما استطاعوا عمل شيء. ورفعت الصبان في الأرض المباركة، واستباحها ه rozp أوروبا، ومنعوا المسلمون من إقامة شعائرهم فيها، أو الصلاة في المسجد الأقصى، وكان ذلك أمراً عسيراً على أتباع محمد صلى الله عليه وسلم، وكانت

(9) الكامل في التاريخ لابن الأثير (9/102)
(10) الحروب الصليبية للحربيري (44).
(11) المصدر السابق (45)، والحروب الصليبية في الشرق والمغرب (35).
(12) أنظر خبر استيلائهم على بيت المقدس في المتفرق لابن الجوزي (16/47)، والكامل (8/189)، والبداية والنهج (12/138)، وتاريخ الإسلام للذهبي (34/15)، وتاريخ ابن خلدون (5/25).
ذلك نتيجة تضبيع أوامر الله تعالى؛ إذ سلط الله عليهم عدوهم، ووكلهم إلى أنفسهم، ومن وكل إلى نفسه عجز، ومن وكل إلى الخلق ضيعوه، ومن توكيل على الله كفاه.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: "وَمَا أُصَابَكُم مِّن مَّسَّةٍ فَمَا كَسَبَّتُ أَيْدِيكُمْ وَيَغْفُرُ عَن كُلِّ ذَٰلِكَ" [الشورى: 20].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم،

الخطبة الثانية

الحمد لله حمدًا طيبًا كثيرًا مباركاً فيه كما يحب ربي ويرضى، أحمده وأشكره، وأتوب إليه واستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله تعالى، واستجلبوا النصر باتباع أمره، واجتناب نهيه، وتعزيم شعائره، ونصرة إخوائكم المستضعفين، يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم وينبت أقدامكم! [محمد: 7]

أيها المسلمون: لقد كانت الدواوين الدينية عند قادة الحملات الصليبية ومصيرها قوية جداً، وهي التي أوجوا بها مشاعر العامة في مختلف أرجاء أوروبا حتى خرجوا بقضائهم وقضائهم، وأصبحوا نساءهم وأولادهم للاستيحيان في الشرق الإسلامي. ولا أدل على هذه الحماسة الدينية من المقولة التي أطلقها البابا أوربان أمام ملوك أوروبا حينما قال: "إن تعرض حياتي للخطر في سبيل تخلص الأماكن المقدسة لافضل"
بداية الحملات الصليبية

عندى من حكم العالم كله

ومن أجل هذا الهدف توحدت أوروبا المترفقة، وتحالف ملوكها المتناقرون؛ لأن هدف الحملة كان مقدساً عند جميعهم.

لقد كانت الحملات الصليبية التي تبعت على الشرق الإسلامي قرنين من الزمان وصمة عار عسير بها المنصفون من كتاب أوربة بني جنهم ولملهم، فما عرفت الرحمة إلى قلوبهم سبيلاً في المدن التي استولوا عليها؛ فهذا قس من قساوستهم كان حاضراً معهم، كتب في مذكرات ما شاهده من أفعالهم فقال: «وشهدنا أشياء عجيبة؛ إذ قطعت رؤوس عدد كبير من المسلمين، وقتل غيرهم رمياً بالسهام، أو أرغموا على أن يلقوا أنفسهم من فوق الأبراج، وظل بعضهم الآخر يعرفون عدة أيام، ثم أحرقوا بالنار، وذت ترى في الشوارع أكوام الرؤوس والأيدي والأقدام، وكان الإنسان أينما سار فوق جواده يسير بين جثث الرجال والخيل».

ويروي كاتب نصراني آخر ما شاهده يقول: «إن النساء كن يتقلن طعناً بالسيوف والحراب، والأطفال الرضع يختطفون بأرجلهم من أذهان أمهاتهم، ويُذف بهم من فوق الأسوار، أو تهشم رؤوسهم بدقها بالأعد، وذبح السبعون ألفًا الذين بقوا في المدينة، أما اليهود الذي بقوا أحياء فقد سقوا إلى كنيس لهم، وأشعلت فيهم النار وهم أحياء».

(13) قصة الخضارة (15/14).
(14) المصدر السابق (15/15).
(15) المصدر السابق (15/25).
وظل المسلمون طيلة إحدى وتسعين سنة يعدون العدة لإخراج الصليبيين من بيت المقدس؛ فأصلحوا أنفسهم، ونشروا الصلاح بينهم، ودخل كثير منهم تحت رايات الجهاد؛ حتى حققت الله لهم النصر في حطين وما تلاها من معارك. فأعادوا بيت المقدس إلى حظيرة الإسلام، وما عمل صلاح الدين وجيشه مثل الذي عمل الصليبيون بالمسلمين؛ بل أثر العفو عنهم، وافتدى كثيرًا منهم بإله الخصيت.
ولم رحمه الله تعالى يجاهد الصليبيين حتى حرس بلاوأ كثيرة منهم، ثم واصل المسيرة من كانوا بعده من السلاطين حتى تم تحرير الشرق الإسلامي كله من الإمارات الصليبية، وفشل تثمان حملات صليبية كبرى في تحقيق هدف الأوربيين بعد مئتي سنة من الصراع الدامي المرير. وما أشبه الليلة بالبارحة، والتاريخ يعيد نفسه بعدما يقارب ألف سنة، وما الحملات الإعلامية المسورة على الإسلام والمسلمين في هذه الأيام من الإعلام الغربي النصراني واليهودي إلا امتداد حملة بطرس الناسك وأكاذبته، وما المجمعات الأمية لاتهام كل المسلمين بالإرهاب والتطرف - ما داموا يدينون بالإسلام - إلا امتداد للمجاعم التي دعا إليها البابا أوربان الثاني قبل ألف عام، والمستهدف منها هم المسلمون في عقيدتهم ودينهم وأخلاقيهم.
إن علاقتنا مع أهل الكتاب لا نحتاج في معرفة حقيقتها إلى محلل سياسي، أو كاتب صحف، أو مذيع إخباري، يتلاعبون بالأخبار، ويطمسون الحقائق؛ وإنما نأخذها من كتاب الله تعالى الذي بين الله
تعالى فيه أن أهل الكتاب لن يرضوا عنًا حتى نتبغ ملتهم، سواء كانت ملتهم الدينار المحرقة، أم الأيدولوجيا المخترعة، أم العلمانية اللادينية، ومشروع العولمة برمتله لا يخرج عن خبر هذه الآية القرآنية: "وَلَن تَرْضَى عَنكُمُ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى نَتَبَغَّ ملتهم" (البقرة: 120)، وإن نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان، وكسير للصليب، وقتله للخنسير من أكبر الدلائل على أن الصراع الديني سيظل موجوداً إلى آخر الزمان. وما كسره للصليب، وقتله للخنسير إلا إلغاء لشعائر دين النصارى، ولو لم يستمروا على الاستماساك بها لما كان إلقاءها من مهمات عيسى عليه السلام.

إن العلمانيين العرب الذين تخلوا عن دينهم، وطالبوهم باطرافهم، وتبديل ثقافتنا، وتعبير نصوصنا، ولازالوا يسامونا على ديننا لم يرض عنهم عباد العجل وعباد الصليب، ولكن يرضوا عنهم أبداً؛ فلا لديهم أبقوا، ولا نالوا رضى أعدائهم، وهم في خسورة دائم!! وواجب على كل مسلم في مثل هذه الفتى أن يزيد استماساك بدينه، وأن يكون من عبادة وربه، وأن يسأل الله الثبات على الحق إلى الممات، فإن الزائدين عن الطريق يكثرون في مثل تلك الفتى، والملخرون عن دينهم تزداد أعدادهم كلما عظم البلاء، واشتدت الفتى، وإذا خسر المرء دينه فقد خسر آخره، عدواً بالله من ذلك. ألا وصلوا وسلموت علي نبيكم محمد كما أمركم بذلك ربه،
الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين.

أما بعد: فيا أهل الناس، اتقوا الله ربيكم واعملوا صالحاً، فلنخرج العبد من الدنيا إلا بما قدم، ولن ينجو في الآخرة إلا بالإيمان والتقوى وأمر أهلك بالصلاة وأصحاب عليها لا تسألون رزقكم والعاقبة للتقوى (١٣٦) [طه].

أيها المؤمنون: التاريخ مدروسة لمن أحسن قراءته، وتأمل عبره، وأفاد من أحداثه. أحداث السنين، وأحداث السابقين، وتجارب الأمم، وتقلبات الدول، تقرؤها في ساعات معدودات، وتفهمها في أيام قليلين. عانيت أمم في الأرض ثم أدبرت، وسارت في البشر جهافل من الظلم والكفر، فسبت وقتلت ثم اندثرت. سادت أمم ثم بادت، وقامت للظلم صروح ثم تهدمت. أين عاد وثمرود؟! أين قوم إبراهيم وقوم لوط؟! أين فرعون ذو الأوتاد، الذين ظنوا في البلاد (١٦١) فأخذوا فيها الفساد (١٦١) [الفجر] الكافر، ورأت ممالكهم وما بقي ولا يبقى إلا ملك الله تعالى كُلٌ مِنْ عَلیَّةٍ فَانّ (١٦٢) ويبقى وجه رَبِّكَ دُوَّرُ الجَلَالِ.
والإكرام (٣٧) [الرحمن].

والقرآن قص علينا أهم أحداث التاريخ البشري، وأمرنا بالاعتزاب والإقرار، واليقين بأن العاقبة للمتمنين. هذا قرآناً يحدث نبينا محمدًا صلى الله عليه وسلم عن قصة نوح عليه الصلاة والسلام ثم يخطبه فيقول: "فهل من أبناء العوين نوحیها إليك ما كنت تعملها أنت ولا قومك من قبلي هذا فاصبر إن العاقبة للمتمنين" (٤٥) [هود].

ومن أحداث التاريخ المحفوظة، حدث عظيم، حدث قبل رمضان بسبعة أيام، منذ ما يزيد على تسعة قرون، في وقت كان بنو عبيد البابطينون يحكمون كثراً من بلاد الإسلام، فنشروا فيها البعدة، وآثارها البيئة، وظهر عباد القبور والأضرحة. وفي حكمهم تفرق المسلمين، واختلفت كلمتهم، وضعفت قوتهم، فظلمهم فيهم الطاعون، وأشراشب أعقاب الصليبيين لحرب صليبية، فشجعتم ما كان عليه كثير من المسلمين من فساد العقيدة والعبادة والأخلاق، وكثرة الاختلاف، وشدة التفرق.

فاندفعت جميع الصليبيين نحو المشرق، تغلب في قلوبها الأحقاد، ويشحن نفوسها الكبد، فاجتاحت حصول أنطاكية الممنعة، ثم انقضت على معركة النعمان فقاومهم سكانها؛ ولكن العدو كان أكثر مدخلاً عند العشاء فاستكشف أصوات المؤذنين من فوق المنائر، وأعمال السيف في الرقاب، فقتلو كل رجل وكل امرأة وكل طفل، وجعلوا يطون

جثث القتلى بعد أن ملأت الدروب وسدت المسالك (١).

(١) انظر: حدث في رمضان للدكتور عبد الرحمن رافت الباشا (٦٠).
وتابع الجيش الصليبي سيره يحصد المدن والقرى حتى وصلوا بيت المقدس ضحى يوم الجمعة لسبعة أيام بقيت من شعبان سنة ثمانية وتسعين وأربعمئة للهجرة، دخلوها بنحو ألف ألف مقاتل، فجاسوا خلال الديار، وتبروا ما علوا تبيراً.

أعمالوا السيف في الرقاب، وأجروا الدماء في الشوارع، ورفعوا من جثث القتلى تلالاً، وصنعوا من هاماتهم قباباً، ثم دخلوا الدور فسوا من فيها وبقوا البطون بحثاً عن الذهانير. ولذا المسلمين بالمسجد الأقصى فتبعوه وقتلو داخله ما يزيد على سبعين ألفاً، فيهم العالم الزاهد، والعابد الراكع، والشيخ الطاعن، والطفل الراضي، والمرأة الناكل، لم يميزوا مقاتلاً عن غير مقاتل، ولا فرقوا بين عاجز وقادر. دخلوا بخيلهم بيت المقدس فداست شباكها على الأشلاء، وتخضبت قوائمها بالدماء.

(1) حتى كتب مؤرخ صليبي حضر هذا الحدث الجليل فقال: «فلمما ولج حجاجنا المدينة جدتوا في قتل الشرقيين ومطاردتهم حتى قبة عمر حيث تجمعوا واستسلموا لرجالنا الذين أمولوا فيهم أفضع القتل طيلة اليوم بأكمله حتى لقد فاض المعبد كله بدمائهم.

فهام الناس على وجههم من الشام إلى العراق يصحبهم القاضي أبو سعيد الهروي، فحكوا لأهل بغداد ما حل بهم، فيكوا من هول ما خبروا، ونظم القاضي الهروي كلاماً يصف تلك الكارثة فقرر في

(2) المصدر السابق (108) والبداية والنهاية (138/12/119).
(3) أعمال الفرنجية للمؤرخ غري مجهول (118-119).
الديوان وعلى المنابر فارتفع بكاء الناس، وندب الخليفة الفقهاء ليحرضوا على الجهاد (1)؛ ولكن ذلك لم يُجَّد شيئًا. لأن الآوان قد فات، والداوء قد استمكن. ولم تكن العلة في قوة العدو بقدر ما هي في ضعف المسلمين؛ حيث فرطوا في أمر الله وأذاعوه، فوكلهم الله إلى أنفسهم، ومن وكل إلى نفسه عجز، ومن وكل إلى الخلق ضيعوه، ومن تولك على اللّه كفاء.

لقد استقبل المسلمون ذلك الرمضاان الحزين، وجراحهم تنزف، وأجنابهم تحترق، وقلوبهم تشتعل، وما أصابهم ما أصابهم إلا بما كسبت أيديهم.

أيها الإخوة: مكث الصليبيون في بيت المقدس ثنتين وتسعين سنة، عاشوا فيه وأفسدوا، وعلوا وظلموا. عاش بيت المقدس خلالها قرناً إلا ثماني سنوات، لم يرفع فيه أذان، ولم تقم فيه صلاة، بل رفع فيه الصليب، ورعى في أرضه الخنزير، وعلا شأن الكفر والثليث، وسمعت من أعيالي الأجراس والنواقيس.

كانت تلك المصيبة بمثابة الرجفة والزلزلة، والهزة العنيفة التي

(4) انظر في سقوط القدس في أيدي الصليبيين: المتتظم (17/47/42) ووفيات الأعيان (179/11) ومرأة الجنان (154/25) وتاريخ ابن خلدون (15/5) وتاريخ ابن الوردي (11/1) والكامل في التاريخ (207/10) وتاريخ الإسلام للذهبي (138/12) والبداية والنهاية (12/17).
نهب المسلمين من غفلتهم، وأيقظتهم من رقدهم، فعاد كثير منهم إلى الله تعالى وأصبحوا أنفسهم قبل أن يجاجدوا عدوهم، فقيض الله لهم قادة صالحين، أقاموا علم الجهاد، وحاروا الباطنية وأهل الفساد، حتى عزموا على غزو الصليبيين، وتخليص الأقصى منهم.

فصنع الإمام العادل نور الدين منبراً حلف بالله أن يجعله لبيت المقدس إذا خلصه من التصاريح (5)؛ ولكنه انتقطع دون يمينه، وعاجله المئية قبل تحقيق الأمنية، فخلفه المجاهد الصالح صلاح الدين الذي أخذ الدنيا بسبب الظفر ثم جاد بها ببد الكرم، روع أوربة مرتين، مرة حين قهر جيوشها بسيفه، ومرة حين شدة نفوسها يدبغه (6).

أصلح نفسه ونشر الصلاح في جنده وحفظ أمر الله فنصره الله. أشرب حب الجهاد حتى قضى نحواً من ربع قرن على صهوة جواده، أو في حصار قبالة أعدائه، وفي نحو عشرين سنة، قاد أربعاً وسبعين معركة (7).

يحكى سيرته من عاصره ولازمه في بعض معاركه، وهو المؤرخ القاضي ابن شاذلداً. فيقول: "لو حلف الحالف أنه ما أنفع بعد خروجه إلى الجهاد ديناراً ولا درهماً إلا في الجهاد أو في الإرفاد لصدق وبر في يمينه.

(5) انظر: نهاية الأرب (28/45) وتاريخ الإسلام (41/27).
(6) انظر: رجال من التاريخ للشيخ علي الططاوي (191).
(7) انظر: حديث في رمضان (112) ورجال من التاريخ (194).
وبحكي عنه مرة أنه قال له في نفسي أنه متي يسر الله تعالى فتح بقية الساحل قسمت البلاد وأوصيت وودعت، وركبت هذا البحر إلى جزائرهم أتبعهم فيها حتى لا أبني علي وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت» (8).

الله أكبر!! هدف نيل، وغاية سامية، وهمة عالية، استحق بها أن يحقق الله على يديه أعظم منقبة في ذلك العصر ألا وهي فتح بيت المقدس وإخراج الصليبيين منه، وتطهيره من رجسهم.

فلما عزم على ذلك سار إليهم، فضرب الحصار عليهم، واجتهد وجنده في ضربهم بالمجانق والعرادات. وكلما فتر حماس الجند أو ضعفو نظروا إلى الصليبان منصوبة على الجدران، وفوق قبة الصخرة صليبيهم الأكبر فالتهبوا وزادهم حنقا وحماسا لهدمها وكسراها، فضاعوا الهجوم، واشتدوا في الطلب حتى نقبوا السور من أحد جهاته وأحرقوه، فذعر النصارى لذلك وطلبوا المحاربة، فتراسلوا وتحاوروا ثم استسلموا وسلموها للمسلمين دون قتال على أن يبذل كل رجل منهم عن نفسه عشرة دنانير وعن المرأة خمسة وعن كل صغير ومتوسطة دينارين، وأن تكون الأسلحة والغلات والدور للمسلمين. وتسلمها المسلمون يوم الجمعة في السابع والعشرين من رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمئة، بعد قرن إلا قليلاً، فدخلوا بيت المقدس مهللين مكبرين، تضج ألسنتهم بالدعاء، وتعلو أصواتهم بالشكر لله والثناء عليه. وأنزل الصليب

(8) النوادر السلطانية لابن شتاج (30-55).
الأكبر فُهوى على الأرض، فارتفعت أصوات الجند بالتكبير، ومحيط النقوش والتصاوير، وأزيلت الأجراس والنواقيس، ونظف المسجد مما كان فيه من الصبان والرهبان والخنازير، وكان الصليبيون قد جعلوا محراب المسجد مكانًا لقاذوراتهم، فنظمهم المسلمون وطبوه(9).

قال الحافظ المؤرخ ابن كثير رحمه الله: "لما تظهر بيت المقدس مما كان فيه من الصبان والنواقيس والرهبان، ودخله أهل الإيمان، ونودي بالاذان، وقرأ القرآن، ووعد الرحمن، كان أول جمعة أقيمت في اليوم الرابع من شعبان، بعد يوم الفتح بثمان، فنصب المنبر إلى جانب المحراب... وامتلا الجامع، وسالت لرقة القلوب المدموع، ولما أذن المؤذنون للصلاة قبل الزوال، كادت القلوب تطير من الفرح في ذلك الحال. ثم ذكر أنه خطبهم القاضي محي الدين ابن الزكي ففتح خطبه بقول الله تعالى (فقطع دار القوم الذين ظلموا وأحسم الله رب العالمين) [الأنعام] وحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم ذكر فضائل بيت المقدس ومنزلته عند المسلمين(10).

وطلت القدس بعد هذا الفتح إسلامية تشد الرحال إلى مسجدها من كل مكان، ويقصدها طلاب العلم لتجاوز كثير من العلماء فيها،

(9) انظر في فتح بيت المقدس: النوادر السلطانية (135) والكامل في التاريخ (541 و544/41 و44) والبداية والنهاية (286/12 و287/12).

(10) المعارج الأشواق (2/2/936) والعبر للذهبي (248/4) ومواطن البداية والنهما (287/12 - 288/12).
هينى كان ما كان، وانقلب الأحوال، ودالت الأيام في القرن الماضي،
فاحتلها يهود، والله الأمر من قبل ومن بعد.
أعود بالله من الشيطان الرجيم { إن يمسكم قرح فقد مس القوم
قروح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويعتذ منكم
شهداء والله لا يحب الظالمين (١٤٢) وليرخص الله الذين آمنوا ويمحى الكافرين
[آل عمران] بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...
الخطبة الثانية
الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربي ويرضى،
أحمده وأشكره وأتوب إليه واستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده
لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسله صلى الله وسلم وبارك
عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتفى بهداهم إلى يوم الدين.
أما بعد: فإن الحروب والثورات بين اليهود والنصارى كانت على
أشدها؛ حتى إن الصليبيين لما دخلوا بيت المقدس أحرقوا من فيه من
اليهود، واشترطوا على عمر ألا يسمح لليهود بالسكن فيها؛ ولكن
هذه العداوة زالت أو تأملت لمواجهة ما يسمونه: خطر الإسلام الذي
اجتاح الأرض بنوره، فاجتمع المتعادلون واصطيحوا، وتآزر أهل الإنجيل
المحرف مع أهل التوراة المبدلة ضد أهل القرآن المحفوظ، فأصبحت
الحرب ضد الإسلام حربًا صليبية يهودية، رمزها الظاهر بيت المقدس،
وإن كانت تعم الأرض كلها.
فالنصارى يرون في القدس مولد نبيهم عيسى عليه الصلاة والسلام،
وموطن كنيستهم الكبرى المسماة بالقيامة وكنيسة البشاره، واليهود يرونها مملكة داود عليه السلام السلام، وفيها هيكلهم المزعوم الذي يعتقدون فيه بنائه ملك العالم كله.

والمسلمون يعتقدون أنهم أحق به؛ لأنه مسرى نبيهم صلى الله عليه وسلم، ونبيهم خاتم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فلابد أن يسود دينه الأرض كلها، وهم أولى بموسى وعيسى وداود عليهم الصلاة والسلام من اليهود والنصارى، كما أن الصلاة في بيت المقدس مضاعفة، ولا تشتد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد هو منها.

فاتضح بذلك أن الصراع على بيت المقدس صراع عقائدي ديني، وما العلمانية في الصراع عند اليهود والنصارى إلا مرحلة طارئة مؤقتة في طريقها إلى الاضمحلال والزوال، حيث قويت الأحزاب الدينية في بلادهم، واكتسبت الأحزاب العلمانية. بل عادت كثير من شعوبهم إلى كنائسهم ومعابدهم، ورجعوا إلى توراتهم وإنجيلهم.

كما أن العلمانية أيضاً طائرة وفي طريقها للإفلاس والزوال في البلاد الإسلامية بدئ أن أقطابها ومنظريها يندحرون يوماً بعد يوم، ويعانون قوة المد الإسلامي رغم استماتتهم في تحجيمه؛ مما اضطهر إسلامهم إلى وقف معارضتهم الصريحة للإسلام وشرعته وهيمته، والتحول إلى تفسيره بما يوافق العصر ومتطلباته، فكثر حديثهم عن الإسلام العصري، والعقلانية الإسلامية، وما إلى ذلك من الهراء الذي يراد منه تميز الإسلام، والدعوة إلى وحدة الأديان، وتلاقح الحضارات.
والعولمة السياسية والاقتصادية والثقافية.

وكل ذلك في طريقه إلى الأقول والزوال؛ ليتجسد الصراع العقدي،

وقد كشف القرآن هذه الحقيقة حتى لا يكون فيها لبس ولا غموض
فمن كذبها فهو يجازف بمعارضة القرآن وتكذيبه {ولن ترضى عنك
اليهود} ولا النصارى حتى تتبع مقتهم} [البقرة: 120] {وذكرت من أهل
الكتاب لو يبدونكم من بعد إيمانكم كيفاً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما
نبين لهم الحق} [البقرة: 91].

ولأهمية هذه الحقيقة في الإسلام ربطت بأكثر أركان الإسلام
تكراراً في اليوم والليلة. فالمسلم يصل كل يوم خمس مرات على
الأقل، يقرأ أو يسمع فيها الفاتحة سبع عشرة مرة، ولا تصح الصلاة
دونها، وهي تتضمن الدعاء بابنات سلوك طريق اليهود والنصارى
{اهذينا الصراط المستقيم} {صراط الذين أعلمنا عليهم غير المغضوب
عليهم} ولا الضالين} [الفاتحة].

وفي ظل الواقع الجديد - الذي أضفه الشرعية على الاحتلال،
وسعى لكسر الولاء والبراء تحت مسمى كسر الحواجز النفسية، وصار
سيفاً لحماية اليهود في الداخل والخارج - هل سيستمون المسلم من
قراءتها في الصلاة؟ أم سيجدون منها هاتين الآتيتين؟! كلا ويحسنون.
والواقع يشهد لهذه الحقيقة المتمثلة في أن الصراع عقدي، فالجندي
الصليبي حينما كان يلبس بزة الحرب إنما مرحلة الاستعمار كان يوعد
أمه فيقول: {أمّاه، أنتي صلاتك، لا تبكي بل اضحكى وتأملي أنا ذاهب}.
الموفقت في خطب الجمعة والعيد

إلى المسلمين فرحًا مسرورًا، سأبذل دمي في سبيل سحق الأمة الملعونة، سأحارب الدينات الإسلامية، سأقاتل بكل قوتي لمحو القرآنُ.

وأما اليهود فإنهم لما دخلوا مدينة القدس هتفوا بالأهابيج يقولون: "هذا يوم بوم خير.. يا لثارات خير" وقالت رئيستهم آنذاك: "إني أشمر رائحة أجدادي في خير". ألا لعنة الله عليها وعلى أجدادها وقومها.

هذه هي الحقيقة وإن زورها من زورها، وأخفاها من أخفها، وما حصل للمسلمين من ضعف وهوان هو من عند أنفسهم، فالانحراف والفساد يضرب أطنابه في بلاد المسلمين، انحراف في العقيدة، وتعلق بالمخلوقين، وعبادتا للقبور في كثير من البلاد الإسلامية، وتضييع لأمر الله عز وجل، وارتكاب لنعه. وما أشبه الليلة بالبارحة، فأحوال المسلمين اليوم تشبه أحوال المسلمين عندما سلب الصليبيون قدسهم، إن لم تكن أشد سوءًا هذه الأيام. وعلى فلن يتم خلاصه بالشعارات الزائفة، ولا بالحماس المنتجج، ولا بالاندفاع المتورح.

وإنما يكون ذلك بمجاهدة النفس قبل مجاهدة الأعداء، بإصلاح ما فسد من أحوال المسلمين في اعتقادهم وعباداتهم، وأخلاقهم، وعودتهم للإيمان والتقوا، والكتاب والسنة، بفهم سلف الأمة، وحينها يعتزون ويتصرفون لأن الله معهم "وما أعلم جنودٌ يلبك إلا هو" (المدرقع: 31) فيسخر الله الحجر والشجر يعاون المسلم فيقول: "يا مسلم يا عبد الله."

(11) انظر: القومية والغزو الفكري (808).
(12) انظر: قادة الغرب يقولون: دعوا الإسلام أبيدوا أهله (36).
هذا يهودي خلفي فتعل فاقته إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود» كما
ثبت ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (١٣).
 فأصلحوا أنفسكم وبوكم، ومن هم تحت أيديكم، وصلوا أنفسكم
بالله وأصلحوا ما بينكم وبين الله إن أردتم نصرًا وعزًا وَا النصرُ إلاً
من عند الله العزيز الحكيمٌ [آل عمران: ١٢٦].

آلا وصلوا وسلموا على نبيكم كما أمركم بذلك بكم...

* * *

(١٣) أخرجه البخاري في الجهاد باب قتال اليهود من حديث ابن عمر رضي الله
عنهم (٢٩٢٥) ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه (٢٩٢٦) ومسلم في
الفتن باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقرير الرجل فييمنى أن يكون مكان
الميت من البلاء (٢٩٢١) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما ومن حديث
أبي هريرة رضي الله عنه (٢٩٢٢).
الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدفه الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله...

» يا أيها الذين آمنوا انقوا اللّه حق نفقاته ولا تموتون إلا وانتم مسلمون [آل عمران: 20]. (» يا أيها الناس آقروا ربك الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجاتها وبث منهم رجلا كثيرا ونساء وأقروا الله الذي تساعون به والأرجام إن الله كان عليكم رقيبًا [النساء: 1]. (» يا أيها الذين آمنوا ألقوا الله وقولوا فولا مثليا، يصلى لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطيع الله ورسوله فقد فاز فورًا عظيما [الأحزاب: 70, 71].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد رحمه الله، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بذعة، وكل بذعة ضلالة، وكل ضلالة في النار. أيها الناس: من حكمة الله سبحانه وتعالى أن قدر الخير والشر، والإيمان والكفر، والطاعة والمصية، وإبتلي بحكمته العبادة بذلك؛ ليتلقس فريق منهم الإيمان، ويلتزموا الطاعة، ويسلكوا طريق الخير، ويتلبس آخرون الكفر، ويعملوا المصية، ويسيروا في طرق الشر والغواية.
ولكل من الجهتين دعاء يدعو الناس إلى جهتهم، فدعاه يجرون الناس إلى الجنة بالسلاسل، ودعاه يقذعون من اتبعهم في النار قذفاً. إنه ابلا عابلي به المكلفون من لدن آدم عليه السلام إلى آخر رجل من هذه الأمة، وصراع بين الحق والباطل.

فأهل الباطل يريدون فرض بابتهم على الناس، يؤذهم على ذلك شياطينهم، وتدفعهم إليه أهواؤهم، وأهل الحق يودون الحفاظ على حقهم، ويدعون الناس إلى هداهم؛ لا استنفادهم من عذاب ربهم.

إنه صراع تطاول مع تطاول القرون، وتعاقب مع تعاقب الأمم والدول، وما خلقت الأرض دهراً من دماء تسفك، وأجساد تدفق في حق أو باطل. والسين الكونية تشهد لذلك، والتاريخ يثبته. بيد أن الغلبة إن كانت لأهل الحق على أهل الباطل فإن نزيف الدماء يتوقف، ولا يسفك دقً إلا بحق؛ لأن أهل الحق يرحمون الخلق، ويذكرون فيهم ربيهم.

وإذا ما كانت الغلبة لأهل الباطل فإن دماء غزيرة بالباطل تسفك، وأجساداً بريئة تجري وتتمزق في سبيل الشيطان وأعوانه.

وهذا الحكم لا يقال رجماً بالغيب، أو تخرضاً بلا علم، أو توقعًا بلا خبر؛ فتاريخ البشر في قديمهم دالٌ عليه، وواقعهم في حاضرهم يثبت ويوهده، وما عرف عن نبي من الأنباء عليهم السلام أنه كان سفاكاً للدماء، معلّباً للناس، بينما كان المعارضون لدعوات الرسول عليهم السلام يسفكون دماء أتباع الرسول بعد ملاحقتهم وتشريدهم.
وتعذيبهم; لأنه لا دين يردعهم، ولا شريعة تضبطهم.

وهذا ما حدث للمسلمين في بيت المقدس قبل زهاء ألف سنة من الآن؛ إذ اجتاحت الصليبيون بلاد الشرق المسلم، واستولوا على مالكه حتى وصلوا بيت المقدس في أخريات شهر شعبان سنة ثمانية وتسعين وأربعمئة للهجرة(1)، وفعلوا بالمسلمين ما لا يمكن لبشر أن يتصوره، ولولا أن روایات المؤرخين من المسلمين وغير المسلمين، عرب وغير عرب اتفقت على مجمل المذاهب التي فعلوها بأهل القدس وأنطاكية ومعرة النعمان وغيرها من البلدان التي أتوا عليها لما كان أحد من الناس يصدق ما فعلوا!!

لقد نقل أخبارهم الشنيعة، وأفعالهم المشينة، ومجازرهم البشعة أقوامٍ منهم، حضرها، وشاركوا فيها، وفقاروا بها، ثم كتبوا ما شاهدوا من أفعال بني دينهم للمسلمين شيخاً ونساءً وأطفالاً.

وفي هذا المقام القصير سأنتقل إلى أسماعكم وصفاً لبعض ما جرى للمسلمين في بيت المقدس، على أيدي الصليبيين، ولن أنقل عن مسلم واحد؛ بل كلما سأنقله إما عن كتاب صليبيين حضروا تلك المذاهب وشاركوا فيها، أو عن من نقلوا عنه من بني دينهم، وذلك

(1) كان سقوط بيت المقدس في ضحى الجمعة الثاني والعشرين من شعبان سنة 492 هـ، وكان عدد جيشهم فيما ذكر ابن كثير بقارب مليون مقاتل. انظر: البداية والنهائية (١٣٨/١٣) والكامل (١٩١/٥) وتاريخ ابن خلدون (٤/٦٧)، والتجوم الزاهرة (١٤٨/٥).
لتفتي أي تهامة بالتحمل أو المبالغة لو كان التنقل عن مؤرخين مسلمين.
قال المؤرخ الصليبي فوشيه الشارترى "وهرب بعض هؤلاء العرب إلى برج داود، وأغلق آخرون على أنفسهم معبد الرب ومعبد سليمان، وتم شن هجوم وحشي على المسلمين في فناء هذين المعبدين، ولم يكن هناك مكان يمكن أن ينجهم من سيوف رجالنا... ولو أنك كنت موجوداً هناك لغاصت قدماك حتى العقبين في دماء المذبحين، ترى ماذا أقول؟ لم نترك منهم أحداً على قيد الحياة، ولم ينج حتى النساء والأطفال، كم سيكون مدهشاً لو أنك رأيت فرساننا ومشاتنا.
بعد أن اكتشفوا خداع المسلمين فشقوا بطول الذين ذبحوه؛ لكي يستخرجوا من المعدة والأمعاء العملات الذهبية التي كان المسلمون قد ابتلعوها وهم أحياء!! ولنفس السبب قام رجالنا بعد أيام قليلة بجمع كومة من الجثث وأحرقوها حتى صارت رماداً حتى يمكنهم أن يجدوا بسهولة الذهب الذي ذكرناه خبره. عندما جرى رجالنا وسيفهم مشرعة عبر أرجاء المدينة، ولم يبقوا على أحد، حتى أولئك الذين يرون الرحمة، سقط الجميع كما تسقط التفاحات العفنة جميعًا من الأغصان الممزورة... وبعد هذه المذبحة الكبيرة دخلوا بيوت السكان، واستلوا على كل ما وجدوه فيها، وتم هذا بطريقة جعلت كل من كان يدخل أولاً سواءً كان فقيرًا أم غنيًا لا يجد من ينزعه من الفرنج الآخرين، وكان له أن يحتل المنزل أو القصر، ويملكه بكل ما فيه كما لو كان ملكية خالصة له، وهكذا اتفقوا جميعًا على هذا النمط من الملكية.
وبهذة الطرق صار كثيرون من الفقراء أثرياءٌ.

وقال المؤرخ الصليبي رينون الأغري لري يصف ما شاهد: «بدأ رجالي يدخلون إلى القدس بجسارة وإقامة، وقد أراقوا من الدماء في ذلك اليوم كمية لا يمكن تخيلها...» وقال: «ما إن استولى رجالنا على السور والأبراج... أطاحوا برؤوس أعدائهم، بينما رشقهم البعض الآخر بالسهام، بحيث سقطوا من الأبراج، على حين عذبهم البعض فترة طويلة بأن قدفواهم في النار أحياء، وكانت أكوام الرؤوس والأيدي والأرجل تستريعي النظر في شوارع المدينة، وكان المرء يشق طريقه بصعوبة بين جثث الرجال والخيل، ولكن هذه كانت أمرًا صغيرًا إذا قورنت بما جرى في معبد سليمان... ترى ما الذي حدث هناك؟ إذا ذكرت الحقيقة فإنها ستندفع قدرتكم على التصديق; ولذا يكفي أن أقول: إنه في معبد سليمان كان الرجال يخوضون في الدماء حتى ركبهم وحزام ركابهم، والواقع أنه كان حكماً عادلاً ومحترماً من الرعب أن يمتلئ هذا المكان بدماء الكفار، لأن هذا المكان طالما عانى من دنسهم، وامتلاع المدينة بالجثث والدماء، والآن تم الاستيلاء على المدينة وهي جديرة بكل أعمالنا السابقة، والصعاب التي واجهناها; لترى إخلاص الحجاج في الضريح المقدس.»

(2) انظر كتابه: أعمال الفرغية حجاج بيت المقدس (١٩٥ - ١٢٨)، والحملة الصليبية الأولى نصوص ووثائق تاريخية لقاسم حبده قاسم (٢٥٤ - ٢٥٥).

(3) انظر كتابه: تاريخ الفرغية غزاة بيت المقدس ترجمة: جوزيف نسيم يوسف (٢٤٦ - ٢٤٧)، والحملة الصليبية الأولى نصوص ووثائق (٢٦٧ - ٢٧٩).
مذاهب الصليبيين في القدس

وقال المؤرخ الصليبي المسمى بالفارس المجهول: "وطاردتهم رحالا يقتلونهم ويزرونهم حتى معبد سليمان حيث جرت هناك مذبحة بلغ من عنفها أن رحالنا كانوا يخوضون في دماء أعدائهم حتى أعقابهم... لدرجة أن المعبد كان يفيض بدمائهم... وفي اليوم التالي توجهوا بحذر إلى سطح المعبد، وهاجموا المسلمين نساء ورجالا، وقطعوا روؤوسهم بسيوفهم، وقذف بعض المسلمين بأنفسهم من أعلى المعبد، ثم تشاروا رحالا، وأمروا بأن يتصدق الجميع، وأن يصلوا للرب؛ لكي يختار بنفسه من يريد أن يحكم المدينة، كما أُمرروا بأن يُرمى جميع جثث المسلمين خارج المدينة بسبب الرائحة المزعجة، لأن المدينة كَلَّها تقريباً كانت ملأى بجثث.

ثم ذكر أن الجُئِد كومت في أكوام كبيرة بحجم البيوت، وقال:

«لم ير أحد من قبل أو يسمع عن قتال بمله هذا العدد من الوثنيين؛ لأنهم أحرقوا في أكوام مثل الإهرامات ولا يعرف أحد غير الرب كم كان عدهم».

وذكر المؤرخ الصليبي ميشو أن المسلمين كانوا يذبحون ذبح النعام في الشوارع والمنازل، وأنهم لم يجدوا مكانا آمنا يلزدون به.

(4) انظر كتابه: أعمال الفرجية وحجاج بيت المقدس الآخرين (84 - 92)، والحملة الصليبية الأولى نصوص ووثائق تاريخية (277 - 278).
(5) تاريخ الصليبية ليتش (124) والمملكة الصليبية لبريس (211 - 212) عن العدوان الصليبي على العالم الإسلامي للدكتور: صالح الدين محمد نوار (122).
وذكر المؤرخ النصري وليم الصوري أن بيت المقدس أصبح مخاضة واسعة من دماء المسلمين، أثارت خوف الغزاة واشمثازهم، وأنه لم يكن من الممكن النظر إلى تلك الأعداد الضخمة من القتلى دون الإحساس بالرعب، ففي كل مكان ترى بقايا جثث القتلى مقطوعي الرؤوس والأيدي، وكانت الأرض مغطاة بدماء القتلى.

ونقل المؤرخ الغربي النصري ديوانت عن حضروا تلك المذابح وشاركوا فيها قولهم: "إن النساء كن يُقتلن طعناً بالسيوف والحراب، والأطفال يختطفون أرجلهم من أبعد أمهاتهم، ويُدفنهم من فوق الأسوار، أو تهشم رؤوسهم بدقها بالعند".

وذكر صاحب كتاب: أعمال الفرحنة: "أن جثث قتلى المسلمين وُضعت في أكواخ حتى حاذلت البيوت ارتفاعاً.

وقد اختصر الصليبيون وصف هذه المذابح العظيمة في الرسالة التي أرسلوها إلى البابا يخبرونه بما فعلوا قاتلين: "إذا ما أردت أن تعلم ما جرى لأعدائنا الذين وجدناهم بالمدينة فثق أنه في إيوان سليمان أو(...)

(6) تاريخ الأعمال التي تمت فيما وراء البحار للمؤرخ النصري وليم الصوري، وقد كتب تاريخه هذا بعد مرور حوالي ثمانين سنة على هذه الحملة الصليبية، وهو مولود في أرض فلسطين لأسرة من الغزاة الصليبين الذي احتلوا بيست المقدس (124/185)، وانظر أيضاً: تاريخ الصليبية ليشو (2/277، وتاريخ الحروب الصليبية لرؤي أولدنجرو (15/125).

(7) انظر كتابه: قصة الحضارة (15/125).

(8) أعمال الفرحنة وحجاج بيت المقدس الآخرين (119-120).
معبدة كانت خيوطنا تخوض في بحر من دماء الشرقيين المتدفقة إلى ركيبتها\(^9\).

إزاية هذه المذاهب الرهيبة لم يكن كثيراً ما حللّ بالمسلمين من الحزن والبكاء في كافة البلدان آنذاك، وخاصة في دار الخلافة على مصير إخوانهم في الشام، ولا سيما في القدس وما جاورها، حتى إن بعضهم عجز عن الصياح من شدة البكاء والتلبيب فافطروا\(^1\).

رحم الله فتلى هذه المذاهب من المسلمين، وعامل الظالمين بما يستحقون، إنه سبحانه مجيب. وأقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضي، أحمده وأشكره، وانبوب إليه واستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له\(^9\).

كان سُيّر هذه الحملة الصليبية ومهندسا البابا أوربان الثاني بابا الفاتيكان في وقته، وأرسَل القادة الصليبيون هذه الرسالة إليه يشترونه بأخذهم لبيت المقدس، وذبحهم المسلمين، ولم يفرح بهذا الإجاز الصليبي الذي جيش أوربة من أجهل، لأن المبيت اختطافه قبل وصول الرسالة، بل وقبل سقوط القدس في أيدي الصليبيين بسبوعين. وانظر: العدوان الصليبي على العالم الإسلامي\(^1\).

انتظر في وصف حزن المسلمين في بغداد لما سمعوا بهذه الفاجعة: المنتظم (17/47 و192، والكامل (10/139)، والبداية والنهائية (12/139)، وتاريخ ابن خلدون (5/21، وتاريخ الإسلام للذهبي (34/15)، ومرأة الزمان (1/151)، والنجم الزاهرة (5/151).
شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدي بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله -عباد الله- فإنه لا نجاة للعبد في الدنيا من كوارثها وفتنتها، وفي الآخرة من حسابها وعذابها إلا بتقرب الله تعالى وربني الشهيد الذين ألقوا بمبازرتهم لا يمسيهم السوء ولا هم يحزنون.

[الزمر: 61].

أيها المسلمون: قد كفانا الله تعالى مؤنة البحث في طبيعة أعدائنا، سواء كانوا كفارًا أم منافقين، وسواء كانوا وثبة أم أهل كتاب.

أما المنافقون فقد قال الله تعالى فيهم: "قد بذلت البغضاء من أقوائهم وما تخفى صدورهم أكثر قيدًا بنيا لكم الآيات إن كتم تعقلون" (118) ما أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا أمنًا وإذا خلوها عضواً علىكم الأذى من الفيظ قل موتنا بفيظكم إن الله عليكم بذات الصدور (119) إن تنمسكم حسنة تؤهم وإن تصبيكم سببًا يفرحوا بها وإن تصرحوا وتنتموا لا يضركم كيدهم شيئًا إن الله بما يعملون محيط. (آل عمران: 118-120).

وما أهل الكتاب فقد أبان الله تعالى حسدهم لهذه الأمة المباركة المفضلة على العالمين، فقال سبحانه: "وذلكل من أهل الكتاب لو يذروكم من بعد إيمانكم كفأرًا حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق." (البقرة: 109).

وأخبر سبحانه بأنهم لن يرضوا عنا حتى نبدل دينا، ونسلك من
مذابح الصليبيين في القدس

عقيدتنا، ونغير شريعتنا، ونتبعهم في شريعتهم سواء كانت شريعتهم يهودية أم نصرانية أم مادية إخادية وآمن ورضي أن يهود ولا التصاريح حتى تبع ملتهم (البقرة: 120) وصدق الله العظيم، أوليسوا في هذا العصر يريدون إخراج الناس من دياناتهم وأعرافهم، ويقرونهم على نماذجهم وتعليمهم فيما يتعلق بالديمقراطية والحرية، وحقوق الإنسان والمرأة والطفل وغيرها من المقررات الإخادية التي لا تحفظ الحقوق.

بل تدر الشعوب، تحت مشاريع العوالة والأنظمة العالم الجديد.

وكذبه بعدد جمله عداوة الكافرين لنا فقال سبحانه: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا كَانُوا لَكُمْ عَدُوٗا مَّعْنَا» (النساء: 11)، وعذاء التنافين فقال تعالى: «هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذِرْهُمْ» (المؤمنون: 4).

إذا لا نحتاج في فهم علاقات الآخرين معنا، ومدى حقدهم علينا إلى محللين سباسيين، أو خبراء استراتيجيين، أو إعلاميين بارزين، ينلون مع تلون السياسات، ويبدلون مواقفهم مع تبدل مصالحهم الشخصية، ويركون موج الأقوال، وليس لهم مبدأ ثابت، ولا قاعدة معروفة! لا نحتاج إلى كل هؤلاء! فشرع الله تعالى قد كفنا ذلك الله، وأبان لنا حقيقة أعدائنا وأصعبهم وأفعالهم، وماذا يريدون منا، وماهي ستنتهي عداوتهم لنا.

أبان لنا ذلك كله في قرآن يتلى منذ أربعة عشر قرناً، وقرأنا أحداث التاريخ منذ ذلك الزمن إلى يومنا هذا فوجدناها لا تدعو ما ذكره القرآن قيد أملها، بل ورأيًا فيما عشنا من سنوات قلائل حقدهم على الإسلام.
والمسلمين، وتقلت إلينا مذابحهم في البوسنة وكوسوفا وكشير السفاحين وتيمور الشرقية وأفغانستان والهند، وغيرها، ومنذ خمسين سنة ونحن نشاهد ذلك في فلسطين.

مذابح في الشرق وفي الغرب، ولبشر بيض وحمر وصفر وسود، وأجناس مختلفة، وألسن عدة، لا يجمع بينها كلها إلا كون أهلها اختاروا الإسلام دينًا لهم.

وإذا كانت القوى الظالمة في وقت من الأوقات لا تُظهر عداوتها للإسلام صراحةً، وتتدرع بصالحها، فإن كثيرًا من رموزها وشخصياتها وخبرائها يصرون الآن بأن الإسلام هو عدوهم الأول والأوحد، ويزعمون أن القرآن هو منبج التطرف، ويرمون النبي صلى الله عليه وسلم بالإرهاب.

فهل بقي لمتفلسف حيلةً حتى يضحك بها على عقول الناس؟ لينفي عداوة الذين كفروا للذين آمنوا؟

ألا وإن المنتبع لتاريخ المسلمين يجد أنهم ما أصيبوا عبر تاريخهم الطويل بعصبة إلا كانت ذنوبهم وعصيانهم سببًا لها، وما ابتعدوا عن دينهم إلا سلط عليهم أعداؤهم؛ مصداقًا لتقول الله تعالى: {ومَا أصابكم من مصيبة فما كسبت أبديكم ويعقو عن كثير} [الشورى: 30].

وإذا ما أراد المسلمون الخروج من هذه الكروب والشدائد التي تلتهم من كل جانب فعليهم بالأروى إلى الله تعالى، والعودة إلى دينهم، والتوبة من ذنوبهم؛ فما نزل بلاء إلا بذنب، ولا رفع إلا بثوبة. وها هو ذا
شهر التوبة والرحمة والمغفرة والإحسان على الأبواب، وهو فرصة
لهذه الأمة في هذه الظروف العصيبة أن تجد في إيمانها، ويجتمع
المسلمين على كتاب ربهم سبحانه وتعالى، وسنة نبيهم محمد صلى
الله عليه وسلم، ويتوبوا أفراداً وجماعاتاً. لعل الله تعالى أن يرفع
البلاء عليهم، وينصرهم على أعدائهم.
ورمضان فرصة للتوبة؟ لأن الشياطين تضعفُ فيه، والخير يزداد،
والصلاح يظهر، ويعين إقبال الناس على الطاعات كبرأً، كما صبح
عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إذا دخل رمضان فتحت
أبواب السماء، وأغلقت أبواب جهنم، وسلسلت الشياطين»(11).
أما فاتقوا الله ربيكم، واستقبلوا شهراً بالتوية النصوح التي لا
رجعة فيها إلى الذنوب والعصيان، فإنكم إن فعلتم ذلك كفاكم الله
شر أعدائكم، وأمنكم في أوطانكم، وأزال أسباب الخوف والجوع عنكم،
ومن كان الله معه فمن يخفف من شيء، والله يحب التوابين ويحب
المتوبين.
وصلوا وسلموا على نبيكم، كما أمركم بذلك ربك،،،،

(11) أخرجه البخاري في الصوم باب: هل يقال: رمضان أو شهر رمضان ومن
رأي كله واسعاً (1899)، وسلم في الصوم باب فضل شهر رمضان (791).
من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
الجمعة ٢٧ / ٤/ ١٤٢٢

الحمد لله، نحفلله ونعجلبه ونسعنه ونستغفره، ونوعذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدى الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أياً أياً الذين آمنوا أن يقوا الله حق ثقته وليؤمنوا باللهم وسموهم
[ال عمران: ٢٠١]، أياً أياً الناس أثقو بهم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وثبت منها منهما رجلان كبيران ونساء وأثقو الله الذي نساء أثقو الله وقوولاً سيداً (٧) يُصْلِح لكم أعمالكم ويعفف لكم ذنوبكم ومن يبطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً [الأنساب: ٧٠، ٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعه، وكل بدعة ضالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس: لم يجعل الله تعالى الدنيا دار نعيم لأولئك، ولا مستقراً لعباده، وإنما جعلها دار إبلاه يبتلى فيها المكلفون تارة بالسراء وتارة بالضراء.

ولم يلم من إبلاهات الضراء أفاضل البشر، وخيار الناس: الأنبياء والمرسلون، وأصحابهم وأنباقهم ومؤمنون بهم.
قتل زكريا وحيى عليه السلام، واستهزئ بنوح عليه السلام والمؤمنين بدعوته، وأخرج لوط عليه السلام من قريته، وطورد موسى عليه السلام وأتباعه، وهاجر محمد ﷺ، وشج رأسه، وكسرت رباعيه، وقُذف بالحجارة حتى سال الدم من عقبه، وأودى أصحابه رضي الله عنهم، وأخرجوا من ديارهم، وحوصروا وعذبوا، وزلزلاً شديداً.
ولو كانت دعوات الأنبياء والمصلحين لا تجد اعتراضا من الشيطان وأعوانه من الإنس والجَنِّ لما تحقق الابتلاء، ولا من أكثر الناس. ولو كانت طريق الجنة محفوظة بالشهوات، خالية من المكروهات؛ إذاً أكثر سالكوها، ولو كانت طريق النار خالية من الشهوات محفوفة بالمكروهات؛ لما رأيت لها سالكاً.
ودوام الابتلاء تدور ما دارت الأيام، والصراع بين الحق والباطل قائم ودائم ما دامت الدنيا.

يُبَيِّنُ اللَّهُ تَعَالَى لِأَهْلِ الْحَقِّ عَلَى أَهْلِ الْبَاطِلِ تَارِئًا وَيُنصِرُهُمْ عَلَيْهِمْ، وتارة يُنصِرُ أُهِلِ الْبَاطِلِ لَحَكَمَةٍ يُرَيِّدُهَا اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ولو شاء لهدى الناس جميعًا، ولو شاء لانتقم من أنصار الشيطان لانصاره تبارك وتعالى.

ذلك وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَانْتَصَرَّ مِنْهُمْ وَلَكَنْ لَيَبْثُ أَحَدُمْ بَعْضَكَ بِعَضْهُ» [محمد: 4].

ومن المعارك المشهورة في تاريخ الإسلام: معركة حنين(1) التي

(1) حنين موضع بين طهير ولمكا بينه وبين طهير نحو فرسخين بالقرب منه قريبة يقال لها: خيراء، يَذْكُرُ أن بها قبر شعبه عليه السلام. قال ياقوت الحموي: "وهذا صحيح لا شك فيه". معجم البلدان (2/742). والذي عليه المحققون من أهل=
انتصر فيها أهل التوحيد على أهل التشليت، وقعت في العشر الأخيرة من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وثمانين وخمسين للهجرة النبوية(1). وذلك أن نصارى أوربا سيروا جيوشاً جرارة سنة ثمانين وتسعين وأربعمئة للهجرة بقصد كتلة الشرق الإسلامي، وانتزاع بيت المقدس من المسلمين; فحصل لهم ما أرادوا بسبب المسلمين، وفسخ الترف فيهم، واستحام الجهل عليهم، وانفصال أمهم، وانتشار البذع في أواسطهم، وقيام دولة بني عبيد الباطنية في مصر والشام(2). وظل النصارى في حروب مستمرة مع المسلمين طيلة إحدى وتسعين سنة، حتى كانت موقعة حنين التي قاد المسلمين فيها السلطان الصالح الزاهر صلاح الدين الأيوبي

العلم والتاريخ أنه لا يعلم قبر النبي إلا قبر نبي، وسیل العلم بمكان قبر من قبور الأنبياء السابقين النص، ولا نص في ذلك، أو النواتر وهو غير موجود، وآينما ينقله المؤرخون فلا يعتمد عليه؛ لأنهم مجرد نقلة بتقولن الأخبار وما يتناقله المتأس، وكذا الشهرة لا يعتمد عليها؛ لأنها غالبًا ما تكون متاخرة عن أصل الحدث، ومثال ذلك: أنه استهر عند أهل دمشق أن قبر يحيى عليه السلام في داخل المسجد الأموي مع أن بني أمية ما نبوء على قبر أصلًا؛ ولا لبطلت الصلاة فيه؛ ولا أفرهم على ذلك من بقى من الصحابة رضي الله عنهم، وكبار التابعين، ومن بعدهم من الأئمة المتبعين رحمهم الله تعالى، ففعل بذلك أن هذه الشهرة متاخرة، ولا أساس لها من الصحة، وها هو أكثر ما ينقل ويشتر في مثله.

(2) انظر: سير أعلام النبلاء (21/180)، والروضتين في أخبار الدولتين لأبي شامة (230)، والنوادر السلطانية للفاضلي ابن شداد (126)، وشذرات الذهب (4/274).

(3) وذلك في الحملة الصليبية الأولى التي كانت عام 492 هـ. وانظر تفصيل ذلك في: كتاب التاريخ، أحداث هذه السنة.
معركة حطين

رحمه الله تعالى.

كان سلطان النصارى قد علا، وطغيانهم قد استشرى، وما أكثر ما عاهد ملوكيهم ملوك المسلمين ثم غدروا، واستباحوا كثيراً من الدياب، وقتلوا النساء والصبيان. وقبل حطين بستين مرض صلاح الدين مرضًا شديداً حتى أشار عليه الأطباء بأن يوصي، فحرف بالله لئن شفاه الله تعالى ليصرفن همته كلها إلى قتال الإفرنج، ولم يجعلن أكبر همه فتح بيت المقدس، ولوصرف في سبيل الله تعالى جميع ما يملك من الأموال والذخائر، كما حلف أن يقتل الملك الناصرى أرناط ملك الكرك بيدة؛ لأنه نقض العهد، وتنقص الرسول صلى الله عليه وسلم، واعتدي على قافلة المسلمين، فأخذ أموالهم، وضرب رقابهم وهو يقول: أين محمدكم؟ دعوه ينصركم(!)، فشفى الله تعالى السلطان من مرضه، فصرف كل همته لقتال النصارى.

حتى جمع الله بين جند الإيكان وحالف الكفر والطغيان في أرض حطين، وذلك أن السلطان صلاح الدين سار بجيشه إلى الإفرنج، وتوافد عليه عسكر المسلمين من مصر والشام وغيرها حتى كانوا أثني عشر ألف مقاتل غير المتطوعين. فتسامعت الفرنج بقدومه فاجتمعوا كلهم، وتصالحوا فيما بينهم.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: «وجاءوا بهداتهم وحديدهم، واستصبروا معهم صليب الصلوبات، يحمله منهم عباب الطاغوت، وسلال الناسوت، في خلق لا يعلم عدتهم إلا الله عز وجل»، يقال: كانوا خمسين ألفاً.

(4) انظر: البداية والنهبة (12/280)، والنوادر السلطانية (119).
وقيل: ثلاثون ألفاً. فتقدموا نحو المسلمين، وأقبل السلطان ففتح طبرية، وتقوى فيها من الأطعمة والأمتعة. وحار البحيرة في حوزته، ومنع الله الكفرة أن يصلوا منها إلى قطوة حتى صاروا في عش عظيم، فبرز السلطان إلى سطح الجبل الغربي من طبرية عند قرية يقال لها: حطين.

وجاء العدو المخدول، وفيه كل ملوك النصارى الإفرنج في الشرق، فتوجه الفريقان، وتقابل الجيشان، وأسفر وجه الإمام، واغبر وأقتم وأظلم وجه الكفر والطغيان، ودارت دائرة السوء على عبدة الصبان، وذلك عشية يوم الجمعة، فبات الناس على مصافحهم.

وأصبح صباح السبت الذي كان يوماً عسيراً على أهل الأحد، وذلك لخمس بقين من ربع الآخر، فطلعت الشمس على وجه الإفرنج، واشتدت الحر، وقوي بهم العشش، وكان تحت أقدام خيوثهم حشيش قد صار هشماً، وكان ذلك عليهم مشهوراً، فأمر السلطان النقطة أن يرموه بالنقط، فرموه فتأتي نازاً تحت سنابك خيلهم، فاجتمع عليهم حر الشمس، وحر العشش، وحر النار، وحر السلاح، وحر رشق النبال، وتبارز الشجعان، ثم أمر السلطان بالتكبير والحملة الصادقة، فحملوا وكان النصر من الله عز وجل فمنحهم الله أكتافهم، فقتل منهم ثلاثون ألفاً، ألفاً في ذلك اليوم، وأسر ثلاثون ألفاً من شجاعاتهم وفرسانهم.

(5) وذكر الذبيبي أن جيش الإفرنج كان ثلاثين ألفاً فيما قيل، وقتل منهم خلق كثيرون حتى قال العماد الكافي في البرق الشامي: فمن شاهد القتلى يومذٍ=
وكان من جملة من أسر جميع ملوكهم إلا واحداً هرب في أول المعركة، واستلهم السلطان صلبيهم الأعظم، وهو الذي يزعمون أنه صلب عليه المصلوب، وقد غلضوه بالذهب واللآلئ والجواهر النفيسة، ولم يسمع بمثل هذا اليوم في عز الإسلام وأهله، ودفع الباطل وأهله؛ حتى ذكر أن بعض الفلاحين من المسلمين رآه بعضهم يقول نيفاً وثلاثين أسيراً من الفرنج وقد ربطهم بطنب خيمة، وباع بعض المسلمين أسيراً بنعل ليلبسها في رجل، وجرت أمور لم يسمع بمثلها إلا في زمن الصحابة والتابعين، فلله الحمد دائماً كثيراً طيباً مباركاً (1).

فلما تمت هذه الواقعة، ووضع الحرب أوزارها أمر السلطان بضرب مخيم عظيم، وجلس فيه على سرير المملكة وعن يمه أسرته وعن يساره مثلها، وجيء بالأسرى تتهادى بقيودها، فمن كان فيه شرّ على المسلمين، أو قضى العهد ضربت عنقه.

قال: ما هناك أسيير، ومن عابن الأسرى قال: ما هناك قتيل. وقال الذهبى: ولاعيد للإسلام بمثل هذه الواقعة من زمن الصحابة رضي الله عنهم. اه من تاريخ الإسلام (1/19).

وأجلس السلطان أكرم ملوك الأفرنج عن يمينه على السرير، وسائر الملوك حوله وفيهم ملك الكرك أرناط الذي حلف السلطان في مرضه أن يقتله بيده، وغذره بالمسلمين، واستهجائه بالرسول صلى الله عليه وسلم، ثم سقي السلطان كبر ملوكهم، فشرب ملكهم ثم أعطى الملك أرناط لشرب، فغضب السلطان وقال: إنما ناولتك ولم آذن لك أن تسقيه، هذا لا عهد له عندي - وكان عند العرب أن الأسير إذا أكل أو شرب من ماله من أسره أمن - فقال السلطان: أنت الذي سقينه وأنا أنا فما سقيته، وذلك لثلا يأمن.

ثم تحوّل السلطان إلى خيمة أخرى وطلب الملك الغادر أرناط، فلما أوقف بين يديه قام إليه بالسيف، ودعاه إلى الإسلام فامتنع، فقال له السلطان: نعم، أنا أتوب عن رسول الله في الانتصار لامته، فقلت وأرسل رأسه إلى ملوك النصارى في خيمتهم، فخافوا وظنوا أنهم يقتلون، فطمعهم السلطان وقال: لم تجر عادة الملك أن يقتلون الملوكي، وأما هذا فإنه تجاوز حد، وتعرض لسب رسل الله، فجرى ما جرى.

وبات المسلمون تلك الليلة على أنهم سرور، وأكمل حبور، ترتفع أصواتهم بالحمد لله، والشكر له، والتكبير والتهليل، حتى طلع صبح يوم الأحد.

(7) انظر: النوادر السلطانية (130).
(8) النوادر السلطانية (131-131)، والبداية والنهاية (285/12/285)، والنجوم الزاهرة (30-31).
لقد كان يومًا حزينًا عظيماً في الإسلام، وكانت معركتها القاحلة التي قسمت ظهور النصارى، وهي المهدة لفتح بيت المقدس، وتطهيره من عبادة الصليب، ورعاية الخنزير؛ إذ بعد ثلاثة أشهر فقط من معركة حنين تم فتح بيت المقدس، وانتهت إمارة الصليبيين عليه بعد أن دنسها بكفرهم وثلاجتهم إحدى وتسعين سنة(9)، كما انتهت إماراتهم في كثير من بلاد الشام بنتائج الفتح والانتصارات بعد معركة حنين الخالدة على يد صلاح الدين، ثم على يد ملوك بنى أيوب ومن بعدهم إلى أن تم طردهم من الشرق الإسلامي، وانتهت الحملات الصليبية بعد أن أيقن ملوك أوروبا أنهم لن يستطيعوا إخضاع الشرق الإسلامي لحكمهم، ولم تأت قناعتهم تلك إلا بعد معاناة طويلة، وتضحيات كبيرة بالأنفس والأموال والمتاع بذلها المسلمون، ودامت مئتي سنة، فلله الحمد أولاً وآخراً(1).

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا لله﴾ (9) وذلك في رجب من نفس السنة (583هـ) كما في كتب التاريخ المذكورة سابقاً.

(10) استمرت الحملات الصليبية تدمن أوروبا إلى الشرق الإسلامي قرابة مئتي سنة منذ حملة بطرس الناسك عام (489هـ) إلى حملة لويس التاسع وهي الحملة الثامنة التي هلك فيها وجيشه ببواء الطاعون عام (688هـ) وتم إنهاء الإمارات الصليبية التي أسسها النصارى عام (190هـ) وذلك بعد سقوط عكا وما تلاها من حروب على يد السلطان الأشرف خليل ابن المنصور فلاكون. ينظر في ذلك: كتب التاريخ أحداث سنة (190هـ).
الخطبة الثانية

الحمد لله حمدًا طيبًا كثيرًا مباركًا فيه كما يحب ربه ورضي، أحمده وأشكره، وأتوب إليه واستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن سار على نهجهم واتنداه بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله ربككم وأصلحوا سركم وعلئكم فان الله تعالى يعلم السر وأخفى، «وأتقوا الله وأعلموا أنكم ملقوه وبشر المؤمنين» [البقرة: 223].

أيها المسلمون: لم يكن غريباً على صالح الدين رحمه الله تعالى أن يعفو عن ملوك الإفرنج ويكرمهم بعد أن مكن من رقابهم إلا من كان غزارة ناكباً للعهد متميزة بالمسلمين، كيف يكون ذلك غريباً عليه وقد شذة أوربة بكريم أخلاقه، وجميل عفوه، وحسن صفاته التي تلقاها من مدرسة الإسلام، كما أدهشها بشعاعه وإقباله، وحسن قيادته.

ومن حسن قيادته رحمه الله تعالى أنه وجه قطاع الطريق والنصوص من المسلمين إلى النصارى المحاربين، وجعلهم يعملون فيما يحسنون من السطو عليهم، واختطاف أمرائهم وترويعهم، فحوّلهم من لصوص...
قاتل إلى مجاهدين في سبيل الله تعالى.

وذكر القاضي ابن شداد: أنه كان راكباً في خدمة صلاح الدين في بعض الأيام قبالة الإفرنج، فجاءه قائد من قادة جيشه ومعه امرأة نصرانية ترتد عن الخوف، وتبكي بكاءً متواصلًا، وتضرب على صدرها بشدة، فقال القائد لصلاح الدين: إن هذه خرجت من عند الفرنج، وسألت الحضور بين يديك، وقد أتينا بها. فأمر الترجمان أن يسألها عن قضيتها فقالت: إن اللصوص المسلمين دخلوا البارحة إلى خيمتي، وسرقوا إبنتي، وبت البارحة أستغيث إلى بكرة النهر.

فقال لي الملوك - أي ملوك النصارى - للسلطان رحيم، ونحن نخرجك إليه تطلبين ابنتك، فأخرجوني، وما أعرف إبنتي إلا منك؛ فرق لها، ودمعت عينه، وحركته مروته، وأمر من ذهب إلى سوق العسكر أن يسأل عن الصغيرة: من اشترابها وتدفع له ثمنها ويعضوها.. فما مضت ساعة حتى وصل الفارس والصغيرة على كتفه، فما كان إلا أن وقع نظر أنها عليها، فخرجت إلى الأرض تمز ووجهها في التراب، والناس يكون على ما نالها، وترفع طرفها إلى السماء ولا نعلم ما تقول، فشملتهم ابنتها إليها، وحملت حتى أعيدت إلى عسكر النصارى (11).

الله أكبر، ما أجمل هذا التصرف! وما أحسن هذا الخلق! قدرنا رحمك الله تعالى هذه الأخلاق العالية، والمرور الوفية بما يجري للمسلمين.

(11) انظر هذه الحادثة في: النوادر السلطانية (98) وقد حكاها القاضي ابن شداد وذكر أنه شهدته بنفسه ولم ينقلها عن غيره.
على أيدي اليهود في فلسطين تحت سمع وبصر منظمات حقوق الإنسان
النصرانية، والقانون الدولي، ورعاية السلام المزعوم من النصارى وأعوانهم.
قُارِنُوا هذه الحادثة بما جرى للمسلمين في البوسنة وكوسوفا، وما
يجري الآن لهم في مقدونيا والشيكان على أيدي عبادة الصليب.
تهدم ديارهم، وتنتهك أعراضهم، وتُبَاع بناتهم لتجار البغاء والرقيق
الأبيض، وفي كل يوم تكتشف مقار جماعية، دُفِن فيها عشرات
المسلمين بعد أن قُطَّعت أطرافهم، ومُسَتَّل بأجسادهم وهم أحياء؛ تلذذاً
بتذويهم قبل قتلهم في زمن يقال عنه: إنه زمن حفظ حقوق الإنسان!!
فمن هو هذا الإنسان الذي يعتد حقوقه؟!
إنه كل إنسان سوى المسلم ما دامت الهيمنة لعباد الصليب الحاقدين،
والصهاينة العنصرين، وسيظل الأمر على تلك الحال إلى أن يمنِّ الله
تعالى على المسلمين بعودة جادة إلى دينهم؛ فيكتب الله لهم النصر
على عدوهم، وتعود السيادة إليهم، كما كانت من قبل لهم؛ ليرفع
الظلم عن البشر، ويلبَس العدل كما كان في عصور مضت، وما عصر
صلاح الدين رحمة الله إلا مثلًا من أمثلة كثيرة في تاريخ العدل والإحسان
في دولة الإسلام، فالإسلام خير للبشر لو كانوا يعلمون؛ ولكن أكثر
الناس لا يعقلون. سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على
المسلمين، والحمد لله رب العالمين.
الحمد لله، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، أحمده
وأشكره، وأتوب إليه واستغفره. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا
شريك له؛ امتَّن على أمة الإسلام بشهر رمضان، وجعل النصر فيه لأهل
الصيام والقيام على عباد الأوثان والصابان.
وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله؛ كان في بدر ينشد ربه، ويسأله
النصر، ويلح في دعاءه حتى سقط رداؤه عن منكبيه من شدة إلحاحه؛
فاستجاب الله تعالى دعاه، وأمده بالف من الملائكة مردين، صلى
الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه؛ جاهدوا فنوسهم فقهروها
عن مصيبة الله تعالى، وقصروها على طاعته، فاستحققا نصر الله،
فنصرهم الله على أعدائهم، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.
أما بعد: فأوصيكم - أيها الناس - ونفسي بتقوى الله عز وجل;
فإن الدنيا مهما طال أمدها، وكثرة مسرات العباد فيها فهي إلى زوال
ونهاية، ولا مستقر للعبد إلا في دار القرار، فقل مثاع الدنيا قليل والآخرة
خير لمن اتقى ولا تظلمون قيالاً» [النساء: 77].
أيها المسلمون: رمضان كما هو شهر الغفران والرحمة، فهو أيضاً
شهر العز والانتصارات، شهر علاء فيه كعب الإسلام في أكثر البلاد،
وانتصرا في جيوشه في أكثر المعارك، أثبت فيه عباد الرحمن قوة
نفسهم، بِكَحِب جمَاح شهواتهم؛ فكان نصرهم على أنفسهم مهداً لنصرهم
على أعدائهم.

رمضان في أمة الإسلام شهر مليّ بالمعارك والفتاح خلال القرون السالفة، والسناوات الماضية، كم ارتفعت فيه من رايات عز للإسلام؟! وكم عقدت فيه من لواءات تنشر دين الله تعالى؟!.

أول فرقان بين الحق والباطل كان في رمضان، في بدر الكبرى التي لا تنسى، والفتح المبين لملكة كان فيه، وفيه أيضاً كسر التتار في عين جالوت، ووطئت أقدام المسلمين الأندلس، وفتحوها في رمضان.

والحديث عن الأندلس يحتم الحديث عن رجال قطعوا البحر، وجاوزوا السهل والوعر؛ لينشروا دين الله تعالى في فرود الأندلس، رجال لا رأوا ما في الأندلس من بساتينها وجبانها، ومائها وأنهارها، وجبالها وسهولها الخضراء؛ تذكروا ما أعد الله تعالى للمؤمنين في الجنة، فحجروا نفوسهم عن الشهوات، وأوقفوا أوقاتهم لله تعالى، وبذلوا مههجهم وأرواحهم وأموالهم في مرضاته، وقضوا أعمارهم على صهوات خيولهم يجاهدون في سبيل الله عز وجل ؛ طلباً للشهداء في مظانها، فسجحوا صورةً مشرقة في البذل والتضحية والقداء، عجب منها التاريخ، وأدهشت كبار المؤرخين.

كان منهم الملك أبو عامر المعافري رحمه الله تعالى، غزًا ستناً وخمسين غزاة لم تنكس له فيها راية، ولا قُلُل له جيش، جُمع من غبار وجهه في سبيل الله تعالى صرة ضخمة(1).

(1) جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس للحميدي (264)، وخلاصة تاريخ الأندلس لشكيك إرسلان (218).
معركة الزلقاء

ومنهم سيف الدولة ابن حمدان العدو الغبار في الجهاد لبنة كبيرة. وهذا يدل على كثرة جهادهم في سبيل الله تعالى. إذ لا يمكن جمع هذا الغبار الكثير إلا في معارك كثيرة، وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لا يجمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في جوف عبد". أخرجه أحمد وصححه ابن حبان والحاكم.
ورجالات الأندلس كثيرون، وأنخبارهم غزيرة، ومعارك رمضان في الأندلس مشهورة. كان من أشهرها معركة الزلقاء التي قيل: إنها وقعت في جمعة من جمعات رمضان عام سبعة وسبعين وأربعمئة، وقيل: بل.

(2) خلاصة تاريخ الأندلس (28).

(3) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أحمد (2/427)، وابن المبارك.
في الجهاد (2/10)، والبيهقي في الأدب المفرد (281)، وسعيد بن منصور في سنة (1/13-14)، والترمذي في فضائل الجهاد باب ما جاء في فضل الغبار في سبيل الله، وقال: هذا حديث حسن صحيح (1323)، وابن ماجه في الجهاد باب الخروج في النغر (772)، ومحمد بن نصر في تعليم قدر الصلاة (459)، والبيهقي (9/161)، والبغوي في شرح السنة (2719).
والطبراني في الأوسط (1911)، وصححه ابن حبان (1257)، والحاكم وقال: على شرط مسلم، ووافقه الذهبي (27/72) وصححه الشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند (747).

وله شاهد من حديث أبي أمامة رضي الله عنه عند الطبراني في المعجم الكبير (8/134) برقم: (76116)، وفي مسند الشاميين (346).
وشاهد ثان من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه عند الطبراني في الأوسط (898)، وفي مسند الشاميين (356).
الشيد في خطب الجمعة والعيد

كانت في رجب من نفس العام(1)، بين المسلمين والنصارى، قاد المسلمين فيه يوسف بن تاشفين، والمعتمد بن عباد رحمة الله تعالى عليهما،

(4) اختلف في وقت وقوع معركة الزلاقة على النحو التالي:
أ - أول جمعة من رمضان عام 679 هـ كما في العبر للذهبي (175/4)، وشذرات الذهب (122/6)، والكامل لأبن الأثير (10/1/5).
ب - وذكر بعضهم أنها كانت سنة 680 هـ كما في سفر نامة (135/1/13).
ج - وأغرب ابن كثير فذكرها في حوادث سنة 591 هـ كما في البداية (13/12/9).

د - أنها في رجب عام 679 هـ وهو الصواب. قال ابن خلكان: والصحيح أن هذه الوقعة في منتصف رجب، ويؤرخ بها في الأندلس فيقال: عام الزلاقة، وهو ما نقله ابن خلكان عن البياسي أنها كانت في يوم الجمعة الخامس عشر من رجب سنة 679 هـ.

وقد حقق المؤرخ عبد الله عنان أنها كانت في يوم الجمعة الثاني عشر من رجب عام 679 هـ. كما ذكره ابن أبي زرع الفاسي في روض الفرات (96) وهو المثبت في الحلول المشوية في الأخبار المراكشيّة (40 - 41).

وذكر عنان أنه المثبت في خطاب يوسف بن تاشفين بعد النصر إلى عدوة المغرب؛ حيث ذكر فيه هذا التاريخ، ونماذج لما ذكره مؤرخو الإفريقي، وعلي الذين أخطأوا في التاريخ لم يطلعوا على خطاب ابن تاشفين السابق.
ذكره: دولة الإسلام في الأندلس (323/3).

وقد ذكر ابن كثير وابن خلكان وابن تغري في النجوم الزاهرة: أن الزلاقة وقعتان متتاليتان، وأن الأذافونش لم أنجز في الأولى من المركبين تكس صليبه، وحلق حليته ورأسه، وآثري أن لا ينام على فراش، ولا يقرب النساء، ولا يركب فرسًا حتى يأخذ بالثار، فاستنجد بملاك أوروب ورهبته وباباه، وجمع جيشًا كبيرًا فهزم ابن تاشفين مرة أخرى، فخرجت والدة الأذافونش وبناته ونساؤه بيد ابن تاشفين، فرق لهن، ومن عليهم وعلى الأذافونش. انظر: النجوم الزاهرة (61/139).
معركة الزلاقة

عليهما، وقاد النصارى (الأذونش) هكذا يسمى في كتب المؤرخين المسلمين، وفي كتب الإفرنج يسمى (الفونسو).

كان حال المسلمين في الأندلس قبل هذه المعركة ينبع عن الضعف والذلة، والترفق والاختلاف، فلم تكون لهم قيادة واحدة، وكل حاكم منهم كان يحكم إقليماً أو مدينة أو قرية، وانقسام كثير منهم في الملذات، وأهدار قوتهما في الفتنة بينهم؛ فكلٌ إقليم يحارب جاره، وكل حاكم منهم يضمر الشر لأخيه، وأزهقت أرواح كثير من المسلمين في الاقتتال من أجل الدنيا؛ حتى سموا بملوك الطوائف من شدة انقسامهم وتفريقهم، فطبع في تفرقهم النصارى، وتسقطوا عليهم.

كان أكبر ملوك الطوائف من المسلمين، وأكثرهم بلاداً; حاكم قرطبة: المعتمد بن عبان رحمه الله تعالى، وقد دفع الجزية لحاكم النصارى الأذونش، وكان هذا الحاكم النصراني طموحاً طامعاً في بلاد المسلمين، فلما استولى النصارى على طليطلة بدأ يتطلع إلى ما في يد المعتمد بن عبان، فأوجد المسوغات لذلك بعدم قبوله الجزية المفروضة على المسلمين، وطلب منهم التنازل له عن بعض ما في أيديهم من البلاد(5).

ثم أمعن في طغايته وغيبه، وطلب من المسلمين السماح لزوجته بأن تلد في جامع الزهراء، بناءً على رأي من القساوسة والأطباء؛ لأن فيه موضوع كنيسة كانت للنصارى قبل الفتح الإسلامي(6)، فرفض ابن

(5) انظر: وفيات الأعيان (5/28).
(6) انظر: نفح الطيب (4/257)، والاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى (1/37).
عبد طلبه لما فيه من إهانة للمسلمين.
كان رسول الأذفوش إلى ابن عبد يهودياً يشعل فتيل الفتنة، ويحرم
على الحرب، وهو الذي دفع الأذفوش إلى الحرب، وأقسام الأذفوش
بآلهته ليأخذن ما في أبي أبي عبد من البلاد.

لقد دفع تفرق حكام الأندلس، وتسلط النصارى على المسلمين
جماعة من العلماء والفقهاء لأن يجتازوا البحر إلى المغرب وفداً بعد
وفد، ويبطلوا من قادة المرابطين يوسف بن تاسفين العبور إلى الأندلس
لإنقاذها من الهلكة، والسقوط في أيدي النصارى، وكان يوسف مترددًا
في ذلك، فلما وقع الشر بين ابن عبد وبين حاكم النصارى الأذفوش،
رأى المعتمد أن يكتب ليوسف يطلب نجلته، فحذره ملوك الأندلس
من أن يوسف لو عبر إلى الأندلس ورآها فإنه سيقضي على ملوكها
ويضمها إلى ملكه، حتى قالوا له: الملك عقيم، والسفن لا يجتمعان
في غمد واحد. فقال قوله التي صارت مثلًا: «رجعي الجمال خير من
رجعي الخنازير».

يعني: أنه يفضل أن يكون راعياً للجمال عند يوسف بن تاسفين،
على أن يكون راعياً للخنازير عند الأذفوش.

وقال رحمه الله لمت الله لما عذلوه: «يا قوم، إني من أمري على

(1) نفح الطيب (1/39)، واللاستقصاء (1/37).
(2) وفيات الأعيان (1/28)، ونفح الطيب (4/36).
(3) الروض المعطار (158)، ونفح الطيب (2/359)، واللاستقصاء (1/39).
حائلاً: حالة يقين، وحالة شك، ولا بد لي من إد 問ها، أما حالة الشك: فإنه إن استندت إلى الأذفونش أو إلى ابن تاشفين، فمن الممكن أن يفي لي، ويمكن أن لا يفعل، وأما حالة اليقين: فإنه إن استندت إلى ابن تاشفين أرضي الله تعالى، وإن استندت إلى الأذفونش أسوخت الله تعالى، وهذه حالة يقين، فلماذا أدع ما يرضي الله إلى ما يسخطه؟
فكان رحمه الله تعالى موفقاً في اختياره، مسداً في قوله، وقد قضى نحبه، وذهب بملكته، وعقبه أجيال وأجيال، ولا زال التاريخ يحفظ مقالته تلك، ويحمده المسلمون عليها، ونسأل الله تعالى أن يجد عقب في الآخرة.
فلم ورد كتاب ابن عباد على ابن تاشفين عزم على العبور إلى الأندلس وكان الموت متحركاً، فقال ابن تاشفين ربه الخيرة وقال: "اللهم إن كنت تعلم أن في جوازنا هذا صلاحاً للمسلمين فسهل علينا هذا البحر حتى نعبره، وإن كان غير ذلك فصعبه حتى لا نعبره"، فسهل الله عليهم العبور في أسرع وقت.
فاستقبل ابن عباد وكبار ملوك الأندلس ابن تاشفين وجيشه، وتسماع المسلمين ببدأ الحرب، فوفدوا من كل فج عريق، وحرصهم الفقهاء والعلماء والخطباء على الخروج في سبيل الله تعالى، فاجتمعت جموع المسلمين قبالة جموع النصارى الذين حرضهم الفسُّس والرهبان

(9) الاستقصاء (39/1).
(10) روض الفراتس (93)، والاستقصاء (34/1).
المفید في خطب الجمعة والعيد

على الخروج للقتال المقدس، وكتب ابن تاشفين كتابًا إلى الأذونوش.
قال فيه: "بِلَغَنَا يَا أذُوْنُوشَ أَنْكُ دَعُوتُ إِلَى الْإِجْتِمَاعِ بِنَا، وَتَنَمِّيَتْ أَنْ تَكُوْنَ لِكُنَّكَ سَفْنٌ تُعْبَرُ فِيهَا الْبَحْرَ إِلَيْنَا، فَفَدَّ عَبْرَكَ إِلَيْكَ، وَقَدْ جَمَعَ اللَّهُ فِي هَذِهِ السَّاحَةِ بِنَانَا وَيِنَكَ، وَسِتْرَى عَاقِبَةً دِعَاءِكَ، وَمَا دُعَاءُ الكَاـفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ" (11).

فَأَسْتَشَاطَ الأذُوْنُوشُ غَضْبًا، وَكَتَبَ كِتَابًا غَليظًا يَفْيضُ بِالْوَعْيَدِ والتَّهِيْدِ، وَيَدْعُ إِلَى الْوَيْلِ وَالْبَيْتِ على الْمُسْلِمِينَ، فَأَجَابَهُ اِبْنُ تَاشَفِينَ في خَلْفِ كِتَابِهِ بِكَرَأَةٍ وَاحِدَةٍ: "الذِّي سَيُكَونَ سَتَرَاهُ" (12).

كَانَ الأذُوْنُوشُ مُعْجِبًا بِكَثْرَةِ النَّصَارَىِّ التِّي تَفْقِعُ الْمُسْلِمِينَ، وَرَأَى أنَّ جَيْشَ اِبْنِ تَاشَفِينَ لَا يَعْرِفُ أَرْضَ الْأَنْدَلُسِ، وَكِيْفَةُ الْقَتَالِ فِيهَا، فَغَزَّهَا ذَلِكَ، وَخَرَجَ بِطَرْأً يَرَّأَى بِجِيْشِهِ، تَعْجِبُهُ نَفْسَهُ، وَكَتَبَ إِلَى اِبْنِ عَبْدِ رِسَالَةً يُسْتَخْفِفُهُ بِفِي فَوْقِهَا وَيَقُولُ: "كَثِيرَ بَطُولٌ مَقَامِي فِي مَجَلِسِ الْذِّبَابِ، وَإِشْتَدََّ عَلَى الْحُرْرِ، فَأَخْفَنِي مِنْ قَصِرَ كَبِيرَةٍ أَرْوَاحُ يَا عَلَى نَفْسِي، وَأَطْرُدُ بِهَا الْذِّبَابِ عَنْ وَجْهِي"، فَكَتَبَ ابن عَبْدَ فِي خَلْفِ رِسَالَتِهِ: "قَرَأَت كِتَابُكَ، وَفَهَمْتُ خَيْلَكَ وَإِعْجَابَكَ، وَسَانَتَكَ فِي مُرْوَاحِ تَرْوُحُ مَنْكَ، لَا تَرْوُحُ عَلَيْكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ". أَي: سَيْرُ مَنَ الْجَلَّدِ اللَّمْطِيَّةِ لَأَنْهُمْ كَانَا يَنْقَعُونَ السَيْفَ فِي هَا الْحَلْبِ فَتَكُونُ قَوْيَةً.

(11) الاستقصاء (1/64/1)، وَانظِرْ: دُولَةُ الْإِسْلَامِ فِي الْأَنْدَلُسِ (3/223)، وَقَدْ عَزَّ السَّمَاعُ وَفَتَحَ الْمِثْلِ، وَالحَلَلِ الْمُوسِىَةِ (39).
(12) انظِرْ: المَصَـرَّفِ السَّبَاطة، وَسَيِّرُ أَعْلَامُ الْبَلَاءِ (19/22)، وَرَفِعَاتُ الأَعْيَـانِ (29/5).
ورأى الأذفونش في منامه كأنه راكب فيلًا، وبين يده طبل صغير وهو ينقر فيه، فقص رؤياه على القسوس والرهبان فلم يعرفوا تأويلها، فطلب رجلاً من المسلمين من مملكته كان معبأً فقصها عليه، فاستعفاه من تعبيها، فلم يعه، فعبرها بسورة الفيل \( ألم ترى كيف فعل ربك بأصحاب الفيل (الفيل: 1) \، ويقوله تعالى: \( فإذا نقر في النعور (فُذلِكْ يوْمَ يَوْمَ عَسِيرٍ (الكافرون غَيْرِ يِسِيرٍ (المذفر: 8-11) \)، وآخره أنه مهزم، وأن جيشه هالك لا محاولة، فاستهزأ الأذفونش به وتعبيره، ونظر إلى جيشه فأعجبته كثيرهم، وقال للمعبر: \( بهذا الجيش ألقى إله محمد صاحب كتابكم \(، \( وبهؤلاء أشارل الجبن والإنس وملائكة السماء \(، وقبل بدء المعركة قامت الأساقفة والرهبان، ورفعوا صلبانهم، ونشروا أنجيلهم، وتبادوا على الموت، وفي الجانب الآخر وعظ يوسف وابن عباس أصحابهما، وقام الفقهاء والصالحون في الناس مقام الوعظ، وحضوهم على الصبر والثبات، وحذروهم من الفضول والفرار، وكان من دهاء ابن تاسفين أنه أحضر معه إبلًا كثيرة جداً، ولم

(12) نفح الطيب (4/358-359).
(13) الكمال (8/446)، والاستقصاء (1/43).
(14) الكمال (8/447)، والاستقصاء (1/43).
(15) الاستقصاء (1/42).
(16) المصدر السابق (1/42).
تكن الإبل معروفة عند الأندلسين، ولما بدأت المعركة أخذ رغواها وضخامتها خيول الإفرنج، فجعلت منها، وكان ذلك من أسباب هزيمتهم (18). وانكشف المسلمون في أول الأمر لكنهم حملوا حملة قوية على النصارى؛ فتزحلزت الأرض بحوافر خيلهم، وأظلم الجو من اشتداد حمى القتال، وإثارة الغبار، وأدرك جندي من المسلمين الأذونش فطعته في فخذه طائرة منكرة، وانكشف العدو من كل جانب، وفشا فيهم القتال والأسر، وانسحب الأذونش في خمسة من فرسانه في جنح الظلام، وأقام المسلمون أربعة أيام بجمعون الغنائم العظيمة (19).

وقد ذكر أبو شامة المقدس رحمه الله تعالى أن قتلى النصارى يقاربون مئة وخمسمائة ألف قتيل، والأسرى ثلاثة آلافاً حتى بيع الأسير بدرهم واحد من كلهمهم، وغنموا من الخيل والبغال شيئاً عظيماً (20)، فعفّ ابن تاشفين وجيشه عن الغنائم، واقتسمها ملوك الأندلس فيما بينهم، وحمد المسلمون ربهم على هذا النصر العظيم، لقد كانت هذه المعركة من أكبر معارك الأندلس إذ لم تكن أكبرها، وهي تضاهي معركة بلاط الشهداء التي قادها الغافقي رحمه الله تعالى.

(18) المصدر السابق (1/41).
(19) المصدر السابق (1/49).
(20) نقل ابن العماد في شذرات الذهب (126/2) عن أبي شامة: أن الإفرنج قتل منهم مئة ألف وستة وأربعون ألفاً، وأسر ثلاثون ألفاً، وغنم المسلمون غنية لم يسمع بمثلها قط؛ حتى بيع السيف بنصف درهم، والخصم بخمسة دراهيم والحمار بدرهم. وانظر أيضاً: البداية (13/10).
وعقب هذه المعركة - معركة الزلاقة - كفّ النصارى شرَّهم عن المسلمين، ووحد الجهاد المسلمين بعد أن كانوا مختلفين؛ ولكنهم ما لبثوا أن اختلوا واقتتلوا، فتمكن منهم عدوهم، وتعاقب السنون، واشتدَّ افترقُ المسلمين في الأندلس، مع توحد النصارى ضدهم؛ فسقطت ممالك الأندلس الواحدة تلو الأخرى، حتى أجلى النصارى المسلمين منها، ونصبوا كثيراً منهم، نسأل الله العافية، وما بقي فيها إلا آثار عمران يدل على شأن عظيم كان للمسلمين في الأندلس السليبة، والله الأمر من قبل ومن بعد، والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: «إِنِّيَ مَسِّكْتُ فُرُوحٍ فَقَدْ مَسَّ الْقُوُّمُ فُرُوحَ مَثَلُهَا وَتَلَکَ الْآيَاتُ نَداوْلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَخَذَّنَّ مِنْ أَمْوَاهُ بأَيْضَ أَمْوَاتٍ عَلَى الْأَمْوَةِ وَعَلَى الْكُفَّارِ (141) لَوْلَا يُحَبِّبُ الظِّالِمُونَ وَلَيْسَ بِالْكَافِرِينَ (142) أَمْ حِسِبَ أَنْ نَتَدَخَّلُوا الْجَنَّةَ وَلَمْ يَعْلَمَ الَّذِينَ آمَنُوا وَجَاهَدُوا بَيْنُ الْأَمْوَاتِ وَأَثَّرُوا فِي الْأَرْضِ بِإِنْصَافٍ لِلطَّيِّبِينَ (143) [آَلَ عُمْرَانِ: 140 - 142].

بَارَكَ الله لِي وَلَمّا فِي الْقُرْآنِ العَظِيمِ.

الخطبة الثانية

الحمد لله حمدًا طيبًا كثيرًا مباركًا فيه كما يحب ربا ورضي، أمده وأشكره، وأنبأ إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.
أما بعد: فاتقوا الله - عباد الله - وأطيعوه، واحذروا نقمته فلا تعصوه
وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ العَقَابِ (البقرة: 196).

أيها المسلمون: ما أُحْرِجَ مُسْلِمٌ فِي خَضْمِ هِذهِ الأَحَدَاثِ العَظِيمَةِ،
والفناء الكبيرة إلا أن يتوقفوا على كتاب ربهم تبارك وتعالى، وسلم
نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم، حكاماً ومحمديين؛ فالاختلاف
والترقق شر لا يأتي إلا بالشر والهزيمة، والغرب النصراي المصهين
قد أعلنه حريباً حضارية، وبدأ إعلامه يهيئ لها بالهجوم على ديننا
وقرآتنا ومناهجنا، وما ارتدائه من أحكام الإسلام، نسأل الله تعالى
أن يكفي بلادنا وبلاد المسلمين شرهم.

لقد وحدنا رمضان في صومنا وإفطارنا، وفي دخول الشهر وخروجه
بالرؤية الشرعية، وكثير من العبادات بسبب من أسباب الوحدة وجمع
الشمل، واجتماع الكلمة، وتراض الصوف، ونبد الخلاف والفرق.
والانشغال بالخلافات الجزئية يشغف الأمة عن التحديات الكبرى التي
يمر بها المسلمون، ويستنزف طاقاتهم ومقدراتهم، والمستفيد من ذلك
أعداء الإسلام من كفار ومنافقين.

إن من قرأ تاريخ الأندلس بأخلاقه وفتراته ودويلاته بان له أن فترات
اجتماع كلمة المسلمين كانت تزخر بالنصر العظيم، وبهيئة النصارى من
المسلمين، وأن تفرقهم واختلافهم كان سبيلاً لضعفهم وتسلط النصارى
عليهم، وله أدرك النصارى ذلك سعوا بالوشبايات في أوساط المسلمين،
وشحنوا بعضهم على بعض، وفرقوا كلمتهم، وأضعفوا قوتهم؛ فاستمكنوا
معركة الزلاقة

منهم حتى أستطعوا مالكهم مملكة بعد أخرى، ثم قضوا على وجودهم
قضاء مبرماً بالقتل والتهجير والنصير، وإحراق كتبهم وتراثهم.
وإن المسلمين إذا لم يتبهوا خطورة الخلاف في مثل هذه الأوقات
العصبية فإن مصيرهم في كثير من الديار سيصير إلى الهلاك والاضمحلال;
كما حصل للأمة الأندلسية، نسأل الله العافية والسلامة.

أيها المسلمون: ونحن مقبولون على عشر رمضان الفاضلة، وكمن
فيها من دعوات مجابه، ورقاب معتقة، وعباد مرحمين، فاستقبلوها
أحسن استقبال؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا دخلت العشر
شد متزره، وأحبوا ليله، وأيقظ أهله، واجتهد في عبادة ربه (١)، وأدركوا
من الدعاء لإخوانكم المضطهدين في مشارق الأرض ومغاربها، وتحرموا
أوقات الإجابة؛ فإنكم إن تخليتم عنهم حتى بالدعاء، فيوشك أن
يصيبكم ما أصابهم، نسأل الله العافية.

لا وصلوا وسلموا على خير خلق الله كما أمركم بذلك ربككم. ٤٠٨

(٢١) كما في حديث عائشة رضي الله عنها عند البخاري في فضل ليلة القدر;
باب العمل في العشر الأواخر من رمضان (٢٤٨)، ومسلم في الاعتكاف،
باب الاجتهاد في العشر الأواخر من شهر رمضان (١١٧٤).
الجمعة 24/2/1422 هـ
الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن س rozwiąz أعمالنا، من يشهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبد رسول الله. {يا أيها الذين آمنوا أتبعوا الله حق ثقتكم ولا تموتون إلا وأنتم مسلمون} [آل عمران: 111] {يا أيها الناس اتبعوا ربك الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجاتها وله ما فيimmel رحالة كثيرا و النساء: 1} {يا أيها الذين آمنوا أتبعوا الله وقولوا قولا سديدا {يُصلح لكم أعمالكم ويعفّر لكم ذنوبكم}.
ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزًا عظيمًا {الإحزاب: 70-71}.
أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهادي هدى محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعه، وكل بدعه ضلال، وكل ضلاله في النار.
أيها المسلمون: من سنة الله تعالى في عباده: بيان الحق لهم، ودعوتهما إليه، وتخويفهم بالآيات والندى، وترغيبهم بالخير وانتفاح النعم عليهم إنهم أطاعوه، وترهيبهم بالعذاب والههلاك إذا هم عصوا. وإذا أراد الله تعالى عذاب أمة من الأمم سلّط فجأها على خيارها، فأفسدوا فيها، فحق عليها عذاب الله تعالى، فهلكهم الله تعالى، وبيدلهم بآخرين يقيمون شريعة، ويعبدونه حق عبادته {وإذا شننا بنا أمتكم تبدلوا}.
اجتياح المغول لبغداد

[[الإنسان: 28], و[إن تَسُوَّلَوْا یَسْتَبَدِلُ قُوَّتُمَا ۚ غَيْرُ كُلِّ مَاتٍ لَا يَكُونُوا أَمْتَالُكُمْ]
[[محمد: 33]].

وعذاب الله تعالى قد يكون آية كونية: ريحًا أو صحيحة أو غرفة، ونحوه ما جرى ذكره في القرآن. وقد يكون العذاب تسيليط أمة ظلمة غاشمة تستبيح الحرمات، وتتفك بالناس.

وكل ذلك لا يكون إلا إذا استحق العباد الهلاك، وحقت عليهم كلمة العذاب. وقد وقع الثاني لبعض المسلمين في بعض المدن والأمصار، وأشهر ما وقع من هذا النوع: تسيليط المغول على الخلافة العباسية، والقضاء عليها، وقتل الخليفة، وذلك في صفر من عام ستة وخمسين وستمئة للهجرة، وظل المسلمون بلا خليفة ثلاث سنوات.

لقد طغى المغول على كثير من بلاد المسلمين تحت راية جنكيز خان، ثم هولاكو من بعده؛ أعظم مخرب في الأرض، خرب أقطاراً وأمصاراً، وما عرف له من غرور في ذلك إلا حب التخريب؛ ولذلك قال المؤرخون: «ما دى الإسلام بملكه، وامتت ملكته من بحر الصين إلى البحر الأسود».

وكان بدءًا هذا الأمر العظيم أن فتنة أشتعلت في بغداد بين الراضة والمسلمين، وقتل عدد كبير من الفريقين، فغضب لذلك الوزير الراضي.

(1) قال الذهبي: «وانقطعت الإمامة العباسية ثلاث سنين وأشهرًا بموت المستعصم» سير أعلام النبلاء (23/2/184).
(2) انظر: الإسلام والحضارة العربية لمحمد كرديلي (300/1).
ابن العلقمي (3)، فكانت القائد المغولي هولاكو، وطمعه في العراق، وحده على غزوه، فسار إليها هولاكو في مهته ألف مقاتل (1)، فلما وصل إلى بغداد خرج إليه ابن العلامة للتفاوض، وكان ورياؤًا للخليفة العباسي، لكنه خذعه ودبر لقتله، وكان هولاكو راضيًا بالمصلحة على نصف خراج بغداد ويتركها لهم، فقال ابن العلقمي لهولاكو: "متى وقع الصلح على المناصفة لا يستمر هذا إلا عامًا أو عامين ثم يعود الأمر إلى ما كان عليه قبل ذلك. وقال: بل المصلحة قتله وإلا فما يتم لكم ملك العراق" (5).

وكان هولاكو متهيأًا من قتل الخليفة المسلمين؛ لكن الراقبة المنافقة، وعلى رأسهم ابن العلقمي والولوأ نصير الدين الطوسى حسنوا له قتل الخليفة، وأبانوا له ضعف الجيش والدولة، ثم رجعوا إلى الخليفة العباسي المستعصم بالله فخدعوه، وأشاروا عليه بالخروج إلى هولاكو، وذكروا له أن هولاكو سيتوج ابنه من ابن الخليفة، وسيترك لهم خلافتهم، فخرج إليها الخليفة في سبعين راكب من القضافة والفقهاء ورؤوس الأمراء والدولة، فلما اقتربوا من هولاكو حجبوا عن الخليفة إلا سبعة عشر نسمًا، وأنزل الباقون عن مراكبهم وقتلوا عن آخرهم (6).

(3) انظر: البداية والنهاية (168/7)، وسير أعلام النبلاء (270/180)، ومراة الجنة للباحثي (4/510)، وشذرات الذهب (270/20).
(4) السير (182/23).
(5) البداية والنهاية (168/7)، والسير (23/183).
(6) السير (182/23)، والبداية والنهاية (168/7).
أجتياح المغول لبغداد

وأحضر الخليفة بين يدي هولاكو، واضطرب من هول ما رأى من الإهانة والجبور، فوضعوه في كيس ثم أخذوا يرفسونه حتى مات(7)، وقتلوا معه ابنه الأكبر والأوسط، وأسروا ولده الأصغر وأحفاده الثلاث، وأسروا من دار الخلافة ما يقارب ألفًا من الأبقار(8)، وقتلوا أكابر الدولة؛ حتى إن الرجل يستدعى من دار الخلافة، فيخرج بأولاده ونسائه، فيذهبون به إلى المقبرة، فيدفع أمام أسرته كما تذبح الشاة، ويأسرون من يختارون من بناته وجواريه(9). وأعملوا السيف في الرقاب مدة أربعين يوماً لا يلقون أحدًا إلا قتلوا صغيراً كان أم كبيرًا، رجلاً كان أم أمرأة، قادراً كان أم عاجزاً، لا يفرقون بين أحد.

فقتلوا العلماء والخطباء والأئمة وحملة القرآن، وتعطلا المساجد والجماعات مدة شهر ببغداد، ومن بقي من الناس اختبروا خلال الأربعين يومًا في الآبار وأماكن الخشوش، وقفن الأواسخ; حتى لا يعثروا عليهم.

(7) قيل: إنهم وضعوه في جوالي لاتل يقع على الأرض شيء من دمه، خافوا أن يؤخذ بتآره فيما قبل لهم، وقيل: بل خنقوه حتى الموت، وقيل: بل أغرقوه.

(8) كان عمر الخليفة المستعصم لما قتل ستة وأربعين سنة وأربعة أشهر، وعمر ولده الأكبر أحمد خمساً وعشرين سنة، وعمر ولده الأوسط عبد الرحمن ثلاث عشرة سنة. وانظر: البداية والنهاية (7/169)، وكان ذكر الذهبي أن للخليفة ذرية في وقته - أي وقت الذهبي في القرن الثامن الهجري - بآذربيجان، ذلك أنهم أخذوا ابنه الأصغر، انظر: السير (23/184).

(9) البداية والنهاية (7/170).
وكان الجماعة من الناس يجتمعون إلى الخانات، ويلقون عليهم الأبواب، فيفتحها التتار إما بالكسر وإما بالنار، ثم يدخلون عليهم، فيهربون منها إلى أعلاى الأمكنة، فيقتلونهم بالأسطحات حتى تجري الميازيب من الدماء في الأزمة.  

وما نجا من سيفهم في بغداد إلا اليهود والنصارى، ومن التجأ إلى الحاكم ابن العليقي الراضي من أهل بدعته، وتراوحت أعداد القتلى بين مليون ومليوني إنسان على اختلاف روايات المؤرخين.  

حتى إن خطيباً في بغداد استهل خطبة خطبها بقوله: "الحمد لله الذي هدم بالموت مشيد الأعمار، وحكم بالفناء على أهل هذه الديار".  

ولما انقضت الأربعون يوماً بقيت بغداد خاوية على عروشها، ليس بها أحد إلا الشاذ من الناس، والقتلى في الطرقات كأنها التلال، وقد

المصدر السابق (7/169).  

قال الذهببي: "قتل بها ثمانمائة ألف نفس، وأكثر ما قيل: بلغوا ألف ألف، وثمانمائة ألف وجرت السريان من الدماء".  

السيئر (4/241)، وقال ابن كثير بعد أن ذكره الذهببي: وقيل: "بلغت القتلى ألف ألف".  

اذهب البديعة والنهائية (7/169، وانظر: مراة الجنان (4/410).  

شذرات الذهب (5/271)، وفيه قول سبت التعاوني: بقاء مولانا الوزير خراب  

وقد بعضهم:  

يا عصبة الإسلام نوهي واندبى  
دست الوزارة كان قبل زمناه  
وذكر أبياناً غير هذه.  

حزناً على ما تم للمستعصم  
لابن الفرات فصار لابن العليقي  
وذكر أبياناً غير هذه.
سقط عليهم المطر فتغيرت صورهم، وانتبت البلاد من جيفهم، وتغير الهواء فحصل بسبب الوباء الشديد، وتعدى وسرى إلى بلاد الشام.

وأما نودي في بغداد بالأمن خرج من كانوا تحت الأرض في المقابر والقنين والحشوش كأنهم الموتى إذا نشبوا من قبورهم، وقد أنكر بعضهم بعضاً؛ فلا يعرف الوالد ولده، ولا الأخ أخاه، وأخذهم الوباء فتفتتوا ولحقوا من سبقهم من القتلى. وعمم الطاعون بلاد الشام، فاجتمع على الناس الغلاء والوباء والطعن الطاعون (13).

وكان ابن العلقمي بعد خيائه للخلافة، وتعاونه مع هولاكو، طاماً في أن يولي هولاكو الحكم في بغداد مكافأة له، وكان في عزمه أن يجعلها مأوى لأهل البدعة من الرافضين والباطنين؛ ولكن الله تعالى خيب ظه، فلم يحصل على ما أراد؛ إذ إن المغول أهانوه وأذلوه، فذاق خزي الدنيا قبل خزي الآخرب (14).

وقد رأته امرأة وهو في الذل والهوان، وهو راكب بردونا وهو مرسوم عليه، وسائق يسوق به ويضرب الفرس. فوقفت إلى جانبه وقالت له: «يا ابن العلقمي، هكذا كان بني العباس يعاملونك؟!» (15) فوقعنت كلمتها في قلبه، وانقطع في داره إلى أن مات كمداً وضيقاً،

(13) البداية والنهایة (7/170).
(14) أنظر: مرآة الجنان (4/362) والمسير (23/161)، وشذرات الذهب (22/169)، والبداية والنهاية (7/169).
(15) البداية والنهاية (7/172 - 177).
وثلث بعد ثلاث أشهر فقط من خيانته الشنيعة، وما مات حتى رأى بعينيه، وسمع بأذنيه ما لا يوصف من الإهانة والذل من المغول ومن المسلمين على حد سواء(16).

فتلك عاقبة الخيانة، والله لا يهدي كيد الخائن.

أسال الله تعالى أن يحفظنا والمسلمين من الفواجع والفسان، وأن يتوفرنا على الإسلام والسنة إنه سمع مجيب، وأقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه.

الخطبة الثانية

الحمد لله حمدًا طيبةً كثيرًا مباركةً فيه كما يحب ربنا ويرضى أهمله وأشكره، وأتوب إليه واستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبدًا ورسولًا، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله - عبد الله - ومسكوا في منكم، واهتدوا بسنة نبيكم محمد صلى الله عليه وسلم، ومرروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر، حتى لا يصبحكم ما أصاب من كانوا قبلكم في أنظروا ماذا في السموات والأرض وما تغني الآيات والندى عن قوم لا يؤمنون (15) فهل ينظرون إلا مثل أيام الذين خلوهم من قبلهم قل فانتظروا إلى معكم من المنظرين (16) ثم ننجي رسلنا وألذًا آمنوا كذلك حقًا علينا ننج المؤمنين [يونس: 1 - 103] (16).

(16) البداية والنهاية (٧/١٦٨).
الأخوة المؤمنون: كان للاسلطة المغولية على المسلمين أسباب عدة منها: ضعف الديانة، وانتشار البدعة، وفشو المنكرات، والانغماس في الترف.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «لما كان أمر المشرق قائمين بالإسلام كانوا منصورين على الكفار والمشركين من الترك والهند والصين وغيرهم، فما ظهر منهم ما ظهر من البدع والإفراط والفساد فسُلط عليهم الكفار. وكان من أسباب دخول هؤلاء ديار المسلمين: ظهور الإفراط والتفاق والبدع»

ومعلوم أنه في خلافة بني العباس ترجمت كتب اليونان، وانتشرت علوم الفلسفة، وأظهر الزنادقة زندقتهم، ودعى المبتدعة إلى بدعتهم، فكان من آثار ذلك: تسليط المغول عليهم، فأنهوا دولتهم، وكان من أعظم أسباب هذه النازلة العظيمة: تقريب المبتدعة، واتخاذهم بطالبة، وتوزير ابن العلقمي الرافضي الذي لم يكن ناصحاً للخليفة، بل حسن إليه جمع الأموال، والانغماس في الترف، وعدم الاهتمام بالجيش. وقد ذكر المؤرخون أن ابن العلقمي قتل عدد الجيشه من مئة ألف مقاتل إلى عشر آلاف فقط، وقطع عليهم رواتبهم؛ حتى إن كثيراً من العسكريين افتقروا وصاروا يسألون الناس في الأسواق والمساجد.

(17) مجمع الفتاوى (179/176-180).
(18) انظر: البداية والنهاية (179/176).
بغداد، فكان ما كان.
والانغماس في الترف من أسباب تسليط العدو، وزوال النعم،
وحلول النقم كما قال الله تعالى: "وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفًّيها
فسقَّوا فيها فحقق على القول قدمرناها تدميراً" (الإسراء: 16).

وقد ذكر المؤرخون أن جنود الغزول كانت تحاصر قصر الخلافة في
بغداد، والخليفة مشغول باللعب مع الجواري، فدخل سهم من إحدى
النوافذ فأصاب جارية فقتلها، فانزعج الخليفة من ذلك، وفرع فزعًا
شديداً، وأمر بزيادة الاحتراز (19)، لكن ذلك لم يففع؛ لأن من لم
يحرص بدين الله تعالى فليس له حصر، ومن لم يتحصن بإقامة شعائر
الإسلام فإن حصوله لا تحقيقه مهما كانت قوته ومنعتها، ومن لم يتوه
من الذنوب والمنكرات فليس له من الله واق.

ومن نظر إلى أحوال المسلمين في هذا العصر، وتسليط اليهود والنصراء
والوثنيين والمنافقين عليهم تبين له أن الحال يشبه الحال، وواقع اليوم
 قريب من واقع الأمس. فعادة القبور متشرة في كثير من بلاد المسلمين،
وأصحاب البدعة يدعون إلى بدعتهم، والزنادق قد جاهروا بمزدقتهم،
واستهزؤوا بالله وآياته ورسوله وباليوم الآخر، وبكل مقدسات المسلمين.
والواجد من جمهور الأمة منغمس إلى أذنيه في أنواع الترف المباح وغير
المباح إلا من عصم الله تعالى وقيل ما هم.

(19) البداية والنهاية (168).
فما أصاب المسلمين من ذل وقهر وظلم على أيدي اليهود وأعوانهم
ما حدث إلا بما كسبت أيدي المسلمين، ولن يرفع ذلك عنهم إلا بالآولة
إلى الله تعالى، والعودة إلى الكتاب والسنة قوله وعملنا، وإلا كانت
الكارثة والعذاب المهين في الدنيا قبل الآخرة نسأل الله العافية والسلامة.
آلا وصلوا وسلموا على نبينا محمد فقد أمركم ربكم بذلك...
الجمعة 4/1419 هـ
إن الحمد لله، نحمسه ونستعينه ونستغفره، وننذى بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أفعالنا. من يشهد الله فلا مضل له، ومن يضل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى أصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.
أما بعد: فاتقوا الله لعلكم تفلحون، فإن يرد عبد لازم التقوى.
وتعظم أهمية التذكير بالتقرب في زمن قبل في المتوق، وقل في طلاب الآخرة، وكثير في طلاب الدنيا. إنها أمناً اللهم أن تؤذي أمناً التقرب وتنتظر نسماً قديم للغاية، إن الله خبير بما تعملون (اصباغ شريع).
أيها المؤمنون: رمضان شهر يقوى فيه الإيمان، ويضعف فيه اعتماد العباد على حوله وقوته، ويقوى اتصال المؤمن بربه. لذا هو من أكثر الشهور موقعاً لمعارك المسلمين وانتصاراتهم، وحسب أن أول رمضان فرض كانت فيه أول مفاصلة بين الحق والباطل في بدر الكبرى، ثم كان الفتح الأكبر في رمضان، ومعارك للمسلمين كثيرة دارت رحاها في رمضان.
وما أوقف المسلمون حرف المغول المهول، ولا كسرهم إلا في رمضان، ففي مطلع القرن السادس الهجري خرج من أطراف الصين شعب مِّنْبِدز يعرّف على العدو، ويستعاصر على الحصر، وهب على البشرة.
هبوط الأعاصير، فاجتاح المدن(1).

ذلك هو شعب النتار الذي اسمه بالدمار، أنزل بلاد المسلمين من الدمار لم ينزل بملب سواها، وأحس بها من الهول ما اقشعرت له جلود المؤرخين، وارتتجفت لكتابته أقولهم، حتى وصف مؤرخ من الفرنجة ذلك الجيش العاتي وما عمله بلاد المسلمين فقال: «لم يعرف تاريخ الإسلام على كثرة ما نزل به من الخروج، هولاً أشدً من غزوات النتار، فقد انصفت جيشه جنكيز خان في بلاد المسلمين أنساب الثلوج من قُنَين الجبال، واكتشفت في طريقها الحوافز الإسلامية، وأنت على ما كان فيها من مدنية وثقافة، ولم يتركوا وراءهم من تلك البلاد سوى خراب وآثار»(2).

وفي مدينة بخارى حول أهل العلم والروح والسلاح مزرقة النتار المصاحب وفرشوها تحت جيادهم في الاصطبلات لتكون لها وطاء، وذلك بعدما قتلوا الرجال، وسوا النساء، وجعلوا المدينة العريقة أثراً.

وواصلوا زحفهم يجتاحون المدن الإسلامية مدينة بعد مدينة حتى بلغوا بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية آنذاك، قال ابن كثير رحمه الله تعالى: «وقد سرت بغداد، ونصبت فيها المجانيق والعراادات وغيرها من الآلات المماثلة التي لا ترد من قدر الله سبحانه وتعالى شيئاً كما (1)

حدث في رمضان للدكتور عبد الرحمن رآفت البشارة (136).

(2) المصدر السابق (138).}
ورد في الآثر "لن يغني حذرك عن قدر" وكما قال تعالى "إِنَّ أَجْلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ" [نوح: 4] وقال تعالى "لَمْ يَعْبُدُوا مِنْ بَعْضِ يَدَّيهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ منْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغْيِرُ مَا بَقَىٰ حَتَّى يَغْتَبِرُوا مَا أَنْفَسُوهُمْ وَإِذَا أُزِيدُوا اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرْدَهُ لَهُ وَمَا لَهُ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ [الرعد] (3) .

كانت جيوش بغداد في غاية القلق، ونهاية الذلة، تتدبير من الوزير الرافضي ابن العلقمي الذي صنع هولاكو ضد المسلمين وخدع الخليفة العباسي بالخروج إلى النتار طمعًا في أن يقتل ويستبدل به خليفة من الباطنية (1). وكان المسلمون على حال من العصيان، وضعف في الإيمان،

(1) البدياية والنهاية لابن كثير (168/136). والآثر الذي ذكره ابن كثير "لن يغني حذرك عن قدر" جاء من حديث معاذ رضي الله عنه عند أبي يعلى الموصلي وأحمد وإسحاق بن راهويه كما في مختصر إنجاح السادة المهمة للبوصيري (1365) لإسحاق أيضاً.

وعزاء الحافظ ابن حجر في المطالب العالية (146/108) لأحمد والطبراني، وقال: وشهر ابن حوشب لم يسمع من معاذ، ورواية إسحاق بن عباس عن أهل الحجار ضعيفة. وجاء من حديث عائشة رضي الله عنها كما عند الحاكمة وصححة، وتعقبه الذهبي فقال: زكريا مجمع على ضعيفه (146/492) وزكريا هو ابن منصور، وعزاء الهشمي في الزوائد (146/10) للطبراني في الأوسط والبزار بنحوه، وقال: وفيه زكريا بن منصور، وثقة أحمد بن صالح المصري، وضعفه الجمهور وبقية رجاله ثقات. وجاء أيضاً من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عزاء الهشمي للمزار (146/11) وقال: وفيه إبراهيم بن خيشم بن عراك وهو متروك.

(2) البدياية والنهاية (177/167) وتاريخ الخلفاء للسيوطي (376-382) وتأريخ الإسلام لمحمد شاكر (6/354-355).
فسلَّط عليهم هذا العدو الغاشم.
كان دخلهم في أواخر محرم، وظل السيف يقتل أهله أربعين يوماً، وقتل الخليفة وأولاده، وبسوا بناته الثلاث، وبسوا من دار الخلافة ما يقارب ألف بكر، وكان الرجل من بني العباس يُستدعى من دار الخلافة فيخرج بأولاده ونسائه في البحونه أمام ذويه كما تذبح الشاة، ويأسرون من يختارون من بناته وجواريه. وأعمالا السيوف في الرقاب، وقتلوا الأئمة والعلماء، وحملة القرآن والخطباء، وتعلنت المساجد والجماعات والجماعات. كانوا يتبعون الناس ويذبحونهم في الطرقات، وفي أعمالي البنات حتى تسيل الميازيب بدماهم، وما انقضت الأربعين يوماً إلا وعاصمة الخلافة خاوية على عرُوشها ليس بها أحد، والقَتْلى يملؤون الطرقات.
ولما انتجلت الكربة، ونودي بالأمان، خرج من تحت الأرض من كان بالطامير والقنين والمقابر. خرجوا كأنهم الموتى إذا نشروا من قبورهم، وقد أنكر بعضهم بعضًا، فلا يعرف الوالد ولده، ولا الأخ أخاه، وأنزل الله مطرًا أثبت على أثر الجثث فتغبرت الأحشاء، وفسد الهواء، وعم الوباء؛ فهلك البقية الباقية من الناس، وانشال الوباء حتى وصل الشام فهلك خلق كثير. قال ابن كثير رحمه الله تعالى:
"فاجمع على الناس الغلاء والوباء والفتنة والطعن والطاعون"(7).

(5) البداية والنهاءة (129/139-170).
ولقد اختلف المؤرخون في عدد القتلى آنذاك وترددت أقوالهم بين ألف ألف وبين ألف ألف نفسه.\\n\\nقتل خليفة المسلمين، وخربت عاصمة الخلافة، ثم سارت جحافل التتار نحو الشام تساقط المدن تحت أقدامهم كما تساقط أوراق الشجر، وكان الرعب منهم يمسي بين أيديهم فرتهب السكان، ويفتح البلدان، فما تصدى لهم، ولا أوقف زحفهم، ولا كسر جروتهم إلا ملك كان في أول أمره عبد الملك، والله الحكمة البالغة في ذلك، يجعل ذل الجوابرة على أيدي أضعف عباده، ذلك الحاكم هو سيف الدين قطب.

وفاة ظهوره تلتخص في أن التتار شنوا على بلاده خوارزم حرماً طاحنة امتلكوا ديارهم، ورمَّلوا نساءهم، وسبوا أطفالهم، وكان من ضمن السبي محمود قطر، فتناقلته أيدي النخاسين حتى اشتره رجل من أعيان دمشق شهر بالصلاح والتقؤ، فنشأ في كفه نشأة صالحة، ورباه على حب الجهاد. والتحق هذا الفتى المملوكي بعد أن نال حريته بخدمة حكام مصر، وطفق يبني من ضروب الشجاعة، ويظهر من صنوف الحكمة والحنكة ما مهد سبيل أمامه ليغدو قائداً كبيراً، ثم نابياً.

المصدر السابق (129/1169).

57 تأثير ترجمة الملك المظفر سيف الدين قطر الذي قهر الله على يديه التتار في ذيل الروضتين (210) والعبر للذهبي (5/247) وطبقات الشافعية للسقبكي (8/277)، وفوات الوظائف للكنبلي (2/201) والبداية والنهاية (13/225، 226) وسير أعلام النبلاء (2/200).
للسلطان، ثم ملكًا لمصر حيث لقب بالملك المظفر سيف الدين قزر.
وكان النتار عازمين على غزوه بعد أن خربوا بغداد فأرسلوا خمسة
رسول بكتاب كان فيه: «إن لكم بسائر البلاد معتبراً، وعن عزمنا مزدجوًا،
فانظروا بغيركم، وأرسلوا إلينا أمركم، وقد سمعتم أنا فتحنا البلاد،
فعليك بالهرب وعلينا بالطلب، فخولنا سوابق، وخاننا خوارق،
وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال، وعدنا كاردام».
فلما قرأ محمود قطر الرسالة شارع أعوانه في ملاقاة النتار فعزم
على ذلك، ودعا الناس إلى الجهاد فرأى هلع الناس من النتار، فهب
يعالج الأمر بإيقاد جذوة الإيمان في القلوب، والعودة بالناس إلى الله
 تعالى، واستعين بالعلماء والخطباء على ذلك، فكان من آثاره أن غدت
المنابر والبيوت والأسواق تعم بآيات القتال، وحفظ كثير من الناس
سورة التوبة والأنفال، وآب الناس إلى الله تعالى، وامتلاك المساجد
بالركن السجود ولفظ الفسقة عن معاصيههم، ولم يبق للناس حديث
إلا ملاقاة النتار.
فيهناهم كذلك إذ بلغهم نباً تحرك النتار إليهم ليستبيحوا بلادهم
كما استباحوا بغداد؛ فخرجو للجهاد يتقدمهم قزر وقادته والعلماء،
وفي صيحة الجمعة لخميس بقين من رمضان سنة ثمانية وخمسين
وستمثة الثقة الجمعان في عين جالوت، فكانت الكرة الأولى للنتار،
حدث في رمضان للباشا (145-148) وانظر عدداً من رسائل المغول التي
تدل على طغايهم وجبروتهم في تاريخ الخلفاء للسيوطي (738-739).
ولما رأى الملك المظفر شدة بأس عدوه، ووفرة عدده؛ خلع خوذته عن رأسه، وألقى بها على الأرض، ورد بصوته الأجش: وإسلاماه… وإسلاماه.

فألهب قلوب جنده بنار الإيمان، وأضرم أقدامهم بالحماية للإسلام؛ فانقضوا على عدوىهم انقضاض الشهب، وأوغوا في جموعة المحتشدة، فألقى الله الوهن في نفس التتار، وقذف في قلوبهم الرعب. وما هي إلا ساعات حتى نزل نصر الله تعالى فبدأ العدو يتأخر، ثم يتقهقر، ثم ولى الدبر، فركب المسلمون ظهورهم، وأعملوا السيوف في رقابهم، ومزقوهم شر ممزق.

لقد كان يوم عين جالوت أول يوم يُغلب فيه الغالبون، ويقهر فيه القاهرون، ثم لم تقم لهم قائمة بعد ذلك، وكان المسلمون الذي تناقلته أيدي النخاسين هو أول رجل قاد المسلمين لهزيمة التتار، وأذل الله على يدته ملكهم هولاكو الجبار حين عجز عن ذلك القادة والأمراء والسلاطين. فانه أكبر نصر من يشاء، ويسلط أضعف خلقه على أقوامه فله الحكمة البالغة.

أعز الله من السيات الرجيم فقل اللهُ ملك الملك تؤتي الملك من تشاء وتترع الملك ممَّن تشاء وتترع من تشاء بيدك الخير، إنك على كل شيء قدير. (31) تولِّج الليل في النهار وتولِّج النهار في الليل.

(9) سير أعلام النبلاء (263) (1201) وحدث في رمضان (152).
الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربي ويرضى، أصحابه وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبداً ورسولاً صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فإن المتأمل لتاريخ المسلمين وحروبهم مع أعدائهم يجد أنهم متى ما استمسكوا بهم كانوا لهم العز والنصر، متى ما تخلوا عنه تسلط عليهم عدوهم. ومعارك التتار مع المسلمين من خير الشاهدين على ذلك؛ فإنهم خربوا البلاد، وروعوا العباد، وأصاب الناس منهم ذلٌ عظيم حتى سقطت عاصمة الخلافة تحت أقدامهم. وما حدث ذلك إلا في وقت عمّ في الفساد، وضعف أهل الخبر والصلاح، وانشقت البذعة، وكثير الانحراف في أفراد الأمة، فلم يستطيعوا للتتار دفعاً.

ولما أصلحوا أحواضهم، وعادوا إلى ربهم، واستمسكوا بهم، هيا الله لهم من كان ممولاً فكسروا التتار على يديه، ومزقوهم شرًّا ممزق، وهكذا كان المسلمون عبر تاريخهم طويل يتقلبون بين النصر والهزيمة، تقلبهم في عودتهم إلى دينهم أو تخليهم عنه.

إن كثيرًا من المثقفين والمفكرين والمحققين والسياسيين في هذا
العصر يعزون ضعف المسلمين إلى أسباب سياسية، أو اقتصادية، أو استعمارية، أو تآمرية. وقد يكون ذلك حقاً وواقياً، ولكن السبب المهم الذي كانت على إثره تلك الأسباب: البعيد عن الله تعالى، والاستهانة بأمره، وارتكاب نهيه. فلم يكن ميزان المفاصلة بينهم وبين عدوهم إلا القوى العددية والمادية، لكنهم لو كانوا مع الله تعالى لهيا الله لهم النصر (وما يعلم جنود زنك إلا هُوَ) [المتم: 31]. فاتقوا الله ربك، وعظموا أمره، وأحذروا غضبه، وأصلحوا أنفسكم، ومن ولاكم الله من أهلكم وذويكم حتى يكتب لكم النصر والعز في الدنيا، والفوز والفلاح في الآخرة.
وصلوا وسلموا على نييكم كما أمركم بذلك ربك.

* * *
الحمد لله، مالك الملك، يوتي الملك من يشاء، وينزع الملك من يشاء، ويعر من يشاء، ويدل من يشاء، أحدهم وأشكره، وأتوب إليه واستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، لا يقع شيء إلا بإرادته، ولا يقضي قضاء إلا بأمره، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، اصطفاه الله تعالى فجعله خاتم الرسل، واختار أمه لتكون خير الأمم، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه، بذلوا نفوسهم رحيمة في سبيل الله تعالى، فما وهمت لهم عزيمة، ولا وقوت في وجههم قوة، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فأوصيكم - أيها الناس - ونفسي بتعوي الله عز وجل، فلا خير للامة من هوموها، ولا سلعة لها من أحزانها، ولا نجاة لها من عذابها، ومن تسلط أعدائها عليها إلا توقي الله تعالى، والتزام دينه، وامتثال شريعته، يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويتمنى أفادتمكم [محمد: 7].

أيها المسلمون: لن كذبت أمة الإسلام في هذا الزمن تعاني تكالب أعدائها عليها، وبعد كثير من المسلمين عن دينهم وكتاب ربهم حتى
استباح العدو حماثا، وسلط سلاته عليها، وغلب يده بالجهاد الغادرة، والمواثق الجائزة، فقعد كثير من المسلمين عن نصرة إخوانتهم في فلسطين والشيشان ومقدونيا وكشمير والفلبين وغيرها من البيئات التي يسبح فيها المسلمون في وضح النهار. إذا كان ذلك كله واقعاً أليماً مهيناً فإن للمسلمين تاريخاً يحرزهم، ويطرد الدأس، ويهيج العزائم، ويدعو المسلمين إلى التزام دينهم إن أرادوا النصر والعزة. تاريخ مليء بالشرف والمجد والكرامة، لا يستحق قارئ مسلم أن يجهز به، ولا باحث فيه أن يبرز أحداثه.

تاريخ يحكي عن رجال أبطال كرام؛ لما أهينوا أو أهين دينهم غضبوا فقاتلوا، فلما انتصروا عفوا وتسامحوا، ويخبر عن حصول دكتر ومدن فتحت على أيدي المسلمين، قد عزت طوال تاريخها على كبار الفائعين.

هذه القسطنطينية، عاصمة الدولة البيزنطية، التي امتعت ببحارها وخانداقها، وتحصنت بحصونها وأسوارها، بشر النبي صلى الله عليه وسلم بفتحها قبل أن يبارح العرب جزيرة العرب"، سيّر لها بنو أمية

1 - حدث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "سمعتم بمدينة جانب منها في البصرة وجانب منها في البحر؟ قالوا: نعم يا رسول الله، قال: لا تقوم الساعة حتى يغروها سبعون ألفاً من بني إسحاق فإذا جاءوها نزلوا، فلم يقاتلان بمثابة، ولم يرموا بشمهم، قالوا: لا إله إلا الله والله أكبر، فيسقط أحد جانبيهما، (قال ثور: لا أعلم إلا قال الذي في البحر) ثم يقولون"
فتح القسطنطينية

الثانية: لا إله إلا الله والله أكبر فيسقط جانباً الآخر، ثم يقولها الثالثة: لا إله إلا الله والله أكبر فيفرج لهم فيدخلوها فينفموا، فيما هم يقتسمون المعان، إذ جاءهم الصريح فقال: إن الدجال قد خرج، فتركون كل شيء ويرجعون» أخرجه مسلم في الفتح وأشراط الساعة باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل. بقدر الرجل وفتمه أن يكون مكان الميت من البلاء (٢٥١٩).

٢ - حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: «بينما نحن حول رسول الله صلى الله عليه وسلم، نكتب إذ سل رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي المدينة تفتح أولاً: قسطنطينية أو رومية؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مدينة هرق للتح فتح أولاً. يعني: قسطنطينية» أخرجه أحمد (١٦٦/٣)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٣٢٩/٥)، وأبو عمرو الداني في الفتح (٧/٦)، ونعييم ابن حماد في الفتح (١٧٦٧)، والدارمي في سنته (١٢٨/١)، والحاكم (٤/٢٤٤ - ٥٥٥)، وصحبه ووافقه الذهبي، وقال الهيئة في الزوائد (٢١٨/٧): رواه أحمد ورجال صحيح غير أبي قيبيل وهو ثقة» وصحبه الشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند (٢٢٥/٥) وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة (٧) ونقل صحيح الحاكم والذهبي ثم قال: «وهو كما قال».

٣ - حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «عمرو بيت المقدس خراب يرب، وخرب يرب خروج اللحمه، وخروج الملحمة فتح القسطنطينية، وفتح القسطنطينية خروج الدجال» أخرجه أحمد (٢٤٥/٥)، وأبو داوود في الملاحمة باب في أمارات الملاحمة (٢٤٥/٢)، وأبو عمرو الداني في الفتح (٤٥٥)، وقال ابن كثير في النهاية (١/٩٤): «هذا إسناد جيد وحديث حسن وعليه نور الصدق وجلالة النبوة».

تبيهات:

التبهه الأول: وقع إشكال في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، حاصله: أن الذين يفتحون القسطنطينية من ولد إسحاق عليه السلام، وقد أجب عن هذا الإشكال بأجوبة منها:
المفيد في خطب الجمعة والعيد

= ١ - ما نقله القرطبي عن القاضي عياض من قوله: "قال بعضهم: المعروف المحفوظ من بني إسماعيل، وهو الذي يدل عليه الحديث وسياقه؛ لأن إما يعني بـ
العرب والمسلمين بدليل الحديث الذي سماه في الفتن، وأنها القسطنطينية،
 وإن لم يصفها بما وصفها به هناء اه من الفهم (٧/٤٩). اماً، فيفتحون قسطنطينية..." أخرج مسلم في الفتن وأشرس الساعة باب
فتتح القسطنطينية وخروج الدجال ونزول عيسى ابن مريم (١٨٧). وقد تعمق القرطبي رحمه الله تعالى هذا القول بقوله: "وهذا فيه بعد من جهة
اتفاق الرواة والآيات على بني إسحاق، فإذا المعروف خلاف ما قال هذا
الفائل" (٧/٤٩).

= ٢ - ما أجاب به القرطبي رحمه الله تعالى في الفهم (٧/٤٩) بقوله: "ويكي أن
يقال: إن الذي وقع في الرواية صحيح غير أنه أراد به العرب، ونسبهم إلى
عمهم، وأطلق عليهم ما طلق على ولد الأب؛ كما يقال ذلك في الخال،
حتى قبل: الخال أحد الأبوين والله تعالى أعلم" ام.

= ٣ - ما أجاب به الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى في النهاية (٤٦/١) بقوله: "وهذا
بدل على أن الروم يسلمون في آخر الزمان، ولعل فتح القسطنطينية يكون على
أيدي طائفة منهم كما نطق به الحديث المتقدم أن يغزوها سبعون ألفاً من بني
إسحاق، والروم من سلالة العيسى بن إسحاق بعد إبراهيم الخليل" ام.

فلت: ولعل هذا الجواب هو الأقرب إلى الصواب؛ ذلك أن كثيراً من مدن
الإمبراطورية البيزنطية الرومانية قد دخلت في الإسلام في عهد الصحابة بعد
معركة البرموك، وعقب سائر فتح الشام وما يليهما من بلاد الترك في عهد
الصحابة رضي الله عنهم والتابعين لهم بإحسان، وفي دولة بني عثمان تم فتح
القسطنطينية، ودخل كثير من أهلها في الإسلام، واستمرت بلداً من بلدان المسلمين إلى أن فرضت عليها العلمانية الحديثة على أيدي المنافين أتاتورك وأتباعه، المدعومين من قبل عباد الصليب الأوروبي. والحديث يخبر عما سيقع في الفتح الذي يكون في آخر الزمان؛ وذلك بعد أن دخل كثير من أبناء الروم في الإسلام، وهم من ولد إسحاق بن إبراهيم عليه السلام. ويقوى ذلك أن (من) بيانية، وأن العدد "سبعون ألفاً" نص في معناها، فيكون هذا العدد من هذا الجنس مقصوداً في هذا الحديث، والقاعدة: أن الأعداد نص في معناها، فلا يزال عليها ولا ينقص منها؛ كما هو مضطرب في النصوص، ويدعم ذلك أن الأحاديث دالة على أن العرب في آخر الزمان يكونون قلة؛ كما في أحاديث ذكر الدجال، والله أعلم.

التبنيه الثاني: أن الفتح المذكور في الحديث يكون قرب قيام الساعة، ووقوع الفتن واللملح؛ ولذلك أورد العلماء أحاديث فتح القسطنطينية في أبواب الملامح التي تقع في آخر الزمان، وجعلوه من علامات قرب الساعة، وقد دلت النصوص على ذلك من جوهر عدد من، منها:

1 - لفظ حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ فقد جاء فيه أن فتحها مقرور بخروج الدجال، فعند اقتسامهم لغنائمها جاءهم الصريح بأن الدجال قد خلفهم في أهلهم.

2 - لفظ حديث معاذ رضي الله عنه؛ فقد جاء فيه ترتيب الأحداث الواقعة في آخر الزمان ونهبه: "فتح القسطنطينية خروج الدجال".

3 - حديث أنس رضي الله عنه قال: "فتح القسطنطينية مع قيام الساعة" أخرجه الترمذي في الفتن باب ما جاء في علامات خروج الدجال (2239).

4 - حديث معاذ رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "الملحمة العظمى، وفتح القسطنطينية، وخروج الدجال في سبعة أشهر" أخرجه أحمد (5/34)، وأبو داود في الملاحم (2195)، والترمذي في الفتن باب علامات خروج الدجال (2239)، وابن ماجه في الفتن باب الملاحم (492)، والطبري.
المنيد في خطب الجمعة والعيد

في الكبير (15/20) برقم: (173 - 174 - 175 - 176/4), وفي سنده أبو بكر بن عبد الله بن أبي مريم وهو ضعيف الحديث.

وبناء على هذه الأحاديث وما في معتها فإنما حصل من فتح محمد بن مراد العثماني رحمه الله تعالى ليس هو الفتح المقصود بنتلك الأحاديث لما يلي:

1- أن الفتح المذكور في الأحاديث مقرر بخروج النجالة، وقيام الساعة، ولم يكن كذلك الفتح العثماني.

2- أن حديث أبي هريرة رضي الله عنه يدل على أن فتحها يكون بدون نجالة وإما بالذكر والتكبير، وفتح العثمانيين لها كان بالسلاح والقتال مع التكبير.

قال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله تعالى قال في حاشية عمدة التفسير (2/256): "فتح القسطنطينية المبشر به في الحديث سيكون في مستقبل قريب أو بعد يعمره الله عز وجل، وهو الفتح الصحيح لها حين يعود المسلمون إلى دينهم الذي أعرضوا عنه، وأما فتح الترك الذي كان قبل عصرنا هذا؛ فإنه كان تمهيداً للفتح الأعظم، ثم هي قد خرجت بعد ذلك من أيدي المسلمين، منذ أعلنت حكومتهم هناك أنها حكومة غير إسلامية وغير دينية، وعادت الكفار أعداء الإسلام، وحكمت أمها بأحكام القوانين الوثنية الكافرة، وسعيت الفتح الإسلامي لها إن شاء الله كما بشر به رسول الله صلى الله عليه وسلم".

التبني الثالث: احتج بعض المبدعة بفتح العثمانيين للفتح القسطنطيني على أن الأشاعرة والصوفية أهدي سبيلًا من أهل السنة والجماعة أتباع السلف الصالحين; وذلك أن المذهب الأشعري هو المذهب السائد في الدولة العثمانية، كما أن فيها تصوف كثير، وقد ركز النبي صلى الله عليه وسلم الجيش الذي يفتحها، ومدح أمره؛ كما جاء في حديث عبد الله بن بشر الغ오ي عن أبيه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ففتح القسطنطينية فلمع الأمير أمهرا، وللمجش ذلك الجيش، أخرج الجامد (30/235)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (4/272), والطبراني في الكبير (2/382) برقم: (1716), والبحاري في
التأريخ الكبير (2/81)، والصغير (1482).

ومن استدل بهذا الحديث على صحة مذهب الأشاعرة والماتريدية عيسى بن عبد الله مانع الحميري في رسالة "تصحيح المفاهيم العقدية في الصفات الإلهية" وقد حشته بجملة من الأبطال والترهات - ليس هذا مقام الرد عليه فيها - ومع أنه قرر في رسالته تلك لزوم أخذ كل فن عن أهله، فإننا نجده لم يلتزم بهذا المنهج؛ بل راح يدخل في كل فن بلا علم، فرسلته في العباقر وهو غير متخصص فيها، وراح يصحح ما يشبه من الأحاديث ويرد تضيف أهل الحديث لها وهو ليس من أهل الحديث، ومن ذلك تصحيحه لهذا الحديث، ولم يجب عن الاضطراب الوارد في اسم من رواه، واسم أبي ونسبهما؛ كما سيأتي ذكر ذلك.

وتتحور رسالته حول إثبات إمامة الإمام أبي الحسن الأشعري رحمه الله تعالى، ولزوم أخذ مذهبه في الأسماء والصفات القاضي بإثبات الصفات العقلية السبع وهي: الحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام، وتأويل ما عداها من الصفات.

وقد نقل الزريداني في إختص الحافة الملتقي (2/6) عن ابن كثير الأشعري الشافعي رحمه الله تعالى: "أن الشيخ أبو الحسن الأشعري مرت به أحوال ثلاثة:

الحالة الأولى: حال الاعتزاز التي رفع عنها لمحاولة.

الحالة الثانية: إثبات الصفات العقلية السبع، وتأويل الجزئية كالوجي واليدي.

والقدم والساق ونحو ذلك وهي مرحلة تأتيه رحمه الله بمذهب ابن كلاب الذي تسبي إلى الطائفة الكلامية.

الحالة الثالثة: إثبات ذلك كله من غير كفيف ولا تشبه جريحاً على منوال السلف، وهي طريقه في الإبادة التي صنفها آخرين وشرحها الباقلايين، ونقلها ابن عساكر، وهي التي مال إليها الباقلايين وإمام الحرميين وغيرهما من أئمة الأصحاب المتقدمين في أواخر أقوالهم والله أعلم".

فيا ليت أن الحميري لما دعا الناس إلى الأخذ بمذهب الإمام أبي الحسن الأشعري أخذ عقيدته التي استقر عليها أخيراً، والتي نسخت ما سبق من قوله بالإعتزال ثم…
قوله بتأويل بعض الصفات، فاستقر به المطاف بعد طول تطوف على مذهب السلف الصالح من الصحابة رضي الله عنهم، والتابعين لهم بإحسان بإثبات ما أثبته الروب بترك وتعالى لنفسه من الصفات العلية، وما أثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم على الوجه اللائق بجلاله وعظمته بلا تكيف ولا تمثيل ولا تشبيه، ولكن الحميري - هذاء الله إلى الحق - راح يبتغي ما يشتهي، وقيل أن الإمام أبي الحسن الأشعي المرحلة الوسطى التي كانت بين اعتزاله، وبين أخذ بمذهب السلف الصالح التي استقر عليها أمره بعد أن هدأ الله تعالى إلى الحق، واستمر عليها إلى وفاته، وبينها في كتابه العظيم: الإبادة عن أصول الدين.

ومعلوم أن عقيدة الشخص هي ما استقر عليه أخيراً حتى مات، والأشعي رحمه الله تعالى توفي على مذهب أهل السنة والجماعة؛ كما أثبت ذلك في كتابه الإبادة. وقد وضع الحميري ومن كان على شاكلته في هذا الأمر المتضامق، ولم يجد سبيلاً إلى الخروج منه إلا بالتشكيك في ثبوت الإبادة عن أبي الحسن، كما في رسالته الآنث ذكرها ص (25)، مع أن كثيراً من العلماء أثروا صحة الإبادة إلى أبي الحسن، وعدوا من مصنفاته، ومن هؤلاء العلماء: ابن عساكر الدمشقي في تبين كذب المفترئ، وهو كتاب الله في الانتصار للإمام أبي الحسن الأشعي حيث قال ص (28): «ومن وقف على كتابه المسمى الإبادة عن موطن معوضعه من العلم والديناء». والبيان في الاعتقاد والهدية إلى سبيل الرشاد ص (31) والذهبي في العلم للعلي الغفار (116) وابن فرحون المالكي في الديباج ص (194) وغيرهم كثير.

فلا مجال للتشكيك في نسبة كتاب الإبادة عن أصول الدين إلى الإمام أبي الحسن الأشعي؛ إلا عند من له هو في نفسه وهو يضرب نفسه ولا يضرب آله الحسن، أو غيره من العلماء شيئاً، ولن يستطيع إخفاء الحق، على الناس مهما عمل.

وأما الجواب عن الحديث الذي زعم فيه صاحب الرسالة المذكورة أن فيه تركية المذهبي الأشاعري والمتردية فمن أوجه كثيرة منها:

الوجه الأول: أن الحديث ضعيف، فهو من رواية عبد الله بن بشر الخنعمي وهو مجهول، لم يوثقه إلا ابن حبان، وذكر الحافظ في تعميل المشفعة (721).

الوجه الثاني: لو سلمنا بصحة الحديث فلا نسلم باستنباط الحميري منه؛ فإنه لا يدل على ما يريد لا من قريب ولا من بعيد.

الوجه الثالث: على فرض وجود وجه دلالة فقد يحمل على فتح غير هذا الفتح، وهو الذي يكون في آخر الزمان، والأحاديث المتوفرة في فتح القسطنطينية كلها تذكر فتحاً غير هذا الفتح، والفتح المذكور في هذا الحديث يحمل في آخر الزمان، خاصة وأن الجيش الذي يفتحها في آخر الزمان يفتحها في آخر الزمان بحجة أن الجيش الذي فتحها في آخر الزمان، وبعضهم محمد بن مروان، أو عدم الاحتفاظ بفتحة القسطنطينية؛ فإن من أعظم مناقب هذا الفتح المظهر، ومناقب دولته فتح عاصمة البيزنطيين.

الوجه الرابع: أنه لا حاجة في هذا الحديث لأهل البدعة والضلالات؛ إذ الحكم على عوام المسلمين أنهم يعتقدون في الله تعالى الكمال، ولا يعرفون تفصيلات الأسماء والصفات، وما أحدث فيها أهل البدعة من ضلالات، فلا وافق أنهم من أهل السنة ولا كأن مشاهديهم يؤولون الصفات، ويعرفون تصوصها، ومن هنا يغفل كثير من الناس حينما ينسرون عوام المسلمين في البلاد التي مشاهديها على ضلال فيما يتعلق بالأسماء والصفات إلى البدعة؛ لأن ذلك العقد الخاطئ لم يطلق بالشيوع دون العوام. كما أن عوام المسلمين في البلاد التي مشاهديها من أهل السنة والجماعة لا يعرفون تفصيلات الأسماء والصفات ولكنهم يؤمنون إيماناً مجمعاً بكمال الرسول وتعالى، وأنه مستحق لكل مما يليه به، بخلاف الشيوخ الضالن، ودعاة البدعة. وما من شك في أن الجيش العثماني الذي فتح القسطنطينية أكثرهم من عوام...
الوجه الخامس: لو قدر أن الجيش العثماني كله أشاعرة، وأميره كذلك، وعندهم من تفصيلات هذا المذهب ما يجلبه مبتدأ مع قيام الحجة عليهم - وذلك مستبعد.
- فإن الحديث لا يدل على صحة مذهبهم لما يلي:
أولاً: أن متعلق المدح هو فتح القسططينية، وهو عمل طيب، وسمي مشكور، ولا يزداد إلى غيره.
ثانياً: أن الشخص الواحد تكون فيه حسنات وسياط، فينحى على حسناته، وتذم سيئاته، والفتاح ووجيهه وإن كانوا أشاعرة وفيهم تصروف فإنهم ماجهودون في سبيل الله تعالى، معروف لهم، مظهرون لديه، فيمرون عليه، ويشتت عليهم به، ولا يلزم من ذلك عصمتهم من الخطايا، والنذاء عليهم من كل وجه، ولا يستدل بهزتهم في الجملة على صحة ما أخطأوا فيه، نعم! يصح ذلك لو كانت التركية لعقلائهم وهو ما لا يكن، وله جهادهم في سبيل الله تعالى، وما قام في قولهم من التوكل عليه، وصدق التعالى به، حتى بذلوا أرواحهم رحيمة في سبيل الله تعالى، وفتحهم لهذه المدينة العتيقة يكون سبيلاً في مغفرة ذنوبهم والتي منها تذهبهم ببضاب الأشاعر وأخذهم بطرائق المتصوفة.
الوجه السادس: أن الجيش يكون خليطاً من القادة والعلماء والعامة، وهو خليط من الصالحين، ومنهم أقل صلاحًا، وأيثناء عليهم فإنه ينصرف للعموم، ولا يلزم منه الثناء على أعيانهم فردًا فردًا، وذلك لتعارضهم على أمر يحب الله، فيحصل لكل فرد منهم من الثناء والتركية، يقدر ما قام في هذا العمل المركزي، ومن المتفق عليه أن الجيش الذي يقوده النبي صلى الله عليه وسلم، ويكون جذبه من الصحابة رضي الله عنهم هو خير جيش وجد في الدنيا، وهو خير من الجيش الذي فتح القسططينية، وهو أولى بالثناء منه، ومع ذلك وجد فيه من غل ذئب الغنوة، ومن
فتح القسطنطينية

الجيوش، ومات أبو أيوب الأنصاري ودفن تحت أسوارها(2) فهما استطاعوا فتحها، ثم تأبت على بني العباس، ولكنها لانت لبني عثمان، ففتحوها في مثل هذا الشهر جمادى الأولى من عام سبعة وخمسين وثمانية للهجرة.

وأحداث هذا الفتح عظيمة، وأخباره كثيرة، تحتاج في عرضها = قتل نفسه، بل وجد فيه منافقون يظهرون الإيمان ويتبينون الكفر، ورغم ذلك فإن هذا الجيش كان مخلد وثناء في الكتاب والسنة، ولا يلزم من ذلك مدل المنافقين الموجودين فيه، أو مدل أهل الغلول، أو من قتل نفسه.

الوجه السابع: أننا لو لم نعتبر كل الأوجه السنة الماضية، وسلمنا أيضاً بأن جيش الفاتح كلهم أشاعرة وصوفية، فإن قصاري ما يفيده هذا الحديث احتمال تركيبة عقائد ذلك الجيش، وأنهم على الحق، بينما نصوص الكتاب والسنة وإجماع الأمة من الصحابة والتابعين لهم بإحسان تجعل وراء الأشاعرة والمتريدي والمتصوفة، فهل تركز الأدلة المتواترة المقطع بها ثبوتًا ودلالات لمجرد دليل محتمل قد ضعف من جهة ثبوتة، وأنا من جهة دلالة على المراد فهو أضعف وأضعف؟! هذا غير مستقيم في النهج العلمي.

وبناء على ذلك فليس لأي صوفي أو أشعي أو ماتريدي أن يحتب على مذهب

الخاطئ بهذا الحديث. والله أعلم.

(2) ثبت ذلك من حديث أسلم بن أبي عمران قال: "غزوا من المدينة نريت

القسطنطينية..." وفي آخره: "فأرم يزل أبو أيوب يجاهد في سبيل الله حتى

دفن بالقسطنطينية" أخرجه أبو داود في الجهاد باب في قوله تعالى: "ولا تلقو

بأيديكم إلى الثكالة" [البقرة: 196] (2012) والترمذي في التفسير باب تفسير

سورة البقرة، وقال: حديث حسن غريب صحيح (2976)، وصحبه ابن

حيان (471)، والحاكم ووافقه الذهببي (275/2)، وذكر الحاكم في معرفة

الصحابية أحاديث أخرى تثبت ذلك (507/2 - 458)."
وتفصيلها إلى ختم كثيرة.

كانت القسطنطينية العاصمة المقدسة الكبرى لنصارى الشرق، وفيها أكثر تراشيم وتاريخهم، وقد حوت كنائسها تماثيل أشهر رهبانهم وبيارتهم.

وموقعها بين آسيا وأوربة جعلها من أفضل المدن موقعًا، حتى قال نابليون: "لول كانت الدنيا مملكة واحدة للكانت القسطنطينية أصلح المدن لتكون عاصمةً لها" (3)، وذكر أنها وحدها تساوي إمبراطورية كاملة.

وأنها مفتاح العالم؛ من استولى عليها استطاع أن يسيطر على العالم بأجمعه.

وأما دائم الدولة العثمانية وتؤتمت رقعتها، كانت القسطنطينية في وسطها، تفصل ممالكها الغربية عن ممالكها الشرقية؛ ولذا حاول خلفاء بني عثمان فتحها أكثر من مرة، وكان ملوكها ورهبانها ينويون للدولة العثمانية، ويدسون الدسائس، ويدبرون المكائد، ويؤون كل خارج عليها، ويدونه بالسلاح والمال والرجال، وكم مرة عاهدوا ثم نقضوا كما هي سيرة أهل الكتاب (4). فلما تولى عرش السلطنة العثمانية.

(3) انظر: الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية. تأليف الدكتور: علي حسون ص (31).
(4) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، تأليف: الميرلاي إسماعيل سرهنك، تقديم ومراجعة الدكتور حسن الزين ص (39)، والسلطان محمد الفاتح بطل الفتح الإسلامي في أوروبا الشرقية، تأليف: الدكتور سيد رضوان علي ص (20)، والدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، تأليف: الدكتور إسماعيل أحمد ياغي، ص (48) ومحاضرات في العثمانيين وحاضر العالم الإسلامي، تأليف: الدكتور محمود محمد زيادة ص (8).
فتح القسطنطينية

محمد بن مراد بعد وفاة والده كان همته الأكبر أن يفتح تلك المدينة المنيعة، فأجبره فكره بها، وكرس جهده لها، وعمل كل عمل يحقق ذلك سياسياً وعسكرياً.

فبنى قلعة جبارة قبالتها، وصالح الدول المجاورة لها حتى لا تهب لتجديتها، وعقد الهدنة مع كل محاربه ليفرغ لهما، وصنع المدافع العملية لدكّ حصونها، واستحدث أسطول بحرية ليغزوها من البر والبحر، ثم درس أسوارها من الداخل والخارج، وأوضاعها وأوضاع أهلها.

فلما رأى ملكها قسطنطين أن الأمر جد راسل السلطان يطلب الصلح، فطلب السلطان بتسليمها بلا قتال، وله ولاذها الأمن والعيش فيها أو غيرها بسلام، فرفض حاكمها ذلك. فعزل السلطان على فتحها، وسار بجيش يقارب مئة وستين ألف مقاتل معهم خيولهم وأنعامهم وعتادهم، فضربوا الحصار عليها، وبداخل أسوارها ثمانية ألف نفس، منهم أربعون ألف مقاتل قد أصطفوا على أسوارها لحمايتها، واستمر الحصار ثلاثة


وخمسين ليلة\\(^7\), كانت مدافع المسلمين أثناءها تلك حصونها، ولكن
النصارى كانوا يبنون ما تهم في الحال، وكل طريقة يخترعون المسلمون
للاقتحام، أو فتح ثغرة، أو التسلل إلى داخلها يفتشون النصارى، وكل
طريقة تفشل كانت لا تزيد المسلمين إلا إصرارا على قهر تلك الحصون،
وإجتياز تلك الأسوار، وظهرت بطولات عجيبة من الفريقين، فالمسلمون
المحاجمون صدمو أمام نيران مدافع القسطنطينية، وواجهوا البال والرماح
بصدورهم، ولم يردهم عن تسلق أسوارها الماء المغلي، والزيت الحار
الذي يصب النصارى على المسلمين لردهم عن الحصون؛ حتى مات حرقاً
عشرات من المسلمين، وقتل مئات بالبال والمدافع، وكل ذلك لم يرد
السلطان محمدًا عن فتحها بل يفكر في الطريقة تلو الطريقة، وتأتيه
الفكرة وراء الفكرة\\(^8\).

ورغم ما قام به قسطنطين من قتل مئتين من المسلمين المقيمين في
(7) وقع خلاف بين المؤرخين والناقلين عنهم في أعداد الجيش العثماني، وأعداد
البيزنطين، ومدة الحصار، ولعل ما ذكرته هو الأقرب اعتقاداً على مصادر
نشرها (45)، وقال: "وكان استيلاء العثمانيين على هذه المدينة العظيمة في
يوم الثلاثاء عشر من شهر جمادي الآخرة سنة 857 هـ (29 مايو 1453 م) بعد
حصار دام ثلاثة وخمسين يوماً حسب رواية غالب المؤرخين، وقد أخرج بعضهم
سنة افتتاحها بقولة (بلدة طيبة) 1 هـ. وانظر أيضاً: الدولة العثمانية في التاريخ
الإسلامي الحديث للدكتور إسماعيل باغي ص (49)، وفي مصادر أخرى أن
الحصار دام خمسين يوماً فقط؛ كما في الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية
للدكتور: علي حسون ص (33).

(8) انظر: الترك في العصور الوسطى (42)، ومحمد الفاتح بطل الفتح الإسلامي.\}
فتح القسطنطينية تعلقهم على أسوارها، فإن ذلك لم يرهب المسلمين بل زادهم حماستاً لفتحها، وبدأت مئذة النصارى تنقص، وأخذهم الجهود والتعب من هذا الحصار المحمر، وعزم السلطان على الاقتحام العام، لما أحس أن الوقت قد حان؛ فأرسل رسالة إلى قسطنطين يطلب بتسليم قبل الهجوم العام، وله وللنصارى الأمن على أموالهم وأنفسهم وأراضيه وديارهم، ومن أراد منهم الرحيل منها رحل، ومن أراد البقاء بقي فيها أمناً.

وما كان قسطنطين إلا شجاعاً متنيناً يعلم ما لهذه المدينة من تاريخ وتقديس عند النصارى، فأتى أن يموت فيها على أن يهرب منها، أو أن يسلمها للمسلمين، فرد على السلطان بأنه قد أقسم أن يدافع عنها إلى آخر تقضي في حياته، فإما أن يحتفظ بعرشها، أو يدفع تحت أسوارها، فلما بلغ السلطان محرماً مقالة قسطنطين قال رحمه الله تعالى: «حسناً، عمداً قريب سيكون لي في القسطنطينية عرش فأتكون لي فيها قبر».

---

† في أوروبا الشرقية ص(242)، وتاريخ الدولة العثمانية لسرهرننك ص(42)، محمد الفاتح للدكتور سالم الرشيدي (135) وهو أجمع كتاب وقفت عليه في شأن هذا الفتح العظيم، وأكثر المصادر تحقيقاً، وأغلب ظني أنه رسالة علمية، وقد رفع إلى كثير من المصادر التركية المتقدمة إضافة إلى المصادر العربية والإفريقية والرومية.

(9) انظر: السلطان محمد الفاتح بطل الفتح الإسلامي في أوروبا الشرقية ص(22)، والعمانيون في التاريخ والحضارة ص(72 - 85)، وتاريخ الدولة العثمانية وحضارتها ص(58).

(10) محمد الفاتح للرشيدي (119).
وقبل الهجوم العام يومين - وكان يوم الأحد - أمر السلطان جنده بالصيام لله تعالى، تطهيراً للنفس، وتهيئته للعزم والإرادة، وفي مساء ذلك اليوم أمر جنده بإضرام النيران العظيمة ليرهب النصارى، وظل المسلمون طيلة الليل يذكرون الله تعالى، ويكبرون بأصوات عالية، حتى قال رئيس أساقفة القسطنطينية: "لو أنك سمعت مثلنا صيحاتهم المتوالية المتصاعدة إلى السماء، لا إله إلا الله محمد رسول الله، لأخذتك الروعة والإعجاب" (11).

وفي يوم الاثنين ترك السلطان جنده يرتاحون، وبدأ يخطط للهجوم، ثم عند جنوده في ليلة الثلاثاء، أمر العلماء والمشايخ والخطباء أن يحمسوا الجند، ويركبهم فضل الجهاد والشهداء في سبيل الله تعالى، فكانوا يتلون على الجند آيات الجهاد، ويرغبونهم فيه، ثم يقولون لهم: "القد نزل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم عند هجرته إلى المدينة في دار أبي أيوب الأنصاري، وقد قصد أبو أيوب هذه البقعة، وما فيها، ودفن تحت هذه الأسور؛ فيلبه ذلك حماة الجند، ويكونون أشد شوقاً إلى الاقتحام والغداء" (12).

وخطب فيهم السلطان خطبة قال فيها: "إذا تمّ لنا فتح القسطنطينية تحقق فيها حديث من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومعجزةً (13).

(11) تاريخ الدولة العثمانية، تأليف: محمد فريد بك، تحقيق: د. إحسان حقي ص. (164)، ومحمد الفاتح للرشدي ص (34).
(12) محمد الفاتح للرشدي ص (136)، ومحمد الفاتح بطل الفتح الإسلامي في أوروبا الشرقية، ص (32).
فتح القسطنطينية

من معجزاته، وسيكون من حظنا ما أشاد به هذا الحديث من التمجيد والتقدير، فأبلغوا أبناءنا العساكر فرداً فرداً أن الظفر العظيم الذي سنحرره سيرئي الإسلام قدرًة وشرفاً، ويجب على كل جندي أن يجعل تعاليم شريعتنا الغراء نصب عينيه لا يصدر عن أحد منهم ما يجافي هذه التعاليم، ليجتثروا الكائن والمعابد ولا يسواها بأذى، ويدعوا القسس والضعفاء والعجزة الذين لا يقاتلون(13).

وفي مقابل ذلك دقت أجراس الكائنات، واجتمع النصارى فخطب فيهم قسطنطين فقال: "أيها المحاربون، أعدوا أنفسكم للقتال والتضحية بأنفسكم وأرواحكم في سبيل هذه البلدة المقدسة، وفي سبيل النصرانية... إن السبعة الخطرة الفاصلة التي ارتفعتا منذ أيام قد أزفت، إن الرجل ليقاتل ذدوًا عن دينه أو وطنه أو ملكه أو أهله أو ولده فكيف وقد جاءت هذه الأسباب كلها مجتمعة؟! والقسطنطينية هي معقل النصرانية، وملكها المدن، وقد كانت زماناً ما عاصمة الدنيا، لقد مضى ثلاثة وخمسون يوماً والعدو يحاصر هذه المدينة بكل عتاده وقواه، وقد ردناه عن أسوارنا...، وهو يتأهب الآن ليضرب ضربته الأخيرة فثبتنا كما ثبتمن قبل، وادفعوه اليوم عن أسواركم كما دفعتموه بالأمس، حتى تخور قواه، وينكض على أعقابه.

أيها الإخوان: إنكم سلالة صناديد أثينا، وأبطال روما، فكونوا أهلاً لهذا النسب الرفيع، ولا تخففتم صيحات العدو، ونيراته المتصاعده،

(13) محمد الفاتح للرشيد ص(126).
وشدوا عزيزتمكم، واصدقوا في القتال... ثم أعلن أنه سيدافع حتى الموت... ثم صلى النصارى صلاتهم وقد امتدت بهم الكاهنات (14).

بعدها ذهب قسطنطين إلى قصره يرده، ويلي على آخر نظر قبل القتال، وظل يبتكي بكاً شديداً حتى قال من حضره: "لو أن شخصاً فد قلبه من خشب أو صخر لفاضت عيناه بالدموع لهذا المنظر" (15).

وقبل منتصف ليلة الثلاثاء رست السماء بمطر خفيف تقف الأرض، وفي الساعات الأولى من صباح يوم الثلاثاء العشرين من جمادى الأولى عام سبعة وخمسين وثماغاثة دقت طبول الحرب، وتصاعدت التكبيرات مدوية مجملة من البر والبحر، وانطلق المسلمون يتسلقون الأسور، والمدافع تضرب، والجنود تكبر، وحمي وطيس المعركة، واستمرت ساعات تدوي خلالها المدافع، وتمطر النبال، وتتحرك السفن والمراكب، والقتال مستمر في البحر والبحر، وأبدى الفريقان سلالة عظيمة: النصارى يدافعون عن مدينتهم، والمسلمون يتسلقون الأسور، ويلقون المحن؛ حتى نجحوا في اختراق دفاعات النصارى ودخول المدينة (16).

فما برح قسطنطين حتى رأى أعلام المسلمين ترفف على قلاع القسطنطينية وأسوارها؛ وجنوده تهرب من أمام المسلمين، فأخذ يقاتل (14) المصادر السابق (128)، وانظر: السلطان محمد الفاتح بطل الفتح الإسلامي في أوروبا الشرقية (133).

(15) انظر: محمد الفاتح للرشيد (129).

(16) انظر: محمد الفاتح للرشيد (130 - 136).
ذات اليمين وذات الشمال حتى كُلَّت بده، ثم ضربه أحد المسلمين فخرًا
(17)
الله
وأمثاله
وقد وقعت تلك المدينة المنورة التي امتنعت على كبار القادة والفاشحين؛ ليدللها الله تعالى لمحمد بن مراد العثماني الذي لقب بعد ذلك بمحمد الفاتح، وكَيْن بأبي الفتح، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.
أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: {وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بَشَرًى وَلَطِينَتَنَّ بِقُلُوبِكُمْ وَمَا النَّصِيرُ إِلَّا مِنْ عِينِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [الأنفال: 10].
بارك الله لي ولىكم في القرآن العظيم،
الخطبة الثانية
الحمد لله حمدًا طيبًا كثيرًا مباركًا فيه كما يحب ربي ويرضيه، أحده وآخرك وآخرك وإلهه وإلهك، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.
أما بعد: فاتقوا الله -عباد الله-) كما أمر، واجتنبوا الفواحش وما بطن منها وما ظهر، واعلموا أن الله يحب المتقيين.
أيها المؤمنون: لما سقطت القسطنطينية في أيدي المسلمين، وتم الفتح المبين؛ جاء القادة يهتفون الفتح، ويقولون: {لقد بارك الله في جهادك يا سلطان، فكان يقول: حمدها لله، ليرحم الله الشهداء، ويمنح (17)}
المصدر السابق (137).
المجاهدين الشرف والمجد، وشعيبي الفخر والشكر\(^{(18)}\).

لقد خاف النصارى وفرعوا في أول الأمر؛ لأنهم ظنوا أن يفعل بهم المسلمون مثل الذي فعله بهم الصليبيون لما دخلوا القسطنطينية في الحملة الصليبية الرابعة؛ إذ استباحوا الحرمات، وأمعنوا في قتل الناس، ونهب الأموال، وقالوا في أنفسهم: إذا كان هذا فعل حمآ الصليب، بنا لاختلاف مذهبنا عن مذهبهم، فكيف بمن يخالفونا في ديننا! يعنون المسلمين، وجوؤوا إلى الكنيات يصلون ويكون ويدعون.

وعند الظهرة توجه السلطان الفاتح إلى القسطنطينية على ظهر جواده، يحف به كبار قادته، وهنا جنده بالنصر، ونهام عن القتل والسلب، وأوصاهم بأن يكونوا أهلاً لهذا الشرف والمجد باخلائهم الكرم، فلما توسط في المدينة ترجل عن فرسه، واستقبل القبلة، وسجد على الأرض، وحثا التراب على رأسه؛ تواضعًا وشكراً لله تعالى على ما منحه من توفيق ونصر، ثم استأنف سيره إلى أكبر كنيسة للنصارى وهي كنيسة القيامة (أيا صوفيا)، ولما اقترب منها وصلت إليه أصوات حازمة لاحقة هي أصوات النصارى بداخلها، يصلون ويدعون بالنجاة، فقد صد أحد أبوابها، فأمر الراهب بفتح الباب على مصراعيه، وانتاب الناس خوف عظيم، وتوجسوا شراً مستحيلاً، وانقطعوا عماراً كانوا عليه، وسجد الفاتح مرة أخرى يشكر الله تعالى ويحمده، ثم أمر النصارى بالعودة إلى منازلهم آمين على أنفسهم وأمواتهم وأعراضهم،

(18) محمد الفاتح للرشيدي (139).
فتح القسطنطينية

وأن يعود كل واحد منهم إلى عمله الذي كان يمارسه من قبل، فنزل هذا التأمين بردًا وسلامًا على أهل القسطنطينية، وقد كانوا يتوقعون أن ينكل بهم المسلمون.

كان نفر من الرهبان مختبئين في سراديب الكنيسة خوفًا من القتل، فلما سمعوا بما فعله الفاتح، وحسن معاملته للنصارى؛ خرجوا من أماكنهم، وأعلن كثير منهم إسلامهم، ثم أمر السلطان بتحويل الكنيسة إلى مسجد، فأذن فيها أحد العلماء، وأدوا فيها صلاة العصر، ثم أعلن السلطان أن أول جمعة قادمة ستقام فيها الصلاة؛ فرفعت منها الصبان، وهدمت التماثيل، وطمست التصاوير، وانشقوا فيها محرابًا ومنبراً ومذذبة(19)، وظلت مسجداً تقام فيه الصلاة وحلقات العلم خمسة قرون تبعًا إلى أن استولى على السلطة: العلماني اليهودي أناتورك؛ فحوَّل المسجد إلى متحف(20)، عليه من الله ما يستحق.

ثم قصد السلطان قصر الإمبراطور قسطنطين، فرأى ما فيه من الأبهة والعظمة وقد انتشر بآثار الحرب والخضار، وأغمر من سكانه، وعشت النعاب في جدرانه، واستبدل في ليلة وضحاها حاكماً بحاكم، وسیداً بسید؛ فكان عبرة بالغة، اعتبر بها السلطان الفاتح فقال رحمه الله تعالى: "إن العنكبوت قد نسجت بيوتها في قصر الأباطرة، وإن اليوم ينعق فيها نعيماً محرزاً"(21).

(19) ملخصًا من محمد الفاتح للرشيدى (140 - 142).
(20) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة (79).
(21) محمد الفاتح للرشيدى (143).
أمر السلطان بمداواة الجرحى من النصارى، وفد ComponentA كثيراً من كبار الأسرى، وأمر بدنف قسطنطين في مقبرة ملوك النصارى، ثم أمر النصارى أن ينتخبوا أحد رهبانهم بطريركاً لهم، فجعله مسؤولاً عن شؤونهم وزواجهم وميراثهم وما يتعلق بدينهما، وأعطاه مقرأ لعمله، وبالغ في إكرامهما، حتى خجل النصارى من كرم الفاتح فقال البطريرك: "إن الأباطرة النصارى لم يفعلوا قط مثل هذا لمن سبقه من البطاركة".

وقد قال المؤرخون: "إن السلطان الفاتح قد حنا على أهل القسطنطينية حنوا الوالد الشقيق العطف على ولده"(22).

ولم تمض إلا أيام على فتحها حتى ساد الأمن والسكونة رروع المدينة، واستأنف الناس حياتهم وأعمالهم، وفرح كثير من النصارى بهذا الفتح لما رأوا العدل الذي لم يكن موجوداً من قبل، ودخل كثير منهم في الإسلام.

أيها الإخوة المؤمنون: أتدرون رحمكم الله تعالى كم كان عمر هذا السلطان ما أتم الله تعالى له هذا الفتح المبين لهذه المدينة العتيدة؟ لقد أجمع المؤرخون من عرب وترك وروم وإفونج على أنه لم يكن يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره(22)، وقد قاد هذا الجيش العرمرم في البر

(22) المصدر السابق (143 - 146).

(23) ولد محمد الفاتح رحمة الله تعالى عام 832 هـ، وتولى السلطة عام 855 هـ، وعمره ثنتين وعشرين سنة، وقد فرح النصارى بتولياه وهو صغير، ولكن الله تعالى أراهم ما يسوؤهم؛ إذ كان الفتح على يديه وهو صغير وقد عجز عن فتحها القادة الكبار، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.
فتح القسطنطينية

وببحر، وببني القلاع العظيمة، وفتح هذه المدينة المنيعة، ثم لم يستخفه
الفتح، بل عمل فيها وفي أهلها عمل أهل الحكمة والرأي والخبرة،
ملتمزماً شريعة الإسلام التي هي العدل والرحمة.
ورغم هذا الطول في العرض فإني لم آت إلا على القليل من أخبار
هذا الفتح المبين.

أمس الله تعالى أن ينصر دينه، ويعز جنده، ويعلي كلمته، ويدحر
الباطل وأهله، إنه سميع مجيب.

سبحان ربك رب العزة عظمًا يصفون، وسلم على المرسلين، والحمد
لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبيه محمد وآله وصحبه أجمعين.

وقد قيل: إن عمره وقت الفتح إحدى وعشرين سنة، وقيل: ثلاثًا وعشرين
سنة، وقيل: أربعة وعشرين سنة، وقيل: خمسًا وعشرين سنة، ولم أقف على
من قال أكثر من ذلك، وقد كان رحمه الله تعالى عازماً على فتح روما بعد فتحه
القسطنطينية، ولكن مرض وتوفي في يوم الخميس 4/388 هـ - 659 م- رحمه الله
 تعالى رحمة واسعة. انظر: تاريخ الدولة العثمانية لسرهان (36)، والتحفة
الخليمية في تاريخ الدولة العلي لإبراهيم بك حليم (42)، والدولة العثمانية
وعلاقاتها الخارجية (41)، وتاريخ الدولة العثمانية وحضارتها (26)،
ومحاضرات في العثمانيين وحاضر العالم الإسلامي (9) والمسألة الشرقية،
دراسة وثائقية عن الخلافة العثمانية، تأليف: محمود ثابت الشاذلي (42).
152 - تحول العداء اليهودي النصراني إلى وفاق

7/8/1421

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ ببُلَّه من شرورة أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهدِّه الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبد ورسوله، فيه أن أُنَّا الذين آمنوا آتِقوا الله حقَّ نفقاته ولا تمؤتنن إلا وأنتم مسلمون [آل عمران: 101]، فيه أن أُنَّا الناس آتِقوا رَبَّكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجًا واحدًا، وبث منهما رجلاً كثيرًا ونساء وأتَّقوا الله الذي نساء الحال على الأرحام إن الله كان عليكم رقية في السماوات [النساء: 1]، فيه أن أُنَّا الذين آمنوا آتِقوا الله وقولوا قولًا سدِّيدًا في صلح لكم أعمالكم وغفر لكم ذُنوبكم ومن يُطع الله ورسوله فقد فاز فورًا عظيماً [الأحزاب: 37].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدى محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور م حداثاتها، وكل محدثة بدعنة وكل بدعنة ضلاله، وكل ضلاله في النار.

أما المسلمون: الصماع بين الحق والباطل صراع قديم، بدأ منذ أن قال إبليس: زرب بما أعورتني لأريني لهم في الأرض ولأغورتني أجمعين [الحجر: 29، 40].

وأقسم على ذلك بعزة الله تعالى فقال: فحزعَك لأغورتني أجمعين إلاً غوراك منم المخلصين [ص: 28، 83]، فأرسل الله تعالى الرسل، وأنزل الكتب، وبين الطريق إليه، وحذر من سبل الشيطان؛ فانقسمت
تحول العداء اليهودي النصراني إلى وفاق

البشرية إلى جناد للرحمن يشرون دين الله تعالى، ويجزدرون في سبيله، ويتعون الرسل عليهم السلام، وجناد الشيطان يكذبون الرسل، ويصدون عن سبيل الله تعالى، ويحاربون أولئاه. إنهاء ابتلاع مكتوب على ذرية آدم، ينجو فيه من ينجو من كتب له السعادة، يهلك في من يهلك من كتب عليه الشقاء.

وإذا تقرر ذلك؛ فإن من الباطل شرعاً وفطرة وقدرأ أن يجتمع الكفر والإيمان، ويتالف الحق مع الباطل، ويتآخى جناد الرحمن وجناد الشيطان، وكل محاولة لذلك فمصيراً إلى الفشل.

وعداء المسلمين مع غيرهم سواء كانوا يهوداً، أم نصارى، أم وثنيين هو عداء بين التوحيد والشرك. بين الإيمان والكفر. بين الحق والباطل، وكل محاولة لإزالة هذه العداوة لن تكون إلا بإخضاع الكفر للإسلام على الدوام؛ وهذا ما يأباه الشيطان، ولن يكون قضاءً وقدرآ؛ لأن الله تعالى قضى أن الباطل يبقى إلى آخر الزمان؛ حتى يجاهده أهل الحق والإيمان. أو تزال العداوة بينهما بإخضاع الإسلام للكفر، وذلك الكفر الذي ما بعده كفر؛ لأن من مقتضيات دين الإسلام علوه وارتفاعه على الكفر، وديانة أهله بالبراءة من الشرك وأهله.

وكل تلك العداوة بين الديانات الأخرى - غير الإسلام - المحترف منها والمختصر هي عداوة دينية في أغلبها؛ مبنية على اعتقادات باطلة.

وهكذا كانت العداوة بين اليهودية والنصرانية، كانت عداوة دينية، سجلها التاريخ، وصرح بها القرآن العظيم وقَالَ الْيَهُودُ لَمَّا نَسَبُوا َالْعَظِيمِ
على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب [البقرة: 112]. وهذه العداوة بين هاتين الأمتين الضالتين عداؤاً أساسها الدين، فإن عيسى عليه السلام لما بعث بالنبوة، حسده اليهود عليها وعلى ما أعطاهم الله من الآيات، وأيده به من المعجزات، فكذبوه وآذوه وآذوا أتباعه، وحاولوا قتله؛ ولكن الله تعالى رفعه إليه، وألقى شبهه على أحد حواريه، فقتلوه وظنوا أنهم قتلوا المسيح عليه السلام وَما قَتَلَوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شَهِيْثَ لَهُمْ [النساء: 157]. ونصوص اليهود المقدسة في كتبهم المحرفة، ترسخ كراهية النصارى وتغففهم، وتخدذ اليهود من معونتهم. واجاء في نص من نصوصهم: «من يفعل خيراً للمسيحيين فلن يقوم من قبله قط». 

لقد وصف اليهود نبي النصارى عيسى عليه السلام بأشع الأوصاف، واتهموه بأنواع التهم، كالجنون والسحر والنجاسة وأنه وثني وابن شهوة وغير ذلك من الأوصاف التي لا تليق بصاحب البشر فضلاً عن الأنياب والرسل عليهم السلام. وقذفوا أمه مريم عليها السلام بالزنى، وقالوا عليها قولاً عظيماً.

(1) أمس القرن التاسع عشر لهيوستن ستويارت نتشامبرلين (137/1377)، والأصولية.
(2) كما في قوله تعالى: «وَبِكُفُورِهِمْ وَقُولَهُمْ عَلَى مَرَّمٍ بَيْنَا عَظِيمًا» [النساء: 156]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «يعني أنهم رموها بالزنى» انظر: تفسير ابن كثير (872/1072).
الإجابة على السؤال: على أن اليهود والنصارى حرفلوا ولا زالوا يحرفون كتابهم، كما قال الله عنهم: {يحرفون الكلم عن وقائضه} (المائدة: 13). ولذا فإنا عجب أن يحرفوا نصوص العداء الديني بينهما إلى نصوص وفاق ومحبة؛ لأنهم استمروا التحريف.

(3) مجلة: سبيلات كاثوليكية الصادرة عن الفاتيكان مرجع الكاثوليك في العالم.
(4) انظر: انقضاض اليهودية على المسيحية.
واعتمدوا عليه. وهذا التغيير من عداؤو إلى وافق بدأ أيضاً بفكرة دينية
على يد رجل دين وعالم باللاهوت الكاثوليكي النصراوي في القرن
السادس عشر الميلادي (5)؛ إذ أدخل في عقيدة النصارى: أن نزول المخلص
عبسي ابن مريم عليه السلام من السماء لقتل المسلمين، ومن ثم يؤمن
بالنصرانية من اليهود، مشروط بتوطين اليهود في بيت المقدس. وسرى
هذا الفكر في الأمة النصرانية التي تنحل المذهب البروتستانتي، وسعى
الإنجليز وهم البروتستانت - وقت استعمارهم للشام لتحقيق هذه الفكرة
المختارة عقب وعد بلغور، ثم اعترت الأمة البروتستانتية في الغرب
النصراني بهذه الدولة اليهودية التي زرعت في بيت المقدس.

واعترضت الكاثوليك على هذا التوطنين؛ لأنهم يرون أن اليهود أنجاس
قيلة، لا يجوز توطينهم في بلد مولد عبسي وعودته وهم الذين قتلوا

(5) هو عالم اللاهوت الألماني (مارتن لوث) الذي اخترع عقيدة البروتستانت، وقبله
لم يكن النصارى سوى كاثوليك وهم نصارى الغرب، وأروثوكس وهم نصارى
الشرق. والكاثوليك النصرانية تنبع لإحدى هاتين الطائفتين; حتى آنشأ (مارتن)
هذا المذهب الذي يقوم على تبني اليهود واعتبارهم شعب الله المختار، وتسخير
النصاري خدمتهم، وتوطينهم في بيت المقدس، وقد قيل: إن له أصدقاء يهود
تأثر بهم في ذلك وقيل: إنه عميل لليهود. والله أعلم.

(6) بلغور وزير خارجية بريطانيا هو الذي وعد اليهود بتوطينهم في بيت المقدس
عقب استعمارها من قبل الإنجليز، وبريطانيا تدين بالبروتستانتية، ودعم اليهود
بعد بريطانيا أمريكا وهي أيضا تدين بالبروتستانتية، وفيها الأحزاب الإنجيلية
المتخصصة لفكرة خلاص النصارى عن طريق توطين اليهود في فلسطين.
تحول العداء اليهودي النصراني إلى وفاق
حسب اعتقادهم (6)؛ ولكن مع قوة اليهود في الغرب، وتمكنهم الاقتصادي والإعلامي أخضعوا الكاثوليك لهذه الفكرة الخرافية فعقد الكاثوليك مجمعهم المسكوني المشهور، وبؤروا فيه اليهود من دم المسيح عليه السلام (8)، وغيروا صلواتهم التي صلوا عشرين قرنا لتخلو من عبارات سب اليهود ولعنهم.

وبهذا يرى النصارى خاصة طائفة البروتستانت أنهم حققوا مكاسبًا باختذ اليهود - بتجموعهم في القدس - مطلب خلاصهم، وتحقيق معجزة دينية ينتظرها، تتلخص في نزول المخلص عيسى عليه السلام ليقتل المسلمين ومن لم ينصر من اليهود، كما يرى اليهود أنهم خدروا النصارى بالتمكين لهم في احتلال الأرض المباركة لبناء هيكل سليمان عليه السلام على أنقاض المسجد الأقصى، وتهيئة العالم لخروج ملك السلام، ثم ملك العالم وقتل غير اليهود.

فاليهود إذا يكرون بالنصارى، والنصارى يكرون باليهود. وهذا التعاون بينهم كان لأجل ما يعتقدونه مصالح دينية مشتركة.

أسأل الله تعالى أن يحفظ المسلمين من شرهم ومكنهم إنه سميع مجيب، أعود بالله من الشيطان الرجيم (إنهم يكيدون كيدًا (16) وأكيدً

(7) ولذلك أرسل الفاتيكان عام 1922م مذكرة رسمية إلى عصبة الأمم يتبث فيها فكرة إقامة وطن لليهود في فلسطين، انظر: الصهيونية المسيحية لمحمد السماك (25).

(8) هذا المجمع المسكوني عقد عام 1963م.
الخطبة الثانية

الحمد لله حمدًا طيبًا كثيرًا مباركاً فيه كما يحب ربي ويرضي، أحمده وأشكروه، وأتوب إليه واستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله - عباد الله - فإن التقوى سبب لنصر الله تعالى، وحافظوا على شربهم من كيد الأعداء ومكرهم وإن تصرحوا وتناقروا لا يضركم كثيرًا كما تلقيه شيخنا إن الله بما يعملون محيطٌ [آل عمران: 120].

أيها المؤمنون: تنفق الأمام الثلاث: المسلمين والنصارى واليهود على قدسية الأرض المباركة، ولكن تختلف دوافع تلك القدسية وأسبابها، كما يتفقون على أن مسرح أحداث آخر الزمان سيكون بيت المقدس وما حوله، ولكنهم يختلفون في تفاصيل تلك الأحداث، ونتائجها النهائية، وتتطارذ الأمام الثلاث مسيحًا يخرج في آخر الزمان، كما قال ابن القيم رحمه الله تعالى: "والآيام الثلاث تنتظر منتظراً يخرج في آخر الزمان؛ فإنهم وعدوا به في كل ملة" ([9]).

ولكنهم اختلفوا فمن يكون هذا المخلص ومن يقوده؟ فاليهود ينظرون

(9) إغاثة اللفحان (238/2).
تحول العداء اليهودي النصراني إلى وفاق خروج ملك السلام الذي يؤمنون به، ويصنعون الأحداث لتهيئة خروجه
بجعل القدس عاصمة موحدة للدولة اليهودية، وقد ربطت هذه العقيدة
بالصلاة اليهودية، فاليهودي في كل صلاة يقول بخشوع وإبهال: «أؤمن
إيماناً مطلقاً بقدوم المسيح، وسأبقى حتى لو تأخر أنظره كل يوم» (10)،
وهذا المتظر الذي ينتظره اليهود ويسعونه: «ملك السلام» هو في واقع
الأمر: المسيح الدجال كما ذكر ذلك ابن القيم (11)، وثبت في صحيح
مسلم أن سبعين ألفاً من يهود أصبهان يتبوعونه (12).
ويفتقد المسلمون والنصارى على نزول عيسى ابن مريم عليه السلام;
ولكن النصارى يظلون أنه سيكون معهم على غيرهم، وهو في حقيقة
الأمر سيكون مع المسلمين على من سواهم، فيقتل الدجال، ويقتل
الخنزير، ويكسر الصليب، وينجم بشريعة أخيه محمد صلى الله عليه
وسلم كما دل على ذلك القرآن الكريم، وتواترت به السنة النبوية (13).
إن هذه العقائد يعتقدها اليهود والنصارى، وحوّلها من خيالات

(10) الخلفية التوراتية (42).
(11) إغاثة اللهفان (2/383).
(12) كما في حديث أس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه
 وسلم قال: «ليت الدجال من يهود أصبهان سبعين ألفاً عليهم الطيالسة» أخرجه
مسلم في الفتح باب في بقية من أحاديث الدجال (294).
(13) جمع أحاديث نزول المسيح ابن مريم الشيخ المحدث محمد أبو النور شهار الكشميري
في مجلد سماء: التصريح بما توارث في نزول المسيح، وقطع هذا التواتر غير
واحد من أهل العلم وهو من مواظب الإجماع.
وأحلام إلى واقع مشاهد. إنها ليست عقائد فئة قليلة منهم ليس لها
حول ولا قوة كما يسوق ذلك العلمانيون العرب؛ لينقلا حقية الصراع
من واقعه الدنيوي إلى صراع تراب وأرض ووطن. إنها اعتقادات دينية
عند اليهود والنصارى يعتقدها علية القوم من الزعماء والساسة والقادة
وصناع القرار، ولو أن هذه الاعتقادات الدينية لما هاجر يهود الغرب،
وركزا جنّة أوروبا وتطورها إلى الشرق المتوفر حسب زرائهم، ولما
خسر النصارى الأموال الطائلة لتطبيق اليهود، وملء ترساناتهم بأنواع
الأسلحة التقليدية والنووية لحفاظهم من عدو يحيط بهم من كل جانب.
ولكن بالإمكان توطن اليهود في أي مكان من فردوس الغرب الواسع،
فذلك أكثر أمناً وحفظاً لهم، وأقل تكلفة وأيسر على النصارى؛ ولكن
تهون الصعاب في سبيل العقائد ولو كانت عقائد محرفة، فمتى يعي
من يديرون دقة الصراع معهم أنه صراع ديني؟!
إن أكثرهم يعرف ذلك؛ ولكنهم خونة خانوا دينهم وأمتهم وأوطانهم,
وخدروا جماهير الأمة بعود السلام الكاذبة، وأحلام التعايش والمحبة
الزائفة، وفي كل مرة يمدون آيديهم بالسلام يضربهم العدو ويهينهم
ويذلهم ويستعبدهم، وهم لا زالوا يظهرون حسن النوايا بالسلام؛ حتى
غدا السلام استسلاماً، وربما سيكون استعباداً لأهل الأرض المباركة؛
حتى يكون المسلم عبداً لله اليهودي الذي ضربه الله بالذلة والصغار إلا
بحبل من الله، وحبل من الناس!!
آلا فاتقوا الله ربككم، وأعينوا إخوانكم في الأرض المحتلة وفي
تحول العداء اليهودي النصراني إلى وفاق

الشيشان وفي كشمير وفي كل مكان يقتل فيه المسلمون، أعينهم بصالح دعائكم فإن الدعاء ينفع مما نزل وما لم ينزل، وأعينهم بفضول أموالكم فهذه حق لهم علينا فإن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويعفوك لكم واللله شكور جميل [التغابن: 17]، وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خير وأعظم أجر وأستغفروا الله إذ الله غفور رحيم [المزمل: 20].

اللهم صل على محمد والل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد ، ،
الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعود بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهدده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله. 

يا أيها الذين آمنوا آتقو الله حق تقاته ولا تموتون إلا وأنتم تسلمون [آل عمران: 2], فيا أيها الناس آتقو ربك الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وثبت منهما جنالاً كثيراً ونساء وأنتموا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا [ النساء: 1], فيا أيها الذين آمنوا آتقو الله وقولوا قولاً سديداً يصلي لكم آمالكم ويعفر لكم ذنوبكم. 

ومن يطبع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً [الاحزاب: 70].

أما بعد: فإن أحسن الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدى هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعية، وكل بدعية ضلالية، وكل ضلالية في النار.

أيها الناس: في تعاقب الليل والنهاة، وتقليب الأحوال والدول عبرة للمعترين، وتنبيه للغافلين. كما أن في استداد المصائب والمحن، وتعدد البلايا والفتين اختباراً للعباء، وتمحيصاً للقلوب، وتميزاً للثانيين على الحق من الناكين على أعقابهم.

وإذا كان التاريخ قد دون بالآمس في صفحاته سقوط بغداد,
سقوط بغداد

واستباحتها من قبل عباد الصليب (1)، بعد أيام شهدت أنت على أهل العراق من الحصار والتجوع، إلى التهديد والترويع، ثم تتوهج ذلك بالقصف المدمر، والقتل الجماعي، والحرق بالقنابل والقذائف، إلى أن سقطت في ظروف غامضة لا يعلم أسرارها وخفاها - بعد الله تعالى - إلا المتألمون بها على أمة الإسلام المنكورة (2). وستدي الأيام

(1) ابتدات هذه الحرب الظالمة على العراق في ليلة الخميس 17/1424 هـ، ودخلت القوات الأمريكية بغداد في يوم الأربعاء 2/1424 هـ، قبل أن تكون هناك مناطق حظر جوي، وأراض عدة في جنوب العراق قد انتزعت من العراق إضافة إلى الحصار والتجوع الذي فرض عليها منذ حرب الخليج الثانية عام 1411 هـ، مدة ثلاث عشرة سنة، مات من جرائها أكثر من مليون طفل عراقي من سوء التغذية والأمراض، وتم إقفار شعب العراق طوال هذه المدة، كان الله تعالى في عون المسلمين هناك، وأعظم لهم الأجر في مصيبتهم.

(2) سقطت بغداد فجأة ومن دون مقدمات، واختفت القيادة البشعة في العراق، وذاب الجنود في الناس، واختلفت الآراء حول هذا السقوط المفاجئ والمحير؛ لأن الناس كانوا يتوقعون مقاومة طويلة وشرسة تمتد إلى أشهر قبل أن يستولي الأمن والبريطانيون على بغداد، كيف! بلدات صغيرة في العراق كأم قصر والغاف وغيرها صمدت أسابيع، وكبدت القوات الغازية خسائر كبيرة، وأهم الاحتمالات التي تداولها الناس والمحللون إما هذا السقوط المفاجئ ثلاثة:

الأول: أن القيادة العراقية عقدت صفقة مع القوات الغازية يخرج بموجبها صدام حسين وأرامله من العراق خفية، مقابل استيلاء القوات الغازية على بغداد ووقف كل أشكال المقاومة النظامية، وأصبحت هذا الاتجاه يدخلن روسيا في اللعبة، ويرون أنها متفقة مع أميركا في ترتيب ذلك مقابل حفظ مصالح روسيا في العراق بعد احتلاله، وقبل ثلاثة أيام نشرت الصحف أن وزير الدفاع الأميركي رامسفيلد صرح بأنه سيتصل بهاتف صدام الشخصي يدعو فيه للاستسلام.
وقبل سقوط العراق ب授予 قليلة قامت رابس مستشار روسيا بزيارة
إلى موسكو، قبل إنشاد هذه الزيارة ترتيب الصفقة بين روسيا وأمريكا
وحزب البعث، وهدف الأمريكيان من هذه الصفقة هو الاستيلاء على بغداد
بأقل قدر ممكن من الخسائر ولا تسأس أنها خسرن الكثير من الجند في اقتحام
البصرة والفاو وأم قصر، ومطار بغداد، وكان السفير الروسي قد خرج من
بغداد باتجاه سوريا، ثم قسف قافته، وجرح السفير ظناً أن معه القيادة
العراقية، ثم رفع السفير مرة أخرى وهو محجور إلى بغداد، وهذا الرجوع
محل ريب وكشك، وقبل يوم أو يومين من سقوط بغداد تعمدت القوات
الأمريكية قصف مقر الصحفيين والإعلاميين وحجزهم عما يجري في بغداد؟
ما يدل على أن ثمة أمرًا يدبر.
وبعض أصحاب هذا الاتجاه يجعل كل العملية من أولها إلى آخرها مسرحية
متفقاً عليها بين صدام و أمريكا، وأنه عميل قديم لهم، ويدعمون ذلك بعدم
احتياطات بغداد بضرب الجسور التي على المناطق المحيطة ببغداد، وإشعال
الحرائق في أيار النقطة؛ لكي تتفق تقدم القوات الغازية، ولن يسبقى منها
الأمريكان بعد انسحاب بغداد، وكل ذلك لم يحصل، والبعض الآخر يجعل هذا
الانفصال تم بعد معارك مطار بغداد التي التي سبقت السقوط بامضى تقريباً حيث
سقط ضحايا كثير من الطرفين.
الثاني: أن صدام وزبانيته من أعضاء حزب البعث قد قتلوا في غارة مخططة
لها، وتم الاتفاق مع القيادة الأخرى على الاستسلام مع ضمان خروجهم
سالمين من العراق.
الثالث: أنها عملية تكتينية من العسكريين العراقيين؛ ليجعلوا الغزاة يندفعون
إلى بغداد، ثم تم محاضرتهم والإلقاء فيهم، وهذا بعيد جداً، وكل يوم لا
يحصل فيه شيء يكشف عدم صحة هذا الاحتمال، والله تعالى أعلم بواقع
الحال.
سقوط بغداد

- إن كان لنا عيش - ما أخفي عنا من تفاصيل هذا الحدث الجليل.

إذا كان التاريخ قد دوَّن في صفحات شهر صفر هذه النازلة العظيمة التي نزلت بالمسلمين بسبب تصرفات أقوام لا خلاق لهم، قد استبدلوا الإسلام بعقيدة البعث الكافر، وظلوا يهتفون بها في وقت هم في أمس الحاجة إلى أن يهتفوا بجلال الله تعالى وعظمه، قد ورطوا الأمة المسلمة في أزمات، نسأل الله تعالى اللطف فيها.

إذا كان ذلك قد حصل فإن شهر صفر أيضاً قد دُوَّن فيه سقوط مريع لبغداد قبل ثمانية قرون إلا ثنتين وثلاثين سنة على أيدي النصارى وبين سقوطها الحاضر وسقوطها الماضي حلَّت بأهل بغداد عشرات من الفتنة والمحن، والقتال والتشريد، كما كان بين السقوطين قواسم مشتركة تدل على أن سنن الله تعالى لا تتغير ولا تندبِل. فهل يُنظرون إلا أنت الأولين فلن تجد لسنت الله تبديل ولن تجد لسنت الله تحولاً أو لم يسيروا في الأرض فباليك كيف كان عاقبة الذين من فُلْهِم وكانوا أشد منهم قوة وما كان الله يعجّره من شيء في السموات ولا في الأرض إن كان عليه قديرًا؟ [فاطر: 42-44].

لقد كانت بغداد في أول الإسلام قرية صغيرة، يقام فيها سوق كبير في كل شهر، فيأتيها تجار فارس وما حولها من البلدان، ولما

(32) كان سقوط بغداد في أيدي النصارى في شهر صفر عام 156 هـ، وختلف المؤرخون في عدد القتلى فمنهم من قال: مليون نفَّس، ومنهم من قال: مليونان، ومنهم من قال: ثمانمائة ألف نفَّس...
وصل الفتح الإسلامي إلى بلاد فارس في عهد الخليفيتين أبي بكر وعمر
رضي الله عنهما أغار المنى بن حارثة بجيشه على هذا السوق فغنموا
ما غنموا، وذلك في السنة الثالثة عشرة للهجرة(1). وبيت على ما هي
عليه ليس لها خبر يذكر لا في تاريخ الخلافة الراشدة، ولا في الدولة
الأموية. فلما أن كانت الدولة العباسية مقرها الخليفة المنصور العباسي
رحمه الله تعالى، واننقل إليها، وجعلها عاصمة الدولة الإسلامية آنذاك.
ابتدأ في بنائها بعد بحثٍ ومشورة عام خمسة وأربعين ونائمة للهجرة،
فخطّ البناء، وقَدَّر المدينة، ووضع أول لبنة بيده وهو يقول: «بسم الله،
والحمد لله، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين،
ثم قال: ابنوا على بركة الله»(2)، وحضر بداية بنائها جمع من أهل الخير
والفضل والعلم يتقدمهم الإمام أبو حنيفة النعمان، وبعد أربع سنوات
تم بناؤها، وسكنها الخليفة المسلمون عام تسعة وأربعين ونائمة للهجرة،
وسنعت مدينة السّلام؛ لأن دجلة كان يقال له وادي السّلام(3).

أصبحت بغداد بعد بنائها، وجعلها عاصمة للدولة الإسلامية موّلاً
للعلم والعلماء، ومقرّاً للقادة والساسة والتجار والصناع، ومنها كانت

(1) انظر: تاريخ الطبري (2/ 369 و 376)، وتاريخ خليفة (118/911)، وتاريخ
بغداد (126/ 457)، ومعجم البلدان (11/ 407).
(2) تاريخ الطبري (4/ 457)، والمنتظم (8/ 77)، والكامل (167/ 501)، والنجوم
الزهراء (1/ 324).
(3) تاريخ بغداد (121/ 458)، والبداية والنهاية (101/ 1010)، ومعجم البلدان (11/
406).
تُعقد الألوية، وتُسير الجيوش لنصرة المستضعفين، ونشر الدين، والحكم
بالشريعة فيما بين الناس، وإليها يفد طلاب العلم من شتي الأقطار;
لطلب العلم على أيدي الأئمة الكبار؛ حتى أزهرت حضارتها، واتسع
عمرانها، وصارت مهوى أفنة الناس. من زارها لم يخرج منها، ومن
سمع عنها أشتاق إليها; حتى قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى ليونس
ابن عبد الأعلى: "أيا يونس، دخلت بغداد؟ قال: لا، فقال الشافعي:
أيا يونس، ما رأيت الدنيا ولا الناس"(7)، وقال أبو إسحاق الزجاج:
بغداد حاضرة الدنيا، وما عداها بادية"(8). وقال ابن مجاهد المقري:
"رأيت أبا عمرو بن العلاء في النوم فقلت له: ما فعل الله بك? فقال:
دعني لما فعل الله بي، من أقام بغدادعلى السنة والجماعة ومات نقل
من جنة إلى جنة"(9).

كانت تلك منزلتها عند أهلها وعند الوافدين عليها من شتي الأقطار;
حتى سوّة العلماء الكتب الكبيرة في تاريخها، وتنوع الشعراء القصائد
الكثيرة في مدحها، وتحسين الإقامة فيها؛ ولكن حقاً على الله تعالى
أن لا يرفع شيء من الدنيا إلا ووضعه كما صبح ذلك عن النبي صلى
الله عليه وسلم (10)؛ إذ مع تطاول السنين، وتعاقب الخلفاء؛ بدأت

(7) تاريخ بغداد (1/45)، ومعجم البلدان (1/63)، ووفيات الأعيان (7/252)،
والمنتظم (8/184).
(8) ومعجم البلدان (1/461).
(9) تاريخ بغداد (1/46)، ومعجم البلدان (1/63).
(10) كما في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه الذي أخرجه البخاري في الجهاد.
تضعف الخلافة العباسية شيئاً فشيئاً، حتى بلغ الضعف فيها مبلغه، وتحولت اهتمامات الخلفاء والأعيان من رفع رأية الإسلام إلى الإقبال على الدنيا وزينتها وزخرفها، وأهموا الجهاد في سبيل الله تعالى، واشتغل الناس باللهو واللعب، والتنافس في الغنى والعمران. وقد وصف هذا الحال البائس الذي ينذر بالخطر الداهم المؤرخ ابن الأثير رحمة الله تعالى فقال: "فأنا تعالي ينصر الإسلام والمسلمين نصراً من عنده، فما نرى في ملوك الإسلام من له رغبة في الجهاد، ولا في نصرة الدين، بل كل منهم مقبل على لهو ولهبه وظلم رعيته، وهذا أخوئ عندى من العدو، وقال الله تعالى: {وأنتمُ في ظل أهل واَلْدِرَّةِ} (الأنفال: 25) اهـ كلامه(11).

وبعد ثمانية وعشرين سنة فقط من كلام ابن الأثير هذا كان هولاكو وجدنه يستعين فساداً في بغداد!!

إذا كانت معونة المنافقين من الراشدة والعلمانيين قد سهمت مهمة عباد الصليب في اقتحام بغداد؛ فإن التاريخ قد أعاد نفسه، إذ كان سقوط بغداد في أيدي النصارى بتدبير من منافقي ذلك العصر، وعلى رأسهم وزير الخليفة العباسي: ابن العلّامة الراشدي الذي حفظ للخليفة تقليبه وتوزيره، فعقد عليه وعلى المسلمين، وخطط لإقامة

(11) الكامل (10/491).

باب ناقة النبي صلى الله عليه وسلم (287)، وأبو داوود في الأدب باب كراهية الرفعة في الأمور (480)، والنسائي في الخليل باب السباق (6/227).
دولة لأهل طافته وبدعته على رفاه الدولة العباسيَّة، فقلَّص أعداد الجيش من مئة ألف إلى عشرة آلاف فقط (11)، ثم كتب هولاكو وطمعه في الغزو، وزَيَّن له أخذ بغداد. فلما حاصرها هولاكو بجندته أكمل الوزير ابن العلقمي مهمته الدبلوماسية المعادية للإسلام والمسلمين بان قام بالسفارة بين الخليفة المستعصم وهولاكو، وكان هولاكو راضياً بالصلح، ومتهجباً من اقتراح عاصمة الإسلام آنذاك، لولا أن ابن العلقمي هوَن عليه أمر اقتحامها؛ بل وأشار عليه بقتل الخليفة، ثم زَيَّن للخليفة أن يخرج إلى هولاكو لإتمام الصلح، وأخبره بأن هولاكو سيزوج ابنته من ابن الخليفة تتويجاً للصلح (12).

فخرج إليهم الخليفة في سبعمائة راكب من القضاة والفقهاء ورؤوس الأمراء والدولة، فلم ما اقتربوا من معسكر هولاكو حُجِّحوا عن الخليفة إلا سبعة عشر نسًأ، وأُنزل الباقون عن مراكبهم وقتلوا عن آخرهم (13) وأُحضِر الخليفة المستعصم بين يدي هولاكو، واضطرب منه هولما رأى من الإهانة والاجهزة، فوضعوه في كبس ثم أخذوا يرفسونه.

(12) وصار العساكر من جراء ذلك يسألون الناس في الأسواق والمساجد، انظر: البداية والنهائية (7/169)، والسلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي (1/413)، وتاريخ الخلفاء السيوطي (78).
(13) انظر: البداية والنهائية (7/169)، وتاريخ ابن خلدون (5/542)، والسلوك (4/12/1)، وفوات الوثوبات (1/152) وتاريخ الخلفاء (187)، وجمع المؤرخون على خيالة ابن العلقمي للكهفية العباسي المستعصم.
(14) البداية والنهائية (77/168)، وسير أعلام النبلاء (33/182).
النفي في خطب الجمعة والعيد

حتى مات\(^{(15)}\)، وقتلوا معه ابنه الأكبر والأوسط، وأسروا ابنه الأصغر وأخواته الثلاث، وألفاً من بنات بني العباس، وقتلوا أكابر الدولة؛ حتى إن الرجل كان يُستدعى من دار الخلافة، فيخرج بأولاده ونسائه، فيذهبون به إلى المقبرة، فيُذبح أمام أسرته كما تذبح الشاة، ويّاسرون من يختارون من بناته وجواريه\(^{(16)}\).

وأعملوا السيوف في الرقاب مدة أربعين يوماً، فقتلوا العلماء والخطباء والأئمة وحملة القرآن، وعامة الناس، وتعتلت المساجد والجمعات مدة شهر ببغداد. ولما انقضت الأربعون يوماً بقيت بغداد خاوية على عروشها والقتلى في الطرق كأنها النحل، وفسد الهواء من كثرة الجثث، فعمَّ الوباء، وأتي على البقية الباقية المختبئة من سيوف النتار حتى إن خطيباً بعد اكتشاف الغمة استهل خطبه بقوله: 

الحمد لله الذي هنّم بالموت مَشٌيد الأعمار، وحكم بالفناء على أهل هذه الديار» يعني بغداد وما حولها\(^{(17)}\).

وها هو التاريخ يعيد نفسه، فالشاشات المرئية تنقل آكواج الجثث المفخمة في العربات والبنايات، كما تنقل صور القتلى في الأزقة والطرقات. وكعادة أعداء الدين والمللة إذا تمكنوا فإنهم يطأون جميع من تمكنوا

\(^{(15)}\) البداية والنهائية (169/7)، والسير (23/3).

\(^{(16)}\) انظر: البداية والنهائية (169/7)، والسير (23/3).

\(^{(17)}\) شنوات الذهب (5/271).
سقوط بغداد

منهم حتى من أعدائهم على ظلمهم بخيانة المسلمين ومصادنة أعدائهم، وهكذا فعل البتار بابن العلقمي الخائن، وآذاوه خزي الدنيا قبل عذاب الآخرة. ولم يكافوه على معونته لهم، وخيانته لأهل الإسلام إلا بالإهانة والاحتراس؛ حتى إن المغولي كان يأتي إليه وهو جالس في مجلسه، فدخل بخيله في مجلسه، فتبول الخيل على فرشه وسطاه، ويسبيه شيء من رذاذ بولها وهو لا يقوى على الاعتراض من شدة الذل والهوان(18).

وقد رآته امرأة من أهل بغداد في ذل هذا فقالت له: يا ابن العلقمي، هكذا كان بنو العباسي يعاملونك؟!» فوقع كلماتها في قلبه، وانقطع في داره إلى أن مات كمداً وضيقاً، وذلك بعد ثلاثة أشهر فقط من خيانته الشنيعة، وما مات حتى رأى بعينيه، وسمع بأذنيه ما لا يوصف من الذل والإهانة من المغول ومن المسلمين على حد سواء(19).

وهكذا يفعل أعداء الله تعالى بمن خانوا دينهم وأعدائهم، يذلونهم ويهينونهم، ولا يقيمون لهم وزناً، ولو أظهروا خلاف ذلك أمام الناس. ولا يسلم الخائن لأمته من ذل يراه في الدنيا ولو طال به المقام، ويسلط الله تعالى عليه بسبب خيانته وظلمه من يهينه ويظلمه؛ كما قال سبحانه: «وكذلك نولى بعض الطالبين بضعة بما كانوا يكسبون» [الأنعام: 129].

أسأل الله تعالى أن يحفظنا والمسلمين من تحول عافيته، ومن

(18) فوات الوفيات (2/152).
(19) البداية والنهاية (7/178 - 179).
فجأة نقمته، ومن جميع سخطه، كما أسأله تعالى أن يحفظ بلاد المسلمين من كيد أعدائهم فإنه سميع مجيب، وأقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

الخطبة الثانية

الحمد لله حمدًا طيبًا كثيرًا مباركاً فيه كما يحب ربي ويرضى، أحمد وشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله - عباد الله - وأطيعوه، واحذروا نقمته فلا تعصوه، فإن أخذه أليم شديد، وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القارئ وهي ظالمةً إذ أخذته أليمًا شديدًا [هود: 102].

أيها الناس: لتن كن عباد الصليب قد وطئت أقدامهم مدينة السلام، وعاصمة الإسلام في يوم من الأيام، وأحولوا فيها الدمار والفوضى، ويريدون نهب خيراتها وأرزاقها؛ فإن لهم يوماً من أيام الله تعالى سيخرجون منها كما أخرج غيرهم، وستكسبر جيوشهم التي ترى أنها أحزرت نصراً عظيماً بعد سقوط بغداد في أيديهم، نسأل الله تعالى أن يعجِّل ذلك بمنه وكرمهم، والتتار ما مكروه عقاب اجتياحهم لبغداد إلا ستثنين فقط، حتى كسرهم المسلمون في عين جالوت، فلم تقدم لهم قيامة بعدها (2).

(2) وذلك في معركة عين جالوت التي قادها القائد المظفر قطرز، وكانت يوم الجمعة خمس بعين من رمضان عام ثمان وخمسين وستمائة للهجرة.
وأعظم انصاره حققه المسلم في مثل هذه المحن والأزمات: ثباته على الحق، واستماساه بدينه، ولو رأى أن الأمور تجري على خلاف ما يريد ويدين. أما الذين لا يعرفون دين الله تعالى إلا في الرخاء، ويتخلون عن ولائهم لأمته في الشدائد؛ حفاظاً على مكاسب دينية، أو خوفاً من عدو غاشم، أو اعتقاداً بأن الأمة لا تتصرف، أو أن إمكانات العدو الهائلة لا تُهِر؛ فهؤلاء عليهم أن يراجعوا إيمانهم وقيمتهم بِالله تعالى ويبدروا وعظمتهم وجوبره، وليعلموا أن هذه المحن والأزمات هي معامل التصفية التي تميز الخبيث من الطيب، وتبين من كان اندماهم لأماته. إما كان لأجل أنه يرجو نصرها، فإذا انكسرت في موقعة من المواقع انكسر إيمانه معها، وذهب يقينه، وضعف اندماهم وولاءه لأخوته المسلمين. وتلك هي نفوس الضعفاء الذين يسقطهم التاريخ من حسابه، وإذا كان أفضل البشر من النبيين والرسل ينتمون فقد عُلِّنوا وأوذوا، وطُرِد أتباعهم وقتلوا، وزلزلوا زلزالاً شديداً، ولم ينتجا مواجهتهم أو يأسوا من نصر الله تعالى حتى جاءهم فرج الله تعالى بعد حين، فإن أتباع الرسول كذلك ينتجا، والواجب عليهم عدم اليأس والقنوط، واليقين بِوعد الله تعالى ونصره لهذه الأمة المباركة ولو طال الزمن، وانتشب الباطل وأهله، وسواه أدركنا ذلك أم لم ندركه.
إن من الناس من يتخذ دين الله تعالى وسيلة، ويجل الغاية النصر والتمكين، فإذا لم تتحقق غايته تخلى عن الوسيلة، وبدل دينه، وغيّر مواقفه، ولربما ولى أعداء الله تعالى؛ لأنه يراهم أقوى، وعادى إخوانه.
لأنهم الأضعف، فهذا انهزام معنوي مقتئ. والواجب أن تكون غاية المسلم لإقامة دين الله تعالى، والثبات عليه في السراء والضياء، وفي العسر واللطف، فهذا هو الصدق مع الله تعالى الذي ينال به العبد رضاه وجنته، ويكون حريباً بالنصر والتمكين.

وما أخرج الأمة في هذه الظروف العصيبة إلى التوبة من الذنوب، وصدق التعلق بجنبة الله تعالى، والعناية بصلاح القلوب، واستقامة الأحوال والأعمال، ومعرفة حقيقة أعداء الله تعالى من كفار ومنافقين، وإعداد العدة اللازمة لجهادهم، وردّ عدوائهم وأذائهم عن المسلمين؛ فما دخل الكافرون بلدة إلا أفسدوها، وأحولوا القوضي فيها، وجعلوها سلبًا ونبيًا على عكس ما يعلنون، وما توجد منافقون في أمة إلا خانوها في أصعب الساعات، وأخرج الظروف، والتاريخ والواقع يشهدان بذلك.

أرسل الله تعالى أن يجر مصاب المسلمين، وأن يحفظهم من كيد أعدائهم من الكافرين والمنافقين، وأن يمن علينا وعلى المسلمين بالثبات على الحق إلى الممات غير مبدين ولا مغبرين، إنه نعم الموالي ونعم النصير.

ألا وصلوا وسلموا على خير خلق الله كما أمركم بذلك ربكهم،
الكشاف

المواعظ والرقائق

5 100 - الرضى عن الله تعالى (1)
18 106 - السبيل إلى الأمن والرزق (1)
28 107 - السبيل إلى الأمن والرزق (2)
39 108 - من فوائد الأمراض (1)
48 109 - من فوائد الأمراض (2)
58 110 - من فوائد الأمراض (3)
67 111 - في مطلع العام محاسبة ومقارنة
77 112 - القلب السليم
87 113 - شدة حر الدنيا من نار جهنم
98 114 - علو فروع
107 115 - الثبات على الحق
118 116 - الاعتبار بالآيات والندير
128 117 - التخويف بالزرازل
139 118 - فضيلة طول العمر مع حسن العمل
153 119 - الاستقامة على دين الله تعالى
164 120 - حسن الخاتمة (1)
176 121 - حسن الخاتمة (2)
185 122 - سوء الخاتمة وختام العام
المغازي والتاريخ

123- قصة المولد والمبعث .......................... 197
126- الإسراء والمعراج .............................. 206
125- الابتلاء والفترة سبب الهجرة .............. 216
129- غزوة بدر (1) .................................. 229
127- غزوة أحد (1) .................................. 246
128- غزوة أحد (2) .................................. 258
129- سرية بئر معونة ................................ 270
130- غزوة بني المصطلق .............................. 298
131- حادثة الإنفطار ................................ 313
132- إجلاء بني النضير ............................... 320
133- غزوة خيبر ...................................... 330
134- رمضان ومواقف من الفتح المبين ............. 348
135- غزوة تبوك (1) .................................. 359
136- غزوة تبوك (2) .................................. 369
137- غزوة تبوك (3) .................................. 377
138- غزوة تبوك (4) .................................. 386
139- أحداث توبة صادقة .............................. 396
140- غزوة موتة ...................................... 407
141- فضائل بيت المقدس ............................ 422
<table>
<thead>
<tr>
<th>رقم الصفحة</th>
<th>المحتوى</th>
</tr>
</thead>
<tbody>
<tr>
<td>435</td>
<td>الفتح الأول لبيت المقدس</td>
</tr>
<tr>
<td>446</td>
<td>فتح الأندلس</td>
</tr>
<tr>
<td>456</td>
<td>بداية الحملات الصليبية</td>
</tr>
<tr>
<td>466</td>
<td>سلب الأقصى واسترداده</td>
</tr>
<tr>
<td>478</td>
<td>مذاهب الصليبيين في القدس</td>
</tr>
<tr>
<td>490</td>
<td>معركة حطين</td>
</tr>
<tr>
<td>501</td>
<td>معركة الزلاقة</td>
</tr>
<tr>
<td>514</td>
<td>اجتياح المغول لبغداد</td>
</tr>
<tr>
<td>524</td>
<td>فتح البتار في رمضان</td>
</tr>
<tr>
<td>533</td>
<td>فتح القسطنطينية</td>
</tr>
<tr>
<td>556</td>
<td>تحول العداء اليهودي النصراني إلى وفاق</td>
</tr>
<tr>
<td>566</td>
<td>سقوط بغداد</td>
</tr>
</tbody>
</table>